

موسى عليه السلام

عناصر الموضوع

المجلد الثاني والثلاثون

التعريف بموسى عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه عليه السلام:

لم يذكر القرآن شيئًا عن نسب نبي الله موسى عليه السلام ولا عن والده أو والدته، لكن ذكر في غير موضع بالقرآن الكريم أن موسى أخٌ لهارون عليه السلام وقد توهم البعض كالقرطبي[1] أنهما أخوان للسيدة العذراء مريم، لقوله عز وجل على لسان بني إسرائيل: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم:٢٨]، ولتشابه اسمي أبي موسى وأبي مريم، فكلاهما اسمه (عمران).

والحقيقة أن التباعد الزمني بين موسى وعيسى عليه السلام أمرٌ ثابت بالقرآن الكريم، يقول الله عز وجل في قصة داود: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة:٢٤٦].

فداود عليه السلام كان بين موسى وعيسى عليه السلام.

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

ليس في القرآن الكريم ما يمكن من خلاله تحديد الفترة الزمنية التي ولد فيها نبي الله موسى عليه السلام بدقة، لكن الثابت في القرآن أن مبعثه كان سابقًا على نبي الله داود عليه السلام، وتحدثت بعض الآيات القرآنية عن جانب من الزمن الذي ولد فيه، حيث عاش بنو إسرائيل فترة طويلة في ظل الاضطهاد الفرعوني بسببٍ من تأييدهم للغزاة الهكسوس الذين حكموا مصر وتآمرهم على المصريين، واستحقارهم لعبادة المصريين، فضلا عن عقيدتهم بأنهم شعب الله المختار[2].

وبلغ بهم التنكيل أن أصدر فرعون قرارًا يقضي بذبح أبناء الإسرائيليين واستحياء نسائهم وتسخيرهم في أعمال الخدمة الشاقة، وفي سورة القصص بعض التفصيل لمعاناتهم في هذه الفترة العصيبة من تاريخ بني إسرائيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠١.
(٢) الدين وحاجة الإنسانية إليه عبر الرسالات الإلهية، محمود مزروعة، ص ١٤٦- ١٤٧.



يقول تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص:٣-٦].

ونطالع في السورة الثانية من الكتاب الكريم تذكير المولى جل جلاله لبني إسرائيل بإنجائهم من هذا الاضطهاد ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة:٤٩].

ومثلها: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف:١٤١].

وقد روى الطبري عن ابن إسحاق قوله: «كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدمًا وخولًا، وصنفهم في أعماله، فصنفٌ يبنون، وصنفٌ يحرثون، وصنفٌ يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله: فعليه الجزية -فسامهم- كما قال الله عز وجل سوء العذاب»[1].

وروي أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته؛ رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة...فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها[2].

ولذلك كان وصف القرآن الكريم لهم ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

ومنَّ الله جلَّ جلالُه على بني إسرائيل بالنجاة في غير موضع بالقرآن، من مثل قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٣٠﴾ [الدخان:٣٠].

ليس هذا فحسب؛ ففي موضع آخر يذكر نبي الله موسى عليه السلام بني إسرائيل بنعمة الله السابغة عليهم بأن كتب لهم النجاة من السخرة التي عاشوا فيها أمدًا بعيدًا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٣٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١١٦ بتصرف.

﴿الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم:٦].

ثالثًا: مكانته:

نص القرآن الكريم في أكثر من آية على مكانة موسى الكليم عليه السلام بين الأنبياء، وأشار إلى عظم هذه المكانة؛ فقال تعالى مجملا هذه المناقب ومبينًا هذه المكانة: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

والوجيه هو صاحب المكانة والمنزلة الرفيعة[١].

ومن أكثر الآيات تأكيدًا على هذه المكانة العظيمة قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥١-٥٣].

ويمكننا إيجاز بعض مناقبه عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم على النحو التالي:

أولًا: أنه كان (مخلصًا) لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم:٥١] أي أن الله تعالى اصطفاه واستخلصه.

ثانيًا: جمعه بين الرسالة والنبوة عند من فرق بينهما لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم:٥١][٢].

ثالثًا: تكليم الله جل جلاله له، لقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

رابعًا: علو مكانته، لقوله عز وجل: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وفيه رأيان: «قرب المكان»، وقيل: «قرب المنزلة»[٣]، وسواء أكان هذا أم ذاك فإنما يدل على علو مكانته عليه السلام.

خامسًا: اصطفاء الله تعالى له، وذلك لقوله ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف:١٤٤].

ولقوله سبحانه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾ [طه:١٣].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٠١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٨٦.

(٢) قال فخر الدين الرازي «ولا شك أنهما وصفان مختلفان»، انظر: مفاتيح الغيب ٢١/٥٤٨.

(٣) يقول ابن عطية: «قال الجمهور هو تقريب التشريف بالكلام والنبوءة، وقال ابن عباس: بل أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة، وقال سعيد: أردفه جبريل، و«النجي»، فعيل من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: نجيًا معناه نجا بصدقة» المحرر الوجيز ٤/ ٢٠.

سادسًا: إلقاء محبة الله عليه: ودليل ذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

سابعًا: كونه من أولي العزم من الرسل: فجل المفسرين أن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ثامنًا: مكانته في الإسلام: (كان النبي صلى الله عليه وسلم حفيًا به، فحين قدم المدينة مهاجرًا، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فسألهم: ما هذا؟! قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم؛ فصامه موسى. قال صلى الله عليه وسلم: (فأنا أحق بموسى منكم)؛ فصامه وأمر بصيامه)[١]، وفي رواية أخرى: (نحن أولى بموسى منكم)[٢].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيله على موسى الكليم لما له من منزلة عند ربه تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (استب رجلان، رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطشٌ جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)[٣].

على أن تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام لخير دليل على مكانته العالية الرفيعة عند ربه وبين خلقه، وهو الأمر الذي نص عليه القرآن في أكثر من موضع، وأكده الله تعالى تأكيدًا في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، رقم ١٨٧٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ١٩١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة، رقم ٢٢٤٥.

ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٥١-٦١، ٦٧-٧١
المائدة	٢٠-٢٥
الأعراف	٣,١-١٥٩، ١٥٥-١٦٠
يونس	٧٥-٨٩
هود	٩٦-٩٧
إبراهيم	٥-٩
الإسراء	١٠١-١٠٤
الكهف	٦٠-٨٢
مريم	٥١-٥٣
طه	٩-٩٨
المؤمنون	٤٥-٤٩
الفرقان	٣٥-٣٦
الشعراء	١٠-٦٨
النمل	٧-١٤
القصص	٣-٤٨
الصافات	١١٤-١٢٢
غافر	٢٣-٢٧
الزخرف	٤٦-٥٦
الذاريات	٣٨-٤٠
النازعات	١٥-٢٥

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته الخَلْقية:

ليس في القرآن ما يدل على شيء من أوصاف موسى عليه السلام الخلقية، سوى آية تشير إلى قوته البدنية التي ميزته.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص:١٥].

وأورد ابن إسحاق ما يفيد قوة موسى عليه السلام وبسطته، يقول: «وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق، وشدة في البطش؛ فغضب بعدوهما فنازعه (فوكزه موسى) وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله»[(١)].

وفي السنة النبوية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (وأما موسى فآدمٌ جسيمٌ سبطٌ كأنه من رجال الزط)[(٢)]، وفي حديث آخر لابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا)[(٣)]، وفي حديثٍ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان: (رجل الرأس)[(٤)].

ثانيًا: صفاته الخلقية:

١ . المروءة.

تتجلى هذه الصفة في عدة مواطن، منها ما حدث مع الرجل الذي من شيعته حين استنصره على المصري.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٠.
وقد اختلف المفسرون في معنى الوكز، فقيل: «الدفع بأطراف الأصابع، وقيل بجمع الكف». مفاتيح الغيب ٢٤/ ٢٠٠، «فوكز أي فطعن ودفع بيده العدو، وهو رجل لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطي من القوى الذاتية والمعنوية». نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٢٥٦، وقيل إن «الوكز واللكز واللهز واللهد بمعنًى واحدٍ، وهو الضرب بجمع الكف» الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود، رقم ٣٢٠٧.
قال ابن حجر: وهم قومٌ غير غلاظ معروفون بالطول والأدمة. فتح الباري ٦/ ٤٢٩، ٦/ ٤٨٤، والأدمة هي السمرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٠١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث ابن عباس، رقم ٢٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، رقم ٣٢٠٦. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة أيضًا، رقم ٢٥٠.

﴿... شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص:١٥].

فمروءة موسى عليه السلام منعته من تجاهل استغاثة رجل من بني قومه، ورغم أنه عليه السلام ندم فيما بعد على تسرعه وانفعاله الذي أدى إلى قتل المصري؛ إلا أنه كان دليلا على مروءته وشهامته.

وفي قصة البنتين اللتين سقى لهما دليل على مروءته؛ فلم يستطع عليه السلام أن يتجاوز أزمتهما، أو يتخلى عن معونتهما، كما تجلت مروءته في عدم انتظار الأجر من أحد ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:٢٤].

وكانت هذه المروءة أحد الأسباب لأن يخطبه الرجل لابنته.

٢. الوفاء بالوعد.

جرى اتفاق بين الشيخ الكبير وموسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

والشاهد أن موسى عليه السلام قد أوفى بعهده مع الشيخ.

٣. قوة الحجة والمنطق.

يقدم لنا القرآن في أكثر من موضع حوارات موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها دليل على قوة حجته ومنطقه، ولنا أن نتمثل في ذلك حواره مع فرعون الذي سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٥١]؛ فجاءت إجابته شافية كافية: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه:٥٢-٥٤].

فقد استخدم عليه السلام مفردات البيئة التي يعيش فيها (الأرض، السماء، المطر، النبات، الأنعام) ليقرب الصورة للمخاطبين (فرعون وملأه) وهذا أوقع في تعجيزهم وإقامة الحجة عليهم، وبلغ به التحدي مداه عندما قال له فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

فجاء رده منطقيًا: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ ...

﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء:٣٠-٣١].

فألزم فرعون الحجة وتحداه في يوم يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأعينهم.

٤. اللجوء إلى الله واليقين به.

من يطالع قصة موسى عليه السلام يعرف مدى تعلق قلبه بخالقه تعالى، فإليه يكل أمره يستنصره على أعدائه، ويطلب منه النجدة والمعونة، وتكشف هذه الآيات عن جانب كبير من هذا التضرع.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٤-٨٩].

فقد طالب قومه بالتوكل على الله، ثم دعا ربه تعالى أن يعذب فرعون وقومه بسبب تكبرهم وتكذيبهم.

وتنقل لنا الآيات صورة حية من تضرعه إلى الله تعالى واستعانته به في قوله جل جلاله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦].

وقد تجلى تعلق موسى عليه السلام بربه حتى في أشد المواقف وأكثرها ضيقًا وكربًا، فعندما هرب وأتباعه من فرعون؛ أدركهم وجنوده عند البحر؛ فدب الخوف في قلوب أصحاب موسى وظنوا أنهم أحيط بهم، لكنه عليه السلام صاح وكله ثقة في ربه وخالقه: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦٢].

٥. حب الله والاستئناس به.

توضح لنا الآيات الكريمة كيف كان موسى عليه السلام كثير الأنس بربه جل جلاله، وينقل لنا القرآن كيف أسهب في الحديث مع مولاه عندما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧].

وهو سؤال كما قيل: «ليؤنسه ويبسطه بالكلام»[١]، ويستوجب إجابة بكلمة واحدة (عصا) أو كلمتين نحو (هذه عصا)؛ لكن موسى عليه السلام وجدها فرصة فأفاض

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٧.

في القول ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨].

لقد استرسل موسى عليه السلام كما يقول البقاعي: «مستأنسًا بلذيذ المخاطبة قوله بيانًا لمنافعها خوفًا من الأمر بإلقائها كالنعل، أي: أعتمد وأرتفق وأتمكن إذا أعييت، أو عرض لي ما يحوجني إلى ذلك من زلق أو هبوط أو صعود أو طفرة أو ظلام ونحو ذلك؛ ثم ثنى بعد مصلحة نفسه بأمر رعيته فقال: ﴿وَأَهُشُّ﴾ أي أخبط الورق»[(١)].

وبلغ هذا الاستئناس ذروته عندما طلب موسى عليه السلام من ربه عز وجل أن يراه، وهو طلب عجيب ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

٦. التواضع والحرص على التعلم.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن: (موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعَتِبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبدٌ بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب ومن لي به؟ وربما قال سفيان: أي رب وكيف لي به قال تأخذ حوتًا فتجعله في مكتلٍ حيثما فقدت الحوت فهو ثم...)[(٢)].

فاصطحب غلامه يوشع بن نون ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٦٥-٧٠].

تقدم لنا الآيات السابقة جانبًا من تواضع موسى بن عمران عليه السلام بداية من التماسه العلم من العبد الصالح ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وهي عبارة تشير إلى خفض الجناح من جانبه، ووضع نفسه في موضع المريد من شيخه، وكذا نزوله على شروط المعلم لصحبته، وفي هذا درس بالغ لكل طلاب العلم على النحو الذي ستظهره هذه الدراسة في مبحث مستقل.

٧. النهي عن المنكر.

رغم الوعد الذي وعده موسى عليه السلام للعبد الصالح بأن يصبر على صحبته ولا يكثر من سؤالاته إلا أنه لم يطق صبرًا بعدما رآه يخرق السفينة: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث العبد الصالح مع موسى عليه السلام، رقم ٣٢٢٠.

إِنَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧١-٧٣].

وقتل الغلام: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٤-٧٦].

وإقامة الجدار: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف:٧٧].

فلم يترك موسى عليه السلام فرصة إلا نهى فيها -عما رآه منكرًا- قبل أن يتبين له الأمر، ومما عابه القرآن على بني إسرائيل في غير موضع عدم نهيهم عن المنكر لأنهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

٨. قوة الإرادة.

وقد أسهم في اكتسابه هذه الإرادة الصلبة كثرة المحن والتجارب التي مر بها منذ كان رضيعًا وضعته أمه في الصندوق، وقبل ذلك من يقينه الذي لا يفتر بربه تعالى، فعندما ناشد قومه قائلا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٢].

لقد راعتهم قوة أعدائهم الجبارين، ونسوا أن النصر ليس بالكثرة ولا بالعتاد؛ وتناسوا وصية موسى عليه السلام لهم ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وقد أورد القرطبي أن بني إسرائيل عندما امتنعوا عن الجهاد، عوقبوا بالتيه أربعين سنة، إلى أن مات أولئك العصاة ونشأ أولادهم، فقاتلوا الجبارين وغلبوهم[(١)].

وعندما ذهب لملاقاة العبد الصالح قال لفتاه يوشع بن نون: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

أي: لا أزال أسير حتى أبلغ المكان الموعود ولو سرت في سبيله أزمانًا طويلة، وذلك منبئ عن دأبه وارتفاع همته.

هذه هي بعض صفات نبي الله موسى عليه السلام التي نص عليها القرآن الكريم في كثير من المواضع، وهي صفات بشرية، وليست من الخوارق التي لا يدركها الإنسان مهما سعى إليها واجتهد، وفي ثنايا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٢٦.

هذه الدراسة إشارات إلى صفات أخرى ستتناولها في حينها، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!!

موسى عليه السلام قبل النبوة

أولًا: نشأة موسى عليه السلام:

في ظروف بالغة القسوة، ولد الطفل موسى عليه السلام في قوم مهانين مستباحي الكرامة، فالرجال سخرهم فرعون الطاغية في أدنى الأعمال وأشقها يسومهم سوء العذاب، والنساء منتهكة الحرمات، وعندما أدرك المخاض أم موسى زادها كربًا إلى كربها، وغمًّا على غمها، فمصير الطفل مهدد كغيره من أطفال بني إسرائيل الذكور الذين لم ينجوا من آلة القتل الغاشمة خوفًا على ملك فرعون وجاهه العريض من الضياع بعد نبوءة أو رؤية، على خلافٍ بين المفسرين وكذلك بين المؤرخين[1]، وهو ما جعل الأم تضرع إلى ربها أن ينقذ وليدها من المصير المألوف آنذاك.

يصور القرآن الكريم كيف أراد تعالى لموسى عليه السلام شيئًا آخر غير مجرد الحياة التي هي أقصى ما تصبو إليه الأم الملتاعة، بل كل أمٍ في هذا الزمان؛ ولا عجب؛ فقد صنعه عز وجل لنفسه وعلى عينه، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، فقوله جل جلاله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٤٨، تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٨٧، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٣١.



منبئٌ بأن تربية الصغير ستكون لدنيةً بعنايته عز وجل بما يليق برسالته والمهمة التي ستلقى على عاتقه.

يقول الزمخشري: «لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به»[1].

والكلام هنا كما قال الطاهر ابن عاشور «تمثيلٌ لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئًا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه»[2].

ولأن ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

فقد كان من الضروري رعايته لأنبيائه وأصفيائه، ولذا فقد من تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه العناية المبكرة التي لولاها لكان في مقام آخر لا يعلمه إلا الله، وذلك ظاهرٌ في قوله عز وجل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى:٦-٨].

وثمة نوع خصوصية في مولد موسى عليه السلام، يشير إليه قوله تعالى ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ [طه:٤١].

وهو تأكيد للآية السابقة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

ويفسر ابن جزي الغرناطي ذلك بقوله: «أي: استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني»[3].

ولو استأنسنا بما كتبه البقاعي لقرأنا «ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق لنفسي لتفعل من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم»[4].

فالعناية هنا تأهيل لموسى عليه السلام لمواجهة ما ينتظره من مهام جسام ومعاناة مع بني إسرائيل الذين لا يكفون عن الجدل.

أوحى الله جل جلاله إلى أم الطفل موسى وحي إلهام لا وحي رسالة[5] ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧]، وما أعجب القدرة الإلهية! أمٌ تخاف على ولدها من القتل فتؤمر بإلقائه في الماء، ويطمئنها الله ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص:٧].

على ولدك؛ فإننا في قابل الأيام ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، الذين اصطفيناهم للدعوة والرسالة.

إن وعد الله عز وجل لهذه المرأة نافذٌ

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٢٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨.
(٤) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣.

وماضٍ؛ لكنه يحتاج إلى قلب مطمئن يسلم بقضاء الله وقدره، وإلا فكيف لامرأة ضعيفة تكتم حملها نحو تسعة أشهر خوفًا من عسس فرعون أن تستجيب لمثل هذا الأمر وتقذف بابنها وفلذة كبدها في النهر وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرًا؟! لكن أم موسى كانت على ثقة متينة بموعود ربها تعالى لها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وكما كانت حياة موسى عليه السلام معجزة -على النحو الذي سيتكشف بعد قليل- جاءت الآية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

معجزة في بيانها، فقد تضمنت أمرين ونهيين وبشارتين ولطائف أخرى يضيق المقام عن تفصيلها، وتوقف أمامها المفسرون، واشتهرت عند البلاغيين، ففرق الزمخشري بين خوفين: «أما الأول فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف»[(١)]، فالآية تتحدث عن خوف من أمر واقعي هو القتل على يد الفراعين، وخوف آخر محتمل هو غرق الرضيع في المياه.

ثمة آيات في سورة طه تتحدث عن نجاة الرضيع وتورد تفاصيل أخرى.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه:٣٧-٣٩].

ففي الآيات أنه تعالى أوحى إلى أم موسى بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليم الذي سيحمله إلى ساحل فرعون، الذي هو عدو لله عز وجل ولبني إسرائيل ومنهم الرضيع، وما كان للطفل أن تكتب له النجاة إلا بتدبير إلهي محكم.

لكن.. كيف يصل الطفل إلى قصر فرعون الفاجر وتكتب له النجاة إلا عن طريق قلب زوجته؟!

إنها المحبة التي ألقاها الله على موسى عليه السلام؛ ولا عجب فقد قال عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه:٣٩].

واختلف المفسرون في تفسير هذه المحبة، فمن قائلٍ بأنها جمال في الخلقة وصف به، وقيل ملاحةٌ في عينيه، لكن ابن عطية ضعف هذا القول[(٢)]، وهناك من يقول إنها محبة القابلة التي ولدت أمه، وقائل:

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤.

محبة امرأة فرعون... إلخ[1].

والراجح أنه القبول العام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[2].

إن امرأة فرعون قد أحبته، وسعدت به، وقالت لفرعون: هذا الصغير ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، تقر به أعيننا وتسعد بها نفوسنا ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

فوافق فرعون ولم يكن يعلم أنه سيكون سبب هلاكه في الدنيا والآخرة ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨].

وقد شاع بين بعض القراء في أيامنا هذه أن يقرأ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا﴾ بالوقوف على (لا)، وهذا من اللحن -كما يرى أبو زكريا الفراء- وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وهي قراءة لا تستقيم عقلا؛ فهل يمكن لزوجة فرعون أن تخاطبه بهذه اللهجة فتقول له: هذا الولد قرة عين لي فحسب، أما أنت فلا؟! وإذا كانت قالت ذلك فلماذا لم تقل: عسى أن (ينفعني) أو (أتخذه) ولدًا بصيغة المفرد؟! وما الذي يضطر فرعون إلى إبقاء ولدٍ من المفترض أنه سيسبب له المتاعب، لا شك أن فرعون استبقى الولد بناء على رغبة زوجته التي أحبته بعد أن ألقى الله عليه محبةً منه، ويظهر أنه وقومه كانوا على يقين أنه إسرائيلي، وإلا فما يضطر أمًّا إلى التخلص من رضيعها الذكر إلا إذا كان مهددًا كأقرانه من بني إسرائيل؟! كما يظهر من قول امرأة فرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فمن ذا الذي جرى عليه القتل آنذاك سوى ذكور بني إسرائيل؟!

والحقيقة أن موسى عليه السلام كان بالفعل قرة عين لها، فقد كتب الله لها النجاة من فرعون وعمله الخبيث، وأشاد بها في كتابه الكريم؛ بل جعلها مضرب المثل للذين آمنوا.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

---

[1] جامع البيان ١٨/ ٣٠٣.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٨٨.

[3] انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٠٣.
وقد ردوا على هذا بأن الوقف لو كان صحيحًا لقال تعالى «تقتلونه» بالنون. فلما جاء بغير نون علم أن الفاعل في الفعل «لا» إذ هي نهيٌ، فهو مجزوم بها، فلا يجوز أن يفصل منه». انظر: كتاب إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري، ص ٨٢٢، المكتفى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني، ص ٤٣٥-٤٣٦.

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم:١١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[١].

ولم يكن حبها غريزيًا كامرأة العزيز التي كان حبها ليوسف عليه السلام فضيحة لها حين راودته عن نفسه فاستعصم، وسار بحديثها نسوة المدينة، وصارت أقصوصة في فم الرائح والغادي.

لكن في الظل أمًا تتحرق شوقًا إلى ضم وليدها وغمره بعطفها وشموله بحنانها، ويصور القرآن حالة الاضطراب النفسي الذي عاشته على هذا النحو: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص:١٠].

قال البيضاوي: «فارغًا صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون»[٢].

وبقدرة الله جل جلاله أبى الصغير الرضاع من غير أمه ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص:١٢]؛ وأخذوا يفتشون عن مرضعة، وهنا تتدخل العناية الإلهية مرة أخرى فتقابلهم أخته التي خرجت لوعى تتلمس الأخبار حول مصير أخيها الرضيع ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

فرده الله إلى أمه الملتاعة ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [طه:٤٠].

﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:١٣].

وتزداد يقينا في وعد الله تعالى، يقول البقاعي: «فكان كل ما أردته، فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع، فلما لم تقبل واحدةً منهن بالغ في الطلب، كل ذلك إمضاءً لأمري، وإيقاقًا لأمره به نفسه لا بغيره؛ ليزداد العجب من إحكام السبب»[٣].

وهنا تتيقن أم موسى أن ولدها سيكون له شأن في قابل الأيام.

ظل الصغير غذي نعمة وترف في قصر فرعون، بعيدًا عن معاناة قومه بني إسرائيل، وقد اختزل القرآن هذه الفترة فلم يتحدث عن شيء من تفصيلاتها، واختصر الفاصل الزمني من الرضاعة إلى بلوغ الأشد، وتحدث بعض المؤرخين عن تفصيلات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٤٤٦٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٢.
(٣) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٨.

أخرى في هذه المرحلة الزمنية، لكن ثمة إشكالية في الرواية التي أوردها البعض ومنهم الطبري، تقول الرواية: إن فرعون عندما حمله «أخذ موسى بلحيته فنتفها؛ فقال فرعون علي بالذباحين، هذا هو!! قالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني، أنا أضع له حليًا من الياقوت، وأضع له جمرًا؛ فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها فوضعت له طستًا من جمر؛ فجاء جبرئيل فطرح في يده جمرة؛ فطرحها موسى في فيه فأحرق لسانه فهو الذي يقول الله عز وجل: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾»[1]، وهذه الرواية التي ذكرها غير واحد من المؤرخين والمفسرين، ونسبها النيسابوري إلى الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما[2].

نصدق أن فرعون قد يزعجه ما فعله الطفل لأنه شخصية سلطوية مجنونة بالعظمة، إلا أن القصة لا يمكن أن تستقيم عقلا، فكيف لطفل أن يمسك بالجمرة المتوقدة؛ بل ويضعها في فيه؟! ولو اقتصر الاختبار على إقبال الطفل على الجمرة أو حتى على لمسها لكان ذلك أمرًا مستساغًا معقولا.

ثانيًا: قتل موسى عليه السلام للقبطي:

تدلنا الآيات على أن موسى عليه السلام ظل في بيت فرعون حتى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

ثم إن الله تعالى من عليه فآتاه ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[القصص:١٤].

والحكم والعلم ليسا بالنبوة؛ وإنما هي من إرهاصاتها؛ لأنه عليه السلام سيتورط بعد ذلك في قتل القبطي بطريق الخطأ.

إن القرآن يصور مشهد القتل ويوجز ما دار فيه من حوار بعيدًا عن الإجمال والتفصيل، فموسى عليه السلام ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص:١٥].

في وقت كان الناس فيه في بيوتهم كوقت القيلولة، أو بين المغرب والعشاء، أو حتى في معابدهم يوم عيدهم؛ بل قيل متنكرًا، على اختلاف بين المفسرين، كما اختلفوا حول المدينة وتعددت فيها الآراء[3]، لكن معلوم أن الحكام يتخذون لسكناهم بيوتًا خارج المدن على أطرافها، ليكونوا بمأمن من شعوبهم، وتلك من تدابير الطغاة والمستبدين وعاداتهم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٩٠.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٥٣٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٩.

﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

وكانت معركة تدور رحاها بين مصري وإسرائيلي، وبطبيعة الحال كان الثاني فيها أضعف الطرفين ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

والتظاهر بالضعف والوهن من صفات اليهود التاريخية، فحتى اللحظة نراهم يروجون لمظلوميتهم رغم ما وصلوا إليه من قوة وتقدم، لكنها سمات ملازمة لهم أنى لها أن تبرحهم مع تعاقب الليل والنهار!

لنا أن نتخيل موسى عليه السلام في هذه اللحظة وهو يسترجع شريط الذكريات القاسية، يستحضر استضعاف قومه وتذبيح الأبناء واستحياء النساء على يد الفراعين، وكيف ألقته أمه في اليم خوفًا عليه من الذبح، وكأن البحر أرق فؤادًا من هؤلاء المستبدين ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر:١١-١٢].

نعم عاش عليه السلام في بيت فرعون؛ لكن قضيته كانت تعيش معه ولم تتركه، ولم تغيره النعمة كما تفعل بالكثيرين الذين يتخلون عن مبادئهم بإقبال النعمة عليهم متناسين أصولهم.

هذا أحد بني جلدته الذين طالهم ظلم الفراعين -أو هكذا ظن موسى عندئذ- يستنجد به عليه السلام لإنقاذه من أحدهم فلا يتردد في نجدته، ويبدو أن الغضب قد سيطر عليه بشكل كبير ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥].

وأيًا كان تعريف الوكز -على النحو الذي أوردناه سلفًا- فقد كانت النتيجة قتل المصري وبسرعة تفيدها الفاءان في قوله عز وجل: (فوكزه - فقضى)، وعندها أسقط في يد موسى عليه السلام و﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

وهذا يعني أنه لم يكن يقصد القتل بحالٍ من الأحوال؛ لكن نزغ الشيطان في يده، وهو ما جعله يستغفر ربه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص:١٦].

ثم أخذ على نفسه العهد والميثاق ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص:١٧].

وبعض المفسرين[١] على أن المقصود بالمجرمين في الآية السابقة هم فرعون وقومه الذين ساموا بني إسرائيل سوء العذاب، لكن السياق يحتمل أن يكون المقصود هو الإسرائيلي الذي استغاثه ثم تبين بعد ذلك أنه غويٌّ مبينٌ، ويدل على ذلك ما حدث بعد ذلك عندما تبين موسى عليه السلام أن الإسرائيلي لم يكن مستحقًا للمساعدة وإلا لما ترك نجدته في المرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٢.

الثانية، ولو كان مستحقًا ما تردد لحظةً في إجارته.

قتل المصري في سورة غضب موسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

وبينما هو كذلك إذا بالإسرائيلي نفسه ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨].

فبالأمس تسببت في مقتل المصري، واليوم تستعديني على آخر.. ويبدو أن الإسرائيلي استمد بعض القوة من وجود موسى عليه السلام فشرع في قتل عدوه ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩].

وتظهر الآيات أن القبطي كان على علم بما فعله موسى عليه السلام مع المصري السابق قتله وهو ما جعله يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

اضطرب موسى عليه السلام كثيرًا وأحس أنه أصبح هدفًا لكل المصريين انتقامًا لقتيلهم، ويبدو أن خبر القتيل وصل إلى فرعون الذي أمر بإحضار ربيب نعمته بعد أن عزز شكوكه التي ساورته يومًا بعد يوم؛ فقيض الله عز وجل له رجلا جاءه ﴿مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠].

فجأة وجد موسى عليه السلام نفسه بين خيارين كلاهما فيه مشقة كبيرة على نفسه:

- إما أن يظل في مصر ليلقى مصيرًا مجهولا غالبه القتل، أو تعرف حقيقته ويذوق الويلات كغيره من الإسرائيليين.
- وإما أن يتركها بما فيها من ظلم واستعباد حتى يأذن له الله بالعودة. فكان الخيار الثاني.

إلى هنا انتهت مرحلة القصر والترف، وبدأ عليه السلام مرحلة أخرى من المعاناة والشظف؛ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢١﴾ [القصص:٢١].

وهنا يلجأ كعادته إلى ربه وخالقه تعالى الذي يلتجأ إليه وحده في النوازل والملمات. يذكره ربه بعد ذلك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]

ثالثًا: موسى عليه السلام في مدين:

يصف القرآن جانبًا من رحلة موسى عليه السلام الشاقة هروبًا من المصريين، ولنا أن نتخيل رجلا عاش منعمًا مترفًا يخرج من وطنه خائفًا إلى مكان مجهول لا يعرفه، يضرب القفار بلا رفيق ولا أنيس، يلتحف السماء ويفترش الأرض، ويتوجه إلى مدين

شمال غرب الجزيرة العربية، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢].

وكعادته يلجأ إلى ربه في وقت الشدة فيأتيه الفرج.

ما إن وصل عليه السلام إلى مساكن مدين حتى وجد الناس يسقون ماشيتهم، ونظر فإذا امرأتان تنتظران انتهاء الرجال من السقيا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص:٢٣].

فأثار الموقف شفقته، فتوجه إليهما وسألهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

فأبت شهامته ونبله أن يتركهما يزاحمان الرجال ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص:٢٤].

ولأنه لا يترك مجالا للشيطان فقد دعا ربه عز وجل ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

فالافتقار إلى الله غنىً به عمن سواه، ومن تكفل به في صغره فأنجاه من فرعون إلى قصره، سيجعل له من كل ضيقٍ فرجًا، ومن كل همٍ مخرجًا.

جلس موسى عليه السلام يستظل من حرارة الشمس الحارقة وقد نسي المعروف الذي صنعه مع البنتين؛ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

وهنا اختبار جديد له ثبت فيه حياؤه وأمانته، كما أثبت بأسه وقوته.

عادت البنتان إلى أبيهما وقصتا عليه ما كان من الرجل الغريب الذي سقى لهما رغم الزحام الشديد؛ فأرسل في إحضاره، وحسب ما يبدو من الآيات فإن موسى عليه السلام قد آنس من صاحب البيت؛ ولذا حكى له ما حدث معه من قتل المصري والخروج من مصر، وهكذا الأرواح، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

فلا سلطان لفرعون على هذه الأرض التي نعيش فيها.

تكليف موسى عليه السلام بالنبوة

أتم موسى عليه السلام المدة التي اتفق على قضائها مع الرجل الصالح ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

فالآيات تتحدث عن عودته إلى مصر ومروره بـ(جبل الطور) بسيناء، والمسافر يأنس بالنار في الصحراء الموحشة ليلا، لكونها تبدد بعض ما يداخله من خوف غريزي، ومن عادة أهل الصحراء أن يوقدوا النار لجلب الضيفان وهدايتهم في الظلمات، فذهاب موسى عليه السلام إلى النار -كما حكى القرآن عنه- كان لسببين:

الأول: السؤال عن الطريق التي سيسلكونها في عودتهم إلى مصر، فهو لم يغادر مدين منذ ثماني سنوات أو عشر، ومن ثم يلزمه الاهتداء في سيره بمن لهم دراية بالطرق.

الثاني: الإتيان ببعض النار لغرض التدفئة بالليل لاسيما أن هذه المنطقة معروفة حتى الآن ببرودتها الشديدة، حتى إن الثلوج لتتراكم عليها في بعض فترات الشتاء.

وهما الغرضان اللذان نصت عليهما الآيات الأخرى: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠].

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧].

ذهب موسى عليه السلام إلى النار -كما تحكي الآيات- لكنه لم يجد النار كما تصورها؛ بل كانت المفاجأة التي جعلته يضطرب، ويصور القرآن ما حدث: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١١-١٦].

ولشدة الأمر وصعوبته جاء رد فعل موسى عليه السلام طبيعيًا وغريزيًا، فقد خاف عندما أمره ربه تعالى بأن يلقي عصاه فصارت حية عظيمة، فعندها ولى مدبرًا لدرجة أنه لم ينظر خلفه كما تقول الآيات ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ من هول المفاجأة، وهو ما تشير إليه أكثر من آية: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه:٢١].

و﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

قال ابن عطية: «فلما رآها موسى رأي عبرةٍ ولى مدبرًا ولم يعقب؛ فقال الله تعالى

له: خذها ولا تخف، وذلك أنه أوجس في نفسه خيفة، أي: لحقه ما يلحق البشر»[1].

وأراد المولى عز وجل أن يهدئ من روع نبيه عليه السلام فخاطبه قائلا: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:٣١].

يقول البقاعي: «أي: التفت وتقدم إليها ولا تخف، ثم أكد له الأمر لـما الآدمي مجبولٌ عليه من النفرة، وإن اعتقد صحة الخبر بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: العريقين في الأمن كعادة إخوانك من المرسلين»[2].

ولأن الله عز وجل يعلم طبائع النفوس التي جبلت عليها؛ فقد كان لابد من استصحاب موسى عليه السلام لمعجزات حسية يخضع لها الفراعنة المعاندون، فوهبه معجزات، منها: معجزة العصا التي تحولت إلى حية مخيفة تسعى للدرجة التي أخافت موسى عليه السلام نفسه، ومعجزة اليد التي يدخلها في جيبه فتخرج مضيئة شاهقة البياض في مشهد تنخلع له القلوب النقية، يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»[3].

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢.

(٢) نظم الدرر ١٤/ ٢٨٠.

(٣) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.

وفي القرآن الكريم حديث -كما أسلفنا- عن الحوار الذي دار بين موسى وربه تعالى، وكيف كان موسى عليه السلام يطنب في الكلام استئناسًا بربه عز وجل، وحديث آخر عن معجزاتٍ سبعٍ أخرى غير هاتين الآيتين لتبلغ تسع آيات واضحات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء:١٠١].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

قال القرطبي: «هي العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البينات التوراة وما فيها من الدلالات»[4].

وتنص الآيات على أن المستهدف من الآيتين فرعون وقومه، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

وفي موضع آخر ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:٣٢].

صدر التكليف الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤، النازعات:١٧].

وليس فرعون فقط إنما جميع قومه، يبرز ذلك الخطاب الإلهي لموسى عليه السلام

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٠.

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء:١٠-١١].

دعا موسى عليه السلام ربه مستعينا به كعادته في الشدائد والكرب طالبًا منه أن يشرح صدره بالطمأنينة، وييسر له أمره حتى يتمكن من أداء دعوته ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ [طه:٢٥-٢٦].

وكان له رجاءان لتتم المهمة على أفضل ما يكون:

الأول: أن يحل عقدة لسانه حتى يتمكن من التبليغ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٧-٢٨].

الثاني: أن يشد أزره بأخيه هارون ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية فقال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]. ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٥]. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣].

والحقيقة أن الطلب كان محل جدال كبير، فقد اختلف المفسرون في ماهية العقدة، وهل هي معنوية أم مادية بسبب من الجمرة؟

وقد اختلفوا فيها على قولين، أوجزهما الفخر الرازي على هذا النحو:

الأول: كانت العقدة خلقة الله تعالى؛ فسأل الله تعالى إزالتها.

الثاني: السبب فيه أنه عليه السلام أخذ الجمرة فجعلها في فيه. وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان؛ لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة، واللسان آلة الذكر، فكيف يحترق؟! ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمرود، وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور فكيف يحترق هنا؟!

ومنهم من قال: احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة.

ومنهم من قال: احترق اللسان دون اليد؛ لأن الصولة ظهرت باليد، أما اللسان فقد خاطبه بقوله: يا أبت. ورأي أنهما احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة[1].

ونظرًا لتهافت قصة التمرة والجمرة التي ذكرها بعض المفسرين على النحو الذي تقدم؛ فالراجح أن العقدة لم تكن حسية في لسانه؛ وإنما قصد بها -والله أعلم- الرهبة التي ألمت به من التكليف وهذا الأمر تعضده الآيات التي أشارت إلى خوفه عليه السلام في غير موضع؛ بل بلوغه درجة الجري من

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٤٣-٤٤ بتصرف.

شدة الخوف، وعليه يكون المراد من قوله تعالى ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف:٥٢].

هو: لا يكاد يأتي ببينة أو حجة حسية على صدق رسالته، ويكون المراد بالفصاحة في قوله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص:٣٤] هي الفصاحة الناجمة عن الشجاعة ورباطة الجأش، فمن الناس من يفقد القدرة على توصيل فكرته في الأوقات العصيبة... والله تعالى أعلم.

أعرب عليه السلام عن خوفه من هذا التكليف فقال: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٤].

وفي موضع آخر ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القصص:٣٣].

قال البيضاوي: «ولهم علي ذنبٌ: أي تبعة ذنب...والمراد قتل القبطي، وإنما سماه ذنبًا على زعمهم...فأخاف أن يقتلون به قبل أداء الرسالة، وهو أيضًا ليس تعللًا؛ وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما إن ذاك استمدادٌ واستظهار في أمر الدعوة»[(١)].

والبيضاوي هنا كغيره من المفسرين الذين يحتاطون في نسبة الذنب إليه عليه السلام تأدبًا رغم أنه قد استغفر ربه فغفر له ما كان من قتل القبطي.

إن خوف موسى عليه السلام هنا خوف مشروع تقتضيه الطبيعة البشرية، وليس خاصًا به وحده دون غيره، وفي آية أخرى أن هارون عليه السلام قد أعرب عن خوفه هو الآخر ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٥-٤٦].

فالخوف في ذات الأنبياء ليس بالعيب وهو الأمر الذي قرره القرطبي عندما ذهب إلى القول بأن «الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء»[(٢)].

ويقول الإمام ابن تيمية: «وقول القائل هذا بمنزلة هذا، وهذا مثل هذا، هو كتشبيه الشيء بالشيء يكون بحسب ما دل عليه السياق، لا يقتضي المساواة في كل شيء، وكذلك هنا هو بمنزلة هارون فيما دل عليه السياق، وهو استخلافه في مغيبه كما استخلف موسى هارون، وهذا الاستخلاف ليس من خصائص علي؛ بل ولا هو مثل استخلافاته، فضلًا أن يكون أفضل منها، وقد استخلف من علي أفضل منه في كثير من الغزوات، ولم تكن تلك الاستخلافات توجب تقديم المستخلف على علي إذا قعد معه، فكيف يكون موجبًا لتفضيله على علي؟ بل قد استخلف على المدينة غير واحد،

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٩٢.

وأولئك المستخلفون منه بمنزلة هارون من موسى من جنس استخلاف علي»[1].

والحديث كما رأينا يدل دلالة واضحة أن الاستخلاف هنا يثبت أفضلية وتكريمًا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا يثبت له خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، وتنقل لنا كتب الأحاديث والسير أن النبي استخلف عددًا من الصحابة الكرام في مناسبات عدة، منهم صحابة مشهورون وغير مشهورين، من هؤلاء المستخلفين: عثمان بن عفان في غزوة ذي أمر بنجد، وعبد الله بن أم مكتوم الضرير رضي الله عنه الذي استخلفه في غزوة بدر الكبرى، وسباع بن عرفطة رضي الله عنه، وسعد بن عبادة رضي الله عنه في غزوة الأبواء، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه في غزوة بواط، وأبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه في غزوة العشيرة، وزيد بن حارثة رضي الله عنه في غزوة بدر الأولى، وأبو رهم كلثوم بن حصين الغفاري رضي الله عنه، ورغم ذلك لم يقل أحد إن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخلف عثمان، ومن ثم تحق له خلافته قبل أبي بكر وعمر، ولا طالبت قبائل هؤلاء الصحابة وآلهم بحقهم في الخلافة بناء على استخلافهم السابق.

(١) منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٣٠-٣٣٢.

دعوته عليه السلام لفرعون وقومه

أولًا: معالم دعوته عليه السلام:

استجاب موسى عليه السلام لتكليف ربه تعالى وأتى فرعون يطلب إليه ترك بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، ولم لا وقد سامهم العذاب الأليم سنوات طويلة ذبح فيها الأبناء واستحيى النساء؛ وجاءت ساعة المواجهة فزاد فرعون من تكبره وتجبره ونادى فيمن حوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

إنه لم يكتف بالكفر وإنكار وجود الله؛ بل لج في طغيانه وادعى الألوهية ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

وأمعن الفرعون في صلفه وغروره، ونادى في قومه قائلا: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١].

فبدلا من شكر المنعم الذي وفر له أسباب المعيشة الكريمة من أنهار تفيض بالخيرات فتخرج أزواجًا من نبات شتى؛ نسب هذا الفضل إلى نفسه وراح يدعي أنه الإله الأحق بالعبادة دون الله تعالى،

وأراد أن يدلس على من حوله من الملأ أصحاب المصالح فطالب موسى بآيات محسوسة ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف:٥٣].

وكأن آيات فرعون في الخلق مبهرة ظاهرة للعيان.

ثم بلغ به الجنون مداه حين طلب من هامان طلبًا عجيبًا مستحيلا لكنه وجد من يصدقه ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ [الزخرف:٥٤].

لقد قال لوزيره هامان الذي يزين له الجنون: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

ولخص رؤيته العقدية والسياسية في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

إنه جنون العظمة الذي يجعل المهووسين والموتورين يبيدون كل شيء من أجل الكرسي!

إن طغيان فرعون وادعاء الألوهية لم ينشأ من فراغ؛ وإنما كان نتاج مساندة الملأ الذين يزينون للحاكم سوء عمله ليحافظوا على مكانتهم ومصالحهم التي يدورون معها أينما كانت، ولا عجب أن تتطابق آراء الملأ مع آراء الفرعون، فاتهام موسى بالسحر لم يقتصر على الحاكم المدعي للألوهية دون الملأ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

بينما ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝١١٢﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٢].

حتى العقاب الذي سنه فرعون لمن يخرج عن نطاق عبادته جاء بإيعاز ممن حوله، ففي القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧﴾ [الأعراف:١٢٧].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾ [غافر:٢٥].

في هذه الظروف كان على موسى عليه السلام أن يدعو فرعون إلى أمرين كما في الآيات:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ [طه:٤٧-٤٨].

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ [الشعراء:١٥-١٧].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾ [الزخرف:٤٦].

فإرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون كما تشير الآيات كان لغرضين: دعوته وقومه إلى الإيمان بألوهية الله الخالق بدلا من عبادة الفراعين، وتخليص بني إسرائيل من أسر فرعون وعذاباته.

يقول ابن جزي: «فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وتسريح بني إسرائيل»[1].

وكلا الأمرين ليسا في مصلحة فرعون؛ لأن فيهما تهديد لملكه المستبد العضوض ومكانته التي لا يمكنه أن يتخلى عنها بحال ليتساوى مع الدهماء وأراذل القوم كما كان ينظر إليهم، فضلا عن خوفه من مكر بني إسرائيل به إذا خرجوا من مصر؛ إذ كان بإمكانهم أن يتحدوا مع أعداء مصر في الخارج.

ثمة إشكالية تثار حول رسالة موسى عليه السلام تتعلق بشريحة المدعوين، فهل أرسل إلى بني إسرائيل فقط أم إلى المصريين أيضًا؟!

إن موسى -والله أعلم- لم يرسل إلى عامة المصريين؛ بل إلى بني إسرائيل فقط، لكنه لم ينس أن يدعو فرعون وقومه إلى التوحيد بدلا من عبادة الفرعون، فما كان له أن يفوت فرصة يدعو فيها إلى الله وينكر عليهم ضلالهم، يقول الطاهر ابن عاشور: «والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدل على أن موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمة مستقلة؛ بأن يبث فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرانيه وأيضًا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بني إسرائيل»[2].

فشريعة موسى عليه السلام قصد بها

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣٠.

بنو إسرائيل دون غيرهم، وفي القرآن آيات تعضد هذا الرأي بقوة، وتقول بخصوصية الرسالة واقتصارها على بني إسرائيل، منها:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢]

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة:٢٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

[إبراهيم:٥-٨].

ففي الآيتين الأولى والثانية يقطع القرآن بأن التوراة نزلت وتوجه خطابها التكليفي إلى بني إسرائيل، وفي الآية الثالثة بيان تكليف الله عز وجل له بدعوة قومه وإخراجهم من الظلمات إلى نور الإيمان وتذكيرهم بأيام الله، وشكر المنعم الذي أنجاهم من عبودية فرعون واسترقاقه لهم.

ثانيًا: أساليب دعوته عليه السلام:

تبوأت قصة موسى عليه السلام من القرآن مكانة لا تدانيها قصة أخرى، وأظهرت الآيات الكريمة كيف نوع موسى من أساليب دعوته لتتناسب مع الواقع وتطوراته وأحداثه المتلاحقة منذ أن تم تكليفه من رب العزة تعالى وحتى خروجه مع بني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه.

وكانت آيتا العصا واليد أول المعجزات التي أيد بها موسى عليه السلام في دعوته لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٣٢].

ثم عزز الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات، يقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل:١٢].

لكن البعض يعد الآيات المعجزات التي

تحدث عنها المؤرخون والمفسرون أكثر من تسع على النحو الذي سيبينه المبحث التالي.

وقد عرض القرآن لأهم الأساليب الدعوية التي اتبعها موسى عليه السلام، ومنها:

١. توظيف الطاقات البشرية.

على النحو الذي ورد في المبحث السابق، فعندما كلف الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة طلب إليه أن يشد أزره بأخيه هارون قائلًا: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه:٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية من الله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه:٣٦]. ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص:٣٥]. ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم:٥٣].

ويمكننا من خلال هذه الآيات أن ندرك كيف عمل موسى عليه السلام على توظيف قدرات أخيه في الدعوة للوصول إلى أقصى استفادة ممكنة، وحسب نص الآيات فقد أراد توظيف قدرة هارون الكلامية في تبليغ الدعوة والدفاع عنها، وفي ذلك درس للدعاة الذين يجب أن يكون هناك تكامل بينهم ويقوم كل منهم على ثغرة.

٢. اللين والشدة.

يخبرنا القرآن كيف أن الله تعالى طلب من موسى وهارون أن يعاملا فرعون بالحسنى ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٤].

يقول البقاعي: «فقولا له قولًا لينًا لئلا يبقى له حجة، ولا يقبل له معذرة لعله يتذكر ويعلم أن الله ربه، وأنه قادر على ما يريد منه، فيرجع عن غيه فيؤمن، أو يخشى: أي أو يصل إلى حال من يخاف عاقبة قولكما لتوهم الصدق فيكون قولكما تذكرة له فيرسل معكما بني إسرائيل»[1].

إن طبيعة المرحلة آنذاك كانت تتطلب أن يلين موسى عليه السلام قوله لفرعون عسى أن يهديه إلى ربه، كما أمرهما بأن يقولا ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه:٤٧].

وفي حديثه تعالى عن السلام ترغيب له وطمأنة لقلبه وقلوب قومه قاطبة، كما ينقل القرآن صيغة أخرى للين في قول الله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات:١٨-١٩].

فماذا كان رد فعل فرعون المستبد

---

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٩٠.

وقومه؟!

أبى فرعون واستكبر ورمى موسى بتهم منها القديم المكرر كالكذب والسحر والجنون، ومنها غير ذلك، نحو:

- التآمر لإخراجهم من أرضهم: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].
- الكذب والتدليس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].
- السحر والجنون: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات:٣٨-٣٩].
- إضلالهم عن دين آبائهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].
- القول ببشريته: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون:٤٧].

لكن الحقيقة الواضحة أن الذي جعلهم يحجمون عن الإيمان بالوحدانية هو الكبر.

وقد أشار القرآن إليها في مواضع منها:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].
- ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:٤٦].
- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

لقد شق على نفس فرعون أن يؤمن لعبدٍ من بني إسرائيل الممتهنين أن يدعي النبوة ويطلب تعبيد الناس لرب سواه، فكيف يكون مصير ملكه العريض إذا آمن بوحدانية موسى؟!

أما الملأ فقد خافوا على مصالحهم المرتبطة بالبلاط الفرعوني؛ ومن ثم تواطأ الجميع على موسى؛ لأنه يهدد مصالحهم رغم يقينهم بنبوته!

ولما لم يجد فرعون وسيلة ناجعة لرد موسى عليه السلام وصرفه عن الرسالة هدد قائلًا: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وعندما قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١].

رد عليه موسى قائلا: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

قال أبوعبيدة: «أي: مهلكًا»[(١)]، فمقام

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٣٩٢.

اللين في الدعوة يختلف عن مقام الشدة في المدافعة، ومقام الترغيب يختلف عن مقام الترهيب.

ولما لم يجد موسى عليه السلام فائدة ترتجى من وراء فرعون وقومه بعد إصرارهم على الكفر قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

وهنا بدأت موجات العذاب تجتاح الفراعنة على النحو الذي سيفصله المبحث التالي عن آيات موسى عليه السلام ومعجزاته.

٣. قوة الحجة والاستدلال العقلي.

تنبئ الآيات القرآنية عن قدرة موسى عليه السلام على الجدل وقوة الحجة، كما تكشف عن صدقه مع نفسه وغيره، فلقد كان أول ما قاله فرعون لموسى حين دعاه إلى التوحيد: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣].

فأجاب موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:٢٤].

ثم أمعن فرعون في الضلال فاتهم موسى بالجنون ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٥-٢٧].

فتوجه موسى بالخطاب هذه المرة إلى الملأ بعد أن كان سجالًا مع فرعون ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨].

وقريب من ذلك ما ورد في سورة طه ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٤٩-٥٥].

وينقل لنا القرآن أنه أراد إحراج موسى عليه السلام أمام الملأ وتذكيره بتربيته داخل قصره وهو الأمر الذي يستوجب الشكر والخضوع لا الجحود والخروج، كما ألمح إلى قتل المصري وهروبه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء:١٨-١٩].

فأقر موسى بفعلته ولم ينكرها: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٠-٢٢].

رغم قوة حجة موسى مع فرعون إلا أن الأخير لم يجد بدًا من التهديد بالسجن، وتلك عادة أهل الباطل عندما يضيق عليهم الخناق فلا يستطيعون تبرير أفعالهم أو مواصلة المجادلة بالباطل:

قال فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩]

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء:٣٠]

قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء:٣١]

وهنا بدأ موسى في إظهار الآيات:

* ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء:٣٢]

* ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣٣]

ثم انتهى المشهد بإيمان السحرة، وربما أيضا بإيمان امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، فالقرآن لم يقص علينا شيئًا عن الوقت الذي آمن فيه هؤلاء برسالة موسى عليه السلام.

مرت الأيام والفراعنة يراوغون موسى، ويعدونه بأن يؤمنوا له ويتبعوا دينه ورسالته قائلين: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٣٤].

فابتلاهم الله بالعذابات المختلفة على النحو الذي ذكرناه في المبحث الخاص بالمعجزات، لكنهم لم يؤمنوا في النهاية ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٣-٨٩].

آيات موسى عليه السلام ومعجزاته

من الناس من لا يؤمن لنبي ولا برسالة إلا برؤية آيات معجزات حسية ملموسة يراها رأي العين، فإذا جاء نبي من الأنبياء ومعه معجزة من المعجزات الباهرة فلا يملك أصحاب العقول والأفهام الحصيفة إلا أن يؤمنوا.

يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»[1].

ويقول صاحب الظلال: «وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسير حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه. وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة»[2].

لكن الحقيقة أن هناك على مر التاريخ من ينكر المعجزات والآيات استكبارًا في الأرض وعتوًا كما فعل المكذبون من قوم نوح وصالح وغيرهم. وفي القرآن الكريم ثمة إشارات إلى بعض الآيات المعجزات التي زود الله تعالى بها موسى عليه السلام في مواجهة فرعون وقومه الذين استخفهم فرعون فأعماهم عن الحق، ثم في مواجهة بني إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل وجدالهم جدالا عقيمًا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٤٦].

لقد ورد في موضعين بالقرآن الكريم أن الله عز وجل عزز نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

لكنك إذا ما عددت الآيات المعجزات التي تحدث عنها المؤرخون والمفسرون لوجدتها تتعدى التسع.

لكن تفسيرًا مغايرًا يفسر الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعيدًا عن فكرة المعجزات ويقصد بها بعض الأحكام التي جاءت بها شريعة موسى عليه السلام[3].

ثمة خلاف في تحديد الآيات التسع، فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها:

(١) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٦.

«يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات. وقال الضحاك: إلقاء العصا مرتين عند فرعون، ونزع يده، والعقدة التي كانت بلسانه، وخمس آيات في الأعراف: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقال آخرون نحوا من هذا القول، غير أنهم جعلوا آيتين منهن: إحداهما الطمسة، والأخرى الحجر.

ومنهم من جعلوا اثنتين منهن: إحداهما السنين، والأخرى النقص من الثمرات.

ومنهم من جعلوا السنين، والنقص من الثمرات آية واحدة، وجعلوا التاسعة تلقف العصا ما يأفكون»[(١)].

وكلها -كما رأينا- مما ورد في القرآن ذكره.

أما الطاهر ابن عاشور فقال إنها: «بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، والقحط»[(٢)].

وجمعها الفيروزآبادي في قوله[(٣)]:

عصًا، سنةٌ، بحر، جراد، وقمل
دمٌ، ويدٌ، بعد الضفادع طوفان

بدأت المعجزات أو الآيات المعجزة لموسى عليه السلام باثنتين كما في الآية ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص:٣٢].

والبرهانان هنا حسب ما ذكر القرطبي: العصا واليد[(٤)] لكن تكذيبهم فاق كل التصورات ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢].

وهنا أرسل الله عز وجل عليهم من الآيات ما فيه عذابهم.

يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

ليس هذا فحسب، لكن هناك آيات أخرى عني بها بنو إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل، منها:

- الموت بالصاعقة ثم الإحياء: ففي القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

(١) المصدر السابق ١٧/ ٥٦٤.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٥.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٧٠٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٨٥.

- الغمام والمن والسلوى: كما في قول الله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧].
- الابتلاء بالرجز: كما في قوله عز وجل: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٩].
- تفجير المياه: يقول تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠].
- إحياء قتيل بني إسرائيل: يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٢-٧٤].
- رفع الجبل فوقهم: ففي القرآن ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف:١٧١].

على أن البعض قد اعتبر تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام أعظم معجزة له، والحقيقة أنه وإن كان في التكليم تكريمًا إلهيًا غير مسبوق لنبيه بيد أنه لا يعتبر معجزةً في مواجهة قومه، ذلك أن ما دار بجانب الطور أمر يخصه لم يشهده غيره، ولا يمكن تصديقه إلا ممن آمن له بالفعل، وإلا فكيف لمن كذبه أن يؤمن بتكليم ربه، في حين يكذب بالآيات الأكثر ظهورًا كالعصا واليد.

يتجلى التأثير الإيجابي لهذه الآيات الإلهية المعجزة في قصة سحرة فرعون الذين جيء بهم لمجابهة معجزة عصا موسى عليه السلام، فجاؤوا وليس أحد أحرص منهم على إرضاء فرعون ونيل جائزته وقربه، لكن المعجزة التي رأوها -وهم من أسحر الناس- جعلتهم يقرون بنبوة موسى إذ لا قبل لهم بما جاء به من معجزة العصا الحقيقية لا التي تعتمد على إبهار الناس على غير الحقيقة، وينقل لنا القرآن كيف تحول هؤلاء السحرة في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن

﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء:٤٩-٥١].

وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها!

موسى عليه السلام والسحرة

لم تثمر دعوة موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالله الخالق بعد أن تساءل الأخير بعنجهية ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه:٤٩].

ورد موسى بثقة المؤمن بربه وخالقه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠].

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء:٢٤].

واشتد النقاش وتساءل فرعون مرة أخرى في صلف، فأجاب موسى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه:٥٣].

وهنا لم يجد فرعون بدًا من اللجوء إلى سلطته وقوته الغاشمة التي لا يعرف غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩﴾ [الشعراء:٢٩].

لكن موسى عليه السلام فاجأه مرة أخرى بتحدٍ ملموس ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ۝٣٠﴾ [الشعراء:٣٠].

ولم يتوقع فرعون حجم التحدي فقال

من فوره: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾ [الشعراء:٣١].

وهنا ألقى موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨].

كانت الآيتان مبهرتين لفرعون ومن حوله؛ لكنه اعتاد الاستكبار واعتادوا المذلة والمهانة، ومن ثم ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

ففرعون هنا يبحث عن غطاء وظهير له في مواجهته مع موسى عليه السلام بعد أن اتهمه بالسحر، وتلك أول مرة يقر بأن هناك شعبًا له سيادة وقرار؛ بل يحدثهم بصيغة لا عهد لهم بها ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟!

ولن يعدم البطانة التي تسول للحاكم كل الشرور ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ١١٢﴾

[الأعراف:١١١-١١٢].

اتفق الطرفان على مواجهة علنية في يوم معلوم يحشد فيها كل طرف قوته ويشحذ همته ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ٥٩﴾ [طه:٥٩].

وسواء أكان يوم الزينة يوم عيدٍ لهم، أم سوقا كانوا يتزينون فيه[1] أم كان يوم احتفالهم بفيضان النيل[2] ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

إن فرعون هنا يحشد الناس ويشحنهم معتمدًا على إعلامه المضلل الذي جعل من موسى النبي عليه السلام ساحرًا مجنونًا، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

ويبدو أنه اعتاد تسخير شعبه دون مقابل في حين تكتظ خزائنه بالأموال المكدسة، ومن ثم اشترط السحرة أن يتقاضوا أجرًا عن هذا العمل ﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ [الشعراء:٤١-٤٢].

وهكذا الحكام الجائرون لا يتركون طريقًا إلا سلكوه في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض.

ويبدأ المشهد الأول من المواجهة العلنية بين موسى عليه السلام والسحرة الذين جاؤوا لإبطال سحره، وخيره السحرة ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٤٦.

وهنا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يونس:٨٠].

ونشط السحرة للمنازلة وكلهم ثقة أنها محسومة لا محالة لهم، ولم ينسوا أن يقسموا بفرعون أن الغلبة ستكون لهم، فليس أحب إليهم في هذا الآن من إرضاء الطاغية وإعلاء شأنه بين قومه ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء:٤٤].

ويبدو أن موسى عليه السلام هو الآخر لم يتوقع أن تظهر عصي السحرة كثعابين أو حيات، والحقيقة أنها لم تكن حيات حقيقية لكن خيل للحاضرين من السحر أنها تسعى، يحكي القرآن ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١١٦].

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه:٦٦].

يقول ابن عطية: «والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تنتقل بحيل السحر وبدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها، وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السعي فإنه لا يوصف بالسعي إلا من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إلى أنها لم تكن تتحرك؛ لكنهم سحروا أعين الناس، وكان الناظر يخيل إليه أنها تتحرك وتنتقل»[1].

لكن الآيات توضح أن موسى عليه السلام قد خاف وهاله سعي العصي؛ ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه:٦٧].

قال البيضاوي: «فأضمر فيها خوفًا من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلة البشرية، أو من أن يخالج الناس شكٌّ فلا يتبعوه»[2].

وهنا يأتي التثبيت الإلهي له فيزداد ثقة بربه ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٨].

وترصد آيات سورة يونس تغير لهجة موسى عليه السلام بعد التثبيت حيث قال لهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨١-٨٢].

يقول صاحب الظلال: «لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق، ومعهم الباطل. معك العقيدة، ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى، وهم يخدمون مخلوقًا بشريًا فانيًا مهما يكن طاغيةً جبارًا»[3].

ويأتي النداء مرة أخرى ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥١.
(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٣٢.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٢.

﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩].

وامتثل موسى عليه السلام للأمر فألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:١١٧].

وهنا فجأ السحرة أن الحية العظيمة قد ابتلعت حبالهم وعصيهم فلم يبق لها أثر على الأرض؛ فأيقنوا أن عدوهم ليس بالساحر العليم كما قال فرعون، لكنه نبي جاء بمعجزة باهرة واضحة، فلا يعرف السحر إلا من يمارسه، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢].

لقد تولد لديهم إيمان يقيني لا يقبل الشك بنبوة موسى عليه السلام، فأعلنوا إيمانهم دون النظر إلى ردة فعل فرعون الذي لا يعرف الاستسلام ويأبي الهزيمة؛ لأن نفسه المتكبرة لا تستسيغ أن يؤمن لنبي، فضلا عن أن يكون من بني إسرائيل الذين يستعبدهم ويستعملهم في أشق الأعمال وأحطها، ولذلك فقد صاح فيهم متهمًا إياهم بالتواطؤ مع موسى ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣].

وهكذا أهل الباطل لا يسمعون إلا صوت أنفسهم.

وإمعانًا في تضليل الجماهير المحتشدة يتهم السحرة بالتآمر عليه مع موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١].

ويتوعدهم غاضبًا ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧١].

وهو التهديد الذي كان كفيلا بإثناء هؤلاء عن الدين الجديد، أو حتى المواربة بكتم الإيمان إلى وقتٍ تقوى فيه شوكة نبي الله ومن معه؛ لكن الإيمان قد تغلغل في قلوبهم في لحظة صدق مع أنفسهم ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٥٠-٥١].

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٦].

يقول ابن قيم الجوزية: «ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء»[1].

إن هذا النموذج الإيماني الفريد الذي ضربه سحرة فرعون ليؤكد أن القلوب الصافية من الخصوبة بحيث ينبت فيها الإيمان ويترعرع؛ بل ويثمر في لحظات

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤/ ١٣٨٩.

معدودات، فها هم يتحولون إلى مجابهة فرعون بجبروته وصولجانه قائلين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٦].

قال البقاعي: «أي إنما حكمك في مدتها على الجسد خاصة، فهي ساعة تعقب راحة، ونحن لا نخاف إلا ممن يحكم على الروح وإن فني الجسد، فذاك هو الشديد العذاب، الدائم الجزاء بالثواب أو العقاب»[(١)].

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كل فصولها ومراحلها تمثل صورة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، لكن ذروته تتجلى في هذا المشهد المفعم باليقين حين يتمكن الإيمان من القلب، وسيظل سحرة فرعون مضرب المثل في الإيمان بالحق والدفاع عن العقيدة، كما سيظل فرعون مثالا حيًا للتكبر والعجب بالرأي واتباع هوى نفسه التي أوردته المهالك.

نجاة موسى عليه السلام ومن معه

ظل فرعون وقومه يكابرون ويجادلون رغم يقينهم بصدق موسى ودعوته ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

وبلغ بفرعون الجنون مداه حيث ادعى الألوهية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

وهذا حال المهووسين بالسلطة لا ينظرون إلا في مرآة أنفسهم فلا يرون غيرها، وإن استعانوا فإنما يستعينون برؤوس جهالٍ كهامان وغيره.

لم يقر فرعون بالهزيمة أمام موسى عليه السلام والسحرة وازداد عتوًا، وازداد الفراعنة تحريضًا على الإسرائيليين ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وزادوا في عتوهم وتحريضهم وقرروا مواصلة الإبادة الجماعية لأبناء المؤمنين ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥].

(١) نظم الدرر ١٢/ ٣١٣.

لعلهم يرجعون، فلم يجد موسى سوى مطالبة قومه بالصبر إلى يوم يفتح الله عز وجل عليهم بالتمكين والنصر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

فاض الكيل بموسى عليه السلام ومن معه من تكذيب فرعون وقومه الذين أعلنوا في تحدٍ صارخٍ لنبوته ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فأرسل الله تعالى على الفراعنة سوء العذاب، وجاءتهم آيات العذاب الواحدة تلو الأخرى لعلهم يرجعون، ويسجل لنا القرآن الكريم صورًا شتى من هذه العذابات التي ذكرنا بعضها عند الحديث عن آيات موسى ومعجزاته.

يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

ولما تضاعف عليهم العذاب لم يجدوا إلا أن يلجؤوا إلى موسى ليكشف عنهم الضر مع وعد منهم بأن يؤمنوا ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٥].

ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى نفعًا، ومن ثم يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها من هذا الذي يؤرق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسيًا أن الفكرة لا تموت وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم؛ فقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

إنه يتحدث إلى قومه كأنهم أصحاب قرار، والحقيقة أنهم لم يكونوا يومًا أصحاب قرار في هذا الحكم الاستبدادي؛ إنما أراد

أن يحشد الرأي العام كله ضد النبي الجديد ومن معه ليتوقفوا عن الإيمان به رغبًا أو رهبًا.. إنه يستعدي جزءًا من الشعب على جزءٍ آخر اختار الإيمان بالرسالة الجديدة.

ولأن الدنيا لا تعدم الخير مهما علا شأن الباطل وأهله؛ فقد انبرى رجل مؤمن في موطن الفساد ومعطن الاستبداد مدافعًا عن موسى عليه السلام ومتحدثًا بلغة العقل والمنطق، وقد قص القرآن ما كان منه.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر:٢٨-٣٤].

ضاق موسى عليه السلام بفرعون وقومه فدعا قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

وفي النهاية لم يؤمن له ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣].

وقد اختلف في المراد بالذرية في الآية، يقول البيضاوي: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفًا من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل: الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته على خوفٍ من فرعون وملائهم أي: مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية أو للقوم»(١).

حانت ساعة النجاة فجاء الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان:٢٣].

فالليل ستر لكل من فر من عدوٍ يتربص

(١) أنوار التنزيل ٣/ ١٢١.

به، وقوله تعالى ﴿لَيْلًا﴾ يرد الرواية القائلة إن اتفاقًا جرى على أن يترك فرعون موسى وقومه يخرجون من مصر حتى يتخلص من العذابات التي أحاطت بقومه غير أن فرعون حنث بعهده وأتبعهم هو وجنوده؛ ولو كان هذا الرأي صحيحًا لما نصحوا بالخروج ليلا كما نقل لنا القرآن الكريم، كما إن الرواية التي تذهب إلى أنه تبعهم بعد أن علم بأن نساء اليهود قد استعاروا الحلي من المصريات على أن يعيدوه ثم خرجوا به[(١)].

هي رواية متهافتة تستحيل عقلا فكيف يعير المصريون حليهم النفيسة اليهود الممتهنين في ذلك الوقت؟!

وأمر موسى عليه السلام من قبل ربه ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧].

وهكذا يكون للعصا دور آخر جديد، فبعد أن كانت حية تسعى صار منوطًا بها شق البحر بإذن الله تعالى، لكن فرعون وقومه لم يكونوا ليذروهم يخرجون من مصر دون ملاحقة، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء:٦٠].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:٩٠].

ورغم أن الله عز وجل طمأن موسى بألا يخاف لحاق فرعون وجنوده إلا أن الخوف قد عاوده مرة أخرى، لكن سرعان ما ازداد ثقة بخالقه الذي كثيرًا ما لجأ إليه في ملماته؛ فصار مصدر اطمئنان لقومه بعد تسلل الرعب إليهم، ويصور القرآن هذا المشهد.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء:٦١-٦٣].

وعندها مر موسى وقومه وخاطبه ربه قائلا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان:٢٤].

«وفي ﴿رَهْوًا﴾ وجهان: أحدهما ساكنًا أي: لا تضربه ثانيةً واتركه على هيئته من انتصاب الماء وكون الطريق يبسًا. وذلك أن موسى أراد أن يضربه حتى ينطبق خوفًا من أن يدركهم قوم فرعون، والله تعالى أراد أن يدخل القبط البحر ثم يطبقه عليهم. وثانيهما: أن الرهو الفجوة الواسعة أي: اتركه مفتوحًا منفجرًا على حاله»[(٢)].

في اللحظة التي بدأ البحر ينطبق فيها على فرعون وجنوده بعد اجتياز موسى عليه السلام ومن معه وبدأت المياه في الارتفاع قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]؛

(١) انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٢٥٧.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٠٥.

لكن توبته المزعومة لم تكن لتنفعه في هذا الوقت؛ لأنها لم تكن عن إيمان وقناعة وإنما كعادة قومه الذين طلبوا من موسى أن يكشف عنهم الرجز ووعدوه بالإيمان به حال كشفه، وسرعان ما عاودوا الكفر وحنثوا بالعهد، وقد أراد من وراء ذلك أن يدفع عن نفسه الغرق، ولا يلتفت إلى ما قاله البعض من أن فرعون عندما رأى البحر قرر عدم الولوج غير أن جبريل مكر به، فأقبل على فرس أنثى، فأدناها من حصان فرعون، فطفق فرسه لا يقر؛ فما ملك فرعون فرسه أن ولج على أثره[1]، فلو صدقت نية فرعون في عدم متابعة موسى لصحت توبته، فالله لا يظلم الناس شيئًا.

وهنا جاءه الرد الإلهي الحاسم ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس:٩١-٩٢].

قال النيسابوري: «لتكون دليلا على كمال قدرتنا وعنايتنا. وإن من اتبع خواص عبادنا نجعله من أهل النجاة والدرجات بعد أن كان من أهل الهلاك والدركات»[2].

ونظرًا لأهمية ذلك اليوم الذي نجى الله فيه موسى وقومه؛ فقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بصيامه ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى؛ قال: فأنا أحق بموسى منكم؛ فصامه وأمر بصيامه)[3].

بل كان حريصًا على صيامه حرصه على صيام الفريضة ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: (ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيام فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء وهذا الشهر يعني شهر رمضان)[4].

إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٥].

وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٠.
(٢) غرائب القرآن ٣/ ٦١٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٦.

ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

موسى عليه السلام ورؤية ربه

واعد الله عز وجل موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر كانت بمثابة التهيئة لتلقي التوراة.

ففي القرآن الكريم ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف:١٤٢].

ولم يترك بني إسرائيل وحدهم فطلب من أخيه هارون أن يكون خليفة له ونائبًا عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقد فصلنا أمر الاستخلاف ووجه استدلال الشيعة بحديث الإمام علي رضي الله عنه قبل ذلك.

ظل موسى عليه السلام أربعين ليلة اختلف حولها المفسرون؛ فقيل: «إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة وعشر ليال تتمة أربعين ليلة»[1].

وقيل: إن المواعدة كانت في الأصل ثلاثين غير أنه تعجل قبل الموعد بعشرة أيام[2]، حتى كان اليوم الموعود الذي جاء لميقات ربه فطلب موسى من ربه أن يراه، وربما يتساءل البعض: كيف لموسى أن يتجاسر ويطلب من ربه طلبًا كهذا؟!

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨٦.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٣٢١.

يبدو -والله أعلم- أن كلام الله جل جلاله لموسى قبل ذلك وتقريبه له نجيًا جعله يطلب من ربه هذا الطلب، ويقص علينا القرآن هذا الحدث: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

لكن جاء الرد الإلهي بأن ذلك لن يحدث، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولبى موسى نداء ربه بانتظار ما سيكون؛ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣] من هول الموقف.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فبمجرد أن أفاق موسى نزه ربه تعالى عن أن تحيط به الأبصار ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣].

وأحس موسى بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه.

ويبدو أن هناك من ذهب إلى أن موسى عليه السلام سأل الرؤية لقومه لا لنفسه.

وهو ما رده الفخر الرازي وقال بفساده لعدة اعتبارات:

«الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى: أرهم ينظروا إليك ولقال الله تعالى: لن يروني فلما لم يكن كذلك بطل هذا التأويل.

والثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلبا للمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

منعهم عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال فأما أن لا يذكر شيئا من تلك الدلائل البتة مع أن ذكرها كان فرضا مضيقا كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام وأنه لا يجوز.

والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام، أو ما آمنوا بها، فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل مجرد قول موسى عليه السلام، فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام، وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب؛ لأنهم يقولون له: لا نسلم أن الله منع من الرؤية، بل هذا قول افتريته على الله تعالى، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة

للقوم في قول موسى عليه السلام أرني أنظر إليك»[1].

ومسألة الرؤية هنا أثارت إشكالية كبيرة ممتدة منذ قرون عديدة، وهناك جدل قديم دائر بين أهل السنة والمعتزلة حول إمكانية رؤية الله تعالى، فهي «عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلا، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تعالى في الآخرة نصا ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالا وإنما سأل جائزًا»[2].

ثمة رأي يذهب إلى أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ومعه السبعون رجلا مصداقًا لقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

ومنهم من يذهب إلى أنهما ميقاتان وليس ميقاتًا واحدًا[3].

يقول ابن عطية الأندلسي: «معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم»[4].

نادى الله نبيه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف:١٤٤-١٤٥].

وبصرف النظر عن عدد الألواح ونوع مادتها؛ فقد قال القرآن إنها احتوت من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وهو ما فسره ابن عاشور: «أي: كل شيء تحتاج إليه الأمة في دينها... والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام»[5].

والتوراة كما وصفها القرآن تضمنت تشريعات جديدة أحلت بعض ما كان محرمًا على بني إسرائيل.

يقول تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٥٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٤٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٢٦.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩.
(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٩٧.

﴿وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران:٥٠].

كما تضمنت أحكامًا تنظم حياة الناس ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣﴾ [المائدة:٤٣].

وهي كتاب هداية وإرشاد ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة:٤٤].

كما تضمنت التوراة بشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧].

وفي القرآن على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وعاب القرآن على اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة وما جاء فيها وشبههم أسوأ تشبيه، يقول: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥].

ومن عجيب أمر بني إسرائيل أنهم لما نجاهم الله عز وجل من فرعون مصر وأراهم المعجزات والآيات واحدة تلو الأخرى طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهًا صنمًا، ويحكي القرآن هذه المأساة الحقيقية.

يقول تعالى: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠].

ويبدو أن غياب موسى عنهم مدة الأربعين يومًا جعلهم يتخبطون وفي غيهم يترددون.

يقول البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾ [طه:٨٣]: «أي: أي شيء أوجب لك العجلة في المجيء عن قومك وإن كنت بادرت مبادرة المبالغ في الاسترضاء، أما علمت أن حدود الملوك لا ينبغي تجاوزها بتقدم أو تأخر؟!»[1].

لكن موسى كان حسن الظن أكثر مما ينبغي فقال: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥﴾ [طه:٨٤-٨٥].

(١) نظم الدرر ١٢/ ٣٢٢.

لقد أخبره الله تعالى بما كان من قومه الذين عبدوا العجل رغم نهي هارون لهم.

لكن ما سبب هذه الردة العقدية؟!

ويرجع الدكتور محمود مزروعة نزوع بني إسرائيل إلى عبادة العجل وقت غياب موسى إلى عدة أسباب أهمها: القاعدة التاريخية المعروفة بولع المغلوب بتقليد الغالب، وميل بني إسرائيل بطبيعتهم إلى تقديس المادية، وطول العهد الذي قضوه بين المصريين مما أنساهم كثيرًا من أركان دينهم[1].

وتصور الآيات عودة موسى غاضبًا من فعلة قومه الشنيعة ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾ [طه:٨٦-٩١].

والسامري هو كلمة السر التي كان لها الأثر الأكبر في قوم موسى، فهو من أقنعهم بأنهم في حاجة إلى إله يصنعونه من الذهب الذي جاؤوا به عندما خرجوا إلى سيناء، ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وتلك آفة قديمة أن يدعي البعض احتكار الحقيقة دون غيره؛ فيسمع له من لا عقل له، ويخضع من لا حيلة له.

ويبدو أن بعضهم قد آب إلى نفسه وأفاق من سكراته قبل أن يرجع موسى عليه السلام إليهم، ويصور لنا القرآن مشهد ندمهم على هذا الضلال المبين.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف:١٤٩].

ويسجل القرآن مشهد عودة موسى عليه السلام الغاضب مما فعله قومه بجهلهم، وكيف كان عتابه على قومه وأخيه هارون شديدًا.

يقول عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ [طه:٩٢-٩٣].

---

(١) انظر: الدين وحاجة الإنسانية إليه، ص ١٥١.

وقد روج بعض من لا يجيدون التعامل مع الخطاب القرآني أن هناك تواطؤًا من جانب هارون عليه السلام بدليل غضب موسى عليه السلام على النحو الذي أشارت إليه الآيات، لكن هذا ما ينفيه القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥].

فموسى يعلم قبل أن يرجع إلى قومه أن سبب ضلال قومه هو السامري وليس هارون، وقد شرح الأخير ما حدث معه ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

فالآيات هنا تشير إلى أن القوم تكالبوا عليه واستضعفوه وقت غياب أخيه، وصمموا على عبادة العجل رغم نصحه لهم ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

إن هارون كما يبدو من قوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

آثر أن يقدم النصيحة بلسانه للضالين من قومه دون أن يغير المنكر بيده ومعه بعض من رفضوا عبادة العجل حتى لا يحدث شرخًا بين بني إسرائيل، وربما اقتتلوا؛ ومن ثم آثر أن ينتظر حتى يعود أخوه.

على أن الشيخ الطاهر ابن عاشور يقول: «وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه، أي: إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل، واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب، ولم يكن له عذرًا، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنما كان هارون رسولًا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلا الاعتذار والاستصفاح منه. وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد، ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير»[(١)].

فهو يرى أن اجتهاد هارون كان في غير محله، ومن ثم استوجب تعنيف أخيه.

وبعد أن توجه موسى بحديثه إلى قومه،

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١١٦.

ثم ما كان منه مع هارون، وحتى تتضح الصورة أكثر توجه بالخطاب إلى السامري الذي أضل بني إسرائيل وسول لهم عبادة العجل تشبهًا بالوثنيين ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾ [طه:٩٥-٩٧].

ويفسر صاحب الظلال هذا الترتيب السليم في الاستجواب قائلا: «عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسئولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسئول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا؟ لأنه لم يفتنهم بالقوة ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرًا»[(١)].

وهكذا ينتهي موسى من مساءلة قومه وأخيه والسامري وذهب عنه الغضب حمل الألواح ثانية ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ [الأعراف:١٥٤].

ثم إن الله تعالى توعد الذين أضلوا بني إسرائيل بعبادة العجل، مع ترك الباب مفتوحًا أمام من غرر بهم للتوبة والرجوع إلى الله، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾ [الأعراف:١٥٢-١٥٣].

وقد تاب الله على من تاب منهم وعفا عنهم كما أشارت الآيات ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾ [البقرة:٥١-٥٢].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٨.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

رغم تكرار كثير من تفاصيل حياة نبي الله موسى عليه السلام في القرآن الكريم بشكل لافت للنظر إلا أن قصته مع العبد الصالح لم تذكر إلا في موضع واحد في سورة الكهف رغم انطوائها على دروس تربوية واجتماعية ونفسية ودعوية، لكن السورة لم تورد شيئًا عن سبب هذا اللقاء الذي جمع بينهما.

ثمة أحاديث نبوية مطهرة تكفلت بهذه الحلقة التي لم يتناولها القرآن، ففي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما موسى في ملإٍ من بني إسرائيل جاءه رجلٌ فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضرٌ، فسأل موسى السبيل إليه)»[(١)].

ويبدو أن حديث موسى عليه السلام كان مفعمًا بالمشاعر الرقيقة الجياشة التي جعلت العيون تدمع من صدق لهجته وصادق موعظته، ففي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (موسى رسول الله ذكر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب)[(٢)].

فسبب اللقاء كما في الحديث الشريف هو إعجاب موسى عليه السلام بعلمه عندما سئل إن كان هناك من هو أعلم منه أم لا؛ فأراد الله تعالى أن يعلم نبيه فجاء الأمر الإلهي إليه أن يتوجه إلى لقاء رجل حاز من العلم ما لم يحزه؛ فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نونٍ كما في الحديث السابق.

ولا يعول على ما ورد عن أهل الكتاب أن موسى هنا ليس موسى بن عمران النبي عليه السلام إنما هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ فليس في القرآن إلا ابن عمران النبي، ولو كان الأمر خاصًا بغيره لنبه القرآن على ذلك، ومن ثم فالسياق القرآني حاكم، فضلا عن أحاديث صحيحة منها ما روي عن سعيد بن جبيرٍ، قال: «قيل لابن عباسٍ: إن نوفًا يزعم أن موسى الذي ذهب يلتمس العلم ليس بموسى بني إسرائيل، قال: أسمعته يا سعيد؟ قلت: نعم، قال: كذب نوفٌ»[(٣)].

وفي ذلك يقول ابن كثير: «والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه، أنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى العبد الصالح، رقم ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الكهف، رقم ٤٣٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل العبد الصالح عليه السلام، رقم ٢٣٨٠.

موسى بن عمران، صاحب بني إسرائيل»[1].

واختلف المؤرخون والمفسرون حول العبد الصالح اختلافا لا يتسع له المقام حول اسمه ونسبه ونبوته؛ بل ذهب البعض إلى القول إنه حي لم يمت حتى الآن[2].

كما اختلفوا في المكان الذي سماه القرآن ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لكننا لن نتوقف كثيرًا أمام تفاصيل سكت عنها القرآن لحكم إلهية يعلمها الله، ونحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا أن نحلق حول حزمة الآيات التي تناولت القصة والوقوف على ما تيسر من المقاصد والعبر.

تبدأ القصة ببيان حرص موسى عليه السلام ودأبه على طلب العلم امتثالا لأمر ربه ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

قال الفخر الرازي: «يعني: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول: لا أبرح المكان»[3].

ثم يمضي موسى عليه السلام مع فتاه إلى المكان المقصود ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف:٦١-٦٢].

يقول ابن قيم الجوزية: «لما سافر موسى إلى العبد الصالح وجد في طريقه مس الجوع والنصب؛ فقال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فإنه سفرٌ إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفرٌ إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»[4].

كانت المفاجأة التي ينتظرها موسى عليه السلام؛ فقد قال له يوشع: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف:٦٣].

لكن موسى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤].

وهنالك كانت اللقيا، وفي الحديث الشريف بعض تفاصيلها: **(وانطلق بفتاه يوشع بن نونٍ، وحملا حوتًا في مكتلٍ، حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما، فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا،**

(١) البداية والنهاية ٢/ ١٧٠.
وانظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، رقم ١٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٦٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٢٤٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٢١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٧٩.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣.

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى مسًا من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾).

لقد وجد موسى عليه السلام ويوشع رجلا وصفه الله تعالى بأنه كان ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فمن العلم ما يكون بالاجتهاد والتحصيل، ومنه ما يكون لدنيًا يهبه الله من يشاء من عباده، وفي كل الأحوال لابد أن يقترن العلم بالرحمة؛ بل تتقدم الرحمة على العلم؛ لأن المتعلم أسير عند معلمه، فكان الرفق به واجبًا.

استأذن موسى عليه السلام العبد الصالح في تحصيل العلم على يديه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

وهذا من آداب المتعلم أن يقدم الإذن بين يدي شيخه ومعلمه في تواضع وإخبات لا في كبر واستعلاء، لكن الرجل قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف: ٦٧].

وبرر ذلك بقوله متسائلا: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨].

لكن موسى الذي جعله ربه في موضع المتعلم قال للرجل: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف: ٦٩].

فأعطاه بذلك عهدًا أن يطيعه فلا يعصي أمره، وهو ما جعل الرجل يشترط عليه مرة أخرى إمعانًا في التأكيد ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٧٠].

وفي الحديث: (فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجلٌ مسجًى بثوبٍ، أو قال تسجى بثوبه، فسلم موسى، فقال العبد الصالح: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إني على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ علمكه لا أعلمه، قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا، ولا أعصي لك أمرًا).

ثم انطلقا لتبدأ رحلة الأعاجيب التي حكاها القرآن في قالب مشوق يجعل القارئ شغوفًا بما تؤول إليه الأحداث.

وفي الحديث (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينةٌ، فمرت بهما سفينةٌ، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف العبد الصالح فحملوهما بغير نولٍ، فجاء

عصفورٌ، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرةً أو نقرتين في البحر، فقال العبد الصالح: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر).

وهنا الدرس الأول لموسى: قصور علمه وضآلته أمام علم الله تعالى.

كان من الطبيعي وبسبب عدم إحاطة موسى بحقيقة الأمر أن تورثه تصرفات الرجل المفاجئة، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عندما ﴿رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١].

فقد خان موسى عليه السلام ثباته الانفعالي ونسي عهده بعدم السؤال عن شيء؛ فاستنكر عليه خرق السفينة لإغراق أهلها رغم إكرام أصحابها لهما وحملهما بدون أجرة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! فذكره الرجل بالاتفاق ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف:٧٢].

وسرعان ما آب موسى إلى نفسه وقدم الاعتذار بين يدي المعلم ملتمسًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٣].

في الحديث: (فعمد العبد الصالح إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نولٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا، فكانت الأولى من موسى نسيانًا).

ثم إنهما انطلقا فقابلا غلاما فقتله العبد الصالح؛ فارتاع موسى عليه السلام وقال في استهجان: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٧٤].

عندها رد العبد الصالح: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف:٧٥].

تذكر موسى العهد فأعاد الاعتذار مرة أخرى طالبًا الصفح؛ بل اشترط على نفسه قائلا للخضر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٦].

في الحديث: (فانطلقا، فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمان، فأخذ العبد الصالح برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفسًا زكيةً بغير نفسٍ؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟).

ثم كان الموقف الثالث الذي جعله يفارق موسى، يحكي القرآن ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف:٧٧].

ويبدو أن مالهما قد نفد أو كاد، أو أن موسى أراد للخضر أن يأخذ أجرة بعد

عدم تضييفهما في القرية، ومن ثم اقترح عليه قائلًا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

ولكن العبد الصالح رأى في ذلك إخلالا بالاتفاق المرسوم بينهما فبادر إلى الفراق ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف:٧٨].

ولم ينس أن يخبر موسى عليه السلام عن الحقائق الغائبة عنه حتى يحسن الظن به.

وفي الحديث: (فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال العبد الصالح: بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، قال: هذا فراق بيني وبينك) قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما).

بدأ العبد الصالح بيان الأسباب التي دعته إلى هذه التصرفات التي رآها موسى جرائم لا يمكن السكوت عنها، فأي عقل هذا الذي يجعله يصدق أن خيرًا خفيًا يكمن وراء خرق السفينة بدلا من الوفاء لهم جزاء إحسانهم، أو قتل الغلام الذي لم يروا منه بأسًا، أو ترميم جدارٍ دون أخذ أجرة عليه رغم سوء معاملة أهل القرية لهما؟!

لقد نسي موسى عليه السلام أنه ذهب متعلمًا، ومن ثم أنكر عليه أفعاله؛ وهكذا النفوس المجبولة على الخيرية لا يمكنها أن تتغاضى عن إنكار المنكر مهما تكلفوا؛ لكن الواقع أثبت أن موسى لم يكن يعلم من الأمور إلا ظاهرها، لا كما العبد الصالح الذي أطلعه الله على بعض الغيبيات فتصرف على هذا الأساس.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٧٩-٨٢].

وهكذا تكشفت المقاصد الخفية وراء هذه الأحداث الغريبة التي أصابت موسى بالقلق والاضطراب طيلة الرحلة؛ فأدرك حينها قصور علمه ووجوب التواضع وعدم نسيان نعمة الله عليه.

الدروس المستفادة من قصة موسى

١. إن عناية الله تعالى بموسى عليه السلام تجعل العاقل في اطمئنان لقضاء الله، فمن يتخيل أن ينجو الرضيع بالإلقاء في البحر، ويربى في بيت عدوه وعدو قومه الذي سيزول ملكه على يده، ويجعل زوجة الفرعون هي مربيته وحاضنته، والمصريون هم حاشيته وخدمه، وأمه هي مرضعته، فلا امتدت يد الذبح إليه، ولا هو فارق أمه، وقد رباه حتى شب من سيقف في وجهه يومًا؛ يدعوه إلى عبادة الله الواحد، ورفع نير العبودية عن بني إسرائيل.

٢. عاش موسى عليه السلام في بيت فرعون يرفل في النعيم لكنه لم ينس أصله وقضيته، فرعاية الله تعالى له وحفظه في بيت عدوه لم تكن من أجل حفظ موسى؛ بل لرسالة سيحملها ويكلف بتبليغها إلى فرعون للخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

٣. على المؤمن أن يستعين دومًا بربه ليهديه، فموسى عليه السلام كان دائمًا معتمدًا على ربه، محتاطًا في أمره، متخذًا الوسائل والأسباب المناسبة، استعان بربه وقت خروجه من مصر، وساعة دخوله مدين، وأثناء عودته، ووقت مواجهته لفرعون لما دعاه ثم آذاه وتبعه حتى أغرق، وطول مخالطته لبني إسرائيل.

٤. المروءة من أخلاق العظماء التي تتجلى حينما يبذل الإنسان من وقته وجهده وماله ولا ينتظر جزاءً أو شكورًا من أحد، ولا يجرمن النبلاء أن المروءة قد تصل بأصحابها إلى حد إهلاك المال والأنفس.

٥. للعمل قيمةٌ عظيمة أدركها الأنبياء، فموسى عليه السلام لم يرض أن يكون عالةً على أحد، فعمل أجيرًا لسنوات طويلة، وقضى من عمره عقدًا كاملًا -أو أقل قليلا- في خدمة صهره؛ لزواجه من ابنته، وهو الذي عاش في القصور لم يأنف خدمة الآخرين، ولكنه وطن نفسه لتحمل المشاق، وتغير أحوال الزمان، ودار مع أحواله جميعًا بالرضى.

٦. وفاء موسى عليه السلام مع الشيخ نموذج يحتذى به، فقد أدى ما عليه، ولم تزده الأيام إلا وفاءً لصهره ورب عمله؛ وكان من المحتمل بعد زواجه من ابنته أن يتبرم أو ينكث، ولكنه صبر على العمل حتى وفى ما عليه، وربما زاد عليه.

٧. كثيرٌ من الناس لا يؤمن إلا بما هو محسوس وملموس، وينكر ما لا يقع تحت حواسه، وهذا مجاف للواقع، وما لا يراه الإنسان أكثر بكثير مما يراه، ولو أنكر ما لا يقع تحت حسه لأنكر ضروريات، ولخسر خسرانًا مبينًا؛ فالجنة والنار غيب، والقيامة غيب، والملائكة غيب، فإذا أنكر الإنسان ما جاءت به الرسل لعدم وقوعها تحت حسه، فالخسران والبوار في انتظاره عند تحقق ما كان ينكره.

٨. فارق بين الخوف المشروع والخوف المذموم؛ فطبيعة الإنسان قد تخاف وترهب بعض الأمور، فالإنسان يخشى على نفسه التلف والهلكة، ويخشى من بعض الحيوانات المفترسة، ويخاف على أولاده وذويه فيضعف عند الضغط عليه ومساومته، فهذه فطرة في معظم البشر، ولكن أصحاب الهمم العالية يتجاوزون خوفهم، ويستمدون القوة من الله تعالى، ولا يجبنون، ويواجهون الشدائد بعزم وثبات.

٩. النسب غير مانع من الاستعانة في العمل لا سيما الدعوي طالما كان الشخص مهيئًا لذلك، فبه يكون شد العزم والتثبيت، وهو الخليفة والقائد في الغياب، وعليه يكون التعويل في الشدائد، وقد حاول موسى عليه السلام الاستفادة من قدرات أخيه في خدمة الدعوة.

١٠. تحول سحرة فرعون في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان، وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها، ولهذا على الداعية ألا ييأس من مدعويه، فما يدريك لعل عدو الأمس يصبح صديق اليوم.

١١. لا يجد المستبدون بدًا من اللجوء إلى سلطتهم وقوتهم الغاشمة التي لا يعرفون غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق؛ وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول، فيبطشون بمن يعارضهم ولا ينزل على رأيهم، ويظنون أن قوتهم غالبة، ولكنهم يكونون في أضعف حالاتهم؛ إذ إن من يقف في وجوههم يكون أقوى منهم بإيمانه ويقينه وثباته.

١٢. ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى عليه السلام نفعًا، وبالتالي يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها

ممن يؤرق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسيًا أن الفكرة لا تموت، وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم.

١٣. الدنيا لا تعدم الخير حتى في أشد الأماكن فسادًا وعطنًا فقد انبرى رجل مؤمن في بلاط فرعون المستبد مدافعًا عن موسى عليه السلام ومتحدثًا بلغة العقل والمنطق، محاولًا الأخذ بيد قومه إلى الحق والرشد، ومحذرًا لهم من عاقبة التكذيب والعناد، وضاربًا لهم المثل بالأمم السابقة وما حدث لها جراء تجاهلهم للحق وتكذيبهم أنبياءهم.

١٤. الحكام الجائرون لا يتركون طريقًا إلا سلكوها في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض، فيسلكون سبيل الحوار إن كان يؤدي إلى ما يريدون، فإذا خاب سعيهم بحثوا عن وسائل أخرى تحقق مبتغاهم، حيث الترهيب والترغيب، ويكون في سيوفهم رهق دائمًا.

١٥. إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٥]. وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥].

١٦. الطبع يغلب التطبع، فقد عاود بنو إسرائيل التمرد بدلا من شكر النعم، ويحكي القرآن ما دار بين موسى عليه السلام وقومه وكيف تبدلوا الخبيث بالطيب؛ فطلبوا عبادة العجل، واشتهاء الدون من الطعام، كأنهم يتمردون على ربهم الذي أنجاهم ممن كاد أن يهلكهم، وقد نال موسى من قومه شدائد عظامًا لا يقدر عليها إلا أمثاله من أولي العزم.

١٧. أحس موسى عليه السلام بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه، وهكذا المؤمن يؤمن بالغيب إيمانًا لا يتزعزع، ويثق فيما غاب عنه

كأنه يعاينه طالما جاء به الخبر الصادق. وإذ لكل حادث حديث؛ فإن هناك من الأمور ما لم يأت وقته، فلا يصح أن نعجل عليها.

١٨. كان من العجب أن يتجه بنو إسرائيل إلى عبادة العجل، بعد أن رأوا إهلاك الله لعدوهم، وإنجاءه لهم، وانفلاق البحر، وكلها مشاهد عجيبة لا تحدث في تاريخ البشرية إلا مرة واحدة، ثم يكون انطماس البصائر، والحنين إلى الشرك الذي كان عليه المصريون من عبادة الأوثان وترك توحيد الديان.

١٩. عصيان بني إسرائيل لموسى وعدم دخول الأرض المقدسة أوجب عليهم أن يقعوا في التيه جيلًا كاملًا؛ حتى يأتي جيل جديد يفعل ما أمره الله به، ولا يخاف أحدًا إلا الله، ويتبع أنبياءه وقادته الذين هم الأدلاء لهم إلى طريق الحق والنصر، فالعقوبة شديدة على قدر الذنب، والنصر يأتي مع الطاعة وبها.

٢٠. المسلم مطالب بالتأمل في مصير الأولين وأخذ العبرة والموعظة بعيدًا عن التفاصيل التي سكت عنها القرآن، وهو الأمر الذي عودنا القرآن إياه مع الأمور التي قد لا ينفع العلم بها، والجهل بها لا يضر.

٢١. قد يعلو صوت الباطل مدة تطول أو تقصر، لكن يأتي اليوم الذي يتكشف فيه زيفهم، وينتصر الحق الذي كان مستضعفًا، ويندحر الباطل الذي كان منتفشًا، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويخزى أهل الباطل لا ريب.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، التوراة، فرعون، الكتب المنزلة، مدين، النبوة





عناصر الموضوع

مفهوم الميثاق

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «وثق، الواو والثاء والقاف كلمة تدل على عقد وإحكام»[(١)].

ووثقت الشيء: أحكمته، ووثق الرجل: قال: إنه ثقة. ووثق به وثاقة وثقةً أي: ائتمنه، وواثقه: إذا عاهده أو عاقده، والتوثيق: التثبيت والتقوية، وأرض وثيقة: كثيرة العشب موثوق بها، والوثيق: الشيء المحكم[(٢)].

ومن خلال النظر في معاني الميثاق في اللغة فإنه يمكن إجمال هذه المعاني فيما يأتي:

١. العهد المحكم.

٢. العقد والإحكام.

٣. التقوية والتثبيت.

٤. الشد والربط.

٥. الأخذ بالوثاقة والوثيقة.

٦. الاستحلاف واليمين[(٣)].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

الميثاق اصطلاحًا: «هو العقد المؤكد إما بوعيدٍ أو بيمينٍ»[(٤)].

وعرف الإمام أبو جعفر الطبري الميثاق بقوله: «الميثاق من الوثيقة، وهي إما بيمين، وإما بعهد أو غير ذلك من الوثائق»[(٥)].

قال صاحب المنار: «العهد ما يتفق رجلان أو فريقان من الناس على التزامه بينهما لمصلحتهما المشتركة، فإن أكداه ووثقاه بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به سمي ميثاقًا»[(٦)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٦/ ٥٤٤.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٧١، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥٠.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٥٤٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٧١، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥٠.

(٤) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٧.

(٥) انظر: جامع البيان ٢/ ١٥٦.

(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٦٧.



الميثاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وثق) في القرآن الكريم (٣٤) مرة، يخص موضوع الميثاق منها (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ [المائدة:٧]
المصدر الميمي	٣	﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦]
اسم التفضيل	٢	﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]
الأسماء	٢٥	﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾ [النساء:٢١]

وجاء الميثاق في القرآن بمعناها اللغوي وهو: عقد مؤكد بيمين وعهد[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤١.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٨٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٥٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٥٨، عمدة الحفاظ ٤/ ٢٨٢-٢٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العهد:

العهد لغةً:

هو الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره، ويقال: عهد إليه، أي: أوصاه. فهو: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك[١].

العهد اصطلاحًا:

قال الراغب: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال[٢].

وقيل: هو الميثاق واليمين التي يستوثق بها المعاهد ممن عاهده ويلزم مراعاته[٣].

الصلة بين العهد والميثاق:

- إن العهد أعم من الميثاق، حيث يأتي العهد لمعان غير معنى الميثاق، أما (الميثاق) فهو أخص من العهد، ولفظ (الميثاق) عند المفسرين يأتي بمعنى العهد.
- إن العهد في القرآن الكريم يأتي بمعنى الميثاق، حيث إن كثيرًا من الآيات التي جاءت بلفظ العهد هي بمعنى الميثاق، كقوله تعالى عن اليهود: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾ [البقرة:١٠٠].

٢ البيعة:

البيعة لغة:

هي العهد على الطاعة، وهي في الأصل: الصفقة من البيع، ثم استعملت في العهد والميثاق، وأصل ذلك كله من الصفق باليد؛ لأن المتعاهدين والمتبايعين يضع أحدهما يده في يد الآخر[٤].

البيعة اصطلاحًا:

هي العقد الذي يعقده الناس على أنفسهم من بذل الطاعة للإمام، وتسليم النظر له في

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٩.

(٢) المفردات ص ٥٩١.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٥٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٤٨.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٣٧٠، تحرير ألفاظ التنبيه، النووي ص ٢٧٦، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص٤٧٢، جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٠٦.

أمور أنفسهم، وعدم منازعته في شيء من ذلك، وطاعته فيما يكلفهم به من الأمر، على المنشط والمكره، والوفاء بالعهد الذي التزموه له[(١)].

الصلة بين البيعة والميثاق:

أن البيعة نوع من أنواع الميثاق، وهي تختص بالجوانب السياسية أو الجهاد أو غير ذلك.

٣ العقد:

العقد لغة:

قال ابن فارس: «عقد: العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، من ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود، وهو نقيض الحل، ويأتي بمعنى العهد، ويأتي بمعنى الربط بين أطراف الشيء[(٢)].

العقد اصطلاحًا:

وهو اتفاق بين طرفين يلتزم بمقتضاه كل منهما تنفيذ ما اتفقا عليه، ويجمع على عقود[(٣)].

الصلة بين العقد والميثاق:

- إن الميثاق عقد موثق بيمين، لا يجوز نقضه بحال إن كان مع الله تعالى، وإن كان بين الناس فيجب الوفاء به إلا أن ينقضه الطرف الآخر.
- إن العقد من معانيه العهد والميثاق، وذلك من خلال كونه التزاما لا يجوز نقضه، فهو بهذا المعنى قريب من معنى العقد بالإطلاق العام وأعم منه بالإطلاق الخاص[(٤)].
- إن العقد ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله، أو هو: التزام المتعاقدين وتعهدهما أمرا معينا[(٥)]، وبذلك يكون العقد ميثاقا وعهدا والتزاما وإلزاما باستيثاق بخلاف العهد فإنه قد يكون باستيثاق وقد لا يكون[(٦)].

---

(١) انظر: تحرير ألفاظ التنبيه، النووي ص ٢٧٦، التراتيب الإدارية، الكتاني ١/ ١٩٨، السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، عبد الوهاب خلاف ص ٦٠، الخلافة، محمد رشيد رضا ص٣٢.

(٢) انظر: مقاييس اللغة ٤/ ٨٦، لسان العرب، ٣/ ٣٦٣.

(٣) التعريفات، ص ١٥٥.

(٤) انظر: رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ٢/ ٣٥٥، المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي ٢/ ٣٩٧، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٩٩.

(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٥٣.

(٦) انظر: رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ٢/ ٣٥٥، المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي ٢/ ٣٩٧، المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١/ ٢٩١، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٩٩.

أساليب القرآن في الحديث عن الميثاق

عرض القرآن الكريم قضية الميثاق على عدة أساليب، أهمها ما يأتي:

أولًا: الخبر:

جاءت آيات كثيرة بصيغة الخبر مفيدة عاقبة نقض العهد، أو جزاء الوفاء بالميثاق.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٦- ٢٧].

وكما أن الضلال والفسق عاقبة الناقضين لعهد الله تأتي آية أخرى لتقابل معنى هذه الآية حيث جعل التقوى جزاء من أوفى بعهده: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

وهذا الأسلوب رائع، حيث جعل نقض العهد في الآية الأولى ملازما للفسق، وجعل التقوى في الآية الثانية ملازمة للوفاء بالعهد، وهذا فيه من البيان والبديع ما فيه[1].

وفي آية أخرى يأتي الخبر في سياق التذكير والامتنان: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣- ٦٤].

هذه صيغة تحيي القلوب الميتة، وأسلوب يدعو إلى الشكر والإيمان والوفاء، لمن في قلبه ذرة من كرم أو حياء.

ونجد أسلوب المقابلة بصيغة خبرية رائعة، والمقابلة نوع من البلاغة بديع، وهذا الأسلوب له أثره الإيجابي في النفس تلاوة واعتبارًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٠-٢٤].

ثم يذكر ما يقابل ذلك عملًا وأثرًا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥].

وتتعدد الصيغ الخبرية، وكلها تعرض

(١) انظر: الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٤ رسالة ماجستير من جامعة المدينة العالمية، كلية العلوم الإسلامية، ماليزيا، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٢م.

بأسلوب جميل، فمرة تأتي بسياق الأمر، وأخرى في معرض النهي وثالثة مسبوقة بجملة استفهامية[1].

ثانيًا: النهي:

ورد النهي عن نقض الميثاق بصيغة طلبية وبأسلوب خبري.

يقول تعالى في سورة النحل بعد الأمر بالوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [النحل:٩٥].

وهذا نهي صريح عن نقض العهود والمواثيق.

أما الأسلوب الخبري وهو يحمل معنى النهي فقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:٢٠] فمدلوله لا تنقضوا الميثاق لتكونوا من أولي الألباب[2].

ثالثًا: الاستفهام:

ورد الميثاق بصيغة الاستفهام التوبيخي في عدة آيات، منها قوله تعالى موبخا بني إسرائيل على سوء أفعالهم وخيانتهم الميثاق: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:١٦٩].

ويبين الله تعالى ما سيوجه للكافرين يوم القيامة من توبيخ وتقريع لتفريطهم بالعهد والميثاق الذي عهده الله إليهم فضيعوه: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس:٦٠- ٦١].

وجاء الاستفهام إنكاريًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠][3].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٣، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٠٥، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٤.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٦٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٢٧، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٤٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٦٢، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٢.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٥٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ٩ / ٧٥، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٢.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة:٧][1].

ويستمر عرض موضوع العهد والميثاق بأسلوب الاستفهام، فيأتي الاستفهام بمعنى النفي: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة:١١١].

وهكذا يكون الاستفهام بأنواعه أحد الأساليب البلاغية التي عرضت فيها قضية الميثاق توبيخا وإنكارا ونفيا[2].

رابعًا: الإجمال والبيان:

أجمل القرآن الكريم قضية الميثاق في مواضع، وبين وفصل في مواضع أخر، وهذا أسلوب بلاغي رفيع، ففي الإجمال لا إخلال، وفي البيان لا حشو ولا إسهاب.

فقد ذكر الله في سورة البقرة أنه قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل دون أن يبين أو يفصل في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [البقرة:٦٣].

فتتشوق النفوس وتتطلع الأفئدة لمعرفة ذلك الميثاق، وسرعان ما يأتي البيان والتفصيل في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة:٨٣][3].

ويأتي زيادة بيان وتفصيل لهذا الميثاق بقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢﴾ [المائدة:١٢].

وكذلك ذكر الله أخذ الميثاق على النبيين ولم يفصل فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٤١، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ١٣، الوجيز، الواحدي ص ٤٥٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٧٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٢٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٠٨، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٣.

ثم فصل وبين ما أجمل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

والمعنى أنه تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق مع المبعوث بعده، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته[(١)].

خامسًا: الترغيب والترهيب والوعد والوعيد:

إن من أبرز الأساليب القرآنية في قضية الميثاق أسلوب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، بل إن أغلب الآيات التي وردت في هذا المجال لا تخلو من أحد هذين الأسلوبين، وفي آيات منها يأتي الجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٠-٢٥].

فقد بينت الآيات جزاء الذين يوفون بالميثاق بأن لهم جنات عدن، وأن لهم عقبى الدار، والتي هي الجنة، كما بينت جزاء الذين ينقضون الميثاق بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، والتي هي النار[(٢)].

ومن الآيات التي جمعت بين الوعد والوعيد وبينت جزاء الوفاء بالميثاق وعاقبة الكفر والعصيان قوله تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٤، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٥٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٦، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٧٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٧٠.

﴿... مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

وهناك آيات تعرض القضية بأسلوب آخر في معرض الترغيب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:١-٨].

فما هو جزاؤهم، وماذا أعد الله لهم؟ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠- ١١].

ويأتي الوعيد مخيفًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧].

ولم يقتصر التهديد والوعيد على الآخرة فقط، بل هناك تهديد ووعيد دنيوي؟ لا يدع مجالا للمتلاعبين والخائنين الناقضين مواثيقهم: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال:٥٦-٥٨][1].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٤، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٥٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٧٠.

أنواع الميثاق

إن الميثاق في القرآن الكريم على نوعين رئيسين: الأول: ميثاق الله مع الخلق، والثاني: الميثاق بين الخلق، والأول على خمسة أنواع، وهي: ميثاق الله مع بني آدم، وميثاق الله مع النبيين، وميثاق الله مع المؤمنين، وميثاق الله مع بني إسرائيل، وميثاق الله مع أولي العلم. والثاني على أربعة أنواع، هي: الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم، والميثاق بين الراعي والرعية، والميثاق بين الناس، والميثاق بين الدول، وهذه الأنواع الرئيسة والفرعية يمكن بيانها فيما يأتي:

أولًا: ميثاق الله مع الخلق:

١. ميثاق الله مع بني آدم.

يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم وهم في عالم الأرواح حيث تشعر كل روح بذاتها ووجودها، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وسألهم: ألست بربكم؟ فشهدوا جميعا، وقالوا: بلى أنت ربنا وخالقنا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢ - ١٧٣][(١)].

وما أخذ الله عليه الميثاق من بني آدم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها وجبلهم عليه.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**)[(٢)].

ويذكر الله تعالى العبد بهذا الميثاق يوم القيامة، وذلك فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد**

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٢٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٤٧، تفسير السمعاني ٢/ ٢٢٩، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم ١٣٥٨، ٢/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨، ٤/ ٢٠٤٧.

أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي)[1].

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، ثم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى. أي: أوجدهم شاهدين بذلك، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾، وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧].

أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات:٧][2].

والذي يترجح في هذه المسألة أن الله أخرج ذريه آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم مشهدا بعضهم على بعض، وهذا قول جمهور المفسرين وبعض الصحابة والتابعين، هو الذي يدل عليه سياق الآية، وجاءت به الأحاديث المفسرة للآية، وقد نص الإمام ابن عطية على تواتر الأحاديث على إخراج الذرية من ظهر آدم عليه السلام وأخذ الميثاق منهم[3]، قال الإمام ابن عطية: «..... وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وغيرهما أن الله عز وجل لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منها أي من المسحة أو الضربة نسم بنيه كالذر أو كالخردل، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية، فشهد بعضهم على بعض، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا، رقم ٢٨٠٥، ٤/ ٢١٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٥٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٦٧، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ١٨٥.

قال أبو بكر الجزائري: «لقد حاول كثيرون التخلص من قضية أخذ الرب تعالى من ظهر آدم ذريته وإشهادهم على أنفسهم، ونطق الأرواح وشهادتها، ولا داعي لهذا أبدا ما دامت الأحاديث والآثار كثيرة، وقدرة الله صالحة لكل شيء ولا يعجزها شيء، ما هي النملة؟! وقد أنطقها الله فنطقت وأفصحت، إن الحيوان المنوي الذي منه تكون الذرية قال العلماء: لو جمعت الحيوانات المنوية كلها من آدم إلى اليوم ووضعت في فنجان ما ملأته، أمع هذا يحاول إبطال الأحاديث وتأويل الآية على غير ظاهرها رجل من أهل العلم؟!».

انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٢٦١.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤.

وقال ابن عاشور: «ومما يثبت هذه الدلالة أخبار كثيرة رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن جمع من أصحابه، متفاوتة في القوة غير خال واحد منها عن متكلم، غير أن كثرتها يؤيد بعضها بعضا»[1].

ومن الآيات العامة التي ذكر بعض المفسرين أحد المعاني المذكورة في الميثاق الذي ذكره الله عز وجل في الآيات هو الميثاق الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصفه، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد:٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧].

قال الإمام ابن جرير والماوردي والقرطبي وابن كثير: في أحد المعاني المذكورة في الميثاق الذي ذكره الله عز وجل في الآيات هو الميثاق الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣][2].

٢. ميثاق الله مع النبيين.

أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين عليهم السلام على الوفاء بما حملوا من الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضا، ويبشر بعضهم ببعض، وعلى أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادته، وينصحوا لقومهم، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصروه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران:٨١- ٨٢].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٦٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٨٣، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٨٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦.

وقد اختلف المفسرون في الآية: هل كان أخذ الميثاق من النبيين، أو من أممهم؟ على أقوال:

القول الأول: ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين، منهم: علي وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والحسن وطاوس والسدي وسعيد بن جبير وغيرهم إلى القول بأن الميثاق قد أخذ على الأنبياء أنفسهم، واستدل هؤلاء بظاهر الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧][1].

قال الإمام ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام أنه مهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾؟ وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة والسدي: يعني عهدي. وقال محمد بن إسحاق: (إصري) أي: ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد، ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: عن هذا العهد والميثاق، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾»[2].

القول الثاني: ذهب بعض المفسرين إلى أن الميثاق أخذ من أتباع الأنبياء، ولم يؤخذ من النبيين أنفسهم، وتأويل الآية عندهم: وإذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين، أو: وإذ أخذ الله ميثاق أتباع النبيين، أو: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين على أممهم، ونحو ذلك، فأضافوا (ميثاق) إلى (النبيين) وقدروا محذوفا كما تقول: عهد الله ويمين الله وميثاق الله، وممن قال بذلك علي وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد والربيع وغيرهم[3].

والراجح هو القول الأول، فإن الله قد أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا، وينصر بعضهم بعضا، وأمرهم بأن يأخذوا ذلك على أممهم، على أن القول الثاني لا يعارض الأول، ولكنه أخص منه، وقد رجح الإمام الطبري القول الأول بقوله: «وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: الخبر عن أخذ الله الميثاق من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٩٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨.

(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٦٨١، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٥٩، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٣٦.

أنبيائه بتصديق بعضهم بعضا، وأخذ الأنبياء على أممها وأتباعها الميثاق بنحو الذي أخذ عليها ربها من تصديق أنبياء الله ورسله بما جاءتها به؛ لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرسلت إلى أممها، ولم يدع أحد ممن صدق المرسلين أن نبيا أرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل»[1].

كذلك قال الإمام ابن كثير: «وما قاله طاووس وقتادة لا يضاد ما قاله علي وابن عباس رضي الله عنهم ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه»[2].

وقد وصف الله هذا الميثاق بأنه ميثاق غليظ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧][3].

والميثاق الغليظ هو تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضا، وأن يعلنوا أن محمدا رسول الله، ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا نبي بعده، وفي ذكر من سمى من الأنبياء ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم مع دخولهم في ذكر النبيين وجهان: أحدهما: تفضيلا لهم، الثاني: لأنهم أصحاب الشرائع، وهو من باب عطف الخاص على العام[4].

٣. ميثاق الله مع المؤمنين.

يقول تعالى مذكرا عباده المؤمنين بنعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من الميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧].

وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله[5]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا

(١) انظر: جامع البيان ٦/ ٥٥٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٨، معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٢٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٦٤، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٢٠.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، تفسير السمعاني ٤/ ٢٦١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم ٧١٩٩، ٩/ ٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم ١٧٠٩، ٣/ ١٤٧٠.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الحديد:٨][(١)].

واختلف المفسرون في الميثاق الذي ذكره الله في هذه الآية على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين إلى أنه الميثاق الذي جرى لهم مع النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، إذ قالوا: سمعنا وأطعنا كما جرى ليلة العقبة وتحت الشجرة، وأضافه تعالى إلى نفسه كما قال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠].

فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه، وكان أول من بايعه البراء بن معرور رضي الله عنه، وكان له في تلك الليلة المقام المحمود في التوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والشد لعقد أمره، وهو القائل: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر[(٢)].

القول الثاني: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم صلى الله عليه وسلم وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[(٣)].

والقول الأول هو الراجح، وهو الذي اختاره الإمام أبو جعفر الطبري، قال: «وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول ابن عباس، وهو أن معناه: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعمها عليكم بهدايته إياكم للإسلام، وميثاقه الذي واثقكم به، يعني: وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له في المنشط والمكره والعسر واليسر إذ قلتم: سمعنا ما قلت لنا، وأخذت علينا من المواثيق وأطعناك فيما أمرتنا به ونهيتنا عنه. وأنعم عليكم أيضًا بتوفيقكم لقبول ذلك منه بقولكم له: سمعنا وأطعنا.

يقول: ففوا لله أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به ونعمته التي أنعم عليكم في ذلك بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، يفِ لكم بما ضمن لكم الوفاء به إذا أنتم وفيتم له بميثاقه، من إتمام نعمته عليكم، وبإدخالكم جنته وإنعامكم بالخلود في دار كرامته،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥.

(٢) انظر: حدائق الأنوار، الحضرمي ص٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٠٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١١٧.

وإنقاذكم من عقابه وأليم عذابه»[1].

ومن الآيات التي تدل على ميثاق الله مع المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨].

وقد اختلف المفسرون في الميثاق في هذه الآية على أقوال:

الأول: أن المراد بذلك البيعة للرسول صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧][2].

الثاني: ما نصب في العقول من الدلائل والحجج الموجبة لقبول دعوة الرسل؛ لأن تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين، فلذلك سماه ميثاقا.

الثالث: يريد حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وهذا ضعيف، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول، فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سببا في وجوب تصديق الرسول، أما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل أحد، فذلك يكون سببا لوجوب الإيمان بالرسول، فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز[3].

والقول الأول هو الراجح في تفسير الآية، وهو القول الذي اختاره الإمام الطبري وابن كثير[4].

٤ـ ميثاق الله مع بني إسرائيل.

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أن الله قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وقد جاءت هذه الآيات بصيغ متعددة ومواضع متفرقة في كتاب الله، وهي على ثلاثة أوجه:

الأول: آيات مجملة لم يبين فيها إلا أنه أخذ عليهم العهد والميثاق:

من الآيات المجملة التي لم يبين فيها إلا أنه أخذ عليهم العهد والميثاق على بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

وخطابه إياهم جل ذكره بالوفاء في ذلك خاصة دون سائر البشر ما يدل على أن قوله:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩٣، تفسير السمعاني ٢/ ١٩، تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٩٠، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٣٨.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٣/ ١٧٢، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٥.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب - وإن كان لمن وصفت من الفريقين - فداخل في أحكامهم وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠].

فالعهد المذكور في الآية هو الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى، فوبخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك، وعير به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم في بعض ما كان جل ذكره أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته[٢].

الثاني: آيات فيها إشارة موجزة إلى نوع الميثاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

فقد بينت الآيات أن الميثاق أخذ على التوراة التي أنزلها الله لبني إسرائيل بأن يعملوا بما فيها من أمره وينتهوا عما نهاهم فيها بجد منكم في ذلك ونشاط[٣].

الثالث: آيات فيها شيء من التفصيل عما أخذ عليهم من عهود ومواثيق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

فقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على الوفاء له بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٤٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٥١.

ويتعاطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به، ويحثوا على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤدوا زكاة أموالهم[1].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤].

أخذ الله ميثاق بني إسرائيل بألا يقتل بعضهم بعضا، وألا يخرجوا غيرهم - من قومهم - من ديارهم[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

فلما أراد موسى صلى الله عليه وسلم محاربة الجبارين أمره الله بأن يختار من قومه اثني عشر نقيبا - كفلاء على قومهم - وأمرهم بالذهاب إلى الجبارين، وأخذ منهم الميثاق وأعطاهم الموعد بأنه سبحانه معهم وناصرهم على عدوهم إن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم وأقرضوا الله قرضا حسنا، مع وعده سبحانه بتكفير ذنوبهم وإدخالهم الجنة بعد ذلك إن وفوا بالعهد والميثاق الذي أخذه عليهم، وكفلهم بذلك نقباؤهم، وهذا معنى الميثاق في الآية[3].

فقد روى الإمام ابن جرير عن الربيع بن أنس: «أن موسى صلى الله عليه وسلم قال للنقباء الاثني عشر: سيروا إليهم - يعني: إلى الجبارين - فحدثوني حديثهم وما أمرهم، ولا تخافوا؛ إن الله معكم ما أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا»[4].

قال الطبري - معقبًا على هذا القول -: «وليس الذي قاله الربيع ببعيد من الصواب، غير أن قضاء الله في جميع خلقه أنه ناصر من أطاعه، وولي من اتبع أمره وتجنب معصيته وجافى ذنوبه، فإذا كان ذلك كذلك وكان

---

(١) انظر: معاني القرآن، الأخفش ١/ ١٣٣، جامع البيان، الطبري ٢/ ١٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٦٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٢.

(٣) انظر: معاني القرآن، الأخفش ١/ ١٣٣، جامع البيان، الطبري ٢/ ١٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٦٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١١٩.

من طاعته إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وسائر ما ندب القوم إليه كان معلوما أن تكفير السيئات بذلك وإدخال الجنات به لم يخصص به النقباء دون سائر بني إسرائيل وغيرهم، فكان ذلك بأن يكون ندبا للقوم جميعا، وحضا لخاص دون عام»[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧]

قال الإمام ابن كثير: «أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن ينوهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء:١٥٤].

أخذ الله العهد والميثاق على بني إسرائيل بأن يدخلوا الباب سجدا وألا يعدوا في السبت، وأن يعملوا بما في التوراة، وأخذ عليهم ميثاقا غليظا مؤكدا.

ومن خلال الآيات السابقة يتضح أن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة ثم جاءت عهود ومواثيق أخرى لتأكيد الميثاق الأول، والنص على مواثيق خاصة لأهميتها والعناية بها، مع أنها كانت داخلة في الميثاق الأول، وهو العمل بما في التوراة، ولا تعارض في ذلك، فهو خاص بعد عام، وكما أخذ الله الميثاق على الناس جميعا ميثاقا عاما، ثم خص منهم بعضهم كالنبيين وبني إسرائيل.

كما أخذ الله العهد والميثاق على النصارى بأن يطيعوه ويؤدوا فرائضه ويتبعوا رسله ويصدقوا بهم، كما أخذ عليهم العهد والميثاق على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، وهذا معنى الميثاق الذي ذكره الله بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

---

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١١٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥٩.

﴿يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤][1].

٥. ميثاق الله مع أولي العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقد اختلف المفسرون من عني بهذه الآية؟

أحدها: أنهم اليهود خاصة، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي.

والثاني: أنهم اليهود والنصارى[2].

والثالث: أنهم كل من أوتى علم شيء من كتاب فقد أخذ أنبياؤهم ميثاقهم.

قال الحسن البصري: «هذا مثال ميثاق الله تعالى على علماء أهل الكتاب أن يبينوا للناس ما في كتابهم، وفيه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام»[3].

وقد فرض الله على علماء القرآن تبيينه تصريحا، كقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وتعريضًا، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٨٧].

فإن هذه الأمة أجدر بهذا الميثاق[4].

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة:١٧٤].

فهذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم يتضمن تحريم الكتمان والتحريف، وفي آيات أخرى تصريح إيجابي وأمر واضح في الحث على بيان العلم ونشره، وإن لم يذكر الوعيد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢][5].

هذه الآيات كلها موجبة لإظهار علوم الدين وتبيينه للناس زاجرة عن كتمانها[6].

وقد تمثل الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه هذا الميثاق وأن المقصود

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٦٦، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٦٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٥٣١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٤١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٨٩.

(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٥٤.

(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٢١، روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٦٥.

به هو العلماء حيث قال: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)**[1].

وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود:

العهد الأول: الذي أخذه على جميع ذرية آدم، الإقرار بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

العهد الثاني: عهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب:٧].

العهد الثالث: عهد خص به العلماء، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧][2].

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن ينوهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيفوالحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)**[3].

قال بعض المفسرين: إن ثمرة الآية في وجوب إظهار الحق وتحريم كتمانه، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، ٣/ ٣٢١، رقم ٣٦٥٨، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، ٥/ ٢٩، رقم ٢٦٤٩، وابن ماجه في سننه، كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، ١/ ٩٦، رقم ٢٦١.
قال الترمذي: «حديث حسن».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٧، رقم ٦٢٨٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم ٣٦٥٨، ٣/ ٣٢١، والترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم ٢٦٤٩، ٥/ ٢٩، وابن ماجه في سننه، كتاب في الإيمان والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم ٢٦٤، ١/ ٩٧.
وصححه ابن حجر في إتحاف المهرة، رقم ١١٩٢٤، ٩/ ٥٦٦، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٧١٤، ١/ ٥٢٧.

والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره إذا لم يؤد إلى مفسدة، ويدخل في الكتم منع الكتب المنطوية على علم الدين؛ حيث تعذر الأخذ إلا منها[1].

وقال العلامة الزمخشري: «وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة،وتطيب لنفوسهم واستجلاب لمسارّهم».

ثانيًا: الميثاق بين الخلق:

١. الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم.

ذكر المفسرون أن الله تعالى أخذ ميثاق النبيين، وأن النبيين أخذوا الميثاق على أممهم وأتباعهم بالسمع والطاعة والإسلام، وقد بين القرآن أن الرسول صلى الله عليه وسلم بايع صحابته في عدة مناسبات، والبيعة عهد وميثاق.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾ [المائدة:٧].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الميثاق المذكور في الآية هو الذي واثق الله به المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعوه صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له فيما أحبوا وكرهوا والعمل بكل ما أمرهم الله به ورسوله[2].

قال الإمام ابن عطية: «والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في بيعات العقبة وبيعة الرضوان وكل موطن قال الناس فيه: سمعنا وأطعنا. هذا قول ابن عباس والسدي وجماعة من المفسرين، وقال مجاهد: الميثاق المذكور هو المأخوذ على النسم حين استخرجوا من ظهر آدم. والقول الأول أرجح وأليق بنمط الكلام»[3].

ويمكن ذكر المواثيق التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة رضي الله عنهم بصورة موجزة فيما يأتي:

- بيعتي العقبة الأولى والثانية.

وقعت بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة من النبوة، وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة كانت بيعة العقبة الثانية، والتي هي الكبرى[4]، وكانت هذه البيعة على ما ورد

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩١، تفسير السمعاني ٢/ ١٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤.

(٤) انظر: تاريخ الخميس، حسين الديار ١/ ٣١٧، السيرة الحلبية ٣/ ٥٢١، الرحيق المختوم، المباركفوري ص١٣٣.

في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء الله عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعناه على ذلك)[1].

- بيعة الرضوان.

وقعت بيعة الرضوان في غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، واشتهرت هذه البيعة ببيعة الرضوان؛ لأن الله تعالى أخبر أنه قد رضي عن أصحابها.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨][2].

- بيعة الإسلام، البيعة على الجهاد، وعلى السمع والطاعة وغيرها.

ثبت في السنة أن هناك مبايعات أخرى كبيعة الإسلام وغيرها مما يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

وقال سبحانه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

ويبين العهد والميثاق في الآية ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم)[3].

- بيعة النساء.

كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحن بقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم ١٨، ١/ ١٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٣٠٨، تاريخ الخميس، حسين الديار ٢ / ٢٠، السيرة الحلبية ٣/ ٢٥، الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٣١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم ٧١٩٩، ٩/ ٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم ١٧٠٩، ٣/ ١٤٧٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الممتحنة:١٢].

فقد روى عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمتحنهن عملا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ [الممتحنة:١٠].

قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انطلقن فقد بايعتكن) لا والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: (قد بايعتكن) كلاما)[1].

* البيعة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والبيعة على النصح لكل مسلم.

ويبين هذه البيعة الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: **(بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)**[2].

يقول ابن القيم مجملا مبايعة الرسول لأصحابه: «وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع أصحابه في الحرب على ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد، كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله، وبايع نفرا من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا»[3].

وهذا الميثاق الذي أخذه النبي على أتباعه يشمل جميع أتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا العصر، قال محمد رشيد رضا: «ومجرد قبول الدعوة والدخول في الدين يعد عهدا وميثاقا بالسمع والطاعة، وعهد الله وميثاقه الذي أخذه نبينا صلى الله عليه وسلم على أول هذه الأمة عام يدخل فيه كل من قبل الإسلام ومن نشأ فيه من بعدهم إلى يوم القيامة، فيجب أن نعد هذا التذكير خطابا لنا كما كان سلفنا الصالح

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي، رقم ٥٢٨٨، ٧/ ٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، رقم ١٨٦٦، ٣/ ١٤٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٦، ١/ ٧٥.

(٣) انظر: زاد المعاد ٣/ ٩٥.

من الصحابة رضي الله عنه يعدونه خطابًا لهم»[1].

ومن الآيات الواردة في الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٢- ١٣].

يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه[2].

قال الإمام ابن كثير: «لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى.

فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردا عن بابه وجنابه، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب.

وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبا، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك، وهم الذين تولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة»[3].

ومن الآيات الواردة في الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم ما كان بين يعقوب عليه السلام وبنيه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف:٦٦].

قال السدي: أنه حلفهم بالله[4].

(١) انظر: تفسير المنار ٦/ ٢٢٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٦٣، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٥٨.

وقال ابن كثير: أي تحلفون بالعهود والمواثيق لتأتنني به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

قال ابن إسحاق: «وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم»[1].

والآية الأخرى في المعنى نفسه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾ [يوسف:٨٠].

أي: عهدًا من الله في حفظ ابنه، والموثق في الآية هو العهد المؤكد بالقسم[2].

٢. الميثاق بين الراعي والرعية.

إن الميثاق بين الراعي والرعية يكون بحسب دين الرعية في الدولة الإسلامية، فإن كانوا مسلمين فإن الميثاق يكون على السمع والطاعة والجهاد وعلى كل ما يصلح شأن المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧][3].

وتدخل المواثيق التي تجري بين الراعي والرعية في عموم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ [الرعد:٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١].

وإن كان الرعية من أهل الكتاب فيمكن للإمام أن يعقد معهم بعض المعاهدات التي تؤمن لهم الحياة الكريمة، وما يجب عليهم من الواجبات والحقوق العامة في ظل الدولة الإسلامية بحكم أنهم أهل كتاب (أهل الذمة)، ولكن طبيعة اليهود - كما أسلفنا- الغدر والخيانة وعدم الوفاء، ولم يستطيعوا -ولن يستطيعوا لؤما وخسة- أن يتخلوا عن تلك الصفات الذميمة، فنقضوا عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال، حيث أجلى رسول صلى الله عليه وسلم بني قينقاع وبني النضير، وقتل رجال بني قريظة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود والمواثيق فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾ [الأنفال:٥٦].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٠٨، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩١، تفسير السمعاني ٢/ ١٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٥.

والعهد هنا هو ما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من عهود ومواثيق بألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، كما بين ذلك المفسرون[1].

فقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابًا بين المهاجرين والأنصار واليهود، وذلك وثيقة المدينة المنورة أو كما يسميها المعاصرون: دستور المدينة، نظم فيها النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وحدد حقوق وواجبات والتزامات جميع الأطراف داخل المدينة المنورة[2].

ويتضح من خلال كتب التفسير والسنة والسيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ عليهم العهد والميثاق أكثر من مرة، حيث أخذه عليهم عندما قدم إلى المدينة، ثم أكده في مناسبات متعددة.

وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال:٥٥- ٥٦][3].

ويمكن أن تكون الدساتير والأنظمة الموافقة للكتاب والسنة وإجماع الأمة من المواثيق التي يجب الالتزام بها من قبل الراعي والرعية في كل ما ورد فيها من بنود لتنظيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ونحوها مما ينظم شؤون الأمة.

٣. الميثاق بين الناس.

أمر الله تعالى المؤمنين عامة بالوفاء بالعقود.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

وهي الربوط في القول، كان ذلك في تعاهد على بر أو في عقدة نكاح أو بيع أو غيره. ولفظ المؤمنين يعم مؤمني أهل الكتاب، إذ بينهم وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد صلى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٤٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥٠١، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد الشعيبي، كتاب الأمة، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد ١١٠ السنة ٢٥ ذو القعدة، ١٤٢٦هـ، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد ص٣٠٦، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، محمد العواجي ص٣٤.
وقد صحح هذه الوثيقة بطولها، وقال بأنها تصل بمجموع طرقها إلى مرتبة الحديث الحسن لغيره كل من: د. أكرم ضياء العمري في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٧٥، د. علي الصلابي في السيرة النبوية ١/ ٦١٤، د. خالد سليمان الفهداوي في بحثه الفقه السياسي للوثائق النبوية ص٩٤، د. مهدي رزق الله أحمد في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٣١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٧، تفسير السمعاني ٢/ ٢٧٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٤١.

الله عليه وسلم، ولفظ: (العقود) يعم عقود الجاهلية المبنية على بر، مثل دفع الظلم ونحوه، وأما سائر تعاقدهم على الظلم ونحوه فقد هدمه الإسلام، فإنما معنى الآية أمر جميع المؤمنين بالوفاء على عقد جار على رسم الشريعة. وفسر الناس لفظ (العقود) بالعهود[1].

قال الإمام الرازي: «فدخل في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ كل عقد من العقود، كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح، وحاصل القول فيه أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به، فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون:٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فجميع هذه الآيات والأخبار دالة على أن الأصل في البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام»[2].

ومما يدل على وجوب الوفاء واحترام المواثيق بين الناس قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١].

وعموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝٢٠﴾ [الرعد:٢٠].

وقد جاء الحث بالوفاء بالعقود واعتبار ذلك ميثاقا وعلى وجه الخصوص عقد النكاح.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١].

قال مجاهد وابن زيد: هو عقد النكاح وقول الرجل: نكحت وملكت[3]. وقال الإمام ابن كثير: «روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير أن المراد بذلك العقد»[4].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٧، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٥، تفسير السمعاني ٢/ ٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٤٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٣٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٠، تفسير السمعاني ١/ ٤١٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٤.

وفي تفسير هذا الميثاق الغليظ وجوه:

الأول: قال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:٢٢٩](١).

الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد: الميثاق الغليظ هو عقد النكاح المعقود على الصداق، وتلك الكلمة كلمة تستحل بها فروج النساء، لقوله صلى الله عليه وسلم: **(اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)**(٢).

الثالث: الميثاق الغليظ حق الصحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقا غليظا، أي: بإفضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه، فقد قالوا: صحبة عشرين يوما قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟!(٣).

ومن خلال هذه الآيات يتضح أن العقود المباحة شرعا بكافة أنواعها التي تعقد بين الناس في الشريعة الإسلامية لها مكانة خاصة؛ حيث اعتبرتها الشريعة مواثيقا مؤكدة، لا يجوز نقضها، أو التلاعب بها، أو النقص من وفائها، أو تأخيرها عن موعدها بغير عذر مقبول شرعا، وهذا يؤدي إلى استقرار التعاملات بين الناس؛ ومن ثم تحقيق الازدهار الاقتصادي للمجتمع المسلم.

[انظر العهد: العهود مع الناس]

٤. الميثاق بين الدول.

يجوز عقد المعاهدات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققا كذلك، ويجب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها، إلا أن ينقضها المعاهدون.

وقد بين القرآن الكريم حكم المواثيق والمعاهدات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول، وأنه يجب الوفاء بما تم التواثق عليه، ولا يجوز للإمام أو نائبة أو لأحد من الرعية أن ينقض هذا الميثاق، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة مواضع.

قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة:١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٢، تفسير السمعاني ١/ ٤١٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٦.

﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة:٤].

وفي ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالميثاق من فرائض الإسلام مادام الميثاق معقودا، وإلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته، وإلى أن من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدو المعاهد على ذلك العهد بحذافيره بنصه وفحواه، فإن نقص شيئا منه وأخل بغرض من أغراضه عد ناقضا للميثاق.

ويفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية أن المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧].

وهذا المفهوم في الآيتين صرح به جل وعلا في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾ [التوبة:١٢].

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط المعاهدة ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من عدوكم، أي: لم يعاونوهم بأنفسهم وأبدانهم، لا بسلاح ولا خيل ولا رجال، ولا حتى بمشورة ورأي، فهؤلاء: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾، أي: مدة أجلهم المحدد بزمن معين، فوفوا لهم ولا تنقضوا لهم عهدا إلى أن ينقضوه هم بأنفسهم، أو تنتهي مدتهم، وحينئذ إما الإسلام وإما السيف؛ إذ لم يبق مجال لبقاء الشرك في دار الإسلام وقبته[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يتقون نقض العهد وخفر الذمم وسائر المفاسد التي تخل بالنظام وتمنع جريان العدل بين الناس، وفى ذلك إيماء إلى أن مراعاة حقوق العهد تدخل فى حدود التقوى، وإلى أن التسوية بين الوفي والغادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركًا[٢].

والمواثيق بين الدول يجب الوفاء بها؛ لأن الله تعالى أوجب نصر المسلمين المقيمين بين ظهراني الكفار ما لم يكن هناك ميثاق بين الدولة المسلمة والكافرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢﴾ [الأنفال:٧٢].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا ق فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٣٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٣٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٧٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١١٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٨٤، تفسير المراغي ١٠/ ٥٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٠٠.

من الميثاق[(١)].

أي أن الذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، أي أن الذين صدقوا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهاجروا من مكة إلى المدينة وظلوا مقيمين في أرض الشرك تحت سلطان المشركين، أي: في دار الحرب والشرك، لا يثبت لهم شيء من ولاية (نصرة) المؤمنين الذين في دار الإسلام. أما من أسره الكفار من أهل دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار، إن الولاية منقطعة بين أهل الدارين إلا في حالة واحدة ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ﴾ وهي مناصرتهم على الكفار إذا قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم، إلا إذا كان هؤلاء الكفار معاهدين، فيجب الوفاء بعهدهم؛ لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود، وهذا أصل من أصول أحكام الإسلام وسياسته الخارجية العادلة الرفيعة المستوى. وإن طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم في الدين فيجب عليكم أن تنصروهم، لأنهم إخوانكم في العقيدة، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء عهد ومهادنة، فإنكم في هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا؛ لأن في نصرتهم على من بينكم وبينهم عهد نقضا لهذا العهد[(٢)].

ووجه ذلك الاستثناء أن الميثاق يقتضي عدم قتال الكفار إلا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلا بالمسلمين المتميزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأما المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمل المسلمون تبعاتهم، ولا يدخلون فيما جروه لأنفسهم من عداوات وإحن؛ لأنهم لم يصدروا عن رأي جماعة المسلمين، فما ينشأ بين الكفار المعاهدين للمسلمين وبين المسلمين الباقين في دار الكفر لا يعد نكثا من الكفار لعهد المسلمين؛ لأن من عذرهم أن يقولوا: لا نعلم حين عاهدناكم أن هؤلاء منكم؛ لأن الإيمان لا يطلع عليه إلا بمعاشرة، وهؤلاء ظاهر حالهم مع المشركين يساكنونهم ويعاملونهم[(٣)].

ولقد أمر القرآن الكريم بأن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله، ولمن لهم به صلة قومية أو نسبية أو لمن هرب أو التجع إليهم. قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٧.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٣٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٨٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ١٦٨، تفسير المراغي ١٠/ ٤٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٨٦.



﴿كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء:٨٩-٩١][١].

فهذا النص يدل على ضرورة احترام المواثيق، وكف القتال عن أهل الميثاق، والذين لهم به صلة قومية، ويكون سلمهم سلما لهم وحربهم حربا لهم[٢].

والمراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات المنافقون المظهرون إسلامهم،ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم.

فإذا تحققتم ذلك منهم: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر مؤقت حتى هجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان[٣].

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم[٤].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٩.
(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣٦٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، المحرر

لذا حذر الله المؤمنين من مكائدهم وسعاياتهم هذه، فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين الوثنيين حتى يدل الدليل الواضح على إيمانهم ويهاجروا إلى المدينة ويتعاونوا بصدق معكم في قضاياكم، فهذا دليل الصدق في الإيمان.

فإن أعرضوا عن الإيمان الظاهر بالهجرة في سبيل الله ولزموا أماكنهم خارج المدينة فخذوهم واقتلوهم أنى وجدتموهم في أي مكان وزمان، في الحل أو في الحرم، ولا توالوهم أو تولوهم شيئا من مهام أموركم، ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله من هؤلاء الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين ويلجؤون إلى أهل عهدكم بمهادنة أو عقد ذمة، فينضمون إليهم في عهدهم، فاجعلوا حكمهم كحكم المعاهدين.

لما جاء في صلح الحديبية في صحيح البخاري: (من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم دخل فيه)[1].

الوفاء بالميثاق

في هذا المحور سيكون الكلام عن حكم الوفاء بالميثاق، أدلته الشرعية، وبيان آثار الوفاء بالميثاق في الدنيا والآخرة:

أولًا: حكم الوفاء بالميثاق:

دلت آيات القرآن الكريم على وجوب الوفاء بالميثاق، حيث أمر الله تعالى المؤمنين عامة بالوفاء بالعقود الجارية على رسم الشريعة وأصولها وقواعدها.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

ولفظ (العقود) في الآية بمعنى العهود بإجماع جميع المفسرين، كما يعم اللفظ عقود الجاهلية المبنية على البر، مثل دفع الظلم ونصرة المظلوم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام.

وقال تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال جل شأنه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١][2].

الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٧، التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ١٩٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، من حديث عروة بن الزبير، رقم ٤١٨٠، ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٧.

ومما يدل على وجوب الوفاء بالمعاهدات والمواثيق أن الله تعالى يسأل ناقض العهد عن نقضه إياه.

قال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب:١٥][1].

كما يدل على وجوب الوفاء بالميثاق بأن نقض الميثاق كبيرة من الكبائر؛ لأن الله تعالى لعن من ينقضه، فكان الوفاء به واجبًا.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

قال الإمام ابن كثير: «لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردا عن بابه وجنابه، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[المائدة:١٢].

يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه»[2].

نقول: أكد الله تعالى على بني إسرائيل بوجوب الوفاء بالعهود والمواثيق من بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة:٤٠]، قال الإمام ابن جرير الطبري: «وخطابه إياهم جل ذكره بالوفاء في ذلك خاصة دون سائر البشر ما يدل على أن قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾[البقرة:٢٧].

مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب وإن كان لمن وصفت من الفريقين فداخل في أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي»[3].

---

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠٧، تفسير السمعاني ٣/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨.

(٣) جامع البيان ١/ ٤١٣.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤٧،

والآيات صريحة الدلالة على وجوب الوفاء بالميثاق، وحرمة الغدر والخيانة، وجميع الآيات التي ورد فيها لفظ الميثاق تدل على ذلك بالمنطوق أو بالمفهوم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في وجوب الوفاء بالعهد وإثم من نقض ميثاقه أو غدر بما عاهد عليه، فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**(أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها)**[1].

وما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**(من أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل)**[2].

وكذلك ما رواه أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لكل غادر لواء يوم القيامة)**[3].

وما رواه أبو سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:**(لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة)**[4].

وكذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:**(إن الغادر ينصب الله له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غدرة فلان)**[5].

وفي رواية:**(لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة)**[6].

قال الإمام النووي: «قال أهل اللغة: اللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس تبعا له، قالوا: فمعنى لكل غادر لواء أي: علامة يشهر بها في الناس؛ لأن موضوع اللواء الشهرة، مكان الرئيس علامة له، وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر لتشهيره

التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٥٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ١/ ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨، ١/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب حرم المدينة، رقم ١٨٧٠، ٣/ ٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم ٣١٨٦، ٤/ ١٠٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٨، ٣/ ١٣٦١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم ٣١٨٨، ٤/ ١٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٥، ٣/ ١٣٥٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ١٧٣٨، ٣/ ١٣٦١.

بذلك، وأما الغادر فهو الذي يواعد على أمر ولا يفي به.

وفي هذه الأحاديث بيان غلظ تحريم الغدر لا سيما من صاحب الولاية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثيرين، وقيل: لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء. والمشهور أن هذا الحديث وارد في ذم الإمام الغادر.

وذكر القاضي عياض احتمالين:

أحدهما: هذا، وهو نهي الإمام أن يغدر في عهوده لرعيته وللكفار وغيرهم، أو غدره للأمانة التي قلدها لرعيته والتزم القيام بها والمحافظة عليها ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم فقد غدر بعهده.

والاحتمال الثاني: أن يكون المراد نهي الرعية عن الغدر بالإمام، فلا يشقوا عليه العصا، ولا يتعرضوا لما يخاف حصول فتنة بسببه، والصحيح الأول، والله أعلم»[(١)].

وأما عهود المسلمين فيما بينهم فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظم إثمًا.

ومن أعظمها نقض عهد الإمام على من تابعه ورضي به، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)** **فذكر منهم: (ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يف له)**[(٢)].

ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها ويحرم الغدر فيها جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها، وكذلك ما يجب الوفاء به لله عز وجل مما يعاهد العبد ربه عليه من نذر التبرر ونحوه[(٣)].

كما أمر الله تعالى بوجوب الوفاء بالمعاهدات والمواثيق الدولية المزمنة بمدة معينة، لقوله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

وقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالوفاء بمواثيق وعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئا.

ويدل على ذلك ما رواه سليم بن عامر، يقول: **(كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى**

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب إثم من منع ابن السبيل من الماء، رقم ٢٣٥٨، ٣/ ١١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم ١٠٨، ١/ ١٠٣.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ٢/ ٤٨٧.

العهد أغار عليهم، فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء) قال: فرجع معاوية بالناس)[1].

والغدر حرام في كل عهد وميثاق بين المسلم وغيره، ولو كان المعاهد كافرا، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفسا معاهدا بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)[2].

والأحاديث القاضية بوجوب الوفاء بالميثاق كثيرة جدا، والسنة الفعلية تشهد بذلك، وأن نقضه محرم بصريح الكتاب والسنة.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، رقم ٢٧٥٩، ٣/ ٨٣، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، رقم ١٥٨٠، ٤/ ١٤٣.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٤٨٠، ٢/ ١١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم، رقم ٦٩١٤، ٩/ ١٢.

ثانيًا: آثار الوفاء بالميثاق:

رتب الله تعالى على الالتزام بالميثاق آثارا متنوعة ومتعددة، يمكن بيانها على التفصيل الآتي:

١. آثار الوفاء بالميثاق في الحياة الدنيا.

تتمثل آثار الوفاء بالميثاق في الحياة الدنيا فيما يأتي:

١. الإيمان والسعادة والفلاح.

فقد وصف الله تعالى الموفين لعهودهم ومواثيقهم بالإيمان والسعادة والفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:١-٨].

فرعاية الميثاق من صفات المؤمنين الصادقين، والتخلي عن تلك الصفة إخلال بهذا الوصف وقدح بالموصوف، ورعاية العهد هنا تشمل العهد العام والخاص، فكل ما صدق عليه لفظ العهد فرعايته من الإيمان[3].

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٧، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٩٥، المحرر

كما أن الوفاء بالميثاق هو الذي يحقق الإيمان، وأن الموفين بعهدهم وميثاقهم هم المؤمنون.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد:٨][1].

٢. التقوى.

لقد جاءت التقوى أثرا من آثار الوفاء بعهد الله، وثمرة من ثمرات الالتزام بميثاقه، ونجد أن الوفاء بالعهد بعد الوعد من صفات المتقين الصادقين قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

ثم أخبر تعالى على جهة الشرط أن من أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله، وأن أهل الوفاء بالعهد والميثاق هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

ويأتي ما يؤكده في سورة التوبة في آيتين متقاربتين: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

وكما أن إتمام العهد والميثاق من التقوى فإن الاستقامة عليه تؤدي إليها: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧][2].

وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل بتذكر العهود والمواثيق التي أخذت عليهم بالعمل بما فيه لعلهم يتقون: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة:٦٣][3].

٣. محبة الله ورضاه.

وهما غاية الغايات ونهاية المقاصد والحاجات فإذا رضي الله على عبد وأحبه أدخله جناته ووقاه عذابه، وأكرمه في دنياه وأخراه، فقد أثبت الله محبته للمتقين الموفين بعهدهم، المستقيمين على عهودهم ومواثيقهم حتى مع أعدائهم ما استقاموا هم على تلك العهود: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

وقبلها بآيتين: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤١.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٢٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٥٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢١٧.

وبهذا تكون محبة الله ثمرة من ثمرات الوفاء بالعهد، وأثرا من آثار الالتزام بالميثاق.

٤. حصول الأمن في الدنيا وصيانة الدماء.

لم تقتصر آثار الوفاء بالميثاق على المسلمين وحدهم، وإنما شمل الكفار الذين لم يدخلوا في دين الإسلام، ولهم عهود مع المسلمين.

فجاءت الآيات صريحة بوجوب الوفاء لهم وصيانة دمائهم وأكثر من ذلك أن الكافر الذي يطارده المسلمون لقتله عندما يلجأ إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، ويدخل تحت حكمهم، يعصم دمه ويضع حدا لطلبه.

يقول تعالى مبينًا حكم بعض المنافقين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء:٨٩]ومع هذا النهي الحاسم والأمر الجازم بالقضاء عليهم ومقاطعتهم ينقلنا القرآن نقلة قوية تضع استثناء لما سبق: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء:٩٠].

ومن هنا فأن أثر الوفاء بالميثاق لم يقتصر على من عقد معه ووفى به، وإنما تعداه إلى آخرين أرادوا صيانة دمائهم المهدرة، فلم يجدوا بدا من اللجوء إلى هؤلاء[١].

كما يعطي أمانًا صريحًا لمن لهم ميثاق في حقن دمائهم وصيانة أهلهم وأموالهم، فالذين آمنوا ولم يهاجروا إن استنصروا المؤمنين في الدين فتجب نصرتهم وحمايتهم إلا في حالة واحدة، إذا كان هذا الاستنصار موجهًا ضد مَنْ للدولة المسلمة معهم عهد وميثاق، فهنا لا نصرة ولا مساعدة، وحق أولئك المعاهدين أولى من حق هؤلاء المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال:٧٢][٢].

وقد ساوى القرآن بين دية الكافر الذي يقتل خطأ، وهو من قوم معاهدين، بدية المسلم المقيم في دار الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٩ مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٧١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٨٩، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٠٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٩١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٧٣.

﴿مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢].

وإن كان من قوم بينهم وبين المسلمين عهد فتحرير رقبة وتسليم الدية إلى ذوي الميثاق؛ لئلا تقع ضغينة بين أهل الميثاق والمؤمنين[1].

٥. سلامة العقول وصدق اللسان.

وردت في عدة آيات من كتاب الله، كوصفهم بأنهم أصحاب العقول السليمة: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:١٩-٢٠].

ووصفهم بالصدق في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

بعد ذكر الموفين بعهدهم إذا عاهدوا، وأن عملهم من البر فهم أبرار.

٢. آثار الوفاء بالميثاق في يوم القيامة.

١. تكفير السيئات وإدخال الجنات.

ذكر الله سبحانه أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل، ثم بين هذا الميثاق وذكر الجزاء على الوفاء به: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة:١٢].

ولما ذكر صفات أولي الألباب ذكر منها أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ثم بين عاقبة هؤلاء فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٢-٢٤].

من الآثار التي وردت في أكثر من آية جزاء لمن وفى بعهده والتزم بميثاقه الوعد بدخول الجنة وتكفير السيئات، نجد هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

قال الإمام ابن جرير: «وعهده إياهم أنهم

---

(١) هذا على الراجح من أقوال المفسرين، حيث ذهب بعضهم إلى أنه لا بد أن يكون مسلما عند قوم معاهدين، وذهب آخرون إلى أنه لا يشترط أن يكون مسلما، لأن الآية سكتت عن ذلك في الوقت الذي صرحت بكونه مسلما في الحالتين السابقتين، وهذا ما اختاره الطبري ورد على المخالفين.
انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٩١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٧٣.

إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة[1].

٢. الجزاء الحسن والأجر العظيم.

أمر الله سبحانه في سورة النحل بالوفاء بالميثاق، ونهى عن نقض الإيمان بعد توكيدها، وحث على الصبر على ذلك، ثم أكد على العهود مرة أخرى بين عاقبة الصابرين، وما أعده لهم من جزاء حسن.

ثم جاء بأسلوب بديع يشير إلى جزاء من عمل صالحا والوفاء بالعهد من العمل الصالح حيث وعده بالحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩١-٩٧].

ويعد الله الموفين بعهدهم بجزاء عظيم يجمله سبحانه ولا يفصله زيادة في التشويق وبيانا لعظم الأجر: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٣- ٢٤].

٣. وراثة الفردوس.

جعل الله تعالى وراثة الفردوس والإكرام في الجنات للمؤمنين الذين من صفاتهم الوفاء بالمواثيق والعهود ورعايتها والقيام بها بكل صورها وأشكالها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:٨].

ذكر مآلهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠- ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج:٣٢-٣٥].

(١) انظر: جامع البيان ١/ ٥٥٧.

ويبين جنة الفردوس ومنزلتها الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن)[1].

وكذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله) فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون:١٠][2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣]. وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف:٧٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٧٩٠، ٤/ ١٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٣٤١، ٢/ ١٤٥٣.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، رقم ١٥٥١، ٤/ ٢٦٦: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٢٧٩، ٥/ ٣٤٨.

آثار نقض الميثاق

يترتب على نقض الميثاق بعض الآثار، منها:

أولًا: الإفساد في الأرض:

إن نقض الميثاق يكون سببًا للإفساد في الأرض، ويكون ذلك من خلال أن الإفساد في الأرض صفة من صفات الناقضين لمواثيقهم: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥].

وفسادهم فيها هو: عملهم بمعاصي الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وذلك أن التقاطع بين الناس يحصل من رفض المحبة والعداية، ورفضهما سبب كل فساد، فإن القوم إذا أحبوا وعدلوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا تعاونوا عمروا وإذا عمروا عمروا[3].

وهذه الصفات صفات الكفار المباينة

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٣١، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٥.

لصفات المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:١٩-٢١].

إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥][1].

لأن الفساد في الأرض من خصال المنافقين فإذا كانت فيهم الظهرة على الناس، أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم، أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا[2].

كما أن نقض الميثاق المبرم مع الإمام كالبيعة على السمع والطاعة، وكذلك نقض الميثاق من قبل الحاكم بعدم الوفاء لرعيته بالمواثيق التي قطعها على نفسه لهم، يكون سببا للإفساد في الأرض وخاصة في الخروج على الحاكم، فقد روى البخاري عن مصعب بن سعد، «قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣]: هم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد يسميهم الفاسقين»[3].

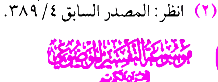
وروى الحاكم عن مصعب بن سعد، قال: «كنت أقرأ على أبي حتى إذا بلغت هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣].

قلت يا أبتاه أهم الخوارج؟ قال: لا يا بني اقرأ الآية التي بعدها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٥].

قال: «هم المجتهدون من النصارى كان كفرهم بآيات ربهم بمحمد ولقائه» وقالوا: ليس في الجنة طعام ولا شراب، ولكن الخوارج هم الفاسقون الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون»[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٧.
(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٨٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا)، رقم ٤٧٢٨، ٦/ ٩٣.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/ ٤٠٢.



والصحيح أن الآية عامة الشمول، وفي الآية التي تأتي بعدها تفسير صريح عن المقصودين، وهم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه واتخذوا آياته ورسله هزوا، وهذا تعبير شامل ليس فيه أي محل لجعله وصفا لطائفة معينة[1].

ويشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤] إلى أن نقض العهد والميثاق يؤدي إلى سفك الدماء والتهجير من البلدان وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال صلى الله عليه وسلم: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**)[2].

فقد أخذ الله العهد على بني إسرائيل: لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به والدم الذي ينبض في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت بينهما في المصالح العامة.

ويجوز أن يكون المعنى: لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصا، أو بالإخراج من الديار فتكونون كأنكم قد قتلتم أنفسكم؛ لأنكم فعلتم ما تستحقون به القتل، كما يقول الرجل لآخر قد فعل ما يستحق به العقوبة: أنت الذي جنى على نفسه.

فقد كان سفك الدماء وتقاتل اليهود وطرد بعضهم بعضا من ديارهم ظاهرة شائعة فيهم، وظلت هذه الظاهرة إلى عصر التنزيل القرآني، فكان يهود بني قريظة حالفوا الأوس، ويهود بني النضير حالفوا الخزرج، فإذا نشبت الحرب بينهم، كان كل فريق من اليهود يقاتل مع حلفائه، فيقتل اليهودي يهوديا آخر، ويخرب بعضهم ديار بعض، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمال، مع أن ذلك محرم عليهم بنص التوراة، وإذا أسر بعضهم فدوهم بالمال، وكانوا إذا سئلوا، لم تقاتلونهم وتفدونهم، قالوا: أمرنا -أي في التوراة- بالفداء، فيقال: فلم تقاتلونهم؟ فيقولون: حياء أن تستذل حلفاؤنا، فأنزل الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢١٠.

﴿بِبَعْضٍ﴾[1].

ثانيًا: الكفر لمن ينقض ميثاقه مع الله تعالى:

قرن الله تعالى بين الكفر ونقض العهد معه تعالى في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى مخاطبا بني إسرائيل مذكرا لهم بالميثاق الذي أخذه عليهم ومبينا الحال التي آلوا إليها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

وينفي القرآن الإيمان عن النابذين لعهودهم وهم أكثر من الموفين، ولذلك فغير المؤمنين أكثر من المؤمنين، وهذا أحد وجهي تأويل الآية: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠][2].

ويأمر الله تعالى أمرا حاسما لا تردد فيه بقتال ناقضي الميثاق بسبب كفرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة:١٢].

وتستمر الآيات مبينة كفر من كذب بعهد الله وميثاقه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب:٧- ٨].

وبأسلوب الاستفهام يأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد:٨][3].

ثالثًا: الفسق:

جاءت الآيات القرآنية مبينة فسق من نقض الميثاق، ووردت بمعنى الكفر، وذلك تأكيد لما سبق من بيان كفر من تخلى عن العهد والميثاق، ففي أول آية جاء فيها لفظة: الميثاق حكم الله على الناقضين بالفسق فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة:٢٦- ٢٧].

والفسوق هو: الترك لأمر الله والخروج عن طاعته، وقال الفراء: الفسق: الخروج

---

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٦٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٥، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٤٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٧٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٤٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٥٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥.

عن الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة عن قشرها، إذا خرجت، وقد يكون الفسوق شركا، ويكون إثما، والذي أريد به ههنا: الكفر[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾ [الأعراف:١٠٢].

وتؤكد هذه الآيات شناعة فعل الناقضين لعهودهم، وسوء جريرتهم، وأنهم فاسقون لخروجهم عن أمر الله وميثاقه.

والضلال في سواء السبيل، وهذا ما حل ببني إسرائيل لما كفروا بالله وخانوا مواثيقه: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾ [المائدة:١٢].

وهذه الآيات تبين فسوق وضلال وخسران ناقض الميثاق مع الله تعالى، وإن مصير ذلك إلى الكفر والنفاق وما يترتب على ذلك من العذاب الأليم في الآخرة[2].

رابعًا: الخسران:

قرر القرآن الكريم أن الخسران عاقبة من نقض ميثاقه ونكث بعهده.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ [البقرة:٢٧].

ويؤكد القرآن الكريم أن الخسران مآل من تولى عن أخذ الميثاق كما أمر به الله، مبينا نعمة الله على بعض عباده حيث رحمهم من أن يكونوا من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٧.

﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٤﴾ [البقرة:٦٣-٦٤].

خامسًا: اللعن وقسوة القلوب والطبع عليها:

لما نقض بنوا إسرائيل عهودهم كانت العاقبة شديدة والأثر أليم، فقد لعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية، وتبعا لذلك ضلوا وانحرفوا عن سواء السبيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة:١٣].

وكما يبين سبحانه أنه طبع على قلوبهم جزاء لهم على كفرهم ونقضهم لميثاقهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ [النساء:١٥٥].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ [الرعد:٢٥][1].

وهذه الآيات بيان من الله للمصير الذي يتنظر الناكثين لعهودهم الناقضين لمواثيقهم، وهو إنذار وتحذير للمؤمنين بل وللناس أجمعين.

سادسًا: الإغراء بالعداوة والبغضاء:

أخذ الله الميثاق على النصارى كما أخذه على اليهود، ولكنهم سلكوا مسلكهم وأخذوا طريقهم، فنقضوا الميثاق وبدلوا في دينهم، وضيعوا أمر الله، فأورثهم الله العداوة والبغضاء وجعلها ملاصقة لهم لا تنفك عنهم، واستحكمت فيهم الخلافات والأهواء، فاختلفوا في نبيهم، وحرفوا كتابهم، وكانوا ضالين في دينهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١٤﴾ [المائدة:١٤][2].

سابعًا: القتل والتشريد:

من الآثار الدنيوية العاجلة التي تحل بالخائنين، الناقضين للعهود والمواثيق، أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم إن لقي هؤلاء الخائنين وتمكن منهم، أن يعاقبهم عقوبة يؤدب بها من خلفهم، عقوبة قاسية تتعدى آثارها هؤلاء المجرمين إلى ما يقف

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٦١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٦٦، تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٠.

خلفهم ويتربص بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الدوائر، يكون من آثارها تشريد أولئك المتربصين وتفريق كلمتهم وتشتيت شملهم: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال:٥٦- ٥٧].

وهذا ما فعله رسول صلى الله عليه وسلم عندما ظفر ببني قريظة، تنفيذا لأمر الله من فوق سبع سماوات وأي عقوبة دنيوية أشد من هذه العقوبة، إن أخذه أليم شديد[١].

ثامنًا: الخزي في الدنيا:

لما ذكر الله تعالى المواثيق التي أخذها على بني إسرائيل، ذكر خيانتهم وغدرهم ونكثهم للعهود والمواثيق، ثم هددهم قائلا: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

وتأتي الآية التي بعدها مباشرة مؤكدة هذه النهاية المفجعة التي تنتظر هؤلاء الغادرين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة:٨٦]

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥.

والخزي هو: الذل والصغار، يقال منه: «خزي الرجل يخزى خزيا»، في الحياة الدنيا، يعني: في عاجل الدنيا قبل الآخرة، وذلك هو حكم الله الذي أنزله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ القاتل بمن قتل، والقود به قصاصا، والانتقام للمظلوم من الظالم، وأخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم، ذلة لهم وصغارا، كما أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير من ديارهم لأول الحشر، وقتل مقاتلة قريظة وسبي ذراريهم، فكان ذلك خزيا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم[٢].

وبين الله سبحانه ما أعده للكافرين الذين لم يصدقوا مع الله فيما أخذه على النبيين من عهد وميثاق، من العذاب الأليم الذي يليق بمكانتهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب:٧- ٨][٣].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣١٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٦٥، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٧٠، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢١٦، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٢.

تاسعًا: الموقف المخزي يوم القيامة والعذاب الشديد:

ما ذكره سبحانه عن حال الذين يشرون بعهد الله وإيمانهم ثمنا بخسا زهيدا في الدنيا، حالتهم يوم القيامة شر حالة، ومآلهم شر مآل، ومصيرهم أسوء مصير، فلا خلاق لهم ولا حجة ولا نصيب ولا قوام[1] وأشد من ذلك أن الله لا يكلمهم كلاما يسرهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة وعطف، بل ولا يزكيهم ويطهرهم من ذنوبهم وسيئاتهم في موقف ينتظر كل إنسان رحمة الله وعفوه ومغفرته، ونهايتهم في العذاب الأليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧][2].

كما يترتب على نقض العهد السؤال في الآخرة حيث يقف ناقض العهد أمام الباري عز وجل ليسأله عن جريرة اقترفها وذنب عمله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب:١٥].

أما السؤال عن نقض العهد في الدنيا: فإن الظاهر من أقوال المفسرين أن السؤال عن الميثاق يكون في الآخرة لكن يمكن أن يكون المعنى عاما يتناول السؤال عن الميثاق أيضا في الدنيا من خلال المطالبة بالوفاء ممن هو له أو من قبل الحاكم، قال الماوردي: «﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما مسئولا عنه للجزاء عليه، الثاني: للوفاء به»[3].

وأما سوء الدار فإنه المصير السيئ ينتظر الناقضين لعهد الله، والنهاية المهلكة مآلهم ومستقرهم، والدار دار سوء لا دار سعادة وفلاح، ولقد حقت عليهم لعنة الله ومقته، قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥].

عاشرًا: الجناية على النفس:

ذكر الله تعالى عاقبة نقض الميثاق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ

(١) الخلاق هو: النصيب الوافر من الخير والصلاح، يقال: رجل لا خلاق له، أي: لا رغبة له في الخير ولا صلاح في الدين، وفي الآخرة لا نصيب له في الخير.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٥٢، معاني القرآن، النحاس ١/ ٤٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٣٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٢٠.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٨٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٢٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٣، تفسير السمعاني ٤/ ٢٦٧.

﴿أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح:١٠].

والنكث هو: نقض ما تعقده، وما تصلحه، ومن نكث بيعته إياك يا محمد، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربه يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فإنما ينقض بيعته، لأن البيعة مع الله ولا إلى الله، لأنه لا يتضرر بشيء، فضرره لا يعود إلا إليه، ولأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الجنة بوفائه بالبيعة، فلم يضر بنكثه غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها[1].

وقال محمد بن كعب القرظي: «ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغي أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠]»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٧٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٦.

صفات ناقضي الميثاق

ذكر القرآن صفات للناقضين لعهودهم، والخائنين لمواثيقهم:

١. نفى العقل عن الذين يأخذون كل ما عرض لهم حلالا كان أو حراما، مخالفين بذلك ميثاق الكتاب الذي أخذ عليهم، وجاء نفي العقل بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦٩﴾ [الأعراف:١٦٩].

٢. ومن الصفات التي وصفهم الله بها أنهم شر الدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾ [الأنفال:٥٥- ٥٦] أي: أن الذين ينقضون مواثيقهم شر ما دب على الأرض عند الله، الذين كفروا بربهم، فجحدوا وحدانيته، وعبدوا غيره فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرون بوحيه وتنزيله، فيكونون في ترك القبول بمنزلة من لم يسمع ولم يعقل[3].

٣. ومن صفات هؤلاء، أنهم خائنون:

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١ معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٠٩.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

[الأنفال: ٥٧ - ٥٨].

٤. وختام تلك الصفات وأعظمها وصفهم بالنفاق، والكذب، والكذب مطية النفاق: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[التوبة: ٧٥-٧٧].

موضوعات ذات صلة:

الأسرة، العهد، المؤاخذة، النبوة، النكاح، الوفاء



عناصر الموضوع

مفهوم الميسر

أولًا: المعنى اللغوي:

المعاني اللغوية للميسر تدور حول معنى محوري جامعٍ لها، وهو: «سريان الشيء الرقيق في الباطن (أو من الباطن) مستطابًا بلطف واتصال، كما يسري السمن في البدن، وفي ما بين الأسارير، وكوجود اللبن، وكما يطلق اليسر عند العامة على احتباس البول في الدواب»[(١)].

وقد أشار ابن فارس رحمه الله إلى هذا المعنى المحوري كأول المعنيين الكليين الذين ذكرهما لمادة: يسر، فقال: « (الياء والسين والراء) أصلان يدل أحدهما على انفتاح شيء وخفته، والآخر على عضو من الأعضاء، فالأول: اليسر: ضد العسر، ومن الباب الأيسار: القوم يجتمعون على الميسر، وأحدهم يسر - بفتح الياء والسين أو بفتح الياء وسكون السين -، والكلمة الأخرى: اليسار لليد، يقال: تياسروا، إذ أخذوا ذات اليسار »[(٢)].

والراجح في نظري اشتقاقه من اليسر بمعنى السهولة، حيث هو معنى أصل للتجزئة، ويتضمن معنى الوصول إلى المال بغير تعب، وهذا ما يستنبط من المعنى المحور للمادة، ومن إشارات المؤلفين في غريب القرآن الكريم[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه الإمام مالك رحمه الله في قوله: « الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو: النرد والشطرنج والملاهي كلها، وميسر القمار: ما يتخاطر الناس عليه»[(٤)]

وعرفه الماوردي الشافعي بقوله: « هو الذي لا يخلو الداخل فيه من أن يكون غانمًا إن أخذ، أو غارمًا إن أعطى»[(٥)].

وعرفه القاضي أبو بكر ابن العربي بأنه: « طلب كل واحد منهما صاحبه بغلبة في عمل،

---

(١) انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل ص ٩٨٩ بتصرف.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ص ٧١٣.
وانظر: القمار حقيقته وأحكامه ص ١٧.
(٣) المفردات ص٧١٧، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان ص ٣٢٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ٣٥٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢، ٥٣.
(٥) الحاوي الكبير ١٩/ ٢٢٥.



أو قول؛ ليأخذ مالًا جعله للغالب ».[1].

وعرف ابن أبي الفتح البعلي القمار بأنه: « المخاطرة الدائرة بين أن يغنم باذل المال أو يغرم أو يسلم »[2].

وعرفه الشيخ السعدي بقوله: « وهو: جميع المغالبات، التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها»[3].

وهكذا يمكننا القول أن الميسر بمعناه الاصطلاحي في القرآن الكريم يشمل كل معاملة تضمنت مخاطرة أو مراهنة أو مقامرة أو غررًا، فيشمل بيوع الغرر والقمار واللعب بالشطرنج والنرد، وكل معاملة أو لهو كانا سببًا في وقوع العداوة والبغضاء بين الناس، أو الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

والتعريف المختار أنه: « كل مخاطرة يعلق تمييز مستحق الغُنْمِ والملزم بالغرم من جميع المشاركين فيها على أمر تخفى عاقبته»[4].

وذلك لأنه جامع لكل ما يندرج تحت مفهوم الميسر من صور يجمع بينها المخاطرة والجهالة والتعليق بأمر غيبي، وكذلك يمنع دخول غير أفراد الميسر من المعاملات الأخرى التي اختلف في اندراجها تحت مفهوم الميسر، ويسلم من الاعتراضات.

---

(١) عارضة الأحوذي ٧/ ١٨، بتصرف.
(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، البعلي ص ٥٢٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٤٣.
(٤) القمار حقيقته وأحكامه ص ٧٤- ٧٥.

الميسر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (يسر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة[١]، يخص موضوع البحث منها (٣) مرات.

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر الميمي	٣	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾ [المائدة:٩٠]

وجاء الميسر في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: القمار، سمي بذلك لسهولة مكسبه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص١٤٣٨-١٤٣٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٦٧٠-٦٧٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٨٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ القمار:

القمار لغة:

طلب الغرة والمخادعة، يقولون: تقمرها: طلب غرتها وخدعها. وقامره فقمره إذا راهنه فغلبه، قال في اللسان: وكأن القمار مأخوذ من الخداع يقال: قامره بالخداع فقمره [١].

القمار اصطلاحًا هو:

« تحكيم الغرر في تمييز الغارم من مستحق الفوز والظفر» [٢].

ويقصد بهذا التعريف أن تكون جهالة العاقبة محكمة في تمييز الغارم من الفائز في عملية الميسر، حيث لا يدري أي من المتياسرين أيكون فائزًا أو غارمًا، فلا ينبني ذلك على قاعدة مطردة، بل مرجع الأمر إلى ما يخرج من القداح، وهو أمر مجهول حتمًا.

الصلة بين القمار والميسر:

وللتفريق بين الميسر والقمار يقال: الميسر أعم من القمار، فالميسر قد يكون موضوعه اللهو، وقد لا يتضمن مالًا، مثل النرد والشطرنج، أما إذا كان اللعب حول مال يأخذه الغالب من المغلوب، ويبذل فيه المتلاعبون جهدًا عضليًّا، مثل المصارعة والسباق، أو ذهنيًّا مثل لعبة الورق المسماة (بلاك جاك)، أو لعب الشطرنج على مال، فيكون قمارًا [٣].

٢ المراهنة:

المراهنة لغة:

الرهان والمراهنة: المخاطرة، راهن فلانٌ فلانًا على كذا: اتفقا على أن يكون للسابق أو للفائز منهما مالٌ ونحوه يأخذه من الخاسر [٤].

المراهنة اصطلاحًا هو:

« عقد يتعهد بموجبه كل من المتراهنين أن يدفع إذا لم يصدق قوله في واقعة غير محققة

---

(١) لسان العرب ٥/ ١١٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٧٥.
(٣) انظر: المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة تحليل اقتصادي وشرعي، عبدالرحيم عبد الحميد الساعاتي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الاقتصاد الإسلامي، م٢٠،ع١ ص ٢١، القمار حقيقته وأحكامه ص ٨٥- ٩٨.
(٤) انظر: لسان العرب ١٣/ ١٨٩.

للمتراهن الذي يصدق قوله فيها مبلغًا من النقود أو أي عوض آخر يتفق عليه»[1].

الصلة بين المراهنة والميسر:

وأما الفرق بين الميسر والرهان، فالميسر أعم من الرهان، فالميسر قد يكون موضوعه اللهو، وقد لا يتضمن مالًا، مثل النرد والشطرنج، أما إذا كان اللعب يتضمن مالًا يأخذه الغالب من المغلوب، ولا يتضمن جهدًا عضليًّا أو ذهنيًّا، مثل لعبة الروليت، أو أوراق اليانصيب، فيكون رهانًا[2].

٣ الغرر:

الغرر لغة:

الخطر، وهو مثل بيع السمك في الماء والطير في الهواء. وقيل: بيع الغرر المنهي عنه ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول[3].

الغرر اصطلاحًا هو:

« ما يكون مجهول العاقبة لا يدرى أيكون أم لا»[4].

الصلة بين الغرر والميسر:

المشهور أن الغرر أعم من الميسر؛ لأن بعض أنواع الغرر لا يصح أن يطلق عليه أنه ميسر، فالبيع الذي فيه غرر، والإجارة التي فيها غرر، وغيرهما من العقود، من الخطأ إطلاق كلمة القمار عليها، وتشبيهها به إلا ما تحققت فيه مميزات القمار؛ وعلى هذا فإن كلمة الميسر أخص من كلمة الغرر، فكل ميسر غرر، وليس كل غرر ميسرًا، فبين الغرر والميسر عموم وخصوص مطلق، كما يقول الأصوليون[5].

وذهب بعض المؤلفين إلى أنه لا علاقة بين الغرر والميسر والقمار أصلًا، فلكل منهما مجاله المختلف عن غيره، فالغرر في رأيهم يختص بالبيوع، والميسر ليس من أنواع البيوع[6].

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٠٤ بتصرف يسير.
(٢) انظر: المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة ص ٢١.
(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ١٨.
(٤) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٤٦، الكليات، الكفوي ص ٦٧٢، قواعد الفقه، البركتي ص ٣٩٩.
(٥) انظر: الغرر وأثره في العقود في الفقه الإسلامي ص ٦١، القمار حقيقته وأحكامه ص ١٢٨.
(٦) انظر: حقيقة الغرر المحرم في الشريعة الإسلامية، أحمد صفي الدين، مجلة أضواء الشريعة ص ١٠٠، كلية الشريعة بالرياض السعودية، العدد الحادي عشر.

حقيقة الميسر

يقصد بحقيقة الميسر صورته الواقعية في الأزمنة المختلفة، فإذا كان مضمون الميسر واحدًا، فليس من الضرورة أن تتحد صوره وأشكاله، فتلك مظاهر ترتبط بالواقع الاجتماعي والزمني، فميسر الجاهلية بالضرورة يختلف عن ميسر العصر الحديث، والعكس صحيح، كما أن الميسر قبل الإسلام كان عادة اجتماعية ووسيلة من وسائل اللهو، بينما تبدلت الصورة بعد الإسلام، وهذا ما سيظهر من خلال ما يلي:

أولًا: الميسر عند العرب في الجاهلية:

اشتهر الميسر عند العرب في الجاهلية كعادة من العادات الاجتماعية وظاهرة من الظواهر، وهو في الحقيقة صورة تجسد الخلل العقدي وضعف الأصول الدينية لديهم، ولم يكن في أصله لعبةً أو لونًا من اللهو المجرد.

وإذا كان الميسر مذمومًا في الإسلام من وجوه محرمًا بالنص الواجب الاتباع، فقد اعتبروه صورة من صور الكرم والإقدام المحمود أحيانًا، فقد يترتب عليه - رغم ما فيه من إثم -إطعام فقراء العشيرة في الشتاء القارص والبرد الشديد، في موسم الجدب والقحط لقوم جل اعتمادهم على الرعي والتنقل مع المراعي، ولهذا كان التعبير القرآني في آية سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

بالنص على أن في الميسر منافع للناس.

قال صاحب المنار: «ومن منافع الميسر مواساة الفقراء كما علمت من عادة العرب التي لا وجود لها الآن»[(١)].

ويلاحظ هنا أمران:

أولًا: دقة التعبير القرآني في عرضه الواقع والحقيقة، بنصه على اشتمال الميسر على منافع، على الرغم من حكمه بتحريمه، وهذا ينطوي على دلالات متنوعة وبراهين ساطعة لمن تدبر وتأمل، كما لا يخفى ما فيه من إعجاز التشريع كما مر.

قال ابن عاشور: «فإن قلت: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أن سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع؟ قلت: إن كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع؛ ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينًا دائمًا، وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٦٤.
وانظر: شرح ديوان الحماسة، الأصفهاني ١/ ٧١، الميسر عند العرب، محمود مصطفى، صحيفة دار العلوم، ع ٢/ ١٣-١٤، الميسر والأزلام ص ١٧- ١٨.

فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع»[1].

ثانيًا: الصعوبة النسبية في الوقوف على حقيقة الميسر في الجاهلية، حيث قطع الإسلام هذا الأمر بتحريمه، فكان سببًا في الصعوبة النسبية في تفسيره والوقوف على حقيقته.

قال أبو عبيد: «ولم أجد علماءنا يستقصون معرفة علم هذا، ولا يدعونه كله، ورأيت أبا عبيدة أقلهم ادعاءً لعلمه، قال أبو عبيدة: وقد سألت عنه الأعراب فقالوا: لا علم لنا بهذا، لأنه شيء قد قطعه الإسلام منذ جاء، فلسنا ندري كيف كانوا ييسرون»[2].

ولعل هذه الصعوبة كانت السبب في عزوف بعض العلماء كابن العربي المالكي عن معالجة الموضوع في كتبهم.

قال ابن العربي في تفسير آية سورة البقرة: « الميسر ما كنا نشتغل به بعد أن حرمه الله تعالى، فما حرم الله فعله وجهلناه حمدنا الله تعالى عليه وشكرناه »[3].

وقال أيضًا في تفسير آية سورة المائدة: «وأما الميسر فهو شيء محرم لا سبيل إلى علمه، فلا فائدة في ذكره، بل ينبغي أن يموت ذكره ويمحى رسمه»[4].

وللوقوف على حقيقة الميسر في الجاهلية لابد من ترتيب متعلقاته ترتيبًا فكريًا يوضح صورته جلية، وذلك من خلال الفروع الآتية:

١ . زمان الميسر.

اتفق الكاتبون من أهل الأدب واللغة والتفسير على أن فصل الشتاء كان زمانًا للميسر عند العرب، حيث الحاجة والعوز، حين تجدب البلاد وتقشعر الأرض ويتعذر القوت على طالبه، وتتضح هذه الصورة وتتجلى إذا تعلقت بقوم غالبيتهم من الأعراب الرحَّل تبعًا للكلأ والمرعى، وكيف السبيل إلى ذلك والحال كما سبق.

وكان العرب يختارون الليل من الشتاء، باعتباره وقت طروق الضيف، وحين اشتداد البرد، فيوقدون النار ليهتدي بها الضيف، وليستطيعوا أن يزاولوا هذا العمل في يسر[5].

وقد سجل الشعر العربي زمان الميسر، فقال الأعشى[6]:

المطعمو الضيف إذا ما شتوا
والجاعلو القوت على الياسر

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.
(٢) غريب الحديث ٣/ ٤٩٦- ٤٧٠.
وانظر: نظم الدرر ١/ ٤١٠.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٠٩.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٦٤.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.
(٦) انظر: الميسر والقداح ص ٨٣- ٨٤، شرح ديوان الحماسة، الأصفهاني ١/ ٧١، الميسر والأزلام ص ١٩.

وقد أوضح العلامة عبد السلام هارون رحمه الله مدى حرص العربي على الميسر في الشتاء، طلبًا للمفاخرة والتباهي به صيفًا بقوله: «وكان الرجل من العرب يخشى الصيف، أن يحضر الصيف ولم يكن صنع لنفسه في شتائه مفخرة تذكر له حين تذكر المفاخر، فهو يخشى أن يعير في الصيف بنكوصه عن المشاركة في هذا الجهد الاجتماعي، وإمساك يده عن مساعدة القبيلة.

إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم
فواحش ينعى ذكرها بالمصايف[1]

٢. وسائل الميسر وآلاته.

اشتملت عملية الميسر - إذا صح التعبير- عند العرب على عدد من الأركان والوسائل والآلات التي لا تتم بدونها، وتفصيلها كالتالي:

١. **الجزور.**

وهو موضوع الميسر ومحوره الرئيس، إذ بغيره لا تتحقق مقاصد الميسر لدى القوم من التفاخر والكرم ومساعدة الفقراء والمحتاجين وقرى الضيوف.

ولفظ: الجزور كما جاء في المعاجم اللغوية أصله الجزر، وهو القطع، ويطلق على الذكر والأنثى، ولكنهم كانوا أكثر ما ينحرون النوق[2].

وإن كان الأصل اللغوي يبيح المياسرة بما يسمى جزورًا على الإطلاق، إلا إنهم وضعوا قيودًا وضوابط للجزور المستعمل في تلك العملية.

يقول العلامة عبد السلام هارون رحمه الله: «وليست كل ناقة و لا كل بعير بصالح للميسر، وإنما كانوا يتخيرون أسمنها وأنفسها وأعزها عليهم، فكأنما ألهموا من وراء الغيب: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»[3].

وكان الأيسار إذا أرادوا أن ييسروا ابتاعوا ناقة بثمن مسمىً يضمنونه لصاحبها، ولم يدفعوا الثمن حتى يضربوا بالأقداح عليها فيعلموا على من يجب الثمن، ويدفع الثمن من خابت سهامهم متضامنين في ذلك بحسب أنصبتهم لو فازوا، إعمالًا لمبدأ: الغرم بالغنم[4].

ومن عاداتهم كذلك التي تواضعوا عليها قبل الضرب بالقداح على الجزور «التأريب»، وصورته: أن يجعلوا بينهم عدلًا يأخذ من كل منهم رهنًا بما يلزمه من نصيب

(١) الميسر والأزلام ص ١٨.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٥٦، لسان العرب ٤/ ١٣٤، مختار الصحاح ١/ ٤٣.

(٣) الميسر والأزلام ص ٢٠.

(٤) انظر: الميسر والقداح ص ٨٨، نظم الدرر ٣/ ٢٥١، الميسر والأزلام ص ٢١.

قدحه إن خاب، مقدرًا كل الاحتمالات التي يتعرض لها الغارمون[1].

وهذا ضرب من محاولة اكتشاف المستقبل ومعرفة الغيب، وتلك أم الآفات وأساس كل فساد.

٢. الأيسار.

ويراد بهم القوم المتقامرون على الجزور، أحدهم: يسر - بفتح الياء والسين-، والأيسار واليسر تسميتهم الأصلية، وقد يقال لهم: ياسرون وأحدهم ياسر على خلاف الأصل؛ لأنهم أيضًا جازرون، إذ كانوا سببًا لذلك[2].

٣. الجزار.

وهو من يقوم بتقطيع الجزور، وربما سمي: الياسر كما مر، ويسمونه: «القدار»، ووظيفته معلومة، وله من الجزور نصيب مما سوى الأصول وهو الريم[3].

٤. قداح الميسر.

وتسمى عند الأيسار: قداحًا، وزلمًا، وقَلْمًا، وأكثرها استعمالًا: «القِدْح»[4] -بكسر القاف وسكون الدال-، وهي عيدان تتخذ من النبع[5]، ولذلك وصفت بالاصفرار، وكانوا يستحسنون نحتها من غصون الشجر وقضبها، لخلوها من العقد، وتوصف بالتشابه في المقادير، لأنها لو اختلفت قد يتمكن الضارب من الحيلة فيها، وهي كصغار النبل، وتجعل سواءً في الطول، وتختلف في العلامات والرسوم، ولها رأس صغيرة ناقصة عن مقدار جسمها، ولها طرائق وخطوط مستقيمة ومنحنية تكون في لون العود، تعرف بالسفاسق[6].

---

(١) انظر: الأمالي، أبو علي القالي ٢/ ١٥٦، الميسر والأزلام ص ٢٢.

(٢) انظر: الميسر والقداح ص ٣٠- ٣١، نظم الدرر ٣/ ٢٤٥.

(٣) انظر: نظم الدرر ٣/ ٢٤٤، الميسر والأزلام ص ٢٤، ٤٠.
والريم: هو العظم الذى يبقى بعد قسمة الجزور، أو هو ما يبقى في يد الجزار بعد تقسيم الجزور بالتساوي عدا الرأس والأطراف، يسب به الجازر لو أخذه، فإن أباه أخذه الهلكى من الفاقة.
انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٢٩٤، تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٠١، أساس البلاغة، الزمخشري ص ٢٦٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٦٠.
ويطلق على الريم: الجزارة أيضًا، وهي قوائم البعير ورأسه، لأنها كانت لا تقسم في الميسر وتعطى الجزار.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٣١٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢٨٦.

(٤) وهو في الأصل: السهم بلا نصل ولا قذذ، وكأنه سمي بذلك، لأنه يقدح به أو يمكن القدح به، ثم سمي القدح من قداح الميسر به على التشبيه.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٧.

(٥) النبع: شجر ينبت في قمة الجبل معروف بالمتانة واللين.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٥، ٣٤٦، الميسر والأزلام ص ٣١.

(٦) السفاسق: جمعٌ مفرده: سفسقة وسفسوقة، وأصلها: المحجة الواضحة، والمراد بها

وكذلك يكون القدح مدورًا أملس كالسهم خاليًا من القوادح والسوس، ويمتاز بالرزانة والسلامة وحسن الصوت إذا ضرب به[1].

ولابن الحاجب رحمه الله في أسماء قداح الميسر ثلاثة أبيات، وهي[2]:

هي فذ وتوأم ورقيب
ثم حلس ونافس ثم مسبل
والمعلى والوغد ثم سفيح
ومنيح وذي الثلاثة تهمل
ولكل مما عداها نصيب
مثله أن تعد أول أول

وقداح الميسر على ضربين:

أولهما: قداح الحظ: وهي سبعة:

- **الفذ** -بفتح الفاء وتشديد الذال المعجمة-[3]: وله حظ واحد في الفوز والخسارة، بحيث يغنم حظًّا، ويغرم إن خسر حظًّا واحدًا أيضًا.
- **التوأم**- بفتح التاء وسكون الواو وفتح الهمزة -: وله حظان اثنان، بحيث يغنم حظين إن ربح، ويغرم إن خسر حظين.
- **الرقيب**- على وزن فعيل-: وله ثلاثة حظوظ، بحيث يغنم ثلاثة حظوظ، ويغرم إن خسر ثلاثة.
- **الحلس**- بكسر الحاء المهملة وإسكان اللام -: وله أربعة حظوظ، بحيث يغنم أربعة حظوظ، ويغرم إن خسر أربعة.
- **النافس** -بكسر الفاء على وزن فاعل -: وله خمسة حظوظ، بحيث يغنم خمسة حظوظ، ويغرم إن خسر خمسة.
- **المسبل** -بوزن محسن بإسكان السين وكسر الباء الموحدة -: وله ستة حظوظ، بحيث يغنم ستة حظوظ، ويغرم إن خسر ستة، ويسمى كذلك: المصفح -بضم الميم وسكون المهملة وفتح الفاء-.
- **المعلى** -على وزن معظم بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد اللام المفتوحة: ويسمى كذلك بالمغلق، وله سبعة حظوظ، بحيث يغنم سبعة حظوظ، ويغرم إن خسر سبعة[4].

وتتميز القداح السابقة بتشابه أجسامها، فلا يمتاز بعضها من بعض إلا بعدد الفروض، وهي الحزوز التي تحز فيها لتبين قدرها، فللفذ حز وللتوأم حزان، وللرقيب

الخطوط والطرائق التي تكون في الأعواد والسهام، وهي دلالة على الوضوح.
انظر: الميسر والقداح ص ٧٥-٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٥٤.

(١) انظر: الميسر والقداح ص ٦٨، ٨٣)، الميسر والأزلام ص ٣١.
(٢) انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان ٣ / ٢٤٩.
(٣) انظر في ضبط أسماء كافة السهام: نظم الدرر ٣/ ٢٤٩- ٢٥١.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٤٧، الفصول والغايات، المعري ص ٢٢، المخصص، ابن سيده ٤/ ١٣.

ثلاثة، وهكذا، وربما كانت هذه الحزوز بالنار، وتكون في تلك الحالة موسومة غير محزوزة[1].

الثاني: القداح التي لا حظ لها ولا نصيب:

ذهب أكثر المؤلفين والكاتبين[2] إلى أن السهام التي لا تفوز في الميسر بنصيب ثلاثة هي:

- السفيح -على وزن فعيل بسين مفتوحة وفاء مكسورة وإسكان الياء التحتانية ثم مهملة-.
- المنيح -على وزن أمير (فعيل) -.
- الوغد -بفتح الواو ثم سكون المعجمة ثم مهملة-.

والثلاثة السابقة كما وصفها ابن قتيبة ليس عليها علامات ولا سمات، ولذلك تدعى: «الأغفال»، وسميت بذلك لخلوها من العلامات، وجعلها مع السبعة ذوات الحظوظ لأجل أن يكثر بها العدد، ولتؤمن بها حيلة الضارب[3].

وذهب بعض المؤلفين إلى أن السهام التي لا حظ لها أربعة، وهي: السفيح والمنيح والرقيب، وهو الضريب، والوغد[4].

وأجود من القول السابق قول من فسر الأربعة بأنها: المصدر والمضعف والمنيح والسفيح[5].

وقد يبدو للقارئ بعض الغرابة في القول الثاني، حيث جعل الرقيب، وهو السهم الثالث من سهام الحظ السابقة غفلًا.

ويمكن إزالة هذه الغرابة بإدراك أمرين:

الأول: ثبوت الاضطراب في أسماء قداح الحظ والأغفال لعدم حفظ الأعراب لها، وذلك لتحريم الميسر في الإسلام.

قال أبو عبيد: «سألت الأعراب عن أسماء القداح فلم يعرفوا منها غير المنيح، ولم يعرفوا كيف يفعلون في الميسر»[6].

الثاني: - وهو أجود من الأول -ثبوت استعارة الأيسار لبعض أسماء القداح تيمنًا وتطيرًا، ويعرف هذا بالخياض.

قال الأزهري: «... وقال اللحياني: المنيح أحد القداح الأربعة التي ليس لها غنمٌ ولا غرمٌ، إنما يثقل بها القداح كراهة التهمة؛ أولها المصدر ثم المضعف ثم المنيح ثم السفيح، والمنيح أيضًا قدح من قداح الميسر

---

(١) انظر: الميسر والقداح ص ٤٦، نظم الدرر ١/ ٤١٣، الميسر والأزلام ص ٣١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٦٨، نظم الدرر، البقاعي ١/ ٤١٣.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٩٣، غريب الحديث، الخطابي ٢/ ١٥٤.

(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٣/ ١٣١٢، نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري ٣/ ١١٤.

(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٨٩، نثر الدر في المحاضرات، الآبي ٦/ ٢٣٧، المحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٥٣٠.

(٦) المخصص، ابن سيده ٤/ ١٦.

يوثق بفوزه فيستعار ليتيمن بفوزه، فالمنيح الأول من لغو القداح، وهو اسم له، والمنيح الثاني هو المستعار». (١)

وقال أيضا: «... والخياض: أن تدخل قدحًا مستعارًا بين قداح الميسر تتيمن به، يقال: خضت به في القداح خياضًا، وخاوضت القداح.. خواضًا». (٢)

٥. الخريطة.

وهي وعاء من الجلد أو نحوه يشد على ما فيه مثل كنانة سهام الرمي، توضع فيها القداح، وهي واسعة بقدر يمكن من استدارة القداح فيها واستعراضها، وفمها ضيق بقدر أن يخرج منها قدحان أو ثلاثة، وتسمى أيضًا: «الربابة» بكسر الراء. (٣)

٦. الحرضة(٤).

وهو بضم الحاء وسكون الراء، ويسمى أيضًا: (المجيل)، و(المفيض)، و(الضارب): الرجل المكلف بتقليب السهام في الخريطة وإفاضتها (٥). ثم دفعها من فم الخريطة، وتعصب الخريطة على يديه، وذلك بعد لف يده بقطعة من جراب، لئلا يجد مس قدح تكون له مع صاحبه محاباة، وأحيانًا يشدون عينيه بعصابة ليحولوا بينه وبين رؤية القداح، ويقوم بذلك الرقيب، ويوصف الحرضة بأنه رجل من الرجال ساقط، لأنه لم يأكل لحمًا قط بثمن، إنما يأكله عند الناس وفي المآدب، ويوصف أيضًا بحدة النظر وسرعة تقليبه، حتى صار ذلك مثلًا، فقالوا: «نظر بعين مفيض»(٦).

٧. الرقيب.

ويسمى أيضًا: (رابع الضرباء) (٧).

ويختار في العادة من الأمناء الموثوق بهم من الرجال، ومهمته مراقبة الحرضة وإدارة رحى الميسر، ويجلس خلف الحرضة، ليتمكن من مراقبته، ومن مضامين وظيفته أيضًا تسلم السهام بعد خروجها من الخريطة ليعلم من صاحبها وليعلن اسمه في حالة الفوز، وكذلك رد السهام الأغفال إلى

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٧٧- ٧٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ١٩٦.

(٣) انظر: المخصص، ابن سيده ٤/ ١٦، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٠٦.

(٤) أصل اشتقاق الحرضة من التحريض، وهو التحضيض، وحقيقته: أن تحث الإنسان حثًا يعلم معه أنه حارض، أي: مقارب الهلاك إن تخلف عنه.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٢٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٣.

(٥) إفاضة الأقداح: أن يدفعها دفعة واحدة إلى الأمام فيخرج منها قدح أو أكثر.
انظر: الميسر والقداح ص ١٠٩، الميسر والأزلام ص ٤٠.

(٦) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد (١/ ٥١٥).
وعلل ابن فارس تسميته بالحرضة، لكونه لا خير فيه، بناءً على أصل اشتقاق الكلمة، مقاييس اللغة ٢/ ٤١.

(٧) أي: طليعتهم مشتق من ربأ: صار لهم ربيئة أي: طليعة. الأمالي، أبو علي القالي ٢/ ١٥٦.

الربابة إن خرجت مرة، وهو من يأمر الحرضة بجلجلة الأقداح في الخريطة وإفاضتها حتى يخرج سهم من قداح الحظ السبعة[1].

ويسمى أيضًا: المجمد، وأصل معناه: البخيل المتشدد، ثم جعل اسمًا للرقيب أو الأمين، لما يقوم به من إلزام كل ذي صاحب سهم بسهمه، ومراقبته للحرضة[2].

٣. طريقة تقسيم الجزور.

ذكر المفسرون [3] قديمًا وحديثًا خلافًا في طريقة تقسيم الجزور في عملية الميسر، والخلاف الذي ذكره المفسرون يعتبر من مروياتهم، وهو متفق مع ما ذكره الأدباء وأهل اللغة.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «وقد اختلفوا في عدد الأجزاء فقال أبو عمرو: على عشرة أجزاء وقال الأصمعي: على ثمانية وعشرين جزءا ولم يعرف أبو عبيدة لها عددًا»[4].

ويمكن إجمال كلامهم في ثلاثة آراء:

الأول: وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الجزور تقسم إلى ثمانية وعشرين جزءًا على عدد سهام الميسر ذوات الحظوظ، وذلك لأن مجموع أنصباء السهام ثمانية وعشرون نصيبًا، ونسب هذا إلى الأصمعي.

قال أبو جعفر النحاس: «وزعم الأصمعي أن الميسر كان في الجزور خاصة كانوا يقتسمونها على ثمانية وعشرين سهما»[5].

الثاني: وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الجزور تقسم إلى عشرة أجزاء، ونسب هذا القول إلى أبي عمرو الشيباني.

قال أبو جعفر النحاس: «وقال أبو عمرو الشيباني: كانوا يقتسمونها على عشرة أسهم ثم يلقون القداح ويتقامرون على مقاديرهم، وهذا القول ليس بناقض لما تقدم»[6].

وقد بين البرهان البقاعي طريقة تقسيم الجزور إلى عشرة أقسام بقوله: «وهيئة ما يفعلون في القمار هو أن تنحر الناقة وتقسم عشرة أجزاء فتجعل إحدى الوركين جزءًا، والورك الأخرى جزء وعجزها جزء، والكاهل جزء، والزور- وهو الصدر- جزء، والملحاة، أي: وسط الظهر ما بين الكاهل والعجز من الصلب جزء، والكتفان وفيهما العضدان جزءان، والفخذان جزءان، وتقسم الرقبة والطفاطف بالسواء على تلك الأجزاء، وما بقي من عظم أو بضعة فهو

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ١٥٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٢٦.

(٢) انظر: المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٧/ ٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٣٥٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٦١، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٩.

(٤) غريب الحديث ٣/ ٤٦٩.

(٥) معاني القرآن الكريم، النحاس ٢/ ٣٥٦.

(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٥٦.

الريم، وأصله من الزيادة على الحمل، وهي التي تسمى علاوة فيأخذ الجازر، وربما استثنى بائع الناقة منها شيئًا لنفسه وأكثر ما يستثنى الأطراف والرأس»[(١)].

وقد رجح هذا القول الجمهور من الأدباء والمفسرين كابن قتيبة وابن عطية الأندلسي، ونصُّوا على خطأ القول الأول المنسوب للأصمعي، وتابعهم في ترجيحه العلامة عبد السلام هارون.

قال ابن قتيبة: «وكان الأصمعي يزعم أن الناقة تجزأ على ثمانية وعشرين جزءًا، وذهب في ذلك إلى حظوظ القداح، وهي ثمانية وعشرون: للفذ حظ، وللتوأم حظان، وللرقيب ثلاثة حظوظ، وللحلس أربعة حظوظ، وللنافس خمسة حظوظ، وللمسبل ستة حظوظ، وللمعلى سبعة حظوظ، فجميع هذه ثمانية وعشرون، ولو كان الأمر على ما قال الأصمعي لم يكن هناك قامر ولا مقمور، ولا فوز ولا خيبة، لأنه إذا خرج لكل امرئ قدح من هذه فأخذ حظ القدح أخذوا جميعًا تلك الأجزاء على ما اختار كل واحد منهم لنفسه، فما معنى إجالة القداح؟ وأين الفوز والغرم؟ ومن القامر والمقمور؟ وليس الأمر إلا على القول الأول»[(٢)].

قال ابن عطية: «وأخطأ الأصمعي في قسمة الجزور فذكر أنها كانت على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرين قسمًا وليس كذلك»[(٣)].

وقال البرهان البقاعي نقلًا عن صاحب الزينة: وذكر عن الأصمعي أنه قال: كانوا يقسمون الجزور على ثمانية وعشرين جزءًا: للفذ جزء، وللتوأم جزءان، وللرقيب ثلاثة أجزاء، فعلى هذا حتى تبلغ ثمانية وعشرين جزءًا؛ وخالفه في ذلك أكثر العلماء وخطؤوه، وقالوا: إذا كان ذلك كذلك وأخذ كل قدح نصيبه لم يبق هنالك غرم، فلا يكون إذًا قامر ولا مقمور، ومن أجل ذلك قالوا لأجزاء الجزور: أعشار، لأنها عشرة أجزاء، قال امرؤ القيس[(٤)]:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقد ناقش البرهان البقاعي اعتراضهم على الأصمعي، فقال: «وقوله: لا معنى للتقامر عليها، على تقدير التجزئة بثمانية وعشرين ليس كذلك، بل تظهر ثمرته في التفاوت في الأنصباء، وذلك بأن تكون السهام وهي القداح عشرة، فإنه لما قال: إن الأجزاء تكون ثمانية وعشرين، لم يقل: إنها على عدد السهام، حتى تكون السهام ثمانية وعشرين، بل قال: إنها على عدد الفروض

(١) نظم الدرر ١/ ٤١٣.
(٢) الميسر والقداح ص ٩٣- ٩٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٩٣.
(٤) نظم الدرر ١/ ٤١٢- ٤١٣.

التي في السهام، وقد علم أنها عشرة؛ وقد صرح صاحب الزينة وغيره عن الأصمعي كما مضى، وهو ممن قال بهذا القول، فحينئذ من خرج له المعلى مثلًا أخذ سبعة أنصباء من ثمانية وعشرين، فيكون أكثر حظًّا ممن خرج له ما عليه ستة فروض فما دونها للضربات؛ وقوله: إن الرجل ربما أخذ قدحين - إلى آخره -، يبين وجهًا آخر من التفاوت، وهو أن الرجل ربما خرج له سهم واحد لاعتراض السهام وتحرفها عن سنن الاستقامة حال الخروج، وربما خرج له سهمان أو ثلاثة في إفاضة واحدة لاستقامة السهام واعتدالها للخروج، ففاز بمعظم الجزور، وذلك بأن يكون الرجال أقل من السهام، وربما خرج له أكثر من ذلك مع الوفاء للثمن بينهم على السواء، وهذا الوجه يتأتى أيضًا بتقدير أن تكون السهام والرجال على عدد الأجزاء، لانحصار العد فيمن خرج له سهام، سواء كان على عددهم أو أكثر، وانحصار الغرم فيمن لم يخرج له سهم على تقدير أن يخرج لغيره عدد من السهام؛ وبتقدير أن لا يخرج لكل واحد واحد يكون قمارًا أيضًا، لأن كل واحد منهم غير واثق بالفوز، ويكون فائدة ذلك حينئذ للفقراء، ومن قال: إن من خرج له شيء من السهام الثلاثة الأغفال يغرم، كان القمار عنده لازمًا في كل صورة بكل تقدير»[1].

ويستفاد من مناقشة البرهان البقاعي السابقة أمور:

- وقوع الخلاف بين الكاتبين في شأن المقصد من السهام الأغفال، وهل تؤثر في الغَنْم والغُرْم أو لا؟ فبعضهم يراها زيادة للتكثير وقطع التحايل، وبعضهم يعدها ضمن سهام الميسر، بمعنى أنها تختص بأفراد[2].
- وقوع الخلاف أيضًا في اختيار القداح وتسمية أصحابها، فبعضهم يرى أن ذلك يكون قبل وضعها في الربابة، وعلى هذا كان اعتراضهم على قول الأصمعي، لأن أصحاب السهام جميعًا يستحقون نصيبًا في الجزور، وذهب الأكثرون منهم إلى عدم التسمية، بمعنى أنها توضع في الربابة، ثم يؤمر المجيل أن يخرج لفلان على ترتيب مجلسهم، فأي سهم خرج ترتب عليه غُنْمٌ من خرج له أو غرمه[3].
- خلافهم في انحصار عدد الأيسار في سبعة، لعدم دقة النقل شأنه في ذلك شأن عملية الميسر بأسرها، والظاهر عدم انحصار عددهم في السبعة، بل قد يكونون عشرة على عدد القداح

(١) المصدر السابق ١/ ٤١٥.
(٢) انظر: القمار حقيقته وأحكامه ص ٤٠- ٤١.
(٣) انظر: المصدر السابق ص ٤٠.

ذوات الحظوظ والأغفال معًا. ويشهد لهذا ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقال: «أين أيسار الجزور؟ فيجتمع العشرة فيشترون الجزور»[1].

الثالث: وذهب أصحابه إلى التوقف وعدم الجزم بعدد معين تقسم إليه الجزور، وذلك بناءً على عدم جزم العرب برأي، ونسب هذا إلى أبي عبيدة.

قال الزجاج: «وكانوا يقسمون الجزور في قول الأصمعي على ثمانية وعشرين جزءًا، وفي قول أبي عمرو الشيباني على عشرة أجزاء، وقال أبو عبيدة لا أعرف عدد الأجزاء»[2].

والجمع بين هذه الآراء أولى من إهمال بعضها وإعمال الآخر، حيث إن الجميع مبني على اجتهاد غير يقيني، بدلالة توقف أبي عبيدة في معرفة عدد الأنصباء، ولو كان نقل في المسألة أو جزم لما صارت إلى هذا الخلاف، كما يؤكد الاضطراب في المسألة تعبير بعض المفسرين [3] في شأن قسمة الجزور بلفظ: «أو» دون ترجيح لقول منهما.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «ولم أجد علماءنا يستقصون معرفة علم هذا، ولا يدعونه كله، ورأيت أبا عبيدة أقلهم ادعاء لعلمه، قال أبو عبيدة: وقد سألت عنه الأعراب فقالوا: لا علم لنا بهذا، لأنه شيء قد قطعه الإسلام منذ جاء، فلسنا ندري كيف كانوا ييسرون»[4].

وقال البرهان البقاعي نقلًا عن عبد الغفار الفارسي: «ولهم في ذلك مذاهب ما عرفها أهل الإسلام، ولم يكن أحد من أهل اللغة على ثبت في كيفية ذلك»[5].

والأولى أن يقال: كان للعرب أكثر من طريقة في تقسيم الجزور، فأحيانًا كانوا يقسمونه إلى عشرة أقسام، وأخرى إلى ثمانية وعشرين قسمًا، وهذا ما ذهب إليه طائفة من المفسرين.

قال ابن عادل: «والجزور تقسم عند الجمهور على عدد القداح، فتقسم على عشرة أجزاء، وعند الأصمعي على عدد خطوط القداح، فتقسم على ثمانية وعشرين جزءًا، وخطأ ابن عطية الأصمعي في ذلك، وهذا عجيبٌ منه؛ لأنه يحتمل أن العرب كانت تقسمها مرةً على عشرةٍ، ومرةً على ثمانية وعشرين»[6].

وقال الطاهر بن عاشور: «ولعل كلًّا من وصفي الأصمعي وأبي عبيدة كان طريقة للعرب في الميسر بحسب ما يصطلح عليه

---

(١) ذكره البخاري في الأدب المفرد ص ٤٣١، باب القمار، رقم ١٢٥٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٠٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٤١١.
(٤) غريب الحديث ٣/ ٤٧٠.
(٥) نظم الدرر ١/ ٤١١.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٤.

أهل الميسر»[1].

ويقول الدكتور محمود مصطفى: «ونستطيع أن نستخلص مما تقدم أن هناك طريقتين: بسيطة، وهي طريقة صاحب الكشاف، تتم فيها العملية بجزور واحدة، ولا عول فيها، وطريقة مركبة عويصة لها صور شتى، وتحتاج إلى حساب دقيق، وهي الطريقة التي شرحها الألوسي»[2].

ويؤكد اتجاه الأستاذ الدكتور محمود مصطفى ما ورد في كتب اللغة ما نصه: «المغلق: السهم السابع في مضعف الميسر»[3].

فهذا يبين أن الميسر منه المضعف وغير المضعف، والخلاصة أن له طرقًا وصورًا متنوعة ومتعددة.

٥. وصف مجلس الميسر.

تناول جمع من المفسرين[4] مجلس الميسر ما بين مفصل لأحداثه وأشخاصه، وما بين مجمل، ولا شك أن ما تقدم ذكره من متعلقات الميسر سبيل إلى إدراك خلاصة وصف مجلس الميسر، وقد لخصته من كلام الطاهر بن عاشور على النحو التالي:

- أنهم كانوا إذا أرادوا الميسر اشتروا جزورًا بثمن مؤجل إلى ما بعد التقامر، وقسموه أبداءً- أي: أجزاء- إلى ثمانية وعشرين جزءًا أو إلى عشرة أجزاء - على الخلاف المذكور آنفًا-.
- ثم يضعون قداح الميسر في الربابة.
- ثم يوكلون بالربابة رجلًا يدعى عندهم الحرضة والضريب والمجيل، وكانوا يغشون عينيه بمغمضة، ويجعلون على يديه خرقة بيضاء يسمونها المجول يعصبونها على يديه أو جلدةً رقيقة يسمونها السلفة -بضم السين وسكون اللام-، ويلتحف الحرضة بثوب يخرج رأسه منه، ثم يجثوا على ركبتيه، ويضع الربابة بين يديه.
- ويقوم وراء الحرضة رجل يسمى الرقيب أو الوكيل هو الأمين على الحرضة وعلى الأيسار، كي لا يحتال أحد على أحد، وهو الذي يأمر الحرضة بابتداء الميسر.
- ويجلس الأيسار حول الحرضة جثيًا على ركبهم.
- ثم يقول الرقيب للحرضة: جلجل القداح، أي: حركها، فيخضخضها في الربابة، كي تختلط، ثم يفيضها، أي: يدفعها إلى جهة مخرج القداح من

(١) الميسر عند العرب ص ٢٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٤٨.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٣٥٥، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٣٦، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٢٩٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٨٢، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٢٦٠.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٤.

الربابة دفعة واحدة على اسم واحد من الأيسار، فيخرج قدح، فيتقدم الوكيل فيأخذه وينظره، فإن كان من ذوات الأنصباء دفعه إلى صاحبه، وقال له: قم فاعتزل، فيقوم ويعتزل إلى جهة، ثم تعاد الجلجلة، وقد اغتفروا إذا خرج أول القداح غفلًا ألا يحسب في غرم ولا في غنم، بل يرد إلى الربابة وتعاد الإجالة وهكذا، ومن خرجت لهم القداح الأغفال يدفعون ثمن الجزور[1]. وقد ذكر ابن قتيبة أن للفائز من أصحاب القداح إذا شاء العود بقدحه بشرط إجابة بقية الأيسار إياه وموافقتهم، وكذلك الرجل يحضرهم وقد أجيلت القداح وفاز بعضهم[2].

❁ وفي حالة إذا لم يجمع العدد الكافي من المتياسرين أخذ بعض من حضر سهمين أو ثلاثة، فكثر بذلك ربحه أو غرمه، وإنما يفعل هذا أهل الكرم واليسار؛ لأنه معرض لخسارة عظيمة، إذ لم يفز قدحه، ويقال في هذا الذي يأخذ أكثر من سهم: متمم الأيسار، ويسمون هذا الإتمام بمثنى الأيادي، لأنه يقصد منه تكرير المعروف عند الربح، فالأيادي بمعنى النعم.

❁ وكانوا يعطون أجر الرقيب والحرضة والجزار من لحم الجزور، فأما أجر الرقيب فيعطاه من أول القسمة وأفضل اللحم ويسمونه بدءًا، وأما الحرضة فيعطى لحمًا دون ذلك، وأما الجزار فيعطى مما يبقى بعد القسم من عظم أو نصف عظم ويسمونه الريم[3].

❁ ومن يحضر الميسر من غير المتياسرين يسمون الأعران جمع عرن بوزن كتف، ويحضرون طمعًا في اللحم، والذي لا يحب الميسر ولا يحضره لفقره سمي البرم بالتحريك[4].

ويلاحظ أن للخلاف المتقدم في تقسيم الجزور أثرًا في وصف مجلس الميسر، يعبر عنه الطاهر ابن عاشور بقوله: « فأما على الوصف الذي وصف الأصمعي أن الجزور يقسم إلى ثمانية وعشرين جزءًا، فظاهر أن لجميع أهل القدح القامرة شيئًا من أبداء الجزور، لأن مجموع ما على القداح الرابحة من العلامات ثمانية وعشرون، وعلى أهل القداح الخاسرة غرم ثمنه، وأما على الوصف الذي وصف أبو عبيدة أن الجزور يقسم إلى عشرة أبداء، فذلك يقتضي أن كل المتقامرين ليس برابح؛ لأن الربح يكون بمقدار عشرة سهام مما رقمت به القداح،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٧-٣٤٨) بتصرف.
(٢) انظر: الميسر والقداح ص ١١٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٨، ٣٤٩.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ٣٤٩.

وحينئذ إذا نفدت الأجزاء انقطعت الإفاضة، وغرم أهل السهام الأغفال ثمن الجزور، ولم يكن لمن خرجت له سهام ذات حظوظ بعد الذين استوفوا أبداء الجزور شيءٌ إذ ليس في الميسر أكثر من جزور واحد»[(١)].

وربما كان الميسر على الإبل الصحاح، وليس على جزور واحدة، وهنا يجعل مكان العشر من أعشار الجزور بعيرًا[(٢)].

ثانيًا: هل التدرج في التحريم شمل الميسر كالخمر؟

اقترن حديث القرآن الكريم عن الخمر والميسر في أكثر من موضع، فجاء السؤال عنهما معًا في آية سورة البقرة، وكانت الإجابة كذلك جامعة لهما، كما بينت مفاسدهما والنهي عنهما في سورة المائدة في أسلوب عطف واشتراك وتجاور بين الخمر والميسر.

ورغم الاتفاق حول تحريم الخمر والميسر، إلا أنه يبقى تساؤل حول اتفاق الخمر والميسر في طريقة التشريع والتحريم، من حيث التدرج عبر مراحل متتابعة.

وظاهر القرآن اتفاق الخمر والميسر في الحكم ومنهج التشريع، وهذا ما يستفيده متأمل حديث القرآن عنهما.

قال ابن الجوزي: « فأما الميسر فالقول فيه مثل القول في الخمر، إن قلنا: إن هذه الآية دلت على التحريم، فالميسر حكمها حرام أيضًا، و إن قلنا: إنها دلت على الكراهة، فأقوم الأقوال أن نقول: إن الآية التي في المائدة نصت على تحريم الميسر»[(٣)].

وقد وقع الخلاف بين المفسرين في دلالة قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

على تحريم الخمر والميسر، أو على كراهتهما، وعلى هذا الخلاف بني الخلاف حول التدرج في تحريم كل من الخمر والميسر وعدمه.

وقد انقسم المفسرون في المسألة إلى فريقين:

الفريق الأول: وذهب إلى دلالة الآية على تحريم الخمر والميسر بذاتهما، اعتمادًا على التصريح بالإثم في اقترافهما، وبناءً على هذا الفهم فقد نفى أصحاب هذا الرأي التدرج في تحريم الخمر والميسر، فكلاهما قد حرم ابتداءً بآية سورة البقرة.

ونسب هذا القول إلى الحسن، ورجحه أهل النظر من الفقهاء كالجصاص، وهو قول جماعة من العلماء، وحكاه الزجاج واختاره القاضي أبو يعلى والفخر الرازي

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٨.
(٢) انظر: الميسر والقداح، ابن قتيبة ص ٩٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٤٢.

وأبو حيان الأندلسي، وظاهر اختيار البرهان البقاعي[1].

قال الجصاص: «هذه الآية قد اقتضت تحريم الخمر، لو لم يرد غيرها في تحريمها لكانت كافية مغنية، وذلك لقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والإثم كله محرم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فأخبر أن الإثم محرم، ولم يقتصر على إخباره بأن فيها أثمًا حتى وصفه بأنه كبير؛ تأكيدا لحظرها، وقوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ لا دلالة فيه على إباحتها؛ لأن المراد منافع الدنيا، وأن في سائر الحرمات منافع لمرتكبيها في دنياهم، إلا أن تلك المنافع لا تفي بضررها من العقاب المستحق بارتكابها، فذكره لمنافعها غير دال على إباحتها، لا سيما وقد أكد حظرها مع ذكر منافعها بقوله في سياق الآية: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، يعني أن ما يستحق بهما من العقاب أعظم من النفع العاجل الذي ينبغي منهما، وبما نزل في شأن الخمر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وليس في هذه الآية دلالة على تحريم ما لم يسكر منها، وفيها الدلالة على تحريم ما يسكر منها، لأنه إذا كانت الصلاة فرضا فنحن مأمورون بفعلها في أوقاتها، فكل ما أدى إلى المنع منها فهو محظور، فإذا كانت الصلاة ممنوعة في حال السكر، وكان شربها مؤديًا إلى ترك الصلاة، كان محظورًا؛ لأن فعل ما يمنع من الفرض محظور ومما نزل في شأن الخمر مما لا مساغ للتأويل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]»[2].

واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة ملخصها:

- أن الله تعالى في الآية نص على تغليب إثم الخمر والميسر على نفعهما في قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

والتغليب يدل على التحريم ابتداءً. واعترض على هذا بنص الآية ذاتها أيضًا على أن فيهما منافع للناس ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، وتلك قرينة أخرى تفيد الإباحة، فيجمع بين الدلالتين بالكراهة، كما اعترض بأنه لا يلزم من غلبة المفسدة على المصلحة الدلالة على التحريم[3].

---

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٤١.

(٢) انظر: انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٨.

❁ أن الله تعالى جعل في اقترافهما إثمًا، وقد حرم جل جلاله الإثم نصًّا في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فلما تناول التحريم الإثم، وكان الإثم من صفات الخمر والميسر ولوازمهما، وجب تحريمهما، وذلك أن الإثم قد يراد به العقاب، وقد يراد به ما يستحق به العقاب من الذنوب، وأيهما كان فلا يصح أن يوصف به إلا المحرم[(١)].

واعترض بأن الآية الأولى لم تسم الخمر والميسر إثمًا، بل جعلت الإثم في اقترافهما، وفرق بين التعبيرين ودلالتهما.

قال ابن عطية ليس هذا النظر بجيد؛ لأن الإثم الذي فيها هو الحرام، لا هي بعينها، على ما يقتضيه هذا النظر»[(٢)].

وقال القرطبي: « قلت: وهذا أيضا ليس بجيد، لأن الله تعالى لم يسم الخمر إثمًا في هذه الآية، وإنما قال: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ولم يقل: قل هما إثم كبير»[(٣)].

وقد أجاب الفخر الرازي عن هذا الاعتراض بقوله: «فإن قيل: الآية لا تدل على أن شرب الخمر إثم، بل تدل على أن فيه إثمًا، فهب أن ذلك الإثم حرام، فلم قلتم: إن شرب الخمر لما حصل فيه ذلك الإثم وجب أن يكون حرامًا؟ قلنا: لأن السؤال كان واقعًا عن مطلق الخمر، فلما بين تعالى أن فيه إثمًا، كان المراد أن ذلك الإثم لازم له على جميع التقديرات، فكان شرب الخمر مستلزمًا لهذه الملازمة المحرمة، ومستلزم المحرم محرم، فوجب أن يكون الشرب محرمًا»[(٤)].

❁ واستدلوا أيضًا بدلالة وصف الإثم بالكبير، ففي هذا الوصف تأكيد لحظرهما، ومن ثم تحريمهما.

واعترض بأن مقتضى إخباره تعالى أن فيهما إثمًا كبيرًا، أن ذلك الإثم الكبير يكون حاصلًا ما داما موجودين، فلو كان ذلك الإثم الكبير سببًا لحرمتهما، لوجب القول بثبوت حرمتهما في سائر الشرائع، ولا تكون حاجة إلى تحريمهما ثانية[(٥)].

وأجاب أصحاب هذا الرأي عن حكمة تتابع الآيات في بيان حكم الخمر والميسر: بأن دلالة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٧٠، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٦٠.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي (١/ ١٧٠، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٨.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٦/ ٣٩.

﴿لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

تحتمل التأويل بحالة دون أخرى؛ لاشتمالها على ذكر المنافع والإثم، فيربط البعض بين المنافع والحل، ويربط الآخر بين الإثم والحرمة، كما أن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

مخصوص بحالة الصلاة، كما يدل لفظ الآية، ومما يؤكد حالة الاحتمال وإمكانية التأويل سؤال سيدنا عمر رضي الله عنه في الخمر جوابًا شافيًا، لهذا كله كانت الحاجة ماسة إلى بيان قاطع، فجاء قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].

قال الجصاص: «فمن الناس من يظن أن قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ لم يدل على التحريم، لأنه لو كان دالًا لما شربوه، ولما أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولما سئل عمر البيان بعده، وليس هذا كذلك عندنا، وذلك لأنه جائز أن يكونوا تأولوا في قوله: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جواز استباحة منافعها، فإن الإثم مقصور على بعض الأحوال دون بعض، فإنما ذهبوا عن حكم الآية بالتأويل، وأما قوله: إنها لو كانت حرامًا لما أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على شربها، فإنه ليس في شيء من الأخبار علم النبي صلى الله عليه وسلم بشربها ولا إقرارهم عليه بعد علمه، وأما سؤال عمر رضي الله عنه بيانًا بعد نزول هذه الآية، فلأنه كان للتأويل فيه مساغ، وقد علم هو وجه دلالتها على التحريم، ولكنه سأل بيانًا يزول معه احتمال التأويل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ الآية [المائدة: ٩٠]»[1].

الفريق الثاني: وذهب إلى إثبات التدرج في تحريم الخمر والميسر، حيث جعلوا دلالة آية سورة البقرة على كراهة الخمر والميسر وذمهما، واعتبارها بذلك تمهيدًا لمرحلة تالية من مراحل التدرج في التحريم[2].

وقد نسب هذا القول لقتادة رحمه الله، وهو المشهور، ونسب لابن عباس رضي الله عنه، وعليه جمهور المفسرين، ورواه السدي عن أشياخه، وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد ومقاتل، وهو رأي جمهور المفسرين[3].

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٤- ٥.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين ١/ ٢١٩.
(٣) انظر: الناسخ والنسوخ، قتادة ص ٣٥- ٣٦،

قال الماوردي: « واختلفوا في هذه الآية هل كان تحريم الخمر بها أو بغيرها؟ فقال قوم من أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية، وقال قتادة وعليه أكثر العلماء: أنها حرمت بآية المائدة»[1].

وبناءً على هذا الرأي فقد «حرم الميسر مع الخمر على مراحل، »وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم عقوبة الميسر التعزير، ولكن لا يعلم أن أحدًا عوقب على لعب الميسر قبل نزول التحريم، ولا يعلم أن نصًا من نصوص التحريم كان له أثر رجعي، ومن ثم يمكن القول بأن النصوص التي حرمت الخمر والميسر لم يكن لها أثر رجعي»[2].

ويمكن أن يستخلص مما سبق أن تحريم الميسر مر بمراحل ثلاث هي:

المرحلة الأولى: مرحلة الإباحة، وكانت قبل نزول آية سورة البقرة.

المرحلة الثانية: مرحلة الكراهة، وذلك بعد نزول آية سورة البقرة، حيث أفادت الإباحة مع الكراهة.

المرحلة الثالثة: مرحلة التحريم، وذلك بعد نزول آية سورة المائدة.

قال الكيا الهراسي: « وكانت المخاطرة في أول الإسلام مباحة، حتى خاطر أبو بكر المشركين، حتى نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١-٢].

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (زد في المخاطرة وامدد في الأجل)، ثم حظر ذلك، ونسخ بتحريم القمار»[3].

وورد في عدد من كتب التفسير أن تحريم الميسر كان بعد غزوة الأحزاب[4].

والراجح في المسألة بناءً على ما ورد من روايات: القول بالتدرج في تحريم الميسر مثل الخمر.

ويدل على رجحان القول بالتدرج:

- ظاهر القرآن الكريم، حيث ورد بيان حكم الميسر مقترنًا بالخمر في أكثر من موضع مع اختلاف الأسلوب في كلٍّ، وجمع بينهما في الحديث والحكم؛ لاجتماعهما في الواقع.

قال الطاهر ابن عاشور: « وذكر في هذه الآية الميسر عطفًا على الخمر ومخبرًا عنهما بأخبار متحدة، فما قيل في مقتضى هذه الآية من تحريم الخمر أو من التنزيه عن شربها يقال مثله في الميسر، وقد بان أن الميسر قرين الخمر في التمكن من نفوس العرب

تفسير عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٨٨.

(١) النكت والعيون ١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عودة (١/ ٤٠٩) بتصرف.

(٣) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ١٢٥-١٢٦.

وحديث مخاطرة أبي بكر رضي الله عنه المشركين أخرجه بمعناه: أحمد في مسنده ١/ ٣٠٤، رقم ٢٧٧٠.

(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٦٤٤، تفسير ابن أبي زمنين ٣/ ٣٥٥.

يومئذ، وهو أكبر لهو يلهون به، وكثيرًا ما يأتونه وقت الشراب إذا أعوزهم اللحم للشواء عند شرب الخمر، فهم يتوسلون لنحر الجزور ساعتئذ بوسائل قد تبلغ بهم إلى الاعتداء على جزر الناس بالنحر»[1].

والمتأمل آية سورة البقرة يجد أنها وصفت الخمر والميسر بأن فيهما إثمًا كبيرًا ومنافع للناس وأن إثمهما أكبر من نفعهما، وقد اعتمد أصحاب الفريق الأول على هذا في إفادتها تحريم الخمر والميسر، غير أن المتأمل آية سورة المائدة يجد في أسلوب تحريمها للخمر والميسر قرائن أبلغ في الدلالة، فقد وصف الخمر والميسر بأنهما رجس من عمل الشيطان، وتضمنت الأمر باجتنابها بغية الفلاح، ثم أتبعت ذلك بتعليلات تفصيلية لما يلزم الخمر والميسر من المحرمات (العداوة- البغضاء- الصد عن ذكر الله- الصد عن الصلاة).

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١].

ثم ذيلت الآية بالاستفهام المفيد للنهي بعد التهديد والوعيد، كما أن الحديث عن الانتهاء لم يرد في غير آية سورة المائدة[2].

وأيضًا إن كانت آية سورة البقرة تحتمل التأويل بين الحل والإباحة، بخلاف آية سورة المائدة، فهي صريحة في التحريم، ولا تحتمل التأويل.

قال الزجاج: «فبالغ الله في ذم هذه الأشياء فسماها رجسًا، وأعلم أن الشيطان يسول ذلك لبني آدم»[3].

وقال الواحدي: « والرجس واقع على الخمر وما ذكر بعدها، وقد قرن الله تعالى تحريم الخمر بتحريم عبادة الأوثان تغليظًا وإبلاغًا في النهي عن شربها»[4].

و« جاز في صيغة الاستفهام أن يكون على معنى النهي؛ لأن الله تعالى ذم هذه الأفعال وأظهر قبحها، وإذا ظهر قبح الفعل للمخاطب، ثم استفهم عن تركه، لم يسعه إلا الإقرار بالترك، فكأنه قيل: أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما ظهر؟ فصار المنهي بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ في محل قد عقد عليه ذلك بإقراره، فكان هذا أبلغ في باب النهي من أن لو قيل: انتهوا ولا تشربوا»[5].

وقال الزمخشري: « أكد تحريم الخمر والميسر وجوهًا من التأكيد، منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام،.....، ومنها أنه جعلهما رجسًا، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ١١٧.
(٣) معاني القرآن ٢/ ٢٠٣.
(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٥١٠.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥١٢.

﴿ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا، كان الارتكاب خيبّة ومَحْقَةً. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر -القمار-، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟»[1].

كما يظهر في آيات سورة المائدة اهتمامٌ بشأن الخمر والميسر عن المنهيات والمحرمات الأخرى المذكورة (الأنصاب-الأزلام)، بدلالة أنه خصهما بالذكر في الآية التالية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وكذلك ما يستفاد من اقتران الميسر والخمر بالأنصاب والأزلام من دلالة على عظم إثمهما البالغ وتساويهما مع الشرك، وهذا من مؤكدات تحريمهما بهذه الآية.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولًا، ثم أفردهما آخرًا؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين، وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر وإظهار أن ذلك جميعًا من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنمًا وأشرك بالله في علم الغيب، وبين من شرب خمرًا، أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليري أن المقصود بالذكر الخمر والميسر»[2].

كما لا يخفى ما في دلالة الآية التالية لآيات الخمر والميسر في سورة المائدة من تأكيد لتحريم الخمر والميسر في الآيات السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢].

قال ابن العربي في تفسيرها: «وهذا تأكيد للتحريم وتشديد في الوعيد، قال: فإن توليتم فليس على الرسول إلا البلاغ فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين أما عقاب التولية والمعصية فعلى المرسل لا على الرسول»[3].

(١) الكشاف ١/ ٦٧٤- ٦٧٥.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٦٨.

(٢) الكشاف ١/ ٧٠٨.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٦٦.

❁ السنة النبوية.

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: (حرمت الخمر ثلاث مراتٍ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

إلى آخر الآية، فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال: فيهما إثمٌ كبيرٌ، وكانوا يشربون الخمر، حتى إذا كان يومٌ من الأيام صلى رجلٌ من المهاجرين أم الصحابة في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله فيها آيةً أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيقٌ، ثم أنزلت آيةٌ أغلظ من ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

فقالوا: انتهينا ربنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناسٌ قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا ومن عمل الشيطان فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

إلى آخر الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم»[1].

❁ ويدل لهذا القول أيضًا أن الله تعالى أخبر في آية سورة البقرة بأن في الخمر والميسر منافع، وفي الإخبار المذكور قرينة تدل على الإباحة، وما ذكره أصحاب الرأي الأول من دلالة اقتران الإثم بهما لا يزيل الإباحة[2].

❁ ومما يؤكد القول بالتدرج ما ذكره بعض المفسرين من دعوى نسخ آية سورة المائدة لآية سورة البقرة.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

فنسختها هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ [المائدة:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٣٥١، رقم ٨٦٠٥، والترمذي في سننه، ٥/ ٢٥٣، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم ٣٠٤٩، وأبو داود في سننه، ٣/ ٣٢٥، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم ٣٦٧٠، والنسائي في سننه المجتبى، ٨/ ٢٨٦، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم ٥٥٤٠.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن الفرس ١/ ٢٧٨.

٩٠][1].

❁ وما يرجح هذا القول أيضا ما ورد من روايات تفيد شرب الصحابة للخمر بعد نزول آية سورة البقرة؛ إذ لو دلت قطعًا على التحريم لما شربوا.

قال العلامة الآلوسي: «والحق أن الآية ليست نصًّا في التحريم كما قال قتادة، إذ للقائل أن يقول: الإثم بمعنى المفسدة، وليس رجحان المفسدة مقتضيًا لتحريم الفعل، بل لرجحانه؛ ومن هنا شربها كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعد نزولها، وقالوا: إنما نشرب ما ينفعنا ولم يمتنعوا حتى نزلت آية المائدة فهي المحرمة»[2].

❁ ومما يرجح القول بالتدرج أيضًا ما أورده أصحاب الصحاح والسنن من إيراد آية سورة المائدة في سياق باب تحريم الخمر.

فقد جاء في ترجمة الإمام البخاري: «باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠][3]، ثم أورد عددًا من الأحاديث المتعلقة بتحريم الخمر.

وجاء في سنن النسائي: « باب تحريم الخمر قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾[المائدة: ٩٠ - ٩١][4]، ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه المتقدم وغيره من الأحاديث المتعلقة بتحريم الخمر.

وختامًا لهذا المطلب ينبغي الإشارة إلى ملمح الإعجاز التشريعي في تدرج القرآن الكريم في تحريم الميسر، وذلك أن مرور تحريم الميسر بمراحل غرضه أن ينقل الناس من الأخف إلى الأشد تدريجيًّا، ويتضمن سياسةً تربوية ناجحة، يستفاد منها في تقنين الأحكام وتطبيقها[5].

قال الفخر الرازي: « قال القفال رحمه الله: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب: أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بها كثيرًا، فعلم الله أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق»[6].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٩، رقم ٢٠٤٥، المصفى بأكف أهل الرسوخ، ابن الجوزي ص ٢٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١١٥.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٦٨٧.
(٤) سنن النسائي ٨/ ٢٨٦.
(٥) انظر: التفسير المنير ١/ ٢٧٠.
(٦) مفاتيح الغيب ٦/ ٣٥.

ثالثًا: الميسر في العصر الحاضر:

جاء حديث القرآن الكريم عن الميسر مقصورًا في لفظه على لون واحد من ألوانه، وهو الميسر في الجزور، واتفق المفسرون على شمول التحريم كل صور الميسر وأشكاله.

ولا يخفي ما في التعبير القرآني من رقي وسمو خلقي واجتماعي، كما لا يخفى ما فيه من إعجاز في عرض الحكم الشرعي.

وقد تنوعت صور الميسر عبر الأزمان والبلاد، فكما اشتهر بين العرب في الجاهلية الإيسار بالجزور، اختصت الجاهلية المعاصرة بعدد من صور الميسر وأشكاله، واتخذ بعضها شكل الميسر الخالص، واتخذ البعض شكلًا خيريًا أو اجتماعيًا في ظاهره، غير أنها تقصد الميسر وتدور في فلكه ودائرته.

ويمكن إجمال أهم صور الميسر المعاصرة في:

١. القمار في عقود التأمين.

يعتبر عقد التأمين صورة تطبيقية واقعية لنظام التأمين، ويعرف بأنه: «عقد يتم بين شركة التأمين ومستأمن معين تتعهد هذه الشركة بمقتضاه بدفع مبلغ من المال، عند حدوث خطر معين، مقابل التزام المستأمن بدفع مبلغ مالي محدد»[1].

ولعقد التأمين أركان هي إجمالًا:

- الخطر المؤمن ضده: ويشبه المبيع في البيع، وهو حدث احتمالي يؤدي وقوعه إلى خسائر في الأشخاص أو الممتلكات، وهو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله تعالى، ويتضمن معنى القمار والغرر الفاحش.
- مبلغ التأمين: ويشبه الثمن في البيع، وهو مبلغ من المال، أو إيراد مرتب، أو أي عوض مالي آخر، والأول معلوم، وفي الإيراد المرتب غرر فاحش ومقامرة، وأما العوض المالي فيحتمل العلم والجهل.
- قسط التأمين: وهو المبلغ الذي يدفعه المستأمن للشركة مقابل التعويض عن الخطر، ولا دخل له في تقديره رغم تحمله له، ولا يحق له الاعتراض، وهذا من شأنه أن يوجد حالة من عدم التراضي بين طرفي العقد، كما أنه يزيد تبعًا لحجم الخطر.
- المستأمن: وهو المؤمن له، ويكون شخصًا أو مؤسسة تطلب التأمين من أخطار مستقبلية.
- المؤمن: وغالبًا ما يتمثل في صورة

(١) انظر: مباحث في الاقتصاد الإسلامي من أصوله الفقهية، محمد رواس قلعجي ص ١٣١، التأمين بين الحل والتحريم، عيسى عبده ص ٢٦.

مؤسسة تجارية[1].

وللتأمين تقسيمات باعتبار شكله وموضوعه، فينقسم من حيث الشكل إلى: التأمين التعاوني (التبادلي)، وغرضه اجتماعي إنساني، والثاني: التأمين عن طريق قسط ثابت، وتتولاه شركات مساهمة ومؤسسات مصرفية ضخمة بغرض تحقيق أرباح وفوائد، وينقسم باعتبار موضوعه تقسيمات منها: التأمين الاجتماعي، وهو التأمين الإجباري الذي تقوم به الدول وتشرف عليه ضد أخطار معينة يتعرض لها أصحاب الحرف والمهن، والتأمين الخاص، وهو التأمين الخاص بفرد معين أو مؤسسة معينة، وإلى: تأمين الأضرار وتأمين الأشخاص[2].

والجامع بين أنواع التأمين المختلفة أن أهم خصائص وأركان عقد التأمين متوفرة في جميعها[3].

وللفقهاء حول التأمين آراء: حيث ذهب فريق إلى المنع مطلقًا، وذهب ثانٍ إلى الجواز بشرط خلوه من الربا؛ اعتمادًا على قيامه على أساس من التعاون، وذهب ثالثٌ إلى التردد بين الجواز والمنع، وذهب رابع إلى التفصيل والتمييز بين التعاوني والتجاري منه، وبين تأمين الأضرار والأشخاص[4].

وقد أشار عدد من الفقهاء والباحثين إلى أن النوع الشائع المعروف من عقود التأمين غير جائز؛ لكونه مبنيًّا على الاحتمال، بمعنى احتمال وقوع الخسارة في الوسائل أو الأدوات، وبهذا يتضمن معنى المخاطرة، كم أن فيه غررًا وجهالة، لأنه مستور العاقبة، مجهول الأجل، على الرغم من كونه ملزمًا لطرفيه، ويعتبر من عقود المعاوضات، وأدنى ما يقال فيه: إنه عقد تدور حوله الشبهات[5].

كما أشار بعضهم إلى أن نظام التكافل الاجتماعي الإسلامي يغني عن أفضل أنواع التأمين- من وجهة نظر المجيزين-، وهو التعاوني والاجتماعي، حيث لا يشترط في نظام التكافل الإسلامي اشتراك، ولا يفرق

---

(١) انظر: موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي، علي السالوس ص ٣٦٥، المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام، سعد الدين الكبي ص ٢٠٦.

(٢) انظر: التأمين بين الحل والتحريم، عيسى عبده ص٢٧، التأمين وأحكامه، سليمان الثنيان ص ٧٠.

(٣) انظر: التأمين وأحكامه، سليمان الثنيان ص ٨٧.

(٤) انظر: نظام التأمين حقيقته والرأي الشرعي فيه، مصطفى الزرقا ص ٢٥، المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام، سعد الدين الكبي ص ٢١١.

(٥) انظر: بحوث فقهية في قضايا اقتصادية معاصرة، محمد الأشقر وآخرون ص ١٢، ١٣)، التأمين بين الحل والتحريم، عيسى عبده ص ٣٠، التأمين وأحكامه، سليمان الثنيان ص ٦٣.

فيه بين صاحب حرفة ومهنة وبين عاطل عن العمل أو عاجز[1].

والخلاصة: إن عقود التأمين بنظامها الغربي الشائع تتضمن صورة من صور الميسر، حيث تبنى على الخطر، وتعليق المعاملات على الغيبيات.

٢. أوراق اليانصيب.

ويقوم هذا النظام على شراء شخص كوبونًا (ورقة يانصيب) بمبلغ من المال، بغرض أن يشارك في السحب على الجائزة أيا كانت، مالًا نقديًا، أو سيارة، أو غير ذلك، ثم يجرى السحب لاختيار أرقام معينة وهذا خاضع كلية للحظ، ويترتب على ذلك أن مشتركًا يكسب بدون جهد، ومشتركًا آخر يخسر بسبب الحظ، وهذا هو عين القمار الذى كان فى الجاهلية ونهى الله عز وجل عنه وحرمه[2].

وعمليات اليانصيب من الميسر- حتى ولوكان قسم منه يذهب للفقراء-؛ لأنه مخاطرة، ولأن تمييز المستحق له من بين المشاركين بواسطة القرعة أو أي طريقة أخرى تعتمد على الحظ والمصادفة، فكل مشارك فيه مخاطر بشيء من ماله بغية تحصيل ما هو أكثر منه، فهو بين أن يفقد ما خاطر به أو أن يربح ما خاطر من أجله، وقد علق ذلك على حصول أمر لم يجعله الشارع سببًا في انتقال الأملاك؛ لأنه لم يكن من الرابح عمل يستحق عليه الأجر، ولا عوض يستحق عليه البدل[3].

قال صاحب المنار: « وأما كون هذا النوع لا يظهر فيه ما في سائر الأنواع من ضرر العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فلأن دافعي المال فيه لا يجتمعون عند السحب، وقد يكونون في بلاد أو أقطار بعيدة عن موضعه، ولا يعملون له عملا آخر فيشغلهم عن الصلاة أو ذكر الله تعالى، كقمار الموائد المشهورة، ولا يعرف الخاسر منهم فردا أو أفرادا أكلوا ماله فيبغضهم ويعاديهم كميسر العرب وقمار الموائد ونحوه.

وكثيرًا ما يجعل (اليانصيب) لمصلحة عامة؛ كإنشاء المستشفيات والمدارس الخيرية وإعانة الفقراء، أو مصلحة دولية ولا سيما الإعانات الحربية، والحكومات التي تحرم القمار تبيح (اليانصيب) الخاص بالأعمال الخيرية العامة أو الدولية.

ولكن فيه مضار القمار الأخرى، وأظهرها أنه طريق لأكل أموال الناس

(١) انظر: التأمين الاجتماعي في ضوء الشريعة الإسلامية، عبد اللطيف آل محمود ص ٤١٧.

(٢) انظر: التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة، حسين شحاتة ص٢.

(٣) انظر: القمار حقيقته وأحكامه ص٥٣٨، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١/ ٥٠٩.

بالباطل، أي: بغير عوض حقيقي من عين أو منفعة، هذا محرم بنص القرآن كما تقدم في محله.

وقد يقال: إن المال الذي يبنى به مستشفى لمعالجة المرضى، أو مدرسة لتعليم أولاد الفقراء، أو ملجأ لتربية اللقطاء لا يظهر فيه معنى أكل أموال الناس بالباطل إلا في آخذي ربح النمر الرابحة دون آخذي بقية المال من جمعية أو حكومة، وهو على كل حال ليس فيه عداوة ولا بغضاء لأحد معين، كالذي كان يغرم ثمن الجزور عند العرب، وليس فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة»[(١)].

ولقد أجمع فقهاء المسلمين على تحريم أوراق اليانصيب حتى ولو كان جزء من ثمنها يستخدم أو يوجه إلى أغراض خيرية[(٢)].

٣. المضاربة في سوق الأسهم.

وله صور متنوعة أشهرها عمليات بيع وشراء صوريان غرضها الاستفادة من فروق الأسعار والتغيرات في القيمة السوقية في أقصر أجل[(٣)].

وفي الغالب تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على معاملات وهمية ورقية شكلية تقوم على الاحتمالات، ولا يترتب عليها أي مبادلات فعلية للسلع والخدمات، فهي عينها المقامرات والمراهنات التي تقوم على الحظ والقدر[(٤)].

وقد ذهب أهل الاختصاص إلى أن حرمة المضاربة المذكورة وسائر العقود المستقبلية لتضمنها معنى الميسر، حيث إن المضاربة هي مراهنة على سعر السهم، وتنطبق عليها شروط الغرر المحرم، وبها أضرار مشابهة لأضرار الميسر والقمار، كما ثبت ضررها على المؤسسات المالية والعاملين بها والمتعاملين معها وعلى اقتصاد الدول، واعتبرها المختصون في الغرب قمارًا، وعليه فإنها صورة من صور الميسر المحرم[(٥)].

٤. جوائز السحب المرصودة للمشتركين.

وصورته أن تقوم بعض الشركات

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٦٢.

(٢) انظر: التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة، حسين شحاتة ص٢.

(٣) انظر: المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة تحليل اقتصادي وشرعي، عبدالرحيم الساعاتي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، م٢٠، ع١، ص٦.

(٤) انظر: أزمة النظام المالي العالمي في ميزان الاقتصاد الإسلامي، حسين شحاتة ص٧، تحريم القمار في الشريعة الإسلامية وأثره في علاج الأزمة الاقتصادية المعاصرة، أحمد الرفاعي الجهني ص ٨٦.

(٥) انظر: أحكام التعامل في الأسواق المالية المعاصرة، مبارك آل سليمان ص ١١٤٧، المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة تحليل اقتصادي وشرعي، عبدالرحيم الساعاتي ص ٢٦.

والمحلات والأفراد برصد جوائز ضخمة تغري جمهور المستهلكين بالشراء، أو الإكثار من الشراء بدون ضرورة معتبرة شرعًا؛ لتزداد فرصته في الحصول على المال النقدي، أو السيارة، أو المنزل، أو الرحلة السياحية ونحو ذلك، وكلما كان الشراء أكثر كانت فرصة الفوز أكبر، ثم يعطى المشتري بكل مبلغ يشترى به كوبونًا....، وفي ميعاد وتاريخ معين يعلن بطريق القرعة عن الفائز أو الفائزين.... فالقصد من الشراء أن يغنم بالجائزة.

ولقد اختلف الفقهاء بين مجيز وغير مجيز، فإذا لم تضيف الشركة تكلفة الجائزة ومصروفاتها إلى ثمن السلعة فهذا جائز، أما إذا حملت الشركة المستهلك بتلك التكلفة فهذا غير جائز، وهذا ما يحدث فعلًا[1].

٥. التسويق الشبكي القائم على المكافآت والجوائز.

وملخصه أن يقوم الشخص بشراء خدمة موقع على الإنترنت ويدفع مبلغًا من المال، ويغري آخرين بعملية الشراء، فإذا بلغ من أغراهم تسعة يستحق له جائزة مبلغًا من المال وهكذا، وكل فرد يحاول بكافة السبل المشروعة وغير المشروعة أن يغري الآخرين على الشراء ملوحًا لهم بالجائزة[2].

وتعرف هذه العملية بلعبة النصب الهرمية، ولها أسماء منها: هانك، الدولار، البتاجونو، ومقر شركاتها في بلاد الغرب، ولا يستفيد من التعامل فيها سوى أصحاب الشركات، وتشترك هذه المعاملة مع الميسر المحرم في أمور منها: أنها تقوم على الحظ، ما تتضمنه من التحريض على شراء خدمة ليس المشتري في حاجة إليها، ولكن لغاية أخرى هي المكافأة، انتهاؤها بفريق رابح وفريق خاسر.[3]

٦. البيع عن طريق سحب الأرقام.

بأن تكون البضاعة مرقمة، فيدفع المشتري مبلغًا محددًا، أو يأخذ رقمًا يستلم به بضاعة أعلى مما دفع أو أقل مما دفع، كأن يدفع عشرة، ويأخذ سلعة بمائة، أو بريال، ولها أحوال تفصيلية، غالبها يدور في فلك الميسر والقمار[4].

٧. مسابقات الصحف والفضائيات.

وصورتها: أن تعلن إحدى الصحف أو القنوات عن مسابقة عن طريق الاتصال برقم معين وللفائز جائزة كبيرة.

وغالبًا ما تنطوي هذه المعاملة على تحريض وخطر وجهالة بينة، وشبهها بالميسر واضح، حيث يدور المشترك فيها

(١) انظر: التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة، حسين شحاتة ص٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: القمار حقيقته وأحكامه ص ٥٥٣.

الباذل للمال باتصال ونحوه بين الغنم والغرم والسلامة.

وقد عرف القمار كما مر بأنه: «المخاطرة الدائرة بين أن يغنم باذل المال أو يغرم أو يسلم».[1]

٨. بيع الغرر[2].

وهو البيع المجهول العاقبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والغرر هو المجهول العاقبة، فإن بيعه من الميسر الذي هو القمار»[3].

والجهل المقصود في بيوع الغرر يكون من جهة: الجهل بتعيين المعقود عليه أو تعيين العقد، أو الجهل بوصف الثمن والمثمون المبيع، أو بقدره، أو بأجله إن كان هناك أجل، أو من جهة الجهل بوجوده، أو تعذر القدرة عليه، أو من جهة الجهل بسلامته وبقائه[4].

ويوجد في مجتمعاتنا المعاصرة في صور مختلفة ومتعددة، ووسائله كذلك وفيرة، خاصة مع تقدم التقنيات ووسائل الاتصال.

وقد اشترط الفقهاء لتأثير الغرر في بطلان البيوع أن يكون كثيرًا مؤثرًا.

قال القرافي: «الغرر والجهالة - أي: في البيع - ثلاثة أقسام: كثيرٌ ممتنعٌ إجماعًا، كالطير في الهواء، وقليلٌ جائزٌ إجماعًا، كأساس الدار وقطن الجبة، ومتوسطٌ اختلف فيه، هل يلحق بالأول أم بالثاني ؟»[5].

وقال ابن رشد: «الفقهاء متفقون على أن الغرر الكثير في المبيعات لا يجوز، وأن القليل يجوز، ويختلفون في أشياء من أنواع الغرر، فبعضهم يلحقها بالغرر الكثير، وبعضهم يلحقها بالغرر القليل المباح؛ لترددها بين القليل والكثير»[6].

٩. الشطرنج والنرد.

والشطرنج لعبة ذهنية تلعب على لوحة (رقعة) مقسمة إلى أربعة وستين مربعًا، (ثمانية مربعات × ثمانية مربعات) من لونين، بحيث يكون كل مربع من لون، وبجانبه مربع من اللون الثاني (غالبًا الأبيض أو الأسود) يملك كل لاعب ستة عشرة حجرًا (قطعة) تتحرك كل منها باتجاهات محددة، والأحجار مقسمة كالتالي: ثمانية جنود أو بيادق، وقلعتين(أو رخ)، وحصانين، وفيلين، ووزير (أو ملكة) وملك (أو شاه) يتحكم أحد اللاعبين بالأحجار من اللون الأول (الأبيض عادة) ويتحكم اللاعب الآخر بالأحجار المماثلة من اللون الآخر

(١) انظر: مختصر الفتاوى المصرية، البعلي ص ٥٢٩.
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣١/ ١٥٥.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٣/ ٤١٥.
(٤) انظر: بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ١٧٨.
(٥) الفروق، القرافي ٣/ ٢٦٥- ٢٦٦، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣١/ ١٥١.
(٦) بداية المجتهد ٢/ ١٨٧.



(الأسود عادة) والهدف من اللعبة هو الوصول إلى حصر الملك (أو الشاه)، بحيث لا يستطيع الهروب، وتنتهي اللعبة عند تلك النقطة.

والنرد: وهو ما يعرف في الوقت الحاضر بالطاولة، هي لعبة مشهورة جدًا في الشرق الأوسط والبلاد الفارسية، تتكون من رقعة خشبية، أو صندوق خشبي، يمكن أن يكون مزخرفًا ومطعمًا بالصدف أو بقطع خشبية ثمينة من الأبنوس، وعدد من الأقراص العاجية أو البلاستيكية أو الخشبية بلونين مختلفين عددها خمسة عشر من كل لون ونردين سداسيين.

وقد أجمع الفقهاء على حرمة لعب الشطرنج والنرد واعتبارهما من الميسر المحرم، إذا كانا على مال أو شغلا عن واجب أو اشتملا على محرم، واختلفوا فيما إذا وقع اللعب بهما مجانًا، ولم يغلب على الظن إفضاؤه إلى محرم، أو تفويته لواجب، ويمكن حصر آرائهم في ثلاثة:

الأول: أنه محرم، وهو مذهب جمهور العلماء من سلف الأمة وخلفها.

الثاني: أنه مكروه كراهة تنزيه، وهو المشهور عند الشافعية.

الثالث: أنه مباح، وهذا القول وإن نسب إلى قليلين من العلماء، إلا أنه شاذ لا يلتفت إليه.

الآثار السيئة للميسر

للميسر آثاره السيئة على الفرد والمجتمع ومنظومة القيم والحضارة الإنسانية، ولا تنحصر آثار الميسر السيئة في جانب دون آخر، أو تختص بفئة دون أخرى، بل تشمل كافة الجوانب والميادين، وكافة الفئات.

وفي حديث القرآن عن الميسر إشارةٌ وافية بهذه الآثار، رغم وجازة العبارة، في تجانس عجيب بين إعجاز التعبير والتشريع كما سيتضح إن شاء الله تعالى.

غير أنه ينبغي الإشارة إلى منافع الميسر، اتباعًا لمنهج القرآن الكريم في حديثه الميسر، فقد نصت آية سورة البقرة على أن في الميسر منافع للناس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

رغم اشتمالها ذاتها على أن في اقترافه إثمًا.

وفي تعرضنا لبيان منافع الميسر رغبة في بيان دقة التعبير القرآني في عرضه الواقع والحقيقة، بنصه على اشتمال الميسر على منافع، على الرغم من حكمه بتحريمه، وهذا ينطوي على دلالات متنوعة وبراهين ساطعة لمن تدبر وتأمل، كما لا يخفى ما فيه

من إعجاز التشريع كما مر.

و«الفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينًا دائمًا، وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[الحجرات: ١٢].

ونحو ذلك، وتخصيص التنصيص على العلل ببعض الأحكام في بعض الآيات إنما هو في مواضع خفاء العلل، فإن الخمر قد اشتهر بينهم نفعها، والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء، فوجب بيان ما فيهما من المفاسد إنباء بحكمة التحريم، وفائدة أخرى وهي تأنيس المكلفين فطامهم عن أكبر لذائذهم؛ تذكيرًا لهم بأن ربهم لا يريد إلا صلاحهم دون نكايتهم كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣].

وهنالك أيضًا فائدة أخرى وهي عذرهم عما سلف منهم، حتى لا يستكينوا لهذا التحريم، والتنديد على المفاسد كقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧]»[(١)].

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.

ويلاحظ أن منافع الميسر كانت مادية عارضة، وخاصة وعامة، إلا أنه لا يمكن تجاهلها بحال، فلعلها كانت سببًا في مقارفته من بعض الناس، وفي بعض الأزمنة.

وقد أشار المفسرون إلى المراد بمنافع الميسر في الآية الكريمة إشارات متنوعة بين الاختصار[(٢)]، والشرح[(٣)]، ويمكن إجمال تلك المنافع من كلامهم في:

١. انتفاع الفقراء به.

وذلك أمر معلوم، حيث كان من عادة الأيسار أن يوزعوا ما يصيبون من أجزاء الجزور بين الفقراء، بل ويعاب من يطعم مثل هذا اللحم منهم، وقد أشار إلى هذه المنفعة جماعة من المفسرين[(٤)].

يقول العلامة عبد السلام هارون: «ولا ريب أن الميسر كان نافعًا للعرب، كان نافعًا لذوي الحاجة منهم، لأن العرب في أكثر ما يقامرون إنما يبغون بذلك نفع الفقراء، والترفيه عن المحتاجين المعوزين، وقل أن يطعم الأيسار من لحم اليسر، وإنما كانوا

(٢) انظر: تفسير مجاهد ١/ ١٠٦، تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ١١٦، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣.

(٣) انظر: تفسير مجاهد ١/ ١٠٦.

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٥٢، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ١٦٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٩٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٧.

يفرقونه في البائسين»[١].

٢. **اكتساب المال وإصابته من غير كد ولا تعب.**

وقد أشار إلى هذه المنفعة جماعة من المفسرين[٢].

٣. **ما يصيبون من أنصبة الجزور، فينتفعون به ويتفاخرون[٣].**

فلا تتوقف الإصابة هنا على مجرد اللحم، بل تتعداه إلى ما يكتسبه من المدح والثناء من الفقراء، وما يتفاخرون به على الأبرام - من لا يقامرون- ويترفعون[٤].

« قيل: ربما أن الواحد منهم كان يقمر في المجلس الواحد مائة بعير، فيحصل له المال الكثير، وربما كان يصرفه إلى المحتاجين فيكسب بذلك الثناء والمدح، وهو المنفعة»[٥].

٤. **اللهو والسرور.**

ويقصد به السمر والاستمتاع بمجالس الميسر ومخالطة الناس، وكذلك ما يدخله من السرور حال الفوز[٦].

قال ابن عاشور: « وأصل المقصد من الميسر هو المقصد من القمار كله، وهو الربح واللهو، يدل لذلك تمدحهم وتفاخرهم بإعطاء ربح الميسر للفقراء؛ لأنه لو كان هذا الإعطاء مطردًا لكل من يلعب الميسر لما كان تمدح به»[٧].

٥. **حدوث رواج في سوق الإبل وبيعها وشرائها[٨].**

وذلك بين، فهي محل الميسر ومحوره الأساس.

ويتعلق بالحديث عن منافع الميسر مسألة هامة، وهي هل منافع الميسر دائمة مستمرة، أو هي محدودة بزمان حله؟

وهذه المسألة متصلة برأيهم في دلالة آية سورة البقرة على تحريم الخمر والميسر، أو على ذمهما، فمن ذهب إلى دلالتها على التحريم رأى أن منافع الخمر المذكورة محدودة بزمن ما بعد التحريم، ومن ذهب إلى دلالتها على الذم رأى أن منافع الخمر عامة دائمة؛ لأنها منافع ذاتية غير عارضة.

قال ابن الجوزي: « اختلف العلماء في هذه الآية، فقال قوم: إنها تضمنت ذم الخمر لا تحريمها، وهو مذهب ابن عباس وسعيد

(١) الميسر والأزلام ص ٤٧.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٧٨، تفسير السمعاني ١/ ٢١٩، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣، زاد المسير ١/ ٢٤١، تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٢١١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٦٠، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ١٦٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤١، نظم الدرر، البقاعي ١/ ٤٠٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٢.
(٦) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٩، نظم الدرر، البقاعي ١/ ٤٠٩.
(٧) التحرير والتنوير ٢/ ٣٤٩.
(٨) انظر: الميسر والأزلام ص ٤٨.

بن جبير ومجاهد وقتادة، وقال آخرون: بل تضمنت تحريمها، وهو مذهب الحسن وعطاء، فأما قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فيتجاذبه أرباب القولين، فأما أصحاب القول الأول، فإنهم قالوا: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبله، وقال أصحاب القول الثاني: إثمهما قبل التحريم أكبر من نفعهما حينئذ أيضا؛ لأن الإثم الحادث عن شربها من ترك الصلاة والإفساد الواقع عن السكر لا يوازي منفعتها الحاصلة من لذة أو بيع»[١].

ويمكن تلخيص وجمع كلام المفسرين في رأيين:

الأول: وذهب أصحابه إلى أن منافع الخمر والميسر محدودة بزمان حله دون زمن تحريمه، فهي منافع مؤقتة، فيصير المعنى: وإثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبله. ونسب هذا القول إلى ابن عباس ومقاتل والضحاك والربيع وسعيد بن جبير ومقاتل، وحكاه جماعة من المفسرين، ورجحه بعضهم.[٢]

قال مقاتل: « يعني بالمنافع اللذة والتجارة في ركوبهما قبل التحريم، فلما حرمهما الله عز وجل، قال:) ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ (بعد التحريم،) ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ قبل التحريم»[٣].

الثاني: وذهب أصحابه إلى أن منافع الخمر والميسر عامة دائمة، ليست محدودة بزمان دون آخر، لأنها منافع ذاتية، والمعنى: أن إثمهما قبل التحريم أكبر من نفعهما حينئذ أيضا، لأن الإثم الحادث عن شربها من ترك الصلاة والإفساد الواقع عن السكر لا يوازي منفعتها الحاصلة من لذة أو بيع، ونسب إلى سعيد ابن جبير واختاره جماعة من المفسرين[٤].

قال الطبري: « وإنما اخترنا ما قلنا في ذلك من التأويل، لتواتر الأخبار وتظاهرها بأن هذه نزلت قبل تحريم الخمر والميسر، فكان معلومًا بذلك أن الإثم الذي ذكر الله في هذه الآية، فأضافه إليهما إنما عنى به الإثم الذي يحدث عن أسبابهما»[٥].

والراجح هو الرأي الثاني القائل بعموم منافع الخمر والميسر ودوامهما في كل

---

(١) نواسخ القرآن، ابن الجوزي ص ٨٢.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٥٢، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣، مفاتيح الغيب ٦/ ٣٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٦٠، البحر المحيط ٢/ ١٦٨.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٦١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٧٨، نواسخ القرآن، ابن الجوزي ص ٨٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥٠٥.

(٥) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٦١.

زمن؛ لاتفاقه مع ظاهر القرآن الكريم، وعدم الحاجة فيه إلى تأويل.

قال ابن العربي: « المسألة السادسة: ما هذا الإثم؟ فيه قولان: أحدهما: أن الإثم ما بعد التحريم، والمنفعة قبل التحريم، الثاني: أن إثمها كانوا إذا شربوا سكروا، فسبوا وجرحوا وقتلوا، والصحيح أنها إثم في الوجهين»[1].

ويقول العلامة أبو زهرة: «ويلاحظ في الكلمات السامية: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أنه أطلق الإثم ولم يضفه، فلم يقل: إثم على الناس، أو للناس، وقيد المنافع بأنها للناس، وهذا يدل على أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي، فهما في ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع فهي ضئيلة وهي بالنسبة لبعض الناس، فهي منافع إضافية، لا منافع ذاتية، فجوهر الخمر والميسر شر لا خير فيه، وما يكون من نفع فيهما في بعض الملابسات، كما يلاحظ في بيع الأوراق لتمويل بعض جماعات البر، فليس ذلك لأن في الميسر خيرا أو نفعا، بل لأن النفوس فسدت، وشحت بالخير، فلا تجود إلا من هذا الطريق الفاسد، فما فيه من نفع إضافي سببه فساد الناس، وهو نفع ضئيل للناس ومشتق من أحوالهم»[2].

وعلى كلا الرأيين فإن في الميسر منافع ولو محدودة، بقي بيان آثاره السيئة على الفرد والجماعة واقتصاد الأمة، وهذا ما سيتضح بتوفيق الله في النقاط الآتية.

أولًا: آثار الميسر النفسية على الفرد:

بين القرآن الكريم آثار الميسر النفسية على الفرد في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وبيان ذلك تفصيلًا يقتضي تقسيم الآثار النفسية للميسر على الفرد إلى قسمين:

القسم الأول: الآثار المتعلقة بالدين: ويقصد بها تلك المضار التي تؤثر بالسلب على ضرورة من الضرورات أو كلية من الكليات الخمس المأمور بحفظها، وهي

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠.

(٢) زهرة التفاسير ٢/ ٧٠٨.

الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

ويمكن إجمال الآثار السيئة للميسر على هذا الجانب فيما يلي:

أولًا: الصد عن ذكر الله وعن الصلاة: وقد نصت على هذا الأثر السيئ آية سورة المائدة؛ تعليلًا للأمر بالاجتناب والتحريم، وذلك بسبب اللهو بالميسر عن ذكر الله والانشغال به عن الصلاة وإضاعتها، وهذا أمر ظاهر، فمتى اشتغل بمخاطرة يتوقع فيها فوزًا أو خسارة أو سلامة، فلا بد أن ينشغل ذهنه وفكره بذلك، أو على الأقل يشوش[1].

قال الفخر الرازي: «وأما أن الميسر مانع عن ذكر الله وعن الصلاة فكذلك؛ لأنه إن كان غالبًا صار استغراقه في لذة الغلبة مانعا من أن يخطر بباله شيء سواه، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة»[2].

والصد عن ذكر الله وعن الصلاة داخل في مفهوم الإثم في الميسر في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩][3]، والمراد بالصد عن ذكر الله: الصد عن كل طاعة لله تعالى، وخص الصلاة من سائر الطاعات بإعادة ذكرها خاصة بعد العموم الشامل لها؛ لأهميتها ومكانتها.[4]

ثانيًا: ما فيه من الإثم: وذلك يتمثل في ارتكاب المحرمات من السرقة والتحايل وأكل أموال الناس بالباطل، وقول الفحش والحلف الكاذب ونحوها.[5]، وقد نصت على هذا الأثر آية سورة البقرة.

ثالثًا: متابعة الشيطان: ففي اقتراف الميسر عصيان لله وطاعة للشيطان- والعياذ بالله من ذلك- وهذا بين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فقد نص على كون اقتراف الميسر رجسًا من عمل الشيطان[6]، وكذلك ما يفهم من الربط بين الآيتين وبين الآية التالية لهما: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

يقول الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٦٢.
(٢) مفاتيح الغيب ١٢/ ٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٧٧.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٣٨، الكشاف ١/ ٧٠٨.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦، بلوغ الأرب ٣/ ٦٩، التفسير الوجيز، الواحدي ص١٦٥.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٦٥.

رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول في اجتنابكم ذلك واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالفوا الشيطان في أمره إياكم بمعصية الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكم العداوة والبغضاء بينكم بالخمر والميسر»[(١)].

وجميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان: العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة[(٢)].

رابعًا: إفساد التربية السليمة والفطرة المستقيمة، القائمة على السعي في طلب الرزق الحلال والكسب المشروع، وذلك عن طريق تعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، أو اللجوء إلى السرقة ونحوها من المحرمات[(٣)].

خامسًا: إضعاف القوة العقلية للمرء، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال الياسرين (المقامرين) للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران[(٤)].

القسم الثاني: الآثار المتعلقة بالحالة النفسية للفرد: ويقصد بها تلك المضار التي تؤثر بالسلب على الحالة النفسية للفرد جراء ممارسته للميسر والقمار بصوره المختلفة.

وبدايةً أشير إلى أن علماء النفس والاجتماع يعتبرون لعب اليسر من الأمراض النفسية والاجتماعية الخطيرة، وأن له تأثيرًا على الأفراد بصورة قد تؤدي إلى تدميرهم نفسيًا، خاصة الفقراء منهم، ويعتبر علماء النفس المقامرة لونًا من الإدمان، ومرضًا نفسيًا خطيرًا[(٥)].

ويسبب الميسر عددًا من التأثيرات السلبية على نفسية المقامر، أهمها:

أولًا: يسبب تشوهًا معرفيًا، وفقدان التحكم، ونقصًا في تقدير الذات، وشعورًا باليأس.

ثانيًا: يؤدي بالمقامر إلى التفكير غير العقلاني، والشعور بالذنب، والرغبة في المخاطرة.

ثالثًا: يؤدي إلى عزلة المقامر عن المجتمع، حال اضطراره إلى التوقف عن المقامرة والمراهنة.

رابعًا: التوتر العصبي، وهو تطور نفسي في الجسم يسبب الإثارة والاندفاع واضطراب الجهاز العصبي[(٦)].

ويظهر أثر هذه التأثيرات النفسانية على

---

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٥.
(٢) الضوء المنير، ابن القيم ٢/ ٤٥١.
(٣) انظر: تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٦٣.
(٥) انظر: القمار نظرة سيكولوجية اجتماعية، مجلة الفكر العربي، المجلد ١٨ ص ١٦٣-١٦٦، سيكولوجية المقامر ص ٤.
(٦) انظر: سيكولوجية المقامر ص ١٥.

سلوك المقامر، فيحرص على المخاطرة والمغامرة، حتى يفنى ماله ويهلك عقله.

جاء في تفسير المنار [(١)]: « وأما كون إثم الميسر أكبر من نفعه فهو أظهر مما تقدم في الخمر ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع القمار وعم ضررها، حتى إن الحكومات الحرة التي تبيح تجارة الخمر تمنع أكثر أنواع القمار وتعاقب عليها، على احترامها للحرية الشخصية في جميع ضروب التصرف التي لا تضر بغير العامل، فمنفعة القمار وهمية ومضراته حقيقية، فإن المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وزن ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع، والمسترسل في إضاعة المحقق طلبا للمتوهم يفسد فكره ويضعف عقله، ولذلك ينتهي الأمر بكثير من المقامرين إلى بخع أنفسهم - قتلها غما - أو الرضى بعيشة الذل والمهانة.

قال الأستاذ الإمام: إنني أعرف رجلا كانت ثروته لا تقل عن ثلاثة آلاف ألف جنيه (ثلاثة ملايين)، فما زال شيطان القمار يغريه باللعب فيه حتى فقد ثروته كلها، وعاش بقية حياته فقيرا معدما حتى مات جائعا، وذكر أنه ربح في ليلة تسعمائة ألف فرنك، فقال: لا أبرح حتى أتمها مليونا، فلم يبرح حتى خسرها إلى مليون آخر، وهكذا شأن أكثر المقامرين يغترون بالربح الذي يكون لهم أو لغيرهم أحيانا فيسترسلون في المقامرة حتى لا يبقى لهم شيء».

وجاء فيه أيضًا: « ويشترك الميسر مع الخمر في أن متعاطيهما قلما يقدر على تركهما والسلامة من بلائهما؛ لأن للخمر تأثيرا في العصب يدعو إلى العود إلى شربها والإكثار منها، فإن ما تحدثه من التنبيه يعقبه خمود وفتور بمقتضى سنة رد الفعل، فيشعر السكران بعد الصحو أنه مضطر إلى معاودة السكر، ليزول عنه ما حل به، فإذا هو عاد قويت الداعية، وأما الميسر فإن صاحبه كلما ربح طمع في الزيادة، وكلما خسر طمع في تعويض الخسارة، ويضعف الإدراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمي، وهذا شر ما في هاتين الجريمتين»[(٢)].

ثانيًا: آثار الميسر على العلاقات الاجتماعية:

أشار القرآن الكريم إلى آثار الميسر على العلاقات الاجتماعية في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ

(١) تفسير المنار ٢/ ٢٦٦.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٦٧.

﴿تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: ٢١٩].

فالإثم المذكور في الآية يشمل كل سيء من الأفعال، ومن ضمنها ما يكون بين الناس من سوء في العلاقات الاجتماعية.

ونص عليها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

ويمكن استخلاص آثار الميسر السيئة على العلاقات الاجتماعية، وإجمالها في:

أولًا: وقوع العداوة والبغضاء والحسد بين المتقامرين: فالقمار يورث العداوة، لأن مال الإنسان يصير إلى غيره بغير جزاء يأخذه عليه، فيبقى مسلوبًا، مغتاظًا على قرنائه[1].

وقد حذر القرآن الكريم من هذا الحال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

فقد «أعلم تعالى عباده أن الشيطان إنما يريد أن تقع العداوة بسبب الخمر، وما كان يغري عليها بين المؤمنين، وبسبب الميسر، إذ كانوا يتقامرون على الأموال والأهل، حتى ربما بقي المقمور حزينا فقيرًا، فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة، فإن لم يصل الأمر إلى حد العداوة كانت بغضاء، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا)[2].

وباجتماع النفوس والكلمة يحمى الدين ويجاهد العدو، والبغضاء تنقض عرى الدين، وتهدم عماد الحماية»[3].

ثانيًا: ضعف جماعة الأمة ووحدتها بين الناس: وذلك أثر من آثار وقوع العداوة والبغضاء بين أفراد الأمة، ومن خلال غياب المقامرين عن الصلاة ومجالس الذكر، أو انزوائهم وهروبهم من رحابة المجتمع إلى ضيق الأفق والحال.

يقول الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر، والمياسرة بالقداح، ويحسن ذلك لكم؛ إرادة منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر ومياسرتكم بالقداح؛ ليعادي بعضكم بعضا، ويبغض بعضكم إلى بعض؛ فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ١/ ١٧٤، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ٣٣٤، تفسير السمعاني ٢/ ٦٢، الهداية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٨٦٤.

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه ٥/ ٢٢٥٣، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٥٧١٧، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٥، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، رقم ٢٥٦٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٢٣٤.

بالإيمان وجمعه بينكم بأخوة الإسلام»[1].

ثالثًا: انهيار بناء الأسر وتفككها: وله -في نظري- شقان: اقتصادي، ويكون بسبب ما يصيبهم من كساد وإفلاس، و اجتماعي، ويكون بسبب انشغال الراعي وغفلته، وهذا مفهوم من عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[المائدة: ٩١].

قال صاحب المنار: « ومنها - وهو أشهرها - تخريب البيوت فجأة، بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز، وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت من السعة ولا ما دون ذلك»[2].

رابعًا: فساد الحياة واختلال منظومة القيم والأخلاق في المجتمع وانهيارها: وذلك ناتج عن تفشي سوء الأخلاق والفعال بين المتقامرين ومن يتعاملون معهم، لأنهم جزء من مكونات المجتمع، ومعلوم أن المقامر يبذل الكذب والتحايل والسرقة أحيانًا وكل وسيلة لإرضاء شهوته وكسب ربح سرابه، وهذا بلا شك يؤثر على منظومة القيم والأخلاق المجتمعية، ويفهم هذا الأثر أيضًا من عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[المائدة: ٩١][3].

كما نص القرآن الكريم على تضمن الميسر معنى الإثم بمفهومه الشامل لكافة المساوئ المنابذة للشرع من الكذب والشتم وزوال العقل واستحلال مال الغير[4].

والميسر بكونه سببًا في الصد عن ذكر الله وعن الصلاة يفسد الدنيا بأسرها؛ حيث صلاح الدنيا والدين في ذكر الله وفي الصلاة، كما أنهما ينفيان الفحشاء والمنكر﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

يقول الإمام الطبري: « ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يقول: ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم وباشتغالكم بهذا الميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربكم »[5].

ثالثًا: آثار الميسر على اقتصاد الأمة:

أشار القرآن الكريم إلى الآثار الاقتصادية للميسر ضمن وصفه له بالاشتمال على الإثم الكبير في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢.
(٢) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.
(٣) انظر: سيكولوجية المقامر ص ١٤.
(٤) انظر: نظم الدرر ١/ ٤٠٨- ٤٠٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢.

﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فالإثم المذكور في الآية شامل لكافة ألوان المساوئ المنابذة لمحاسن الشرع، ومن ضروريات مقاصد الشريعة حفظ المال من جانب الحفاظ على وجوده ونمائه، ومن جانب منع ما يضره أو يؤدي إلى كساده، فكل ما أضر بالمال فيه إثم.

قال البرهان البقاعي: «وإن كان تعالى اقتصر هنا على ضرر الدين وهو الإثم لأنه أس يتبعه كل ضرر»[(١)].

وقال ابن القيم: «وإذا تأملت أحوال هذه المغالبات رأيتها في ذلك كالخمر، قليلها يدعو إلى كثيرها، وكثيرها يصد عما يحبه الله ورسوله، ويوقع فيما يبغضه الله ورسوله، فلو لم يكن في تحريمها نص لكانت أصول الشريعة، وقواعدها، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح، وعدم الفرق بين المتماثلين، توجب تحريم ذلك، والنهي عنه»[(٢)].

وقد أشار المفسرون إلى المعنى ذاته ضمن تفسيرهم لسبب وقوع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، وهو ضياع الأموال، وإن كان هذا أثرًا اجتماعيًا إلا أن أثره يمتد ليشمل الجانب الاقتصادي، والعلاقة بين الجانبين أساسية.

قال صاحب المنار: «ومنها - وهو أشهرها - تخريب البيوت فجأة، بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز، وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت من السعة ولا ما دون ذلك»[(٣)].

وآثار الميسر السيئة على الحالة الاقتصادية درجات، منها الخاص بالأفراد، ومنها العام الشامل الأمة بأسرها، والتلازم بين الجانبين ظاهر.

ويمكن إجمال الآثار السيئة للميسر على اقتصاد الأمة بمعنييه الخاص والعام في:

أولًا: رفع نسبة الفقر بين أفراد الأمة: حيث يكون المقامر في الغالب من أصحاب رؤوس الأموال، فينجرف إلى الميسر والقمار، فيكسب ثم يخسر، فيستمر في المخاطرة رغبة الفوز، وتتكرر خسارته، فيتحول إلى الفقر المدقع.

يقول الفخر الرازي: «وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال، لأن من صار مغلوبا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبا فيه، وقد يتفق أن

(١) نظم الدرر ١/ ٤٠٨.
(٢) الفروسية ص ١٧٥-١٧٦.
(٣) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.

لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، وإلى أن يقامر على لحيته وأهله وولده، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرا مسكينا ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له. فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم[1].

ثانيًا: التسبب في حدوث الأزمات الاقتصادية وارتباك الأسواق دون مبرر: والأزمة الاقتصادية هي: التدهور الحاد في الأسواق المالية لدولة ما أو مجموعة من الدول؛ والتي من أبرز سماتها فشل النظام المصرفي المحلي في أداء مهامه الرئيسية، والذي ينعكس سلبا في تدهور كبير في قيمة العملة و أسعار الأسهم، مما ينجم عنه آثار سلبية في قطاع الإنتاج والعمالة؛ وما ينجم عنها من إعادة توزيع الدخول والثروات فيما بين الأسواق المالية الدولية[2].

وخير شاهد على هذا الأثر ما يعرف بالأزمة الاقتصادية العالمية في أكتوبر ١٩٩٨م، وما حدث في دول شرق آسيا سنة ١٩٩٩م، وما زالت آثارها باقية.

وقد بدأت جذور هذه الأزمات في القطاع المالي، وتضخمت من خلاله، فالبداية كانت من التخفيض المصطنع لمعدلات الفائدة في مطلع القرن، الذي شجع على التوسع في الاقتراض دون وجود قيمة مضافة أو نمو في الإنتاجية، وكانت النتيجة فقاعة في سوق العقار، ورافق ذلك مبتكرات المشتقات المالية التي حيدت مخاطر الإقراض، فلم يعد المقرض يستشعر مسؤولية القرض، ويهتم بقدرة المدين على السداد، فنشأ عن ذلك الممارسات المستنكرة في استدراج العملاء وإغراقهم بالديون، أي إن الأزمة ابتدأت بالربا، وتطورت إلى الميسر، وأصبح أحدهما يغذي الآخر، لتنتهي بالكارثة.

والمقامرة، مثلها مثل نظام الفائدة الربوية، تزيد الفجوة بين الالتزامات المالية والثروة الحقيقية، وكلما ازدادت أعداد المراهنين ازداد مجموع خسائر الخاسرين من جراء هبوط في السوق، وهذا ما حصل في الأزمة المالية الراهنة، فقد اكتظت الأسواق المالية بتجارة المخاطر المبنية على الميسر والقمار، فأصبح لا يمكن التفريق بين المعاملات الحقيقية وبين المقامرة التي تتسم اقتصاديًا بأنها مباراة نتيجتها صفر،

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٦٧.

(٢) انظر: فصول الأزمة المالية العالمية: أسبابها، جذورها وتبعاتها الاقتصادية، محمد أحمد زيدان ص ٤، أسباب الأزمة المالية وجذورها، جميلة الجوزي ص١، الأزمة المالية العالمية انعكاساتها وحلولها، الداوي الشيخ ص ٣.

لأنها على المستوى الجزئي لطرفيها لا تولد قيمة، إذ إن ما يربحه طرف يساوي تماما ما يخسره الآخر، أما على مستوى الاقتصاد كله فإنها مباراة نتيجتها سالبة، بسبب ما تولده من حوافز ضارة اقتصاديا ذات مخاطر أخلاقية.

فإذا بترنا الارتباط بين المخاطر وملكية الأصول، مالية كانت أو حقيقية، فقد المالكون الحافز للحفاظ على جودة أصولهم، وتصرفوا بما يحقق لهم أعلى عائد، وفي الأزمة الحالية حيث أمكن للمؤسسات المالية التخلص من مخاطر أصولها بفصل المخاطر عن الملكية فقد جمحت إلى تحقيق أهداف أخرى دون مراعاة للتدهور في نوعية الأصول ؛ طمعًا في زيادة العائدات، وتحولت السوق إلى ساحة للرهان، فلم يكن هناك ما يحد من نموها وتضخمها سوى استعداد الأطراف للمجازفة، وكما هو الشأن في الربا، فإن المراهنة لا تتطلب أكثر من اتفاق الطرفين على أن يدفع أحدهما للآخر مبلغا من المال حين وقوع الخطر مقابل رسوم محددة، فالتكلفة الابتدائية للرهان محدودة، ولذلك لا يوجد ما يعوق توسعه وتضاعفه.

والنتيجة من الميسر هي تضاعف الالتزامات والمديونيات بعيدًا عن الثروة الحقيقية، لينشأ عن ذلك ما يسمى الهرم المقلوب، حيث ترتكز جبال شاهقة من الديون على قاعدة ضئيلة من الثروة، ومع تزايد عبء هذه الديون ستعجز قاعدة الثروة عن احتمالها، لتكون الخسارة حين وقوع الخطر أضعافًا مضاعفة[1].

موضوعات ذات صلة

الخمر، الذنب، الزور، اللعب، اللهو

(١) انظر: أسلحة الدمار المالي الشامل، سامي بن إبراهيم السويلم، منشور ضمن بحوث كتاب الأزمة المالية العالمية أسباب وحلول من منظور إسلامي ص ٤٦- ٤٧، حلول اقتصادية من التمويل الإسلامي، بيان الجمعية الدولية للاقتصاد الإسلامي، منشور ضمن بحوث كتاب الأزمة المالية العالمية أسباب وحلول من منظور إسلامي ص ٣٥٨، المنهج الإسلامي لتشخيص ومعالجة الأزمات في سوق الأوراق المالية، حسين شحاتة ص ١٤، الجرائم الاقتصادية: عقوبتها ومكافحتها في ضوء الشريعة الإسلامية، حسين شحاتة ص ١٧.





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والثلاثون

مفهوم النار

أولًا: المعنى اللغوي:

النار: «النون والواو والراء، أصلٌ صحيحٌ يدل على إضاءةٍ واضطرابٍ وقلة ثباتٍ، ومنه النور والنار، سميا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[(١)].

ونار نورًا وأنار واستنار ونور، بمعنًى واحدٍ، أي: أضاء، والتنوير: الإنارة، يقال: نورت الشجرة تنويرًا، وأنارت: أي: أخرجت نورها. والنار مؤنثةٌ وهي من الواو؛ لأن تصغيرها نويرةٌ، وجمع النار على(أنيارٍ)، وأصلها(أنوارٌ)؛ لأنها من الواو، و(نورٌ) و(نيرانٌ) انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها، و(نيرةٌ)، و(نيارٌ)، وبينهم(نائرةٌ) أي: عداوةٌ وشحناء، وتنور النار من بعيدٍ: تبصرها[(٢)]. ونار الحرب ونائرتها: شرها وهيجها. ونرته وأنرته: نفرته، وامرأة نوار: نافرة عن الشر والقبيح[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قيل: «الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب به أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه»[(٤)].

وقيل: «هي دار العذاب والإهانة، أعدها الله لأعدائه الكافرين الذين كفروا به وعصوا رسله»[(٥)].

وهذه أقوال وتعاريف متقاربة، وبينهما نوع اشتراك في بعض، وعلاقة المعنى الاصطلاحي بالمعنى اللغوي ظاهر في الإضاءة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٨.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٢١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٢٩، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٤٠- ٢٤٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٨٨.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ١٢٦.
(٤) الجنة والنار، عمر الأشقر ص١١.
(٥) رسالة في أسس العقيدة، محمد السعوي ص٧٤.



النار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نور) في القرآن الكريم(١٩٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٤٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	١٤٥	﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة:٢٤]

وجاءت النار في الاستعمال القرآني على ستة أوجه[٢]:

الأول: العداوة: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[المائدة: ٦٤] يعني: عداوة.

الثاني: الحرام: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] يعني: حرامًا.

الثالث: جهنم: ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[البقرة: ٢٤].

الرابع: الكفر: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[البقرة: ٢٢١] أي: إلى الكفر بالله.

الخامس: النار التي لا دخان لها تنزل من السماء فتأكل القربان: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[آل عمران: ١٨٣] يعني: بنار تأكل القربان.

السادس: النار المعروفة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾[الواقعة: ٧١] يعني: النار التي تقدحون من الزند.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب النون، ص١٣٥٢-١٣٥٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٣٩-٤٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ جهنم:

جهنم لغةً:

اسم من أسماء النار التي يعذب بها الله عز وجل عباده، وهو ملحق بالخماسي بتشديد الحرف الثالث منه، ولا يجرى للمعرفة والتأنيث، ويقال: هو فارسي معرب[(١)].

وجهنم: من الجهنام، بئرٌ جهنمٌ وجهنامٌ، بكسر الجيم والهاء: أي: بعيدة القعر، وبه سميت جهنم لبعد قعرها، ولم يقولوا: جهنام فيها[(٢)].

جهنم اصطلاحًا:

جهنم: «اسم النار الآخرة، من الجهامة، وهي كراهة المنظر»[(٣)].

الصلة بين النار وجهنم:

النار: هي الملتهبة الحراقة، وأما جهنم: اسم من أسماء النار فيفيد من قولك: بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر[(٤)].

٢ اللهب:

اللهب لغةً:

اللام والهاء والباء أصل صحيح، وهو ارتفاع لسان النار، ثم يقاس عليه ما يقاربه، من ذلك اللهب: لهب النار، تقول: التهبت التهابا، وكل شيء ارتفع ضوؤه ولمع لمعانًا شديدًا فإنه يقال فيه ذلك، واللهب واللهاب: اشتعال النار[(٥)].

اللهب اصطلاحًا:

«اشتعال النار إذا خلص من الدخان»[(٦)].

الصلة بين النار واللهب:

النار: هي المشتعلة بحد ذاتها، واللهب: ما يظهر ويمكن رؤيته بوضوح عند اشتعال النار.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨٩٢، شمس العلوم، نشوان الحميري ٢/ ١٢٠١، مختار الصحاح، الرازي ص ٦٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١١٢.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٢٣.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٣١١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢١٣.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٤٣.



٣ الإضاءة:

الإضاءة لغةً:

ضوء: الضاد والواو والهمزة أصل صحيح يدل على نور، من ذلك: الضوء، وهو بمعنى: الضياء والنور، قيل: أضاءت النار وأضاءت غيرها[(١)].

الإضاءة اصطلاحًا:

«فرط الإنارة، من الضوء الذي هو النور البالغ القوي»[(٢)].

الصلة بين النار والضوء:

النار: لابد من اشتعالها حتى تنتج عنها الإضاءة، أما الضوء فهو فرع النور، وهو الشعاع المنتشر.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٧٥.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٥٤.
وانظر: الكليات، الكفوي ص١٣٧.

أسماء النار وصفاتها

تحدث القرآن الكريم عن أسماء النار وصفاتها، وهذا ما سنبينه في النقاط الآتية.

أولًا: أسماء النار:

تعددت أسماء النار في القرآن الكريم تعددًا يؤذن بعظم شأنها، وأهمية أمرها، وكثرة أسماء النار توجب على العبد الأخذ بأسباب النجاة منها، وشدة الاحتياط والحذر؛ رغبة في توقي شرها.

وفيما يأتي عرض لما ورد في القرآن من أسماء للنار:

١. لظى.

قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٦].

وهذا الاسم لم يرد إلا في هذه الآية وسميت به لتلظيها وتلهبها[١] وللزوقها بالجلد، فـ «التلظلظ واللظلظة من قولك: حيةٌ تتلظلظ، وهو تحريك رأسها من شدة اغتياظها، وحيةٌ تتلظى من خبثها وتوقدها، والحر يتلظى كأنه يلتهب مثل النار»[٢].

وهي تسمية تشعر بعظم ما عليه النار من الاشتعال والتوهج والتغيظ، وشدة الإحراق والتلهب.

٢. الحطمة.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤-٦].

وهذا الاسم لم يرد إلا في هاتين الآيتين.

وسميت النار بالحطمة؛ لأنها تحطم كل ما ألقي فيها[٣].

وفي هذه التسمية إشعار بشدة هذه النار وقوتها، وأنه لا يستعصي عليها أحد ولا شيء، فهي كفيلة بتحطيم كل ما يلقى فيها.

٣. السعير.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وهذا الاسم ورد في القرآن معرفًا ثمان مرات، ومنكرًا سبع مرات.

وسميت بذلك؛ لأنها توقد وتهيج، فهي (فعيل) بمعنى (مفعول)[٤].

وهذا الاسم يدل على شدة اشتعال النار واتقادها وارتفاع ألسنة لهبها، فـ «السين والعين والراء أصلٌ واحدٌ، يدل على اشتعال الشيء واتقاده وارتفاعه»[٥].

وفي اللفظة إيماء أيضًا لشدة هيجان النار على أهلها، حيث يقال: ناقة مسعورة، نحو

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٧٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٤٢، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١١٧٢.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ١٥١.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٠١.

(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٤١١، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٤٨.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٧٥.

موقدة ومهيجة[1]. والسعير: اسم لأشد النار اشتعالًا، يقال: سعر فلان النار: إذا أوقدها بشدة[2].

٤. سقر.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

ورد هذا الاسم في القرآن أربع مرات.

وسميت بذلك؛ لأنها تذيب الأجسام من قولهم: سقرته الشمس إذا أذابته[3].

وهذه التسمية توحي بشدة إحراق النار، فـ «السين والقاف والراء، أصل يدل على إحراقٍ أو تلويح بنار»[4].

وفي هذا ما يشعر بهول العذاب، وبسخونة هذه النار، واشتداد حرها الذي لا يحرق فحسب، بل يبلغ من درجة قوته أن يذيب الأجساد، وتتلاشى فيه اللحوم والأبدان.

٥. الجحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥].

ورد هذا الاسم في القرآن ثلاثًا وعشرين مرة.

وسميت النار بذلك؛ لشدة تأجج نارها[5].

وفي تسمية النار بالجحيم إشارة إلى عظمتها، وشدة توقدها وحرها، وأنها نار جمع بعضها فوق بعض حتى اشتد حرها، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم[6].

٦. الهاوية.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-١١].

وهذا الاسم ورد في القرآن مرة واحدة في سورة القارعة.

وسميت بهذا الاسم؛ لأن المعذب يهوى فيها مع بعد قعرها[7]؛ أو لأنه يهوى فيها من علوٍ إلى سفل[8].

وهي تسمية تشي بحال المعذبين، وتصور حجم الإذلال والهوان الذي يعانونه ويكابدونه، فهي هاوية، يلقى الناس فيها مهانين، فيهوون فيها كما تهوي الحجارة.

٧. جهنم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

(١) الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨/ ٢٦١.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٤.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٠٣.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٧، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٥٢.
(٦) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠٥، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٤، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٧٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٦٧.
(٨) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٤٩.

﴿الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

وهذا الاسم ورد في القرآن في اثنين وسبعين موضعًا، وجاء مضافًا إلى النار في تسعة مواضع، وسميت نار الآخرة بجهنم؛ لبعد قعرها[(١)].

وفي هذه التسمية إشعار بعظم هذه النار، وبعد قعرها، ومدى عمقها، وهي تسمية تملأ القلب رعبًا والنفس فزعًا، وتستحث العبد نحو فعل ما ينجيه منها.

فائدة المغايرة بين أسماء النار وأوصافها:

بالتأمل في أسماء النار وصفاتها ومغايرة القرآن في التعبير عنها بأسماء مختلفة وصفات متنوعة يظهر لنا أن من أسباب تلك المغايرة، وفوائدها:

- التأكيد على أهمية الإيمان بها؛ فكثرة ذكرها توجه إلى أهمية الإيمان بها، وأهمية الحذر من عذابها، والاستعداد للنجاة من حرها.
- لشدة هولها وفظاعتها؛ إذ المغايرة في أوصافها وأسمائها تعطيها الكثير من المعاني والدلالات التي توحي بشدة هولها، وتظهر مدى فظاعتها.
- للإشعار بعظمتها وأهميتها؛ إذ الشيء كلما تعددت أسماؤه وأوصافه دلت على شدة عظمته، وأنه يستعصي على الحصر والإحاطة بمدلوله؛ ولذا يحتاج لعدد من الأسماء والأوصاف، وفي هذا ما يملأ النفس رهبة منها، وفيه مدعاة لحسن الاستعداد لها على الوجه الأكمل والنحو الأمثل.

الصلة بين هذه الأسماء المتعددة:

للنار عدد من الأسماء، ولكل منها مدلول خاص يظهره، وجانب من جوانب العظمة يبرزه، ووجه من وجوه الشدة يصوره، وهذا لا شك يدل على عظمة النار، وكأن عظمتها مما يعجز الاسم الواحد عن تصويره، والصفة الواحدة عن الإحاطة به -كما مر، فيتحصل من مجموع تلك الأسماء تصور كثير من جوانب عظمتها وهولها.

فاسم (السعير) يصور شدة التوقد، واسم (الحطمة) يبين القوة التي تمكنها من حطم كل ما يلقى فيها، واسم (الهاوية) يرسم صورة لعمقها وبعد قعرها، وهكذا في بقية الأسماء.

ومجموع هذه الأسماء يوقع في حس المتلقي شدة هولها، ويظهر له عظيم خطرها، كما تتكامل أمامه مختلف ألوان عذابها، وترتسم في مخيلته صور المعذبين فيها، وصنوف آلامهم.

وبالتأمل في أسماء النار نجد أن ثمة روابط وقواسم مشتركة، وهي كالآتي:

- **عظم اشتعالها والتهابها:** فهي نار لا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٤٩.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٢٢.

تنطفئ لها جذوة، ولا تخبو لها شعلة، ولا يهدأ لها توقد، ولا يبرد لها جمر، فاشتعالها دائم، وتلهبها في تعاظم.

- **شدة حرها:** فحرارتها بلغت الغاية والنهاية حتى بلغ من شدتها أن تذيب اللحوم مهما غلظت، والأبدان مهما قويت واشتدت.
- **بعد قعرها:** فهو قعر شديد البعد لا يعرف له قرار ولا نهاية.
- **شدة عذابها:** فهو عذاب يجمع شتى صور الإيلام، وتتكامل فيه مختلف صنوف الهوان، مما يجعل عذابها لا نظير له ولا مثيل، مهما عظم واشتد.

ثانيًا: فناء النار:

تمثل مسألة (فناء النار وبقاؤها) أهمية خاصة؛ لما لها من أهميةٍ في تكوين معتقد المسلم؛ ولما لها من تعلقٍ بإيمان المسلم بالآخرة. وذكر الآخرة من الأمور المركزية في القرآن الكريم، وحق لما كان من أمورها أن يدرس ويبحث، ويظهر فيه الحق من الباطل؛ ليكون المسلم في ذلك على بينة من أمره.

وسنتناول مسألة (فناء النار) من خلال الاختلاف الواقع فيها، وبيان أدلة المختلفين، ومناقشتها، وذكر الراجح من الأقوال في ذلك.

اختلف الناس حول بقاء النار في الآخرة وفنائها على أقوال كثيرة، أهمها ثلاثة:

الأول: القول ببقائها، وهو ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، ونقل بعضهم الإجماع عليه.

الثاني: القول بفنائها، وهو محكي عن الجهم بن صفوان وأتباعه وغيرهم، ونسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)].

الثالث: الإمساك عن ذلك[(٢)].

وسنعرض أدلة القائلين ببقاء النار، وأدلة القائلين بفنائها، دون الفريق الثالث؛ لأنهم أمسكوا عن الخوض في المسألة.

أدلة القائلين ببقاء النار في الآخرة:

استدل القائلون ببقاء النار بأدلة كثيرة نذكر بعضها بحسب طبيعة البحث، فمنها:

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

---

(١) والراجح أن نسبته له غير صحيحة، والصحيح عنه القول بأبديتها.
انظر: كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، علي الحربي ص٥٨.

(٢) انظر في الأقوال الثلاثة: الرد على من قال بفناء الجنة والنار، ابن تيمية ص٤٢، حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٢٩-٣٣٢، شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٢٤، فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢١-٤٢٢، كشف الأستار في إبطال قول من قال بفناء النار، الشوكاني ٢/ ٧٨٩.

قال الطبري: «وإنما هذه الآية إخبار من الله عباده عن بقاء النار، وبقاء أهلها فيها»[1].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

فقد صرحت الآية بكون الكافرين غير خارجين من النار، وأن لهم فيها عذابًا مقيمًا لا يخرجون منه، قال القرطبي مبينًا معنى العذاب المقيم: «و﴿مُّقِيمٌ﴾ معناه دائم ثابت، لا يزول ولا يحول»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦][3].

فالآية مصرحة بكون العذاب لا يخفف عن الكفار، وفي هذا دليل على بقاء النار، وعدم فنائها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»[4].

أدلة من قال بفنائها:

استدل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧].

ووجه الاستدلال من الآية: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧].

فالله جعل خلودهم في النار موقوفًا على مشيئته، فهذا يدل على أن عذاب الكفار منقطع، وله نهاية.

الرد على هذا الاستدلال:

أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، كما رجحه بعض المفسرين[5].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

ووجه الدلالة من الآية: أن أهل النار يمكثون فيها أحقابًا، والحقب لها نهاية،

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٨٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٥٩.
(٣) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٢٩، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني ١/ ١١٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٣، رقم ٦٥٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٩، رقم ٢٨٥٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥١-٣٥٢، شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص٤٢٠.

فهذا يدل على أن النار تفنى، ولا بقاء لها[(١)].

الرد على هذا الاستدلال:

أن الذي حدد بالأحقاب ليس هو العذاب، بل هو نوع من العذاب، وهو ما جاء بعد هذه الآية من قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤ -٢٥][(٢)].

روى الطبري بسنده عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

أنه كان يتأول في هذا الاستثناء: «أن الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته»، وقال: «إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا»[(٣)].

وروى عبد بن حميد في تفسيره بسنده عن الحسن البصري عند قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

قال: قال عمر رضي الله عنه: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج[(٤)] لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه»[(٥)].

قال الطبري: قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا»[(٦)].

الرد على استدلالهم بهذه الآثار:

الآثار السابقة التي استدل بها القائلون بفناء النار ضعيفة لا تقوم بها حجة، كما بينا ذلك في الحاشية.

ومما استدلوا به قولهم: إن معصية الظلم متناهية، فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم[(٧)].

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٢٦، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني ص٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠٦.

(٣) قال الألباني في تعليقه على رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار ص٧١: «قلت: هذا أثر منقطع، لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع عن ابن عباس، وإن كان معناه صحيحًا، على ما سيبينه المؤلف رحمه الله تعالى، ثم أن في الطريق إليه عبد الله بن صالح، وفيه ضعف، رواه عنه ابن جرير ١٣٨٩٢، وابن أبي حاتم أيضًا كما في تفسير ابن كثير، والأثر في الحادي ٢/ ١٧٣ غير معزو لابن تيمية صراحة، ولم يذكره الناقل عن ابن تيمية في مخطوطة المكتب».

(٤) عالج: رمال معروفة بالبادية، وتطلق على ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٣٢٦، معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤/ ٧٠.

(٥) ضعيف: للانقطاع بين الحسن البصري وبين عمر رضي الله عنه.
وانظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني ٢/ ٧٣، رفع الأستار، الصنعاني ص٦٥ مع تعليق الألباني عليه.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٨.
وانظر: الرد على من قال بفناء الجنة والنار ص٦٩.

(٧) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين،

الرد على هذا الاستدلال:

أن الله علم في سابق علمه أن الخبث قد تأصل في هؤلاء الخبثاء، بحيث إنهم لو عذبوا القدر من الزمن الذي عصوا الله فيه، ثم عادوا إلى الدنيا لعادوا لما يستوجبون به العذاب، لا يستطيعون غير ذلك، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ -٢٨][1].

الرأي الراجح:

الذي يترجح مما سبق من الأقوال هو القول ببقاء النار في الآخرة، وهو قول جمهور أهل السنة والجماعة؛ لصراحة الأدلة من الآيات والأحاديث، وعدم قوة الأدلة التي استدل بها المعارضون.

ومن قرأ ما كتبه ابن القيم رحمه الله تعالى يظن أنه يرجح أن النار تفنى، وأن أهلها يخرجون منها، لكن في الحقيقة أن ابن القيم رحمه الله تعالى يكاد يميل إلى التوقف؛ لأنه بعد أن ذكر الخلاف الطويل، وذكر الأقوال في ذلك والأدلة، قال: «فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة؛ ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب؛ فإن قيل: فإلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟ قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فيها، حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء، وقال: ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء، بل وإلى ها هنا انتهت أقدام الخلائق»[2].

ثالثًا: عظم النار وشدة حرها:

١ . عظم النار.

النار مخلوق من مخلوقات الله عز وجل العظيمة، التي يذهب العقل في تصور عظمتها وسعتها كل مذهب، وينتاب القلب الحي خوفٌ ووجلٌ مما يرد عليه من وصفها في القرآن والسنة، وقد أفصحت الآيات والأحاديث عن ذلك إفصاحًا يزجر كل من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، ويمكن أن نستلمح شيئًا من عظمتها من خلال ما يأتي:

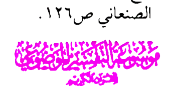
١ . عظمة خالقها.

الحديث عن عظم النار له أصل يقوم عليه، وهو أن الذي خلقها هو الله، وهذا هو الأصل الذي من عقله وانتفع به انتفع بوصف الله للنار، وذكره لأهوالها وحرها

الألوسي ص٤٧٩.

(١) رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني ص١٢٦.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٨٧.



وعذابها، ومن غفل عنه فلن يقوم في قلبه خوفٌ ولا فزعٌ من النار وأهوالها وعذابها، فالخوف من النار في حقيقته خوفٌ من خالقها، وتعظيم له وتقديس؛ وذلك هو أعظم ما يطبع النفس بطابع الفزع من النار، ويلقي في أعماقها الخوف الرهيب من النار، والفرار الجاد عن مسالكها.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن مؤكدة لتلك الحقيقة الكبرى، حقيقة أن الذي خلق النار وأعدها للظالمين هو الله، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ٥٦].

وغير ذلك من الآيات.

٢. سعتها.

الحديث عن سعة النار في القرآن حديث يطول، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الآيات والأحاديث التي تبين عظمتها وعمقها واتساعها بما يتناسب مع البحث، من خلال عدة عناصر على النحو الآتي:

جهنم تطلب المزيد:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيدٍ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعضٍ وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك**)[١].

قال ابن كثير معلقًا على هذه الآية: «يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يَأْمُرُ بمن يُأْمَرُ به إليها، ويلقى وهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟»[٢].

سعة قعرها وشدة عمقها:

مما يدل على عظم جهنم وسعتها ما أخبر به رب العالمين بقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩].

وسميت النار هاوية؛ لأن أهلها يهوون فيها مع بعد قعرها[٣]، وهذا الوصف لجهنم يبين لنا أن هذه النار عميقة القعر لا يعرف لها قرار ولا نهاية، يهوي أهل النار فيها مهوى بعيدًا.

وقعر هذه النار يتبين لنا إذا علمنا أن الحجر إذا ألقي فيها احتاج إلى فترة زمنية طويلة حتى يصل إلى قعرها، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (**كنا مع رسول الله صلى الله عليه**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤/ ٢١٨٨، رقم ٢٨٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٦٧.

وسلم، إذ سمع وجبةً[1]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تدرون ما هذا؟) قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (هذا حجرٌ رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)[2].

فما أعظم هذه النار التي احتاج حجر سبعين خريفًا حتى انتهى إلى قعرها!.

جهنم تجر ولا تحمل:

جهنم لعظمتها وشدة اتساعها تجر ولا تحمل، فقد بين الله عز وجل أن جهنم يؤتى بها يوم القيامة إلى أرض المحشر، فقال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[الفجر: ٢٣].

وهذا المجيء بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم كيفيته، فقال: (يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملكٍ يجرونها)[3]. ثم قرأ الآية.

وإيثار (يجرونها) دون (يحملونها) أو غيره من الألفاظ، ليدل على عظم جهنم ومدى اتساعها؛ إذ من المعلوم أن الشيء كلما عظم واتسع صعب حمله فيجر.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن للزمام الواحد سبعين ألف ملك، وهو دليل على أن الزمام الواحد متعلق بشيء عظيم يحتاج إلى آلاف من الملائكة حتى يجروه.

وإضافة إلى ما ذكر فإن من يتأمل هذه الآية يجد أنها جاءت في سياق التهويل لموقف القيامة، وتوضيح مشاهد الرعب والفزع فيه، حيث: دك الأرض، ومجيء الرب، واصطفاف الملائكة، ثم مجيء جهنم.

وهذا يوحي لنا أن مجرد حضور النار ورؤيتها لهو هولٌ من أهوال هذا الموقف، فكيف بهول السوق إليها ودخولها؟!

٣. جسر جهنم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

قالت: قلت: فأين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: (على جسر جهنم)[4].

فسبحان الله العظيم! إذا كان جسر جهنم

---

(١) الوجبة: صوت سقوط الشيء.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٥/ ١٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم ٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، ٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤١/ ٣٤٩، رقم ٢٤٨٥٦، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الزمر، ٥/ ٣٧٢، رقم ٣٢٤١.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ١٠٤.

قد اتسع لحمل الناس جميعًا، فكيف بجهنم نفسها؟!

٤. سرادقها.

وصف الله تعالى جهنم بأن لها سرادقًا، قال الله عز وجل: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

والسرادق «هو كل ما أحاط بشيء من حائطٍ، أو مضرب، أو خباء»[1].

وقد بين الله تعالى عظم هذا السرادق، فوصفه بأنه يحيط بأهل النار على كثرة عددهم، وضخامة حجمهم، فلا يستطيعون خروجًا ولا فرارًا.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

٥. خزنتها.

أخبر الله تعالى أن النار لعظمها تقوم عليها ملائكة وصفهم الله عز وجل بالغلظة والشدة.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ [التحريم: ٦].

هؤلاء الخزنة من شدتهم وغلظتهم أن قلوبهم لا تلين لكافرٍ ولا ظالم، فحين يشتد العذاب بالمجرمين في النار، ويضجون منه ينادون: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فيجيبهم مالك مقنطًا: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ ويكفي للدلالة على أن غلظتهم وشدتهم بلغت الغاية في الغلظة والشدة أن الله هو الذي وصفهم بذلك الوصف، وأنهم لا يخرجون عن طاعة الله، بل يبادرون إلى مرضاته، وامتثال أمره، فغلظتهم وشدتهم على العصاة هي في حقيقتها تنفيذ وامتثال وإذعان لله.

٦. وقودها.

إن هذه النار ليس وقودها الحطب والخشب كحال وقود نار الدنيا، وإنما وقودها الناس والحجارة، قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

«إنها نار فظيعة متسعرة، وقودها الناس والحجارة، الناس فيها كالحجارة سواء في مهانة الحجارة، وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة، دون اعتبارٍ ولا عناية، وما أفظعها نارًا هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذابًا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة!»[2].

وهذه الحجارة التي تكون في جهنم ليست كأي حجارة، فقد ورد عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت توقد بها النار، ويقال: «إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها من الحجارة: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة،

(١) النهاية، ابن الأثير ٢/ ٣٥٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦١٨.

وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا أحميت»[1].

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءًا من حر جهنم) قالوا: (والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله)، قال: (فإنها فضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءًا، كلها مثل حرها)[2].

٧. شررها.

من أعجب ما يمكن الاستدلال به على عظم النار ما جاء وصفًا لأدق ما فيها وهو الشرر، يقول تعالى عن جهنم: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢-٣٣].

فهذا وصف الشرر الذي هو أدق النار وأصغرها، يوضح لنا ربنا صفته فيبين أنه في عظمته كالقصر، أي: «كالبناء المشيد في العظم والارتفاع»[3] وأنه في هيئته ولونه وتتابعه كـ ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: «إبل سود يميل لونها إلى الصفرة»[4]، فهو إذًا ليس الشرر المتبادر ذكره، أو المستحضرة صورته في الذهن، إنه شرر عظيم، غير مألوف لنا نحن البشر، شررٌ عظيم بقدر عظمة جهنم.

٢. شدة حرها.

جاء الإخبار عن حر النار وشدته وأثره الشديد في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، فمن ذلك:

- أنها حامية: قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]. وفي هذا مزيد تخويف وترهيب؛ يقول ابن عاشور رحمه الله: «وصف النار بـ ﴿حَامِيَةً﴾ لإفادة تجاوز حرها المقدار المعروف؛ لأن الحمي من لوازم ماهية النار، فلما وصفت بـ ﴿حَامِيَةً﴾ كان دالًّا على شدة الحمي. قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]»[5].
- أنها تلظى: قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]. أي: «تتوهج وتتوقد»[6]. فلا يخمد لهيبها، ولا تهدأ نارها.
- أنها نزاعة للشوى: قال تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦]. وفيه تفظيع لشدة حرها، فهي «تنزع بشدة حرها جلدة الرأس وسائر أطراف البدن»[7].

قال مقاتل: «تنزع النار الهامة[8]

---

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٣٨١-٣٨٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠١-٢٠٢، التخويف من النار، ابن رجب ص١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، ٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٣.
(٣) التفسير الميسر ص٥٨١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٩٦.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٦.
(٧) التفسير الميسر ص٥٦٩.
(٨) الهامة: أعلى الرأس، وفيه الناصية.



والأطراف، فلا تترك لحمًا ولا جلدًا إلا أحرقته»[1]. وقال الفراهي في مفرداته: «﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ واختلفوا في معناه، ولكن المعنى الكثير الوقوع في كلام العرب هو لحم الساق»[2].

- أنها: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨]. أي: «لا تبقي لحمًا، ولا تترك عظمًا، ولا عصبًا إلا أحرقته»[3]، ثم يعود كما كان ويستأنف أهل النار العذاب.

- أنها موقدة: قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]. وهو وصف يشي بأنها نار «لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها»[4]. وهو وصف فيه تيئيس من فرجٍ، أو خلاصٍ، أو راحة من العذاب.

- أنها تحرق الجسد كله حتى تصل إلى فؤاد الإنسان فتحرقه. قال تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧]. والفؤاد أرق شيء في الإنسان وألطفه، فحين تصله النار فتحرقه يتضاعف العذاب، ويشتد الألم.

- أنها تتغيظ وتزفر حنقًا على الكافرين والمجرمين. قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

- أنها تشهق فتزعج أهل النار وترعبهم. قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧]. وشهيقها مزعج منكر مؤذنٌ بغضبٍ شديدٍ، وعذابٍ أليم.

- أنها تغلي من شدة الحر غيظًا على الكافرين. قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٧-٨].

- النار لواحة للبشر: تحرق الجلود وتغيرها من شدة حرها. قال تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩]. أي: «مغيرة للبشرة، مسودة للجلود، محرقة لها»[5].

- جهنم هواؤها سموم، وظلها يحموم، وماؤها حميم[6]. قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]. «فهواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي

انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٤٧.
(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٤٣.
(٢) مفردات القرآن، الفراهي ص٢٠٠.
(٣) التفسير الميسر ص ٥٧٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٤٠.
(٥) التفسير الميسر ص٥٧٦.
(٦) السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، واليحموم: دخانٌ أسود شديد السواد، والحميم: ماء متناهي الحرارة.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢١٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢٤.

يستغيثون به حميم، مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء، وهما -أي: السموم والحميم- من أضر الأشياء، بخلاف الهواء والماء في الدنيا، فإنهما من أنفع الأشياء، فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أيضًا أحر؟ ولو قال: هم في نار، كنا نظن أن نارهم كنارنا؛ لأنا ما رأينا شيئًا أحر من التي رأيناها، ولا أحر من السموم، ولا أبرد من الزلال، فقال: أبرد الأشياء لهم أحرها، فكيف حالهم مع أحرها؟!»[1].

- **جهنم تصهر البطون وما فيها من أحشاء وأمعاء من شدة حرها.** قال عز وجل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

- **جهنم تلفح الوجوه بلهيبها فتتركها عظامًا لا لحم فيها.** قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

[1] مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٠٩ بتصرف يسير.

رابعًا: دركات النار:

١ . دركات النار.

بين الله عز وجل في كتابه أن أهل النار متفاوتون في عذابهم، وأنهم ليسوا على منزلة واحدة؛ لأن النار ليست على دركة واحدة، بل هي على دركات، ويتبين هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

إذ بين الله أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، مما يعني أنها «أدراك بعضها فوق بعض، طبقة على طبقة»[2].

قال ابن فارس: «درك: الدال والراء والكاف أصل واحد، وهو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، ومن ذلك: الدرك، وهي منازل أهل النار»[3].

فدركات النار هي: منازل النار وطبقاتها التي ينزل فيها أهلها، ويلحقون بها، ولم تخرج آراء المفسرين واللغويين عن هذا المضمون[4].

وقد بين العلماء الفرق بين الدركات والدرجات:

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٢٨.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٣٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٢٢.

قال الضحاك: الدرج إذا كان بعضها فوق بعض، والدرك إذا كان بعضها أسفل من بعض[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات الجنة تذهب علوًا، ودرجات النار تذهب سفلًا»[2].

وقال الراغب الأصفهاني: «الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارًا بالصعود، والدرك اعتبارًا بالحدور؛ ولهذا قيل: درجات الجنة، ودركات النار»[3].

وعلى ذلك: فدرجات الجنة: منازل ومراقٍ بعضها فوق بعض.

ودركات النار: منازل بعضها تحت بعض.

ويرجع هذا إلى أن الدرج في اللغة: مراتب بعضها فوق بعضٍ[4]؛ فالشيء الذي يقصد أعلاه تكون منازل الرقي إليه درجات[5].

وقد ورد في السنة الصحيحة أن درجات الجنة مائة درجة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في الجنة مائة درجةٍ، ما بين كل درجتين مائة عام)[6].

والدرك في اللغة: أقصى قعر الشيء[7].

فالدركة: المنزلة في الهبوط، فالشيء الذي يقصد أسفله تكون منازل التدلي إليه دركات[8].

فلذلك الدركات لأسفل.

فنخلص من ذلك أن الدركات والدرجات يتفقان في أنهما منازل وطبقات.

ويختلفان في أن الدركات لأسفل، والدرجات لأعلى.

فائدة مهمة:

ورد في الاستعمال القرآني إطلاق لفظ الدرجات على منازل الجنة والنار، وذلك في ثلاث آيات من كتاب الله، في قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٢-١٦٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أهل الخير وأهل الشر درجات، يعني: متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة، ودركاتهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١.
(٢) التخويف من النار، ابن رجب ص٦٩.
(٣) المفردات، الراغب ١/ ٣١١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، ٤/ ٦٧٤، رقم ٢٥٢٩.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٨١، رقم ٤٢٤٥.
(٧) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٢٢.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤.

في النار»[1].

وفي قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»[2].

وفي قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: «أي: لكل فريقٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم»[3].

وعلى ذلك فيكون المقصود بالدرجات في الآيات الثلاث: هي المنازل دون اعتبارٍ لما توصف به من ارتقاءٍ أو هبوط، فإذا أضيفت إلى أصحابها صارت درجات الجنة، ودركات النار.

أسماء الدركات وعددها وسكانها بين القرآن والسنة الصحيحة:

لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة تسمية دركات النار ولا عددها، ولا تحديد أصناف أهل النار الذين يسكنون هذه الدركات إلا فيما ذكره القرآن عن الدرك الأسفل من النار، وبيان أن هذا الدرك منزل المنافقين، وهذا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ولكن ورد في السنة ما يدل على أن الدرك الأسفل فيه أشد العذاب.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: (هو في ضحضاحٍ من نارٍ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفلِ من النار)[4].

ففي هذا الحديث ما يدل على أن الدرك الأسفل فيه أشد العذاب؛ لجعله صلى الله عليه وسلم إياه ضدًا للضحضاح أو كالضد له «والضحضاح أريد به القليل من العذاب، مثل الماء الضحضاح»[5].

وقد ورد عن الضحاك بيان عدد دركات النار وأسمائها والأصناف التي تسكن هذه الدركات.

قال الضحاك: للنار سبعة أبواب، وهي سبعة أدرك بعضها على بعض، فأعلاها فيه أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا، ثم يخرجون منها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٢٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، ٥/ ٥٢، رقم ٣٨٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي، ١/ ١٩٤، رقم ٢٠٩.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٢٢.

وفي الثانية اليهود، وفي الثالثة النصارى، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، والسادسة فيه مشركو العرب، وفي السابعة المنافقون، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥][1].

وهذا التقسيم المروي عن الضحاك لم يصح عنه، كما لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكر، والصحيح أن كل واحد من هذه الأسماء التي ذكرت: جهنم، لظى، الحطمة... إلخ، اسم علم للنار كلها، وليس لجزءٍ من النار دون جزء، وصح أن الناس متفاوتون على قدر كفرهم وذنوبهم.

وهذا الترتيب الذي ذكره الضحاك وغيره يحتاج إلى إعادة نظر، فالمجوس عباد النيران ليسوا بأقل جرمًا من مشركي العرب، ومع ذلك فالمجوس في طبقةٍ أقل من العذاب، والأولى أن نسكت فيما سكتت عنه النصوص[2].

وبهذا يتبين أنه لم يرد في القرآن ولا في السنة ما يبين لنا عدد دركات النار، ولا سكان هذه الدركات.

علة تخصيص الدرك الأسفل بالمنافقين:

أخبرنا القرآن أن مصير المنافقين في الدرك الأسفل من النار، أي: في أذل منازل العذاب وأسفلها؛ وذلك يرجع لأسباب:

الأول: لأن كفرهم أسوأ الكفر؛ لما حف به من الرذائل[3].

الثاني: أنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وبأهله[4].

الثالث: أنهم كانوا يطلعون على بعض أسرار المسلمين بما كانوا يظهرونه من الإسلام، وكانوا يخبرون الكفار بهذه الأسرار، فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين؛ فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار[5].

خامسًا: أبواب النار:

أخبر الله عز وجل أن للنار أبوابًا سبعة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤].

قال ابن كثير: «أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر فعله»[6].

(١) هذا الأثر ضعيف، لأنه من طريق سلام المدائني، وهو ضعيف الحديث، كما في ميزان الاعتدال ٢/ ١٧٥.
انظر: التخويف من النار، ابن رجب ص٧٤.

(٢) الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر ص١٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١ بتصرف.

(٥) المصدر السابق بتصرف.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٦.

وهذه الأبواب تفتح عندما يرد الكفار النار ليدخلوها.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

فإذا فتحت أبوابها ورأوا أنهم داخلوها قال لهم خزنتها موبخين: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[الزمر: ٧١].

فيقرون مذعنين: ﴿بَلَى﴾ [الزمر: ٧١].

فيقال لهم بعد هذا الإقرار: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

فإذا دخلوها وقضي الأمر بأنهم ماكثون فيها تغلق هذه الأبواب عليهم، فلا مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٩-٢٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مؤصدة: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب -بلغة قريش- أي: أغلقه[(١)(٢)].

هل أبواب النار تغلق في الدنيا؟

أخبرنا القرآن أن أبواب جهنم تغلق على أصحابها يوم القيامة، وأخبرتنا السنة الصحيحة أن هذه الأبواب تغلق في الدنيا

(١) المصدر السابق ٨/ ٤٠٩.
(٢) الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر ص ١٢٥.

عند قدوم شهر رمضان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين)[(٣)].

أسماء أبواب النار:

أخبر القرآن أن أبواب النار سبعة، لكن القرآن لم يعين لنا أسماء هذه الأبواب، ولا بينتها السنة الصحيحة.

وقد ورد في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أسماء هذه الأبواب السبعة، لكنه ضعيف لا يثبت[(٤)].

وقد وردت بعض الآثار عن السلف فيها تسمية هذه الأبواب السبعة، وعينت الأصناف التي تدخل من هذه الأبواب[(٥)].

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، ٢/ ٧٥٨، رقم ١٠٧٩.
(٤) عن الخليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة، وقال: [الحواميم سبعٌ، وأبواب جهنم سبعٌ: جهنم، والحطمة، ولظى، وسعيرٌ، وسقر، والهاوية، والجحيم، قال: تجيء كل حم منها يوم القيامة، أحسبه قال: تقف على باب من هذه الأبواب، فتقول: اللهم لا يدخل هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني].
أخرجه البيهقي في البعث والنشور ١/ ٢٦٨-٤٦١، وقال: «هذا منقطعٌ، والخليل بن مرة فيه نظرٌ»، وأخرجه البيهقي في الشعب ٤/ ١٠٥-٢٢٥٠ بدون تسمية هذه الأبواب، وقال: هكذا بلغنا بهذا الإسناد المنقطع.
(٥) ورد عن ابن عباس أنه قال: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾

صفة أبواب النار:

لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما يصف لنا أبواب النار السبعة، ولكن ورد في الآثار الواردة عن بعض الصحابة وصف هذه الأبواب:

فقد ورد عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنه قال: إن أبواب جهنم أطباق بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تملأ كلها[1].

أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٦، والدر المنثور ٥/ ٨٠. والأثر لا يصح عن ابن عباس؛ لأنه من رواية الضحاك، ورواية الضحاك عن ابن عباس منقطعة كما في الميزان ٢/ ٣٢٥، ووردت تسمية الأبواب أيضًا عن ابن جريج والأعمش، كما في الدر المنثور ٥/ ٨١-٨٢ وقولهما يحتاج إلى دليل.

وعن الضحاك في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا -وهم كفار العرب- وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى للآخرين أبدًا.

انظر: الدر المنثور ٥/ ٨٢، والأثر لا تصح نسبته إلى الضحاك؛ لأنه من رواية جويبر، وجويبر متروك الحديث كما في ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٧.

وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٧.

(١) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٨١.

ألوان العذاب في النار

أخبر القرآن الكريم عن ألوان العذاب في النار منها الطعام والشراب واللباس والسكن، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: الطعام:

ذكر الله تعالى أن أهل النار يطعمون فيها طعامًا لا يشبه الطعام إلا في اسمه، ثم يفارقه بعد هذا في كل شيء، فهو لا يسمن ولا يغني من جوع، لا يزيدهم إلا ضعفًا، ولا يزدادون به إلا عذابًا وألمًا، قد خبث مذاقه، وأنتن ريحه، ولا فائدة منه.

وقد بين الله في كتابه صنوفًا من طعام أهل النار، نذكر منها:

١. الزقوم.

وهو شجرة تنبت في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤].

قال الطبري: «وثمرتها كالرصاص أو الفضة، أو ما يذاب في النار إذا أذيب بها، فتناهت حرارته، وشدة حميته في شدة السواد»[2].

وهذه الشجرة ثمرتها قبيحٌ منظرها، كأنها في قبحها رؤوس الشياطين، قال الله عنها: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات:

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣ باختصار وتصرف.

[٦٥].

وشجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فالحاصل أن شجرة الزقوم لها من الصفات أقبحها وأبشعها: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

يقول الرازي: «ومآل الأقوال في الزقوم كونه في الطعم مرًّا، وفي اللمس حارًّا، وفي الرائحة منتنًا، وفي المنظر أسود، لا يكاد آكله يسيغه فيكره على ابتلاعه»[1].

وقد توعد الله بالزقوم أصحاب النار، وبين أنهم يطعمون منه حتى تمتلئ به بطونهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣].

٢. الغسلين.

قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦].

والغسلين: هو ما يسيل من صديد أهل النار، وما يخرج من لحومهم[2].

«فساكن النار لا يجد له طعامًا فيها إلا ما يخرج من جلود أهل النار من الدم والصديد، وهو شيءٌ كريه المذاق كريه الرائحة، لا فائدة فيه، ولا يرجى منه إشباعًا»[3].

قال قتادة عن الغسلين: هو شر طعام أهل النار[4].

فطعام أهل النار طعام منتنٌ ريحه، مقززٌ تناوله، يشي بسوء الحال، وقبح المآل.

٣. الضريع.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧].

والضريع: نوعٌ من الشوك لا تأكله الدواب لخبثه، وهو من شر الطعام، وأبشعه وأخبثه[5].

فأهل النار إذا طلبوا الطعام جيء لهم بالضريع، وهو كالشوك، مرٌّ منتن، لا خير فيه، ولا فائدة منه، فلا يقوي بدنًا، ولا يسد رمقًا، ولا يدفع جوعًا.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٤ بتصرف.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٩١.

(٣) نعيم الجنة وعذاب النار، علي بن نايف الشحود ١/ ٧٣ بتصرف.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢١٧.

(٥) نعيم الجنة وعذاب النار ١/ ٧٣.

[الغاشية: ٧][١]. قال أبو الجوزاء: وكيف يسمن من كان يأكل الشوك؟![٢].

ومما ذكر عن طعام أهل النار في القرآن ما ورد في قول الله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣].

أي: «طعام لا يستساغ أكله، ينشب في الحلق، فلا يدخل ولا يخرج»[٣].

«والغصة عارضٌ في الحلق سببه الطعام أو الشرب الذي لا يستساغ؛ لبشاعةٍ أو يبوسةٍ»[٤]. فطعام الدنيا قد يحدث غصة -أحيانًا- فيؤذي، لكن هذا الطعام تلازمه الغصة دائمًا وأبدًا، غصة تمزق حلوقهم كلما طعموه.

فهذه الآية نفت عن طعام النار كل نفع يرجى من ورائه؛ لأن «المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه، ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة»[٥].

ولهذه الأنواع أوصاف، هي:

- شدة الحرارة وقبح المنظر، كما في الزقوم.
- سوء المذاق ونتن الرائحة، كما في الغسلين.
- النشوب والغصة وانعدام الفائدة، كما في الضريع.

ثانيًا: شراب أهل النار:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أربعة أنواعٍ من شراب أهل النار، وكل نوع من هذه الأنواع شديدٌ ألمه، عظيمٌ أثره، عديمٌ نفعه، طويلٌ أمده، وهذه الأنواع هي:

١. الحميم.

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

والحميم: الماء الشديد الحرارة[٦]، الذي بلغ من حرارته أنه يقطع الأمعاء ويمزقها، يشربه أهل النار رغمًا وقهرًا، لا يملكون عنه امتناعًا ولا ابتعادًا، بل يشربون منه كما تشرب الإبل العطاش التي تشرب ولا ترتوي لداءٍ أصابها.

يقول تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥].

يقول الرازي معلقًا: «فيه بيان لزيادة العذاب، ومعناه: أي: لا يكون أمركم أمر من شرب ماءً حارًا منتنًا فيمسك عنه، بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم،

(١) صفة النار في القرآن والسنة ١/ ١٣٩ بتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٧١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٤.

وهي الجمال التي أصابها العطش فتشرب ولا ترتوي»[1].

وهذا الحميم من شدته وعظمته أفرد كأنه عذاب وحده، يرد عليه أهل النار بعد تعذيبهم في جهنم.

يقول تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

والمعنى: «يمشون بين مكان النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبرد، فلاح لهم الماء فذهبوا إليه، فأصابهم حره فانصرفوا إلى النار، وهكذا يكون عذابهم بهذه الصورة الفظيعة»[2].

وتتأكد شدة هذا الحميم وعظم ما فيه من العذاب حين نعلم أنه ينبع من عينٍ شديدة الحرارة والغليان، قال تعالى في سورة الغاشية عن الوجوه الخاشعة: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥].

أي: «قد انتهى حرها وغليانها»[3].

وكل هذا يدلنا على قبح هذا النوع من الشراب وشدة عذابه وألمه عافانا الله منه.

٢. الغساق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

والغساق: هو ما يسيل من جلد الكافر ولحمه، وقيل: الزمهرير البارد لا يستطيعون أن يذوقوه من شدة برده[4].

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين المعنيين بقوله: «الغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه»[5].

وقد بين الله عز وجل في كتابه أن أهل النار يستبدلون بالشراب الطيب والنسيم البارد حميمًا وغساقًا؛ جزاء لهم على أعمالهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

وعلى ما ذكر من أن الغساق بارد لا يستطاع من برده نجد أن الله قد جمع عليهم عذاب الحر الشديد بالحميم، وعذاب البرد الشديد بالغساق، «فالحميم يحرق بحره، والغساق يحرق ببرده»[6].

٣. الصديد.

قال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

والصديد: «هو ما يسيل من الدمل

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٥ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٢٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠٧.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٠١.

والجروح من القيح»[1]. وهذا الماء يكون في نفسه صديدًا؛ لأن كراهته تصد عن تناوله[2].

وقد اشتملت هذه الآية على بيان قبح هذا الشراب وشدة إيذائه بوجوه بليغة، منها[3]:

- أنه جعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء؛ لأن شأن الماء أن يسقى، والمعنى: ويسقى صديدًا عوض الماء إن طلب الإسقاء.
- أنه عطف جملة ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ على جملة ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ لأن السقي من الصديد شيء زائد على نار جهنم، فإسقاؤه من ماء الصديد عذاب فوق دخوله النار.
- أن هذا الصديد يسقاه بعنف فيتجرعه غصبًا وكرهًا، وأنه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن أن يسيغه بالفعل لقذارته ومرارته، والتقزز والتكره باديان، نكاد نلمحهما من خلال الكلمات.

٤. ماء كالمهل.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

والمهل هو عكر الزيت المغلي شديد الحرارة، وتشبيه هذا الماء بالمهل في سواد اللون وشدة الحرارة، فلا يزيدهم إلا حرارة[4]. فهو كالمهل في سواده ونتنه وغلظته وحرارته[5].

وقد بينت الآية من آثار هذا الشراب أنه يشوي الوجوه شيًا والتعبير بالوجه؛ لأنه «أشد الأعضاء تألمًا من حر النار.

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]»[6].

وإذا كان يشوي الوجوه عند الاقتراب منه «فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه؟!»[7].

ومما يجلي لنا أثر هذا الماء في أهل النار ما ذكره سعيد بن جبير قال: «إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارًا مر بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود»[8].

(١) المفردات، الراغب ص٤٧٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٧٩-٨٠ بتصرف.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢١١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٦٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٥.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٩.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٦٩.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٥.

كما حكم الله على هذا الشراب بأنه ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

فيا لله ما أقبح هذا الشراب! وما أقبح وصفه ونعته! وهل هناك شراب أقبح من شرابٍ وصفه الله بالقبح والسوء؟!

وذكر لهذه الأنواع من الشراب أوصافًا، وهي:

- شدة الحرارة.
- نتن الرائحة وشدة البرودة.
- سواد اللون.

ثالثًا: اللباس:

مما ذكره الله تعالى في القرآن من ألوان العذاب للكفار والمجرمين في النار اللباس، حيث بين تعالى أنه أعد للمعذبين في النار لباسًا، هذا اللباس لا يقيهم بردًا ولا حرًا، وإنما لباسٌ يحرق أبدانهم، ويأكل جلودهم، ويذيب لحومهم.

وقد جاء الإخبار عن هذا اللباس في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من نار، قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي»[(١)].

وكان إبراهيم التيمي يقول: «﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ سبحان من قطع من النيران ثيابًا»[(٢)].

وقد جاء في الحديث أن أول من يكسى من حلل النار إبليس، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن أول من يكسى حلةً من النار إبليس فيضعها على حاجبه، ويسحبها وهو يقول: يا ثبوراه، وذريته خلفه، وهم يقولون: يا ثبورهم، حتى يقف على النار، ويقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم، فيقال:** ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤])[(٣)].

وجاء بيان مادة هذا اللباس في قوله تعالى: «﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران[(٤)]، وهو الذي تطلى به الإبل، وهو ألصق شيء بالنار...»[(٥)].

وقد جعل ثيابهم من قطران؛ لأنه «شديد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٦.

(٢) البعث والنشور، البيهقي ص٢٩٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ٢١٩، رقم ١٣٦٠٣.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ٢٨٠، رقم ١١٤٣.

(٤) القطران: مادة سائلة تطلى بها الإبل الجرباء، وهو ألصق شيء بالنار.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٥٦، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٠٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٢.



الحرارة يؤلم الجلد الواقع عليه»[1]؛ ولأن «النار إذا لفحته قوي اشتعالها»[2].

والقطران تجتمع فيه صفات أربع: أنه يحرق الجلد؛ ولذا تطلى به الإبل الجرب، وأنه يسرع فيه اشتعال النار، وأنه أسود اللون، متتن الريح، فإذا طليت به جلود أهل النار عاد طلاؤه لهم كالسرابيل -وهي القمص-؛ لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح[3].

«فمشهد المجرمين اثنين اثنين مقرونين في الوثاق، يمرون صفًا وراء صف، مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار، ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادةٍ شديدة القابلية للالتهاب، وهي في ذات الوقت قذرة سوداء من قطران، ففيها الذل والتحقير، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار»[4].

رابعًا: سكن أهل النار:

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين والمجرمين، فهي سكنهم ومستقرهم، وهي مأواهم الذي لا مأوى لهم سواها، ولا مولى لهم إياها، جعلها الله سجنًا لهم، لا يجدون لهم منه مفرًا ولا مخرجًا.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

وقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

وإذا كان السكن غايته تحصيل معاني الطمأنينة والسكينة والراحة، فإن سكن أهل النار ليس فيه شيء من ذلك ألبتة، ففيه يعذبون أشد العذاب، ويلاقون من أنواع المهانة والصغار ما تعجز عن وصفه أكثر أقلام الكاتبين تشاؤمًا، فهو سكنٌ لا راحة فيه، ولا نوم فيه، طعامهم فيه عذاب، وشرابهم فيه عذاب، وثيابهم فيه عذاب، وفرشهم فيه عذاب. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

ويمكننا أن نستخرج من آيات القرآن أهم صفات هذا المسكن من خلال ما يأتي:

١. **محيطة بساكنيها.**

لما كانت جهنم سجنًا لساكنيها فقد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٥٣ بتصرف.
(٢) غريب الحديث، ابن الجوزي ٢/ ٢٥٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٦٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢١١٣.

جعلها الله محيطة بهم إحاطة السوار بالمعصم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾[الكهف: ٢٩].

والمراد من ضرب هذا السرادق «ألا يكون لهم مخلص منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار، بل هي محيطةٌ بهم من كل الجوانب»[(١)].

فلا فرجة لهم ينظرون منها إلى ما وراءها من غير النار، ولا هي تطال أحدًا غيرهم، فقد اجتمع عذابها بكامل لهبها ودخانها وشررها عليهم، لا يضيع منه شيء في هواء أو فضاء؛ لأنها محيطة بهم، مغلقة عليهم.

٢. ضيقة على سكانها.

جهنم مسكن لمن قدر الله عليه أن يكون من أهلها، وهذا المسكن على سعته واتساعه إلا أنهم فيها في ضيق، ضيقٌ يحيط بأبدانهم زيادة على الضيق الذي يملأ صدورهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[الفرقان: ١٣].

وقد ذكر بعض العلماء في قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم[(٢)].

وإذا كان من «جمع في مكانٍ يجمع بين ضيق المكان وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال»[(٣)]، فهل بعد هذا عذاب؟!

٣. مغلقة على سكانها.

أهل النار مقيمون فيها إقامة جبرية لا خيار لهم في الخروج منها إلى غيرها؛ لأنها مغلقة عليهم، فلا يجدون سبيلًا للخروج، ولا طريقًا للخلاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ [الهمزة: ٨]. ومعناه: مطبقة أو مغلقة[(٤)].

و«معنى إيصادها عليهم: ملازمة العذاب واليأس من الإفلات منه، كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن»[(٥)].

وبهذا يسد عليهم كل طريقٍ للفرار إلا طريقًا واحدًا وهو الفرار إلى وادٍ من الحميم.

قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤].

يقول ابن عاشور رحمه الله: «يمشون بين مكان النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبرد، فلاح لهم الماء، فذهبوا إليه فأصابهم حره، فانصرفوا إلى النار دواليك»[(٦)]. ففرارهم من عذابٍ إلى عذاب.

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٥٩.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٠٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٩.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٢٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٤١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦٤.

سبل الوقاية من النار

بين القرآن الكريم سبل الوقاية من النار حتى يسلكها العبد للنجاة من النار وعذابها، وسوف نتناولها بالبيان فيم يأتي:

أولًا: توحيد الله:

التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وتنزيهه عن كل ند وشريك ومثيل، وهو أشرف المقامات وأعلاها على الإطلاق، وهو رأس الأمر، وأصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره، ولأجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهو أعظم حقٍ لله تعالى على عبيده، ففي الصحيحين من حديث معاذٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)[1].

ولما كان توحيد الرب جل جلاله بهذه القيمة وذاك الشرف كان -لا شك- أعظم أسباب النجاة من النار، ويتبين ذلك من خلال ما يأتي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك، ٨/ ٦٠، رقم ٦٢٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان، ١/ ٥٨، رقم ٣٠.

١. التوحيد مفتاح المغفرة.

باب مغفرة الذنوب والطمع في تجاوز الله عنها مفتاحه واحد هو توحيد الله، ولا يغلق هذا الباب إلا بقفل واحد هو بالموت على الشرك، وقد جاء بيان هذه الحقيقة في القرآن في كثير من الآيات، أظهرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

«فالمشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث القدسي قال رب العزة: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرةً)»[2].

٢. التوحيد مفتاح دخول الجنة.

إذا كان التوحيد مفتاح المغفرة فلازم ذلك أنه مفتاح الجنة، فالجنة مفتوحة أبوابها للموحدين مهما كثرت ذنوبهم، مغلقة

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب فضل الذكر والدعاء والتوبة، ٤/ ٢٠٦٨، رقم ٢٦٨٧.

أبوابها أمام المشركين مهما كثرت فضائلهم، فالجنة محرمة عليهم؛ لأنهم اخترقوا حرمة التوحيد، وتنكروا لنعم الله وأفضاله عليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار)[١].

فالتوحيد من أعظم الأمور التي تكفل له النجاة يوم أن يلقى خالقه، ويقبل على ربه ومولاه، وقد أمر الله كل من يرجو لقاءه ويخاف عقابه بالتخلص من الشرك

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

يقول ابن عاشور: «المعنى: يوحي الله إلي توحيد الإله، وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة، وتفريع ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠].

هو من جملة الموحى به إليه، أي يوحى إلي بوحدانية الإله، وبإثبات البعث، وبالأعمال الصالحة، فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة؛ إذ جعل التوحيد أصلًا لها، وفرع عليه الأصلان الآخران، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى»[٢].

وهكذا يظهر ما للتوحيد من أثرٍ عظيم في نجاة العبد يوم القيامة، ووقايته من الجحيم.

٣ـ التوحيد سبب الأمن في الدنيا والآخرة.

الآخرة فيها أهوال جسام وشدائد عظام يشيب من هولها الولدان، والناس فيها سيكونون في فزع عظيم، ورعب شديد.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وتوحيد الرب جل وعلا ونفي الشريك عنه من أعظم ما ينجي العبد ويؤمنه في الدنيا قبل الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، أي: «لم يخلطوا إيمانهم بشرك»[٣].

﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾، أي: «الأمن من عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه، ومن عذاب الآخرة»[٤].

فلا أمن ولا أمان من النار إلا لمن وحد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار، ١/ ٩٤، رقم ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٩.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٨٣.

(٤) التحرير والتنوير ٧/ ٣٣٣.

ربه وأفرده وأخلص له عمله، وكلما كان العبد أكثر تحققًا بمقام التوحيد كان أكثر أمانًا يوم القيامة ولا شك.

ولما كان التوحيد هو سبب الأمن كان الشرك على نقيضه، يقول جل جلاله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«هذه هي صورة من تزل قدماه عن أفق التوحيد، فيهوي إلى درك الشرك، فإذا هو ضائع ذاهب بددًا، كأن لم يكن من قبل أبدًا، إنه الهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء؛ إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه»[(١)].

وهكذا يظهر أن التوحيد هو أعظم أسباب الوقاية من النيران، جعلنا الله من أهل توحيده وطاعته.

ثانيًا: اتباع الرسل:

اتباع الرسل وطاعتهم من أعظم أسباب نجاة العبد من النيران وإسكانه الجنان؛ ولذا حض الله في القرآن على لزوم طاعة الأنبياء والرسل، وبين أنه من أعظم أسباب النجاة في الآخرة.

قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

فالإيمان بالله تعالى وبرسله واتباعهم، وعدم التفريق بين أحد منهم في أصل الإيمان بهم، يوجب أجرًا عظيمًا بقدر عظمة الواعد سبحانه.

ولاشك أن الإيمان بالرسل عامة واجب لا ينجو الإنسان يوم القيامة إلا بتحقيقه، وقد دلت الآيات الكثيرة على ذلك -كما سبق بيانه- غير أنه من الضروري أن ننبه على أهمية الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم خاصة؛ لأنه خاتم الأنبياء، وتكذيبه يعني: تكذيب كل الأنبياء والمرسلين، ومن كفر به وبما جاء به فقد بين الله تعالى في غير آية أنه من أهل النار، كما بين سبحانه أن طاعته تورث صاحبها جنات النعيم.

وقد اتخذت صور الإثابة المترتبة على طاعة النبي صلى الله عليه وسلم صورًا عدة، منها:

١. الوعد بالخلود في الجنة.

الخلود في الجنة لاشك من أرفع ما تشرئب إليه الأعناق، ومنتهى ما تصل إليه

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢١-٢٤٢٢ بتصرف.

الهمم، وقد وعدها الله من اتبع الرسول وأطاعه.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

«فهذا الجزاء الحسن قد أعده الله تعالى لمن أطاعه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم الذي حمل إليه ما أمر الله به وما نهى عنه، إنه جنات تجرى من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإنه الخلود في هذه الجنات والعيش الدائم في نعيمها»[١].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فهذه الجنة العظيمة، الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، أعدها الله لمن آمن واتبع الرسل ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وتأمل كيف أنه خص جل جلاله العرض بالذكر؛ «ليكون أبلغ في الدلالة على فرط اتساع طول الجنة؛ لأنه إذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فإن العقل يذهب كل مذهب في تصور طولها، فقد جرت العادة أن يكون الطول أكبر من العرض»[٢].

فالإيمان بالرسل واتباعهم وطاعتهم إذًا من أعظم ما ينجي العبد يوم القيامة من النار، ويجعله من سكان جنة الأبرار.

٢. صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

صحبة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين من أعظم الأمور التي قد يتطلع إليها الإنسان، فهي صحبة لأعظم ركب ميمون، ولأجل موكب ظهر في هذا الوجود، وهذه الصحبة الكريمة جعلها الله لمن أطاع النبي صلى الله عليه وسلم، وتقفى خطاه.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأنعم به من جزاء! فهل هناك صحبة أعظم من هذه الصحبة؟ بل إن صحبة الفريق الواحد من أعظم ما يبهج النفوس، ويشرح الصدور، فكيف بالمجموع؟!

٣. غفران الذنوب والوقاية من العذاب.

وهذا من الخير العظيم والبركة الكبيرة لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه.

يقول تعالى: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٧١٥.

(٢) المصدر السابق ٢٩/ ٢٠٥.

﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

فقد بينت هذه الآية الكريمة أن إجابة النبي صلى الله عليه وسلم وطاعة أمره، وتلبية دعوته، مما تغفر به الذنوب، ومما يجير العبد من عذاب الله، وهذا من الخير العظيم، فإنه متى «أجارهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله»[(١)].

فطاعة الرسول إذًا سبيل الوقاية من النيران، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة.

وكما أن طاعة الرسول خلفها خير عظيم فإن عصيانه والكفر به يهلك العبد، ويجعله من أهل النار، وقد جاءت العديد من الآيات التي تحذر من مغبة الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم، أو تكذيبه وعدم اتباعه.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وهذه الآية تبين مغبة عصيان النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها مع عصيان الله تدخل صاحبها النار، وتورثه العذاب الأليم فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

فهذه الآية تبين حسرة من أعرض وخسرانه عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لما عاين أهوال القيامة، وأنه يتمنى ساعتها أن لو عاد إلى الدنيا؛ ليتخذ مع الرسول سبيلًا «فهي حالة تكشف عن سبب الحسرة التي تملأ قلب الظالم في هذا اليوم، وهو أنه قد كان على طريق مخالف لطريق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه دعي إلى الإيمان فأبى، ولم يتخذ مع الرسول سبيلًا، بل اتخذ سبيله مع الضالين والظالمين من أمثاله الذين أغووه وأغواهم، فكانوا حزبًا على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وهذا ما يشير إليه قوله جل جلاله على لسان هذا الظالم: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾»[(٢)].

وقال سبحانه أيضًا مبينًا ما يتمناه أهل النار وهم يعذبون فيها: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦].

«إنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول لكنها أمنية ضائعة، لا موضع لها ولا استجابة، فقد فات الأوان، وإنما هي الحسرة على ما كان»[(٣)].

فهذه الآيات وغيرها تبين جميعًا سوء عاقبة من كذب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به، ولم يتبعه فيما أمر به ونهى

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٨٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٠/ ١١ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٨٣ بتصرف.

عنه، فكان مرده إلى خسران مبين كما أوضحت الآيات الكريمات.

ولما كانت طاعة الرسل وحسن اتباعهم سبيل عظيم للوقاية من النيران، كان تكذيبهم من أكثر ما يورد الإنسان النار، ولقد توعد الله المكذبين للرسل بعقوبات أخروية.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٠-٧٤].

ففي هذه الآيات بين سبحانه العاقبة الوخيمة لمن كذب بالكتاب وكذب الرسل، وتأمل كيف أن الله قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ففي «هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ من الرب -جل جلاله- لهؤلاء»[(١)].

والمعنى: أنهم سوف يعلمون «سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله تعالى، ولكتبه التي أنزلها عليهم»[(٢)].

وشرعت الآيات بعد ذلك في بيان عاقبتهم وكيف أنها إلى جهنم، حيث تجعل السلاسل في أعناقهم وأرجلهم، ويسحبون في الحميم، أي: «الماء الذي اشتد غليانه وحره»[(٣)]. ومما يظهر شدة إهانتهم وإذلالهم ذكر الآيات أنهم يسجرون في النار، أي: «يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم، ويقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر: ٧٣]»[(٤)]

إنها -كما يقول صاحب الظلال-: «الإهانة والتحقير في العذاب، لا مجرد العذاب»[(٥)].

وهكذا تظهر شؤم عاقبة التكذيب بالرسل، وأنها سبب العذاب والخزي في الدنيا والآخرة.

٤. فعل الخيرات وترك المنكرات.

فعل الخيرات والإكثار من الصالحات من أكثر الأمور التي تقي العبد من النيران، وأما اقتراف المنكرات والسيئات فمن أكثر ما يزج به في السعير.

قال تعالى مرغبًا في فعل الخير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال جل جلاله آمرًا بالاحتراز من بعض المنكرات: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقد ذكر عز وجل في كتابه الكثير من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٧.
(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٢/ ٣١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٩٦.

الخيرات، ورغب في فعلها؛ لتقود العبد إلى جنة ربه، كما ذكر العديد من المنكرات وحذر منها؛ لأنها تقود العبد إلى النار.

وفيما يلي إشارة إلى بعض هذه المنكرات وتلك الخيرات دون استقصاء لها؛ لأن استقصاءها يطول، ويخرجنا عن المقصود، وإنما هي شارات على منارات.

٥. خيرات وصالحات ينبغي الإكثار منها.

إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل ونصرتهم، والتصدق.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وعد عظيم، فمن كان الله معه فلا شيء إذن ضده، ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود -في الحقيقة- له ولا أثر، ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله جل جلاله تهديه كما أنها تكفيه، وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن وقد وصل، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم.

ولكن الله جل جلاله لم يجعل معيته جزافًا ولا محاباة ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده، إنما هو عقد، فيه شرط وجزاء، شرطه: إقامة الصلاة، لا مجرد أداء الصلاة، إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب، وعنصرًا تهذيبيًا وتربويًا وفق المنهج الرباني القويم، وناهيًا عن الفحشاء والمنكر، حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر.

وإيتاء الزكاة اعترافًا بنعمة الله في الرزق وملكيته ابتداء للمال، وطاعة له في التصرف في هذا المال وفق شرطه، وهو المالك والناس في المال وكلاء.

والإيمان برسل الله كلهم دون تفرقة بينهم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم جاء بدين الله، وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعًا، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعًا.

وليس هو مجرد الإيمان السلبي إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل، وشد أزرهم فيما ندبهم الله له، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه، فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به، وليقيمه في الأرض، وليحققه في حياة الناس.

وبعد الزكاة إنفاق عام يقول عنه الله

تعالى إنه قرض لله، والله هو المالك وهو الواهب، ولكنه فضلًا منه ومنة يسمي ما ينفقه الموهوب له -متى أنفقه لله- قرضًا لله.

ذلك كان الشرط، فأما الجزاء: تكفير السيئات، والإنسان الذي لا يني[1] يخطئ، تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم، ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره.

وجنة تجري من تحتها الأنهار، وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق»[2].

٦. تحقيق الولاء والبراء.

الولاء والبراء من أعظم الأعمال وأجلها، وهو الرابطة التي يجتمع عليها المسلمون في شتى البقاع والأنحاء، وهو من لوازم الإيمان بالله ورسوله، بل ما يكون العبد خالص الإيمان بالله ورسوله حتى يوالي في الله، ويعادي في الله، ويحب في الله، ويبغض في الله، ويعطي لله، ويمنع لله.

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملًا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلهي، وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار التي فيها من كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين

(١) الونى: الفترة في الأعمال والأمور والتواني، تقول: فلانٌ لا يني في أمره، أي: لا يفتر ولا يعجز.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣٩٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٥٧-٨٥٨ باختصار.

وتختار[1].

«وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك موادٌّ لأعداء الله، محبٌّ لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا، ولا يصدق صاحبها»[2].

فتأمل -رحمك الله- كيف جمع لهم هذا العمل هذه الجزاءات العظيمة: كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروحٍ منه، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، فما أعظمه من عمل وما أجله!

[1] تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٨.
[2] المصدر السابق.

أسباب دخول النار

من خلال النظر في مواضع ورود النار في القرآن، وتتبع أسمائها وأوصافها تبين أن هناك العديد من المعاصي التي تكون سببًا في دخولها، منها:

أولًا: الكفر والشرك:

الكفر والشرك أعظم الأسباب التي تورد الإنسان الخلود في الجحيم، وقد جاءت العديد من الآيات في القرآن التي تحدثت عن سوء عاقبة الكفر، وشناعة مصير المشركين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وتأمل كيف «وقع الإخبار عن نار جهنم

بأنها ﴿لَهُمْ﴾ بلام الاستحقاق؛ للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم»[1]. جهنم بما فيها أعدت لتكون جزاء لكفرهم، فما أخبثها من عاقبة! وما أبشعها من نهاية!

وبين سبحانه أن الكفار والمشركين في نار جهنم خالدين، وأنهم شر البرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

كما أخبر سبحانه أن المشرك يحرم الجنة، وأن مأواه النار، وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

فالمشرك بالله شركًا أكبر مقطوع بحرمانه من الجنة، وخلوده في النار أبدًا؛ إذ قضى الله عز وجل بجواز غفرانه كل الذنوب إلا الشرك، فإنه لا يغفره أبدًا، قال جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ثانيًا: النفاق:

من أكثر أسباب الهلاك التي تورد صاحبها النار؛ ليذوق فيها أشد ألوان الهوان وأخبثها -النفاق.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

هذا هو الجزاء الذي أعده الله لأهل النفاق والكفر، نار جهنم خالدين فيها، لا يتحولون عنها أبدًا، هي حسبهم، أي: هي كل ما لهم عند الله، لا شيء لهم غيرها، ثم من وراء جهنم وعذابها، لعنة الله القائمة عليهم، وعذاب مقيم لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

«إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون، ثقلة المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور. الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين، ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين، في الدرك الأسفل من النار»[3]. «وتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ لإفادة أنه لا محيص لهم عنه، وإنما كان المنافقون في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٧.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٨٣٨-٨٣٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٥.

الدرك الأسفل، أي: في أذل منازل العذاب؛ لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حف به من الرذائل»[1].

ثالثًا: أكل الربا:

أكل الربا من أعظم الذنوب التي توبق صاحبها وترديه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فمع محق أموال المرابين وسحقها توعدهم ربهم يوم القيامة بهذه الحال العجيبة.

قال تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ التي هي أشبه ما يكون بحال المجانين، ثم هم من الخالدين في جهنم، عياذًا بالله.

رابعًا: أكل أموال اليتامى:

من الأسباب التي تجعل المرء وقودًا لجهنم أكل أموال اليتامى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

«وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر»[2].

إن مال اليتيم هو نارٌ تحرق كل من يمد إليه يدًا خائنة، أو يدسه في بطنٍ شرهةٍ، فمن أكل منه احترق به في الدنيا، وصلى به عذاب جهنم في الآخرة[3].

خامسًا: أكل أموال الناس بالباطل:

أكل أموال الناس بالباطل من أعظم الذنوب وأخطرها، وهو ذنب يأخذ بناصية صاحبه إلى النار وبئس القرار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠].

قال ابن كثير: «أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديًا فيه ظالمًا في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه، متجاسرًا على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد،

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤ بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٦٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٨.

فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد»[1].

سادسًا: قتل المؤمن عمدًا:

قتل المؤمن بغير حق من أقبح الجرائم وأفحشها؛ لأنها ليست مجرد جريمة قتل لنفس بغير حق «ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم، إنها تنكر للإيمان ذاته، وللعقيدة نفسها»[2].

ولذا توعد الله مرتكبها بعقاب أليم، قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ولجرم هذه الفعلة وشناعتها رتب الله عليها جزاءات قلما جمعها في فعلة غيرها في آية واحدة، فقد توعد الله قاتل المؤمن بالخلود في جهنم، وبالغضب عليه، وباللعن له، وبالعذاب العظيم.

«وعلى قدر ما كانت رحمة الله وعفوه عن القاتل خطأً، بقدر ما كانت نقمة الله وغضبه ولعنته على القاتل عمدًا؛ ولهذا كان إهلاك هذه النفس المجرمة والقصاص منها في الدنيا هو الحكم الذي يؤخذ به قاتل النفس المؤمنة عمدًا، وإنه لا وجه لاستبقائه في هذه الحياة، ولا داعية لاستصلاحه، فقد وقع عليه غضب الله ولعنته، منذ أول قطرة دم سفكها من دم هذا المؤمن البريء ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]»[3].

سابعًا: التولي يوم الزحف:

والتولي يوم الزحف من أكبر الكبائر التي تزج بصاحبها في جهنم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

والتولي يوم الزحف يستحق هذا التشديد؛ «لضخامة آثاره الحركية من ناحية، ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية، إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخًا ثابتًا لا تهزمه في الأرض قوة، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة -وهو يواجه الخطر- فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفرارًا، والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفًا على الحياة»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٠-٢٧١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٨٦٩.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٨٩-١٤٩٠.

و«في التعبير عن الصد عن العدو والفرار منه بتولية الدبر، تشنيعٌ على من يأتي هذا الفعل وفضحٌ له؛ إذ كان كأنما يكشف سوأته لعدوه أو يعطيه دبره»[1].

ثامنًا: الركون إلى الظالمين:

حذر الله جل جلاله من موالاة الظالمين أو الركون إليهم، وبين سبحانه أن من فعل هذا يعرض نفسه لمس النار، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وذلك لأن الركون إليهم يعني: إقرارهم على ما هم عليه من الباطل والمنكر، وهذا مما يعرض العبد للفحات جهنم، كما بينت الآية الكريمة، «وأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون»[2].

تاسعًا: عدم النهوض بالتكاليف الشرعية:

وهذا ما بينه تعالى في حوار بين أهل الجنة وأهل النار، حين يسأل أهل الجنة أهل النار عن أسباب صليهم الجحيم.

قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٧].

وهذا الحوار يبين «أن الذي سلكهم في سقر هو أنهم لم يكونوا من المصلين، أي: لم يكونوا مؤمنين؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين لكانوا من المصلين، وأنهم لم يكونوا يؤدون حق عباد الله فيما خولهم الله من نعم، فلم يطعموا المساكين، ولم يخرجوا زكاة أموالهم التي منها يطعم المسكين، وأنهم يخوضون مع الخائضين، فلم يتأثموا من منكر، ولم يتحرجوا من فاحشة، بل كانوا مع كل جماعة ضالة، وعلى كل مورد آثم، وأنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، أي: يوم القيامة، فلم يؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء»[3].

هذه جملة من الأسباب التي تورد الإنسان الهاوية، وتنتهي بصاحبها في السعير، وبئس المصير، وبما أنها كذلك فإن الحذر منها والبعد عنها يحفظ الإنسان من النيران، ويقيه شرها، فالله توعد الكفرة والمشركين بالجحيم -كما سبق- ولكنه أيضًا وعد المؤمنين بالجنان، والخير العظيم، قال عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

(١) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٥٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٠٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١٣٠٤.

[التوبة: ٧٢].

وتوعد المكدسين للأموال والمانعين حق الله فيها بالسعير، ولكنه وعد المنفقين المتصدقين بالخير العميم: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وهكذا.. فكل ما هو سبب لدخول الجحيم فالبعد عنه يقرب من الجنان والنعيم.

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، القبر



عناصر الموضوع

مفهوم الناس

أولًا: المعنى اللغوي

الناس من نوس، النون والواو والسين أصلٌ يدل على اضطرابٍ وتذبذب، وناسَ الشيءَ: تذبذب، ينوس، ويقولون: نُسْتُ الإبلَ: سُقْتُها[1]، النوس والنوسان: التذبذب، والناس يكون من الإنس ومن الجن، جمع إنسٍ، أصله أناسٌ جمعٌ عزيزٌ أُدْخِل عليه أل. وناسَ الإبلَ: ساقها، وأناسَه: حَرَّكه، ونَوَّسَ بالمكان تنويسًا: أقام، والـمنوس من التمر: ما اسود طرفه[2].

ومما سبق يتبين أن كلمة الناس يدور معناها على الاضطراب، والحركة والتذبذب والإقامة، والسوق.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال الراغب: «والناس قد يُذَكَّرُ ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزا »، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية وهو وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به [3].

وقال أبو هلال العسكري: «هم الإنس خاصة وهم جماعة لا واحد لها من لفظها » [4].

وقال الطاهر بن عاشور: «الناس اسم جمع للبشر» [5].

قال الشيخ الشعراوي: «هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة»[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٩، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٤٥.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٤٧.
(٣) المفردات ١/ ٤٢٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٥٢٣.
(٤) الفروق اللغوية ص٥٢٧.
(٥) التحرير والتنوير ١١/ ١٢٧.
(٦) تفسير الشعراوي ١/ ٣٨١٦.

الناس في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (ناس) في القرآن الكريم (٢٤١) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٢٤١	﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣﴾ [الناس:١-٣]

وجاءت كلمة (الناس) في القرآن على وجهين[2]:

الأول: جميع الناس: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الثاني: فئة معينة من الناس أو أحد الناس بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. أُرِيْدَ بالأولى: نعيم بن مسعود الأشجعي، وبالثانية: أبو سفيان وأصحابه من قريش وأهل مكة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٢٦-٧٢٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٥٥-١٣٦٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٤٤١-٤٤٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٣٩-١٤٠، نزهة الأعين النواظر، ص٦٠١-٦٠٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٣٢-٢٣٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العالمين

العالمين لغةً

(علم) العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدل على أثرٍ بالشيء يتميز به عن غيره، ومن الباب العالمون، وذلك أن كل جنس من الخلق فهو في نفسه معلم وعلم، وقال قوم: العالم سمي لاجتماعه، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢].

قالوا: الخلائق أجمعون[١].

العالمين اصطلاحًا

أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس دون غيرها، وقيل: عني به الناس وجعل كل واحد منهم عالما[٢]، وقال ابن كثير: و(العالَمين) جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل[٣].

الصلة بين الناس والعالمين

بعد التأمل في التعاريف السابقة تبين أن لفظة العالمين تشمل الناس وغيرهم، باعتبار الناس جزءا من هذا العالم، والناس من الموجودات والمخلوقات التي أوجدها الله تعالى وكلفها بالعبادة والطاعة، لكن لفظة العالمين أعم، والناس أخص.

٢ البشر

البشر لغة

(بشر) الباء والشين والراء أصلٌ واحد يقصد به ظهور الشيء مع حسنٍ وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، والبشر: الإنسان.

البشر اصطلاحًا

والبشر هم الخلق يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع[٤].

وإطلاق البشر على الإنسان اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوان الذي عليه

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٠٩.
(٢) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٣٤٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣١.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٩.

نحو صوف أو شعر[1].

الصلة بين الناس والبشر:

سمي الناس بشرًا؛ لأنهم أحسن الحيوان هيئة، ويجوز أن يقال: إن قولنا بشر يقتضي الظهور، وسموا بشرًا لظهور شأنهم، وقولنا: الناس يقتضي النوس وهو الحركة، والناس جمع والبشر واحد[2].

٣ بنو آدم

بنو آدم لغةً

هذا مصطلح مركب من لفظة (بنو)، ولفظة (آدم) نعرف كلًّا منهما بما يأتي:

بنو لغةً

قالوا: إنه جمع بنوة أو بنوة، والابن الولد، والجمع أبناء[3].

آدم لغةً

آدم: الأدم: الاتفاق، وأدم الله بينهما يأدم أدمًا، وآدم بينهما إيدامًا، فهو مؤدمٌ بينهما، ويقال: بينهما أدمةٌ وملحة، أي: خلطة.

وأديم كل شيء: ظاهر جلده، وأدمة الأرض: وجهها، وقيل: سمي آدم عليه السلام؛ لأنه خلق من أدمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جعلت فيه[4].

بنو آدم اصطلاحًا

هم الناس[5]، وبنو أبي البشر[6].

الصلة بين الناس وبني آدم

مما سبق تبين أن هناك صلة بين الناس وبين بني آدم، وهي علاقة توضيح المعنى، فبنو آدم هم الناس والبشر، والناس ينسبون إلى أبيهم آدم عليه السلام، ولهذا يقال: الناس بنو آدم لأنهم منسوبون إليه[7].

(١) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٣٢.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٨٩.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٨٨.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٣.
(٦) انظر: المفردات، الأصفهاني ص١٤.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٣.

٤ الثقلان

الثقلان لغةً

(ثقل) الثاء والقاف واللام أصلٌ واحدٌ يتفرع منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضد الخفة، ولذلك سمي الجن والإنس بالثقلين، لكثرة العدد، وأثقال الأرض كنوزها.

قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]. ويقال هي أجساد بني آدم[1].

الثقلان اصطلاحًا:

هم « الإنس والجن »[2].

الصلة بين الناس والثقلين

الثقلان أعم من الناس، والناس أخص، فالثقلان يعني الإنس والجن، والإنس تعني بني آدم دون الجن.

٥ الأنعام:

الأنام لغةً

والأنام هم ما على ظهر الأرض من جميع الخلق، ويجوز في الشعر: الأنيم[3].

الأنام اصطلاحًا

هم الجن والإنس[4].

الصلة بين الناس والأنام

هناك علاقة واضحة بين اللفظتين فالأنام تفسير وبيان لمعنى لفظة الناس، فالأنام يقتضي تعظيم شأن المسمى من الناس[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٣.

(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٧.

(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٧٥.

تسمية سورة من القرآن باسم الناس

سورة الناس سورة مكية [١]، عدد آياتها ست آيات.

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه من طريق عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلةٍ جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مراتٍ) [٢].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزل أو أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتين) [٣].

حكمة تسمية السورة بهذا الاسم

إن تسمية سورة من سور القرآن باسم سورة الناس، واستقلالها بهذا الاسم لم يأت اعتباطًا بل جاء لحكمة نسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب باستخراج هذه الحكم نقول وبالله التوفيق:

أولًا: « إنه تعالى رب جميع المحدثات، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه:

- أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إِلَهُهُمْ ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ووالي أمرهم.
- أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس.
- أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان، فإذا قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول: يا رب يا ملكي يا إلهي» [٤].

ثانيًا: بيان أن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، وأن الوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس: ٦] [٥].

ثالثًا: بيان المعاني المختلفة لكلمة الناس خاصة في سورة الناس، وفي ذلك رد على المستشرقين الذين قالوا: إن في القرآن الكريم تكرار خاصة أنه كرر لفظة الناس

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، ٦/ ١٩٠، رقم ٥٠١٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم ٨١٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٩٠.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٣٧.

أكثر من مرة في سورة الناس.

يقول الشعراوي: وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك في القرآن، وقالوا: إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له.

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هي سورة (الناس) حيث يقول الحق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة (الناس) في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد، ولكنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة؛ ولم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة (الناس) في كل موقع هو معنى مختلف وضروري؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جاذبة لمعناها، وأن يكون كل معنًى جاذبًا للكلمة المناسبة له.

وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وأن يقول: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

و (الناس) في الآية الأولى هم المُرَبُّون، والناس في الآية الثانية هم المَمْلوكون لله فلا أحد يخرج عن قدرة الله في الأمور القهرية، وتأتي ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في الآية الثالثة: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣].

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق، وهو الذي يقيك مما ستأتي به الآية الرابعة: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

والآية الخامسة: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥][1].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٥/ ٣٨١٦.

الغاية من خلق الناس

إن الله تعالى خالق الخلق، مدبر الأمر، ذي الطول الشديد، بيده مقاليد السماوات والأرض ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، خلق الناس لِحِكَمٍ عديدة، أهمها:

أولًا: الاستخلاف في الأرض

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

قال الإمام الطبري في تفسير الآية الأولى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: والصواب في تأويل قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: أي مَسْتَخْلِفٌ في الأرض خليفةً، ومُصَيِّرٌ، فيها خلفًا، أي: خلفًا يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله[1].

والاستخلاف في الأرض له ثمرات عديدة، منها: تنفيذ أحكام الله تعالى في الأرض، وهذا ما وضحه قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص: ٢٦].

قال الرازي: جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى، وفي سياسة الناس؛ لأن خليفة الرجل من يخلفه، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة، وذلك على الله محال.

والقول الثاني: إنا جعلناك مالكًا للناس ونافذ الحكم فيهم، فبهذا التأويل يسمى خليفة، ومنه يقال: خلفاء الله في أرضه، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته، وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم[2].

وبعد التأمل ودراسة الآيتين السابقتين يتبين أن هناك غايات عديدة من خلق الناس، وأهمها الاستخلاف على هذه الأرض، وغاية الاستخلاف هو تنفيذ حكم الله، وإقامة شرعه على الأرض والحكم ﴿بَيْنَ﴾ الناس بالعدل، ومن خلال استقراء لفظة الناس في القرآن تبين أن لفظة الناس

(١) انظر: جامع البيان ١/ ٤٥١.

(٢) مفاتيح الغيب ١/ ٣٨٦.

المسبوقة بـ(بين) وردت في سياق الحكم والإصلاح.

ثانيًا: عبادة الله تعالى

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

ومعنى العبادة هي إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكًا ذاتيًا مستمرًا، فالمعبود إله للعابد، فالحصر المستفاد من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قصر الله علة خلق الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، أي إلا ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرًا حقيقيًّا.

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبيه المشركين بأن الجنَّ غيرُ خارجين عن العبودية لله تعالى، وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى[(١)].

وبعد بيانٍ وتوضيح هذه الغاية المهمة، وهي عبادة الله تعالى يأتي النداء الرباني في كثير من الآيات القرآنية مؤكدًا على هذه الغاية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١].

واختُلِفَ من المراد بالناس هنا على قولين: أحدهما: الكفار الذين لم يعبدوه والقول الثاني: أنه عَامٌّ في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها[(٢)].

ثالثًا: التعارف

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وفرقهم وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا؛ فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ومعرفة الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى؛ فأكرمهم عند الله

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٢٥.

أتقاهم...وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة؛ لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل ذلك.

رابعًا: أداء الفرائض وحمل الأمانة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

وقال ابن كثير: عن ابن عباس: الأمانة: الفرائضُ عَرَضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عَذَّبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها[1].

ومن أهم هذه الفرائض على سبيل المثال لا الحصر:

١. حج بيت الله.

يقول تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

٢. أداء الأمانة و الحكم بالعدل والحق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

٣. إقام الصلاة.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

[البقرة: ١١٠].

٤. الصيام.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٨.

فضل الله تعالى على الناس

إن نعم الله على الناس لا تعد ولا تحصى، فإنه تعالى أسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة، وأرسل للناس خير رسله. وشرع لهم أفضل شرائعه، خلق آدم بيديه وأسجد له الملائكة، ما أعظمه من تكريم! وفَضْلُ الله على الناس كثير.

وسنقف على بعض وجوه هذا الفضل فيما يأتي.

أولًا: التكريم الإلهي

وقد ظهر ذلك في عدة صور، منها:

١. خلق آدم بيديه ونفخ الروح فيه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٢٩].

٢. سجود الملائكة لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

وآدم عليه السلام هو أبو البشر، وتكريم آدم بالسجود له تكريم لذريته.

٣. القول الصريح بتكريم بني آدم والتفضل على الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[النمل: ٧٣].

«كرمهم تعالى بأن خلق أباهم آدم على صورة الرحمن، وجعل لهم ذلك بحكم الوراثة، وأن الولد سر أبيه، وفضلهم على الكثير، بأن جعل لهم من النعم ما يستغرق العد»[1]، والمقصود من ذلك بيان هذا التكريم لصورة آدم وجماله والحفاظ عليه، وعدم الاعتداء عليه.

٤. الخيرية ووصف الناس بها.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠].

«والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلهم، فاللائق بهذا أن لا تبطلوا على أنفسكم هذه الفضيلة، وأن لا تزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف»[2].

٥. اصطفاء الله الرسل من الناس.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

(١) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١٢٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٢٤.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج: ٧٥].

تبين الآيات في ختام السورة بأن الله اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة؛ أي: ليس بعثه محمدا أمرا بدعيا[١].

ثانيًا: الإنعام والتسخير

إن العلاقة القائمة بين الإنسان والكون علاقة قائمة على المصاحبة، وهذه العلاقة قائمة على أساس تسخير الله تعالى هذا الكون للإنسان، واستغلاله خير استغلال، والاستفادة منه وإعانته على نشر دعوة الله تعالى، وقد أسبغ الله على الناس نعمه ظاهرة، وباطنة، ونعمه كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولعل هذا المطلب يبين بعضًا من نعم الله تعالى على الناس.

١. **نعمة الخلق والرزق.**

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ومعنى هذا الذكر الشكر[٢]، والخطاب عامٌّ للجميع؛ لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله[٣].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٩٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٤/ ٣٢٢.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٠٦.

٢. **نعمة الأكل.**

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

يقول ابن كثير: يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا، أي: مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم في جاهليتهم[٤]،

٣. **نعمة التسخير.**

لقد خلق الله الإنسان وجعله خليفةً على الأرض ليقوم على تنفيذ أحكام الله تعالى، وإنه سيعمر هذه الأرض بالتكاثر، واستغلال مواردها، وكان من نعم الله الكبرى عليه تسخير الكون للناس جميعًا لقضاء وأداء هذه المهمة العظيمة، وهي الاستخلاف على الأرض.

ومن أهم الأشياء التي تم تسخيرها للناس:

- تسخير الشمس والقمر.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٨.

[إبراهيم: ٣٣].

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦].

ومنها قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وقوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة، يقال: دأب يدأب دأبًا ودؤبًا، وقال المفسرون: قوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل، ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية[(١)].

* تسخير الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

يتعاقبان خلفة لمنامكم واستراحتكم وسعيكم في مصالحكم من الإسامة، وتعهد حال الزرع ونحو ذلك، والشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة، وأدائهما ما نيط بهما من تربية الأشجار والزروع، وإنضاج الثمرات وتلوينها، وغير ذلك من التأثيرات المترتبة عليهما بإذن الله تعالى[(٢)].

* تسخير البحر لسير الفلك.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

يقول القرطبي: «يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسان منه وإنعام»[(٣)].

* تسخير البحر لنأكل منه لحمًا طريًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

ومعنى قوله تعالى ذكره: والذي فعل هذه الأفعال بكم، وأنعم عليكم أيها الناس هذه النعم، الذي سخر لكم البحر، وهو كل نهر ملحًا ماؤه أو عذبا﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا﴾وهو السمك الذي يصطاد منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهو اللؤلؤ والمرجان[(٤)].

* تسخير الأنهار.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٢٦٤.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ١٠٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٦٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٨٠.

﴿بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾[إبراهيم: ٣٢].

وسخر لكم الأنهار، أي: ذلّلها، تجري حيث تريدون، وتركبون فيها حيث تشاؤون[١].

- تسخير ما في الأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[الحج: ٦٥].

- تسخير ما في السموات وما في الأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[لقمان: ٢٠].

يقول القرطبي: «ذكر نعمه على بني آدم، وأنه سخر لهم ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملها وأتمها»[٢].

مما سبق يتبين أن نعمة التسخير هي من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الناس.

ثالثًا: الإرشاد والتبيين

إن الله تعالى قد أخذ العهد من الخلق وهم في عالم الذر أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢].

تجلت رحمة الله وعظمته، وفضله على الناس بتذكيرهم، بعهدهم الأول مع الله، بالإرشاد، وتبيينهم لهذا العهد من خلال إرسال الرسل.

فضل الله على الناس بالإرشاد

١. الإرشاد بإرسال الرسل.

ويقول تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾[النساء: ٧٩].

يبين الله تعالى في الآية السابقة أنه أرسل الرسل للناس، وذلك لأن مهمة الرسل إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، ويعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾، إنما جعلناك يا محمد رسولًا بيننا وبين الخلق، تبلغهم ما أرسلناك به من رسالة، وليس عليك غير البلاغ وأداء الرسالة إلى من أرسلت، فإن قبلوا ما أرسلت به فلأنفسهم، وإن ردوا فعليها، وهو مجازيك ببلاغك

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٦٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٧٢.

ما وعدك، ومجازيهم ما عملوا من خير وشر، جزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

٢ . الإرشاد بإنزال الكتب والحكم بما فيها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[النساء: ١٠٥].

يقول الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾إنا أنزلنا إليك يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾، يعني: القرآن ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[2].

٣ . الإرشاد ببيان الحق.

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[يونس: ١٠٨].

يقول تعالى آمرًا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه، فإنما يرجع وبال ذلك عليه[3].

٤ . الإرشاد بالموعظة الحسنة.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧].

في هذه الآية يذكر القرطبي رحمه الله أن الموعظة هنا بمعنى الوعظ وهذه المواعظ والحكم جاءت من القرآن الكريم[4].

فضل الله على الناس بالتبيين

إن رحمة الله بعباده تظهر بإرسال الرسل، وإنزال الكتب ليبين للناس طريق الهدى، وإن التبيين جاء في كتاب الله تعالى لغرس التقوى، وتذكير الناس بواجباتهم وعهودهم مع الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٧].

وطرق التبيين في كتاب الله عديدة منها:

١ . التبيين بإنزال الكتب.

يقول تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].

يقول الشعراوي: ومن هنا سمينا الكتب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٦١.
(٢) جامع البيان ٩/ ١٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٠، ٣٠١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٥٣.

المنزلة ذكرًا، لكن الذكر يأتي تدريجيًّا وعلى مراحل، كل رسول يأتي ليذكر قومه على حسب ما لديهم من غفلة، وإذا أطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الكتاب الجامع لكل ما نزل على الرسل السابقين، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أن تقوم الساعة.

كما أن كلمة كتاب تطلق على أي كتاب، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم، وهذا ما نسميه (علم بالغلبة) فجاء القرآن بالأصول الثابتة، وترك للرسول صلى الله عليه وسلم مهمة أن يبينه للناس، ويشرحه ويوضح ما فيه[1].

٢. التبيين بالإنذار والبلاغ.

يقول تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم: ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[إبراهيم: ٥٢].

تُبَيِّنُ لنا الآيات السابقة أن الإنذار والبلاغ من الأشياء المبينة لمنهج الله ودعوته، فقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

يقول الطبري رحمه الله: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ يقول: ولِيُنذروا عقاب الله، ويحذروا به نقماته، أنزله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم[2].

وهذا القرآن بلاغ للناس، أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان[3].

٣. التبيين بضرب الأمثلة.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

وضرب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان والتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، ففي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾[الحج: ٧٣].

فهذا كثير في كتاب الله، والمثل يضرب ليُجَلِّي حقيقة، والضرب هنا لا يعني إحداث أثر ضار بالمضروب، إنما إحداث أثر نافع إيجابي[4].

وتبين الآية السابقة هذا المثل الذي

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٩/ ٤٩١٢-٤٩١٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٣.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/ ٧١٣٧.

ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾هذا خطاب للمؤمنين والكفار: المؤمنون يزدادون علمًا وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبًا لاهية، وأسماعًا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع.

وهو هذا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾شمل كل ما يدعى من دون الله، ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى.

﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ بل أبلغ من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ الذي هو المعبود دون الله ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف وينزله منزلة رب العالمين[1].

أصناف الناس

إن الله خالق الخلق، فكان منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود: ١١٨].

والناس أصناف ثلاثة، منهم: المؤمنون وهم أحباب الله تعالى، ومنهم الكافرون، ومنهم المنافقون.

أولًا: المؤمنون

وردت لفظة الناس في كتاب الله تعالى مرات عديدة، ولها وجوه ومعاني مختلفة، فقد جاءت بمعنى المؤمنين على النحو الآتي:

١. المؤمنون من الصحابة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٣].

يعني: وإذا قيل لهؤلاء الذين وصفهم الله ونعتهم بأنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨].

صدقوا بمحمد وبما جاء به من عند الله، كما صدق به الناس. ويعني بالناس المؤمنين الذين آمنوا بمحمد ونبوته وما جاء به من عند الله[2].

٢. المؤمنون في أول الخلق.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٢.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[يونس: ١٩].

٣. المؤمنون المؤيدون بالملائكة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٤٨].

ونظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين على عدوهم[1].

٤. المؤمنون المجاهدون.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[البقرة: ٢٠٧].

والمعنى ومن الناس من يبذل نفسه للهلاك ابتغاء مرضاة الله، أي: هلاكًا في نصر الدين وهذا أعلى درجات الإيمان؛ لأن النفس أغلى ما عند الإنسان[2].

٥. المؤمنون المكلفون.

قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

وهذه آية وجوب الحج عند الجمهور[3]، فحج المسلمون وقعد الكفار، ثم تمم الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ بمفهوم المخالفة أن من آمن هو الذي يحج بيت الله.

٦. المؤمنون أتباع محمد و إبراهيم عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٨].

وهم المؤمنون[5]، ويخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وأتباع الخليل قبل محمد صلى الله

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٧٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٩٩.

عليه وسلم[١].

ثانيًا: المنافقون

وهذا صنف أشد خطرًا على الأمة الإسلامية من الكفار، فهو صنف يظهر الإسلام، ويبطن الكفر ويصعب على المسلمين تمييزه، وقد وردت كلمة الناس في هذا المعنى في كتاب الله تعالى، ومنها:

١ . المنافقون المظهرون إيمانهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨].

قال الطبري: وأجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صفتهم[٢].

٢ . المنافقون المشككون للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

سيقول الجهال من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق، وإنما سماهم الله عز وجل سفهاء؛ لأنهم سفهوا الحق، فتجاهلت أحبار اليهود، وتعاظمت جهالتهم وأهل الغباء منهم، عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحير المنافقون فتبلدوا[٣].

٣ . المنافقون المخاصمون.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤].

نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب، وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم[٤].

ثالثًا: الكافرون

وهذا صنف من الناس قد أعلن عداوته للمسلمين وجاهر بها، وإن كان خطيرًا فهو أقل خطرًا من المنافقين لمعرفة المسلمين به، وقد وردت لفظة الناس بهذا المعنى في عدة مواطن من كتاب الله تعالى منها:

١ . الكافرون باتخاذ الأنداد.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[البقرة:١٦٥].

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان ١/ ٢٦٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٢٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٢٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٢.

ضد له ولا ند له، ولا شريك معه[1]، تبين هذه الآية أن سبب الكفر هو اتخاذ الأنداد من دون الله تعالى، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خَلَقَكَ)[2].

٢. الكافرون بالآخرة.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة: ٢٠٠].

يعني بذلك جل ثناؤه: فإذا قضيتم مناسككم أيها المؤمنون فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، وارغبوا إليه فيما لديه من خير الدنيا والآخرة بابتهال وتمسكن، واجعلوا أعمالكم لوجهه خالصًا ولطلب مرضاته، وقولوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[البقرة: ٢٠١].

تبين لنا الآيات صنفين من الناس في الدعاء فيحذرنا الله تعالى أن نكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته وكريم ما أعد لأوليائه[3]، وتوضح الآيات أن المقسم إلى الفريقين جميع الناس من المسلمين والمشركين؛ لأن الآية نزلت قبل تحجير الحج على المشركين بآية براءة، فيتعين أن المراد بمن ليس له في الآخرة من خلاق هم المشركون؛ لأن المسلمين لا يهملون الدعاء لخير الآخرة ما بلغت بهم الغفلة، فالمقصود من الآية التعريض بذم حالة المشركين، فإنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة[4].

٣. الكافرون يوم القيامة المتبرئون من الأصنام.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف: ٦].

وإذا جمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرؤون منهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ومعنى قوله تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا[5].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٧٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فلا تجعلوا لله أندادًا)، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١/ ١٤١، رقم ٥٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٠١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٤٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٩٦.

٤. الكافرون المجادلون بغير علم من الناس.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج:٣].

يقول تعالى ذامًّا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، مُعْرِضًا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع المعرضين عن الحق المتبعين للباطل؛ يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء[١]، والآية نزلت في النضر بن الحارث الذي قال: إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا[٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٩٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥.

صفات الناس

إن من رحمة الله تعالى بخلقه أنه جعل لكل مخلوق من مخلوقاته صفات يتميز بها عن غيره، فصفات الإنسان تختلف عن صفات الحيوان، والنبات والجن وغيره من المخلوقات، والناس رغم اتفاقهم في كثير من الصفات إلا أنهم مختلفون في بعض منها، وللناس صفات فطرية، وأخرى مكتسبة، وهي على النحو الآتي:

أولًا: الصفات الفطرية

١. هداية الفطرة.

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

صنعة الله التي خلق الناس عليها، أي: فطر الله الناس على ذلك فطرةً، والمقصود بالفطرة هو الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعا[٣].

وقد أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٩٧.

تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟)[1].

٢. النسيان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥].

ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدمُ فنسيت ذُرِّيَّتُه، وخَطِئَ فَخَطِئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغُفِرَتْ له[2]، ومن المعلوم أن آدم عليه السلام هو أبو الناس والبشر جميعًا.

٣. الآدمية والمساواة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[الحجرات: ١٣].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١].

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما[3]، والخبر في قوله: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض[4].

٤. اختلاف اللون واللسان.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢].

الألسنة: اللغات، أو أجناس النطق وأشكاله، خالف عز وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حِدَّةٍ، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لُكْنةٍ، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما،

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٣ صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٢٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٦١.

وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلي، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون[1].

٥. حب الشهوات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: ١٤].

وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل؛ فهو محبب ومزين، وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد كما أسلفنا.

ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانبًا آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها، هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه الشهوات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، فهي شهوات مستحبة مستلذة؛ وليست مستقذرة ولا كريهة، والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها؛ إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكانها لا تتعداه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى. والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك الشهوات في غير استغراق ولا إغراق!

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كَبْتِها وقمعها[2].

ويدخل ضمن هذه الشهوات حُبُّ الآباء والزوجة والأولاد.

٦. الهلع والجزع والمنع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا حصلت

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٧٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧٤-٣٧٣.

له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها[1].

٧. الأكل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في ترتيب الأحكام بعضها على بعض، فالإنسان المخلوق لله في الأرض المسخرة له بكل ما فيها، له حياة يجب أن يحافظ عليها، وتبقى الحياة ببقاء الرزق في الاقتيات من مأكل ومشرب، وكذلك يبقى النوع الإنساني بالتزاوج، وتكلم الله في رزق الاقتيات، فجعله للناس جميعًا عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨][2].

فالأمر هنا بالأكل لم يكن غاية في حد ذاته بل هو وسيلة للحفاظ على النوع، وأداء الواجبات المنوط بهم، وكذلك فيه إرشاد باختيار نوع الأكل ومجانبة الشيطان في تحريم وتحليل الطعام والشراب.

ثانيًا: الصفات المكتسبة:

١. العلم والتعلم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[الرحمن: ٤].

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده، يعلمه على الأقل بدايات، ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه[3]، إن آدم عليه السلام لم يكن بطبعه عالمًا، بل اكتسب هذا العلم من الله تعالى الذي علمه الأسماء كلها، وبهذا العلم كان التكريم والتشريف لآدم عليه السلام.

٢. التزاوج.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١].

أي: خلق لكم من جنسكم إناثا يكن لكم أزواجا[4].

هذه آية تدل على أن الزواج آية من آيات الله تعالى، وهو آية لقوم يتفكرون فإن المعنى في هذه الآية أناس يتفكرون ويتدبرون الآيات، وحقيقة الأمر أن نظرة الزواج تختلف من إنسان لإنسان آخر فبعض الناس يقدم على الزواج والبعض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٦.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٤٨٥.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٥٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.

الآخر يعرض ويحجم، وعليه فالزواج صفة تكتسب اكتسابًا.

حال أكثر الناس

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن القرآن الكريم ذكر أحوال الناس في صور متعددة، ولعل هذا يتطابق مع تنوع الناس واختلافهم، فناسب أن تتعدد أحوالهم، وهي في القرآن على النحو الآتي:

أولًا: الكفر

وكفر الناس في القرآن الكريم جاء على عدة أنواع منها:

١. **كفر الجحود والإنكار للقرآن الكريم.**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٨٩].

يقول ذكره: ولقد بينا للناس في هذا القرآن من كل مثل، احتجاجًا بذلك كله عليهم، وتذكيرا لهم، وتنبيها على الحق ليتبعوه ويعملوا به، ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق، وإنكارا لحجج الله وأدلته[١].

٢. **كفر النفاق.**

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨].

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٤٨.

الذنوب، والمنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير[1].

٣. الكفر بلقاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[الروم: ٨].

اللام للتوكيد، والتقدير: لكافرون بلقاء ربهم، على التقديم والتأخير؛ أي: لكافرون بالبعث بعد الموت[2]، ولقاء الله تعالى يكون بالبعث بعد الموت، فالكفر بلقاء الله تعالى إنكارًا للبعث.

ثانيًا: الفسق:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٩].

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾، وإن كثيرًا من اليهود لتاركو العمل بكتاب الله، ولخارجون عن طاعته إلى معصيته[3].

والفاسقون أي: المتمردون في الكفر المصرون عليه الخارجون عن الحدود المعهودة[4].

ولا تعارض هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ وبين تفسير الإمام الطبري بأن الناس هنا اليهود، وذلك لأن اليهود صنف كبير من الناس، ذكر مرارًا وتكرارًا في القرآن الكريم، ليؤكد على حقيقتهم وطبعهم، وهو الفسق.

ثالثًا: الغفلة:

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[يونس: ٩٢].

إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه... وقوله تعالى: ﴿لَغَافِلُونَ﴾ أي: لا يتعظون بها،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٦-١٧٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ١٤/ ٩.

(٣) انظر: جامع البيان/ ٣٩٣.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٧.

ولا يعتبرون[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات، وهناك من لا يغفل عنها، وينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها، ويتساءل عن جدوى كل شيء، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أذن بميلادها عند البحث عنها؛ لتستبين عظمة الله في خلقه[2].

رابعًا: لا يعلمون:

إن المتدبر في كتاب الله يجد أن الله تعالى وصف الناس في بعض الآيات بعدم العلم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن هذه المواضع ما يلي:

١. لا يعلمون وقت الساعة.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٧].

ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه[3].

٢. لا يعلمون حكمة الله من الأشياء.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: «لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد»[4].

٣. لا يعلمون حقيقة جهلهم بالبعث.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٣٨].

يقول تعالى مخبرا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذبًا لهم ورادًا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٤.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٠٦٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٨.

﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر[1].

٤. لا يعلمون إرسال محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

يقول تعالى ذكره: وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرًا لمن أطاعك، ونذيرًا لمن كذبك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر[2].

٥. لا يعلمون حقيقة التفاضل.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

أي: فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيًا بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك؛ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه.

فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يوسعه لمن يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحانًا لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غدًا شيئًا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون هذا لأنهم لا يتأملون[3].

٦. لا يعلمون حقيقة خلق السماوات والأرض.

يقول تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

يقول تعالى ذكره: لابتداع السموات والأرض، وإنشاؤها من غير شيء، أعظم أيها الناس عندكم إن كنتم مستعظمي خلق الناس وإنشائهم من غير شيء من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٠٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٠٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٥.

خامسًا: لا يشكرون:

إن الله تعالى أسبغ علينا نعمه ظاهرة، وباطنة، وحري بنا معشر الناس أن نقابل النعم بالشكر، ولقد بين القرآن أن أكثر الناس لا يشكرون في مواطن عديدة من كتاب الله تعالى منها:

١. لا يشكرون فضل الله ونعمته بتأخير العذاب.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[النمل: ٧٣].

أي: لذو أفضال وإنعام على كافة الناس، ومن جملة نعمه تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي التي من جملتها استعجال العذاب، ولكن أكثرهم لا يشكرون لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء[١].

وينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله ويحثهم على شكرها، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر واشتغلوا بالنعم عن المنعم[٢].

٢. لا يشكرون الهداية للتوحيد و ملة الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨].

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إذ جعلنا أنبياء ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا الرسل إليهم﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان[٣].

٣. لا يشكرون نعمة تسخير بعض المخلوقات للناس.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[غافر: ٦١].

يقول تعالى ممتنًا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرًا، أي: مضيئًا؛ ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم[٤].

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٩٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ٩/ ١٩١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٥.

اتباع الناس

إن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أن الناس والأقوام في اتباعهم على حالتين:

الأولى: الاتباع المحمود، وذلك باتباع الحق وأهله من الرسل والأنبياء، كذلك اتباع أوامر الله تعالى، فجميع الأنبياء والرسل أرسلوا لقومهم، وأرشدوهم لعبادة الله تعالى.

الثانية: الاتباع المذموم، وذلك باتباع الباطل وأهله من الشيطان وأعداء الإسلام، فنهج أعداء الله تعالى الصد عن دين الله ومحاربته، وسنلقي إن شاء الله الضوء على هذا المحور في هذا المبحث، وذلك على النحو الآتي:

أولًا: اتباع الناس المحمود:

١. اتباع إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٨] يخبر الله تعالى أن أولى الناس بإبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم؛ لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين[١].

٢. اتباع الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣] هذه آية عظيمة فإنه لـما نهى وأمر حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه[٢].

٣. اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل، مرسلًا إلى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم.وأما قوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا به أيها

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦٨.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٧.

الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله؛ لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه[1].

٤. اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[محمد:٣]

وأما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما أنزل الله على رسله عمومًا، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خصوصًا كفرالله عنهم صغار الذنوب، وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم،نجوا من عذاب الدنيا والآخرة، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم[2].

٥. اتباع القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥]

فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة[3].

ثانيًا: اتباع الناس المذموم:

١. اتباع الشيطان.

لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر وقد يكون المراد بذلك إبليس وجنوده... كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار، وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال: كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلًا لهذا الوعيد[4].

٢. اتباع الهوى.

لقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٧٠-١٧٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٦٩.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٣١٤.

الله[1]، وهذا الخطاب ليس لنبي الله داود وحده؛ بل هو لكل من وجد في مكانه فعليه بالعدل لا الجور.

٣. اتباع وطاعة السادات والكبراء.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[الأحزاب: ٦٧].

أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء[2].

٤. اتباع السحرة.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[الشعراء: ٤٠].

ورجوا اتباع السحرة، أي: اتباع ما يؤيده سحر السحرة وهو إبطال دين ما جاء به موسى... كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه[3]، واتباع السحرة ليس معناه نتبعهم في السحر إنما أراد نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا والإبطال على معارضتنا[4]، فإن اتباع السحرة فيه إعلان الحرب على الله ورسله وأوليائه، فاتباعهم فيه الهلاك والخسران.

٥. اتباع الشعراء.

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

[الشعراء: ٢٢٤].

ومعنى ﴿الْغَاوُونَ﴾ جمع غاوٍ، وهو الضال، وهؤلاء يتبعون الشعراء؛ لأنهم يؤيدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خلق، بل هواهم هو الذي يحكم المبدأ والخلق، فإن أحبوا مدحوا، وإن كرهوا ذموا[5].

٦. اتباع الآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

[لقمان: ٢١] وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في توحيد الله جهلًا منهم بعظمة الله: اتبعوا أيها القوم ما أنزل الله على رسوله، وصدقوا به، فإنه يفرق بين المحق منا والمبطل، ويفصل بين الضال والمهتدي، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الأديان، فإنهم كانوا أهل حق[6].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٢٦.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٧٧.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٦٩٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٩.

نداءات الله تعالى للناس

النداء من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم ليوصل للناس ما يريد وذلك باستخدامه حرف النداء يا، وقد استفتح القرآن الكريم بعض سوره بالنداء، وذلك في عشر سور، منها سورتين افتتحت بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وذلك في سورة النساء يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١].

وفي سورة الحج يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾[الحج: ١][(١)].

أولًا: تكرار النداءات:

لقد تكرر النداء في سور متعددة من القرآن الكريم نحو عشرين مرة، منها ما تكرر في السور المكية، ومنها ما تكرر في السور المدنية، وقد جاءت على النحو الآتي:

تكرار النداء في السور المكية:

تكرر النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في السور المكية عشر مرات في خمس سور مكية و هي:

- الأعراف مرة واحدة.
- سورة يونس تكرر النداء بـــ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيها أربع مرات.
- سورة النمل مرة واحدة.
- سورة لقمان مرة واحدة.
- سورة فاطر ثلاث مرات.

تكرار النداء في السور المدنية:

تكرر النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في السور المدنية عشر مرات في أربع سور مدنية وهي:

- سورة البقرة تكرر النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مرتين.
- سورة النساء تكرر النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ثلاث مرات.
- سورة الحج أربع مرات.
- سورة الحجرات مرة واحدة.

حكم النداءات:

إن تعدد النداء للناس، أو كثرة النداء للناس في القرآن الكريم، لم يرد إلا لحكم عظيمة، لما للنداء من أهمية في الأسلوب القرآني و صيغة النداء للناس الواردة في القرآن هي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ويا حرف نداء والمنادى أي وهو اسم مفرد مبني على الضم، وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته[(٢)].

وحرفا النداء والتنبيه جاءا ليلفتا الانتباه لما سيأتي بعدهما من أوامر ونواهٍ، ومن

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ١٧٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٤.

خلالها تظهر بعض الحكم، وبعد الغوص في معاني وسياقات القرآن الجليلة نقف على بعض الحكم التي تم التوصل إليها خلال هذا البحث ومنها:

حكم النداءات في السور المكية:

١. الأمر بالإيمان.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨] يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به[1].

جاء النداء ليشمل جميع الناس كما بينت الآيات السابقة؛ ليدعوهم ويأمرهم بالإيمان بالله تعالى، وهذا يتفق مع خصائص السور المكية التي تدعو إلى غرس الإيمان والتوحيد والعقيدة.

٢. التذكير بالتقوى و اليوم الآخر.

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[لقمان: ٣٣].

يقول تعالى ذكره: أيها المشركون من قريش، اتقوا الله، وخافوا أن يحل بكم سخطه... لأن الأمر يصير هنالك بيد من لا يغالب، ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يقول: اعلموا أن مجيء هذا اليوم حق، وذلك أن الله قد وعد عباده ولا خلف لوعده[2].

٣. ترسيخ مفهوم التوحيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٨٩-٤٩١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠ / ١٥٩.

﴿هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تؤفكون (تصرفون) بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟![1].

والمتأمل في هذه الآية يجد أنها اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الألوهية المتمثل في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وتوحيد الربوبية المتمثل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقضية الخلق والرزق من قضايا توحيد الربوبية، أما توحيد الأسماء والصفات فمتمثل في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾.

٤. **إظهار الإعجاز والمعجزة.**

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦]، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض، في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها[2]، وإن علم منطق الطير من المعجزات التي أكرم الله نبيه سليمان بها.

٥. **بيان حاجة الناس لخالقهم.**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥].

ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا فهم الفقراء إليه على الإطلاق ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ على الإطلاق ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم[3].

٦. **بيان الجزاء و العاقبة.**

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٢٣].

أي: غاية ما تؤملون ببغيكم، وشرودكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا، ويمضي جميعًا، ثم تنتقلون عنه بالرغم. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في يوم القيامة[4].

ولما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق ذكر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٢٦.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦١.

عاقبة البغي وسوء مغبته[1].

حكم تكرار النداءات في السور المدنية:

١. بيان أصل الخلقة والنشأة والغاية منها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء[2].

ويخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم[3].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٤٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٠٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٢.

٢. الأمر بالعبادة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا أمر عام لكل الناس بأمر عام وهو العبادة الجامعة؛ لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له[4].

٣. الأمر بأكل الطيبات و النهي عن اتباع الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا، أي: مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم في جاهليتهم[5].

٤. التذكير بالتقوى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ

(٤) انظر: المصدر السابق ص٤٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٨.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: ١]، أمر جل وعلا في أول هذه السورة الكريمة الناس بتقواه: بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم[١].

٥. التذكير بالبعث.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥].

يا أيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أي: خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني: آدم عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ثم خلقنا ذريته[٢]، ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام، وبعد خروجكم إلى الدنيا، وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم، وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود والموت إلى حين نزول الماء فنحيي ونخرج أنواع النبات وضروب الثمرات كل ذلك يسقى بماء واحد ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى، وكما أحياكم أولًا وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيا الأرض بعد موتها وهمودها، كذلك تأتي الساعة من غير ريب ولا شك، ويبعثكم لما وعدكم من حسابكم وجزائكم[٣].

٦. ضرب الأمثال في عجز الأصنام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

قال ابن كثير: (يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك)[٤].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢٣/ ٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٦.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٥/ ١٣٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٠، ٤٥٣.

الناس والجن

إن الناس والجن من مخلوقات الله تعالى الذين ورد ذكرهم في كتابه الكريم.

وقد بين سبحانه العلاقة بين الناس والجن من أول لحظة وجد فيها أبو الناس جميعًا، وهو آدم عليه السلام، والناس والجن المخلوقان الوحيدان المكلفان في الأرض، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وسنلقي من خلال هذا المبحث الضوء على الناس والجن في عدة محاور ومنها:

أولًا: مادة الخلق:

إن طبيعة خلق الناس تختلف عن طبيعة خلق الجن، فالناس خلقوا من الطين والجن خلقوا من النار.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢].

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم من طريق عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[1].

ثانيًا: العداء بين الناس والجن:

إن علاقة الناس بالجن منذ لحظتها الأولى قائمة على العداء حتى قيام الساعة، وذلك لقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأعراف: ٢٤].

والمراد بالخطاب في ﴿اهْبِطُوا﴾ آدم، وحواء، وإبليس، والعمدة في العداوة آدم وإبليس[2].

ثالثًا: تكبر الجن على الناس:

قال تعالى ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

في الآيتين السابقتين يبين الله تعالى أن تكبر إبليس واستعلاءه منعه من السجود وإطاعة أمر الله تبارك وتعالى، والذي منع إبليس من الاستجابة لأمر الله تعالى،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم ٢٩٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٩.

والسجود هو ظنه الخاطئ بأنه خير من آدم وذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢].

رابعًا: تكريم وتشريف الناس على الجن:

الناس أشرف وأكرم من الجن، وذلك بتشريف الله لأبي البشر آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف: ٥٠].

يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ إكراما وتعظيمًا؛ وامتثالًا لأمر الله[١]، فإن تشريف وتكريم الآباء تشريف وتكريم للأبناء.

خامسًا: زمن الخلق:

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يتبين له أن زمن خلق الجن متقدم على خلق الناس، وهذا يفهم من سياق الآيات المتعددة في كتاب الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

فأول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضًا[٢].

سادسًا: الاشتراك في العبادة والتكليف:

بينت الآيات أن الجن والناس المخلوقات المكلفة بالعبادات في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. فإن قلت: لو كان مريدًا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا. قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه[٣].

سابعًا: التقديم والتأخير:

إن المتدبر في كتاب الله تعالى يجد أن هناك آيات قدم فيها الجن على الإنس أو الناس، وبعض آيات تقدم فيها الإنس على الجن مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٠/ ٤٥٥.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٠٨.

﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

في الآية الأولى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قدم الجن للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن؛ ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى[١].

أما تقديم الإنسان على الجان فهو لبيان التشريف، وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته، أنه خلق أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار[٢].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان.

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد[٣].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٤٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٩.

ثامنًا: العلاقة بين الناس والجن:

١. استعاذة الناس واستجارتهم من الجن برب الناس.

قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد أستجير ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٢]، وهو ملك جميع الخلق: إنسهم وجنهم.

وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ يعني: من شر الشيطان ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس مرة ويوسوس أخرى، وإنما يخنس فيما ذكر عند ذكر العبد ربه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني بذلك: الشيطان الوسواس، الذي يوسوس في صدور الناس: جنهم وإنسهم[٤]، هذا قمة الإيمان أن يستعيذ الناس بخالقهم من شر الشيطان والجن.

٢. استعاذة واستجارة الناس بالجن.

لا ينبغي أن يكون هناك تواصل، وتعامل بين الناس والجن، وذلك لاختلاف الخلقة والطبائع، ولقد ذم الله تعالى رجالًا من الناس كانت تستعيذ بالجن فزادتهم رهقًا.

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٧٠٩-٧١١.

أي: كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها - كما كان عادة العرب في جاهليتها - يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم، كما قال قتادة: أي: إثما، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة[1].

وهذا درب من دروب الشرك بالله تعالى أعاذنا الله جميعًا من الوقوع به.

٣. **الاشتراك في العذاب في حال الكفر.**

يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود: ١١٩] أخبر أنه يملأ ناره و جنته كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟! وقالت النار: يعني: أوثرت بالمتكبرين فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء ولكل واحدةٍ منكما ملؤها. قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدًا، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول: هل من مزيدٍ؟ ثلاثًا حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعضٍ وتقول: قط قط قط)**[2].

نستوضح من الآيات السابقة: .

- اختلاف أصل الخلقة يؤدي إلى اختلاف الطبائع والصفات عند الناس والجن.
- المتدبر للآيات القرآنية يتبين له أن هناك عداوة أزلية بين أبي البشر آدم، وبين أبي الجن إبليس.
- اشتراك الناس والجن في العبادة والتكاليف، ميزتهما عن سائر المخلوقات، فمن أدى وأطاع له الجنة، ومن عصى وامتنع فله النار.
- الجن مخلوق قبل الإنس، وسكن الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فاستحقوا عقاب الله تعالى، وكذلك سنة الله في الناس إذا فسدت استحقت العقاب والعذاب.
- الناس أكرم وأشرف خلقًا من الجن.
- الاستعاذة بالله وحده من الجن، ولا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب باب ما جاء في قول الله تعالى: (إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين)، ٩/ ١٣٤، رقم ٧٤٤٩.

يجوز للناس الاستعانة بالجن.

- دخول الناس والجن للجنة والنار رغم أن الجن خلقوا من النار

موضوعات ذات صلة:

آدم، الإنسان، الجن، الخلق، السياسة





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والثلاثون

مفهوم النبات

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «النون والباء والتاء أصلٌ واحدٌ يدل على نماء في مزروع، ثم يستعار، فالنبت معروف، يقال: نبت، وأنبتت الأرض، ونبت الشجر: غرسته، ويقال: إن في بني فلان لنابتة شر، ونبتت لبني فلان نابتة، إذا نشأ لهم نشء صغار من الولد» (١).

وقال ابن منظور: «النبت والنبات كل ما أنبت الله في الأرض فهو نبتٌ، والنبات فعله، ويجري مجرى اسمه، يقال: أنبت الله النبات إنباتًا، ونحو ذلك قال الفراء: إن النبات اسم يقوم مقام المصدر» (٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للنبات عن معناه اللغوي؛ إذ النبات في الاصطلاح يطلق على ما يخرج من الأرض على صفة النمو، وهو ذات المعنى اللغوي الذي سبق ذكره.

يقول الراغب الاصفهاني: «والنبات: ما يخرج من الأرض من الناميات؛ سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له ساق كالنجم، لكن اختص في التعارف بما لا ساق له؛ بل قد اختص عند العامة بما يأكله الحيوان، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ [النبأ: ١٥]» (٣).

وقيل: «الحي النامي لا يملك فراق منشئه ويعيش بجذور ممتدة في الأرض أو في الماء وما أخرجته الأرض من شجر ونحوه، وأنبتت الأرض، أي: أخرجت النبات، والبقل نشأ وربا، ويقال: أنبت الله البقل، أخرجه من الأرض فهو منبوت» (٤).

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن النبات هو: كل نامٍ وكل ما نبت من الأرض، كما يتبين لنا أنه لا فرق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للنبات.

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٧٨.
(٢) لسان العرب ٦/ ٤٣١٧.
(٣) المفردات في غريب القران ص٧٨٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٩٢.

النبات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نبت) في القرآن الكريم (٢٦) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل ماضي	١٢	﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]
فعل مضارع	٥	﴿وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون:٢٠]
اسم مصدر	٩	﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه:٥٣]

وجاء النبات في القرآن على أربعة أوجه[(٢)]:

أحدها: النبات بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾[يونس: ٢٤].

الثاني: الإخراج: ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾[البقرة: ٢٦١]. أي: أخرجت.

الثالث: الخلق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا﴾[نوح: ١٧]. أي: خلقكم خلقًا.

الرابع: التربية: ومنه قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[آل عمران: ٣٧]. قال قتادة: لا تصيب الذنوب.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٢.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٥٨١-٥٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزرع:

الزرع لغةً:

من الفعل زرع، بمعنى: طرح البذر في الأرض، يقال: يزرعه زرعًا وزراعةً: بذره، والاسم الزرع، وجمعه زروع، والزرع: الإنبات، يقال: زرعه الله أي: أنبته[(١)].

الزرع اصطلاحًا:

نفس المعنى اللغوي؛ إذ الزرع في الاصطلاح يعني: الإنبات، قال الراغب: «الزرع الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهية دون البشرية، قال: عز وجل ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلا للأسباب التي هي سبب الزرع، كما تقول أنبت كذا إذا كنت من أسباب نباته، والزرع في الأصل مصدر، وعبر به عن المزروع، ويقال: زرع الله ولدك، تشبيهًا، كما تقول: أنبته الله»[(٢)].

الصلة بين الزرع والنبات:

من خلال التأمل في المعاني السابقة يظهر أن النبات عام يشمل ما له ساق وما ليس له ساق، ويشمل ما يأكله الإنسان، وما يأكله الحيوان، أما الزرع فهو خلاف الأشجار، وهو أيضا موسمي فله مواسم يزرع فيها، وأخرى يحصد فيها.

٢ الحرث:

الحرث لغةً:

مصدر حرث، بمعنى: عمل في الأرض، وشقها، وأثارها، وأعدها للزراعة[(٣)]، قال ابن منظور: «العمل في الأرض زرعًا كان أو غرسًا، وقد يكون الحرث نفس الزرع»[(٤)].

الحرث اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ هو: «إلقاء البذر في الأرض، وتهيؤها للزرع، ويسمى

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨٢٦.
(٢) المفردات ص٢١٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٦٤.
(٤) لسان العرب ٢/ ٨١٩.

المحروث حرثًا»[1].

الصلة بين الحرث والنبات:

من خلال ما سبق يتبين أن الحرث هو ما يقوم به الزارع في الأرض من عملٍ لإنبات النبات والحبوب والأشجار، ويطلق على ما يخرج من تلك الأرض التي حرثت، فالحرث عمل المزارع، أما الإنبات فهو بأمر الله عز وجل، فقد يحرث المزارع أرضه ولا تنب، والحرث بذلك أخص من النبات، ولفظ النبات أعم منه، إذ النبات يشمل الحرث، ويشمل غيره مم ينبته الله عز وجل.

٣ الشجر:

الشجر لغة:

جمع شجرة، وهي في اللغة ما كان على ساق من نبات الأرض، قال ابن فارس: «الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضهما من بعض، ولا يخلو معناهما من تداخل الشيء بعضه في بعض، ومن علوٍ في شيءٍ وارتفاع؛ فالشجر معروفٌ، الواحدة شجرة، وهي لا تخلو من ارتفاعٍ وتداخل أغصان، ووادٍ شجر: كثير الشجر، ويقال: هذه الأرض أشجر من غيرها، أي: أكثر شَجرًا. والشجر: كل نبتٍ له ساقٌ»[2].

الشجر اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ «الشجر من النبات ما له ساق»[3].

وذكر الرازي رحمه الله أن: «الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرقٌ راسخٌ، وأصلٌ قائمٌ، وأغصانٌ عاليةٌ»[4].

الصلة بين الشجر والنبات:

يظهر من التعريفات السابقة لكلٍ من الشجر والنبات أن الشجر ما هو إلا نوعٌ من أنواع النبات، يتميز بأن له ساقا؛ وبذلك فالنبات أعم من الشجر، فهو يشمله ويشمل غيره من النباتات التي لا سيقان لها.

---

(١) المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني ص١١٢.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٢٤٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٦.
(٤) مفاتيح الغيب ١/ ٩٣.

النبات ومظاهر القدرة الإلهية

إن لله عز وجل في خلقه آياتٍ بيناتٍ تدل على وجوده، وتشهد بربوبيته، وتنطق بوحدانيته، وتقر بصمديته؛ فمن تأمل في الكون من حوله، وأدار بصره في خلق ربه عز وجل، وأطلق فكره في كل ما رأت عيناه من صنع الله تعالى علم علم اليقين أن لهذا الكون موجدًا، وأن لهذا الخلق صانعًا حكيمًا؛ فهذه السموات المرفوعة، وهذه الأرض الممدودة، وتلك الجبال الرواسي، وتلك الأنهار الجواري، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، ونزول الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، واختلاف الأشجار والزروع والثمار، ونبات كل شيء، وفي كل ما خلق الله عز وجل دلالات بينة، وبراهين واضحة على أنه سبحانه الخالق الحكيم، والمدبر الخبير؛ ففي كل شيء له آية تدل على أنه الخالق الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وكثيرًا ما يلفت الخالق الحكيم سبحانه أنظار عباده للتفكر في خلقه، ويدعوهم للتأمل في بديع صنعه، وكتاب الله عز وجل زاخر بالآيات التي تدعو العباد لذلك.

فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥].

وكم من آيةٍ في كتاب الله عز وجل ذكر فيها الخالق سبحانه عباده بما يستوجب عليهم شكره وعبادته، وحثهم على التفكر في أنفسهم، والتأمل في الكون من حولهم، وأمرهم بما يجب عليهم لربهم العظيم من العبادة والطاعة؛ فهو سبحانه الذي خلقهم، وخلق من قبلهم، وخلق الكون وجعل فيه الآيات والعبر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ويجد المتأمل في كتاب الله عز وجل أن الله سبحانه قد أنكر على الكافرين تغافلهم عن آيات الله عز وجل فيما حولهم من الكون، وأنكر عليهم عدم انتفاعهم بما

فيها من دلائل وبراهين، قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وإن من عظيم آيات الله عز وجل في خلقه ذلك النبات العظيم الأصناف، الجميل البهيج؛ يخرجه الله عز وجل من الأرض الميتة بعد إنزال الماء عليها؛ فتصبح الأرض به مخضرة، ذات حسن وجمال، هذا النبات الذي جعل الله عز وجل فيه طعامًا للإنسان والحيوان، فيه الغذاء والدواء، وفيه منافع شتى للعباد، لا ينظر إليه عاقلٌ إلا ويجذب نظره، ويشد وعيه، ويأسر عقله، ويملأ حسه وشعوره، فينطق القلب قبل اللسان: سبحان من أخرجه فسواه، وسبحان من أنبته ونماه، وسبحان من جعله ألوانًا لا تعد، وأصنافًا لا تحصى، وسبحان من جعل فيه آيات لمن اعتبر، وذكرى لمن كان له بصر.

وفي المطالب الآتية -بإذن الله تعالى- بعض الوقفات مع النبات، وما فيه من دلالات القدرة، وبراهين العظمة، وعظيم الصنعة، التي تدل على عظيم الخالق المبدع المصور.

أولًا: الماء والإنبات:

إن من عظيم آيات الله عز وجل فيما خلق من النبات أنه سبحانه ينبت ذلك النبات من أرضٍ هامدةٍ ميتةٍ، لا حياة فيها، ينزل عليها الماء من السماء؛ فتهتز وتربوا، ويخرج سبحانه منها أصناف النبات وأنواع الأشجار، قال الله عز وجل منبهًا العباد لتلك الآية من آياته: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥-٦].

فليتأمل العباد، وليتفكر العقلاء في تلك الآية العظيمة من آيات الله عز وجل؛ الأرض اليابسة القاحلة التي لا نبات فيها نزل عليها الماء بأمر الله سبحانه فتحركت واهتزت، وانتفخت وارتفعت، وأنبتت من أصناف الزروع والثمار، مختلفة الأشكال والألوان، متعددة الطعوم والروائح، حسنة المنظر، طيبة الريح، عظيمة النفع للعباد[1].

ونظير هذه الآية من كتاب الله عز وجل قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فإنبات النبات آية من آيات الله العديدة، الدالة على وجوده وقدرته، الشاهدة على علمه وحكمته، والموجبة للإيمان به وتوحيده وعبادته، تنطق بأن خالقها عليمٌ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ١٧.

حكيمٌ، وأنه لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير»[1].

إنها لآيات عظيمة باهرة، لا يقدر عليها إلا الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إنه سبحانه ينزل الماء من السماء، فيخرج به من الأرض الميتة أصناف الزروع والثمار، معاشًا للخلق، ينبت سبحانه الزرع فيخرج الحب بعضه راكبًا فوق بعض، ويخرج سبحانه النخل ذات العذوق والثمار الدانية المتدلية، ويخرج سبحانه جنات الأعناب والزيتون والرمان، كلها متشابهة في الأوراق وفي منظر الثمر، وغير متشابهة في الطعم والرائحة، فانظروا أيها العباد في ذلك الثمر حين يثمر، وانظروا وتفكروا فيه حين يطيب وينضج، لتعلموا أن له خالقًا قديرًا، وصانعًا حكيمًا[2].

قال الرازي رحمه الله: «واعلم أنه تعالى لما ذكر الأرض والسماء، بين ما بينهما من شبه عقد النكاح؛ بإنزال الماء من السماء على الأرض، والإخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان، ومن أنواع الثمار، رزقًا لبني آدم؛ ليتفكروا في أنفسهم، وفي أحوال ما فوقهم وما تحتهم، ويعرفوا أن شيئًا من هذه الأشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا من كان مخالفًا لها في الذات والصفات، وذلك هو الصانع الحكيم تعالى»[3].

إن الله تعالى وحده من خلق السماوات والأرض، وهو سبحانه وحده من ينزل الغيث للعباد، وينبت النبات والشجر، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

وإن هذه لحقيقة لا يمكن للعباد إنكارها، وإنها لآيات لا يمكن لعاقل أن يغفل عنها، يراها العباد مرارًا وتكرارًا، لا تغيب عن أعينهم، ولا تبعد عن نواظرهم، يقر بها الكبير والصغير، والعالم والجاهل، ولا يجرؤ أحد على نسبة تلك الآيات لنفسه، فالجميع يقر بأنه لا ينزل الغيث إلا الله، ولا يحيي الأرض سواه، ولو أنه سبحانه أمسك المطر عن العباد فمن ينزله؟ ولو أنه سبحانه لم يحي الأرض فمن غيره يحييها؟ ولو أن سبحانه لم ينبت النبات فمن ينبته؟ قال

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٨٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٠٣.

(٣) مفاتيح الغيب ٣/ ٣١٩.

الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠].

وفي ذات السياق يقول الله عز وجل لافتًا أنظار العباد إلى عظيم صنعه وبديع خلقه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

فالماء ينزله الله من السماء، فإذا به ينابيع وعيون وأنهار تسير هنا وهناك، وتسيل في مسالكها متنقلة من مكان إلى مكان، ثم إذا بهذا الماء تحيى به الأرض بعد همودها، وإذا بها تهتز بالنبات الناضر البهيج المختلف الألوان والأصناف والأشكال، ثم إذا بهذا الزرع يبلغ غايته المقدرة له، فينضج للحصاد، ثم يتم جفافه فيصفر، فيغدو بعد ذلك حطامًا كأنه لم يكن زينة بالأمس؛ ولا بد أن لذلك كله صانع حكيم، ومدبر عليم[(١)].

إن النبات تبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة؛ توضع في الأرض، وتسقى بالماء؛ فتنفلق وتنبت، فمن الذي يفلقها ويشقها؟ ومن الذي يخرجها وينبتها؟ ومن الذي يرعاها ويحفظها؟

يجيب القرآن الكريم عن ذلك بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

إنه الله اللطيف الخبير، يشق الحبة اليابسة، ويخرج منها النبتة الرطبة الخضراء اليانعة، ويخرج من النبتة الخضراء اليانعة الحبة اليابسة، والنواة الميتة، وهذا من عجيب صنعه، وبديع خلقه تعالى[(٢)].

إن العبد إذا أطلق نظره، وأرسل فكره في ذلك النبات العجيب ازداد إيمانه، وعظمت معرفته بربه، وشعر عظم فضل الله عز وجل على خلقه؛ إذ الخالق الحكيم الرحيم لم ينبت للخلائق صنفًا واحدًا من النبات، ولم يجعل الخارج من الأرض منه على صورة واحدة، ولا على لون أو طعم واحد؛ بل جعل سبحانه النبات أصنافًا، وجعل البساتين والجنات، وأنواع الزروع والأشجار والثمار.

قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٥/ ٢٩٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٤٤.

﴿مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

والمراد بالجنات المعروشات في الآية: ما انبسط من النبات على وجه الأرض وانتشر مما يعرش؛ كالعنب والقرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق كالنخل والزرع وسائر الأشجار، وقيل: إن المعروشات ما أنبته الناس، وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمار[(١)].

قال القرطبي: «وفي هذه إشارة إلى الآية السابقة الذكر أدلة ثلاثة؛ أحدها: قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغير، والثاني: التنبيه على المنة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذ خلقه ألا يكون جميل المنظر، طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه سبحانه لا يجب عليه شيء، والثالث: التنبيه على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجني الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها؟ وأين الفلاسفة وأناسها؟ هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان؟ أو ترتب هذا الترتيب العجيب؟! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحي عالم قدير مريد، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية»[(٢)].

فما أعظم الخالق الحكيم، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، فمن يخلق كخلقه؟! ومن يقدر على فعله؟! ومن له ملك كملكه؟! ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

ثانيًا: سقي النبات والزرع بماء واحد:

إنه من عجيب قدرة الله عز وجل في النبات والأشجار وما يخرج منها من الثمار أن الله تعالى يخرج من الأرض الواحدة، والتربة الواحدة، والتي تسقى بماء واحد، يخرج منها سبحانه أصناف الزروع والثمار، وألوان الفاكهة والطعام، فلينظر الإنسان وليتأمل فيما يخرج من قطع الأرض المتجاورة، ليرى زروعًا مختلفة، وزهورًا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٩٩.

يانعةً، وفاكهةً كثيرةً متنوعةً، وثمارًا عديدة، ولكل صنف منها طعمٌ مختلفٌ، ولونٌ متباينٌ، وحجمٌ متفاوتٌ، ولكل صنف منها خصائصه ومنافعه وفوائده، فسبحان من أبدعها، وسبحان من يرعاها، وسبحان من نوعها.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤][١].

إن هذه الآية الكريمة تلفت أنظار العباد إلى الأرض التي يعيشون عليها؛ فإن فيها ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة، لا تنبت شيئًا، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض؛ فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، وتقارب بعضها بعضًا، وهذا كله مما يدل على الفاعل الحكيم، لا إله إلا هو سبحانه.

ومع هذا الاختلاف في قطع الأرض هناك اختلاف عجيب آخر أشارت إليه الآية: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾.

فهذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها؛ فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الأزهار، والأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، وبعضها أكثر حملًا من بعض، وبعضه حلو، وبعضه حامض، وبعضه أفضل من بعض، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعيًا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل الحكيم الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد[٢].

قال القرطبي: «وفي هذا أدل دليل على وحدانيته، وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته؛ فإنه سبحانه نبه بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب، والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف»[٣].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٤٨.

إن في ذلك كله آيات وعبر ودلائل لمن نظر وتدبر باستبصار واعتبار، ولا ينتفع بكل تلك الآيات إلا العقلاء، ومن لم ينتفع بها فهو منزل منزلة من لا يعقل، وهذا ما يستفاد من وصف الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون في قوله سبحانه في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

ثالثًا: النبات من مظاهر النعيم:

إن من عجيب آيات الله عز وجل في خلق النبات أنه تعالى جعل في ذلك النبات ما لا يعد ولا يحصى من الفوائد والمنافع؛ فما أكثر منافعه، وما أعظم فوائده؛ فقد جعل الله عز وجل فيه حياة للإنسان والحيوان، وبه تستقيم الحياة على وجه الأرض، وفيه الغذاء لجميع الحيوانات والأنعام والإنسان.

والنبات ضروري جدًا للتوازن الحراري على الأرض؛ إذ النبات يحفظ للأرض حرارتها المعتدلة، ويمنع الزيادة الضارة لحرارة الأرض، كما أنه يقوم بتنقية الجو من غاز ثاني أكسيد الكربون، وإخراج الأكسجين، من خلال ما يعرف بعملية البناء الضوئي.

ويستفيد الإنسان من أخشاب النبات وأوراقه في بناء البيوت والمساكن، وصنع الأثاث والآلات والمعدات، كما أن النبات مصدر رئيسي من مصادر الطاقة للإنسان.

وللنبات فوائد نفسية للإنسان؛ فمنظره البهيج، وصورته الجميلة تبعث في النفس الطمأنينة والسرور، وأزهاره وثماره بأشكالها وألوانه الجذابة، وروائحها العطرة الفواحة تشرح الصدر، وتريح النفس، وتملأ القلب راحةً وسعادةً، وكل هذا معروف ومجرب لا يحتاج إلى دليل أو برهان.

وكثيرًا ما يذكر الله عز وجل عباده بما جعل لهم من منافع ونعم لا تحصى فيما خلقه سبحانه من نبات وزرع وجنات؛ فهو سبحانه الذي ساق الماء، وأنزله على الأرض الميتة، وأخرج به سبحانه طعامًا ورزقًا يأكل منه العباد، وتتغذى عليه الخلائق.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

والأرض الجرز هي: الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، وأصل الجرز من قولهم: ناقة جرز، وذلك إذا كانت تأكل كل شيء، وكذلك الأرض الجروز، أي: التي لا يبقى على ظهرها شيء إلا أفسدته[2].

تلك الأرض الجرز الميتة أصبحت حية خضراء منبتةً، فيها أنواع الزروع، وأصناف الثمر، ليأكل العباد ويرعوا أنعامهم، وليشكروا ربهم الذي أسبغ عليهم نعمه

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٩٦.

وعطاياه.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

قال السعدي: «وخص الله عز وجل أولي النهى بذلك، لأنهم المتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبارٍ، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم؛ يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة»[١].

إن ذلك لمن عظيم آيات الله عز وجل وبديع صنعه، وإن ذلك لمن عظيم نعمه سبحانه على خلقه، تستوجب على العباد الشكر للمنعم، وإخلاص الطاعة للمتفضل، قال الله عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

إن الإنسان يعتمد في غذائه اعتمادًا كليًا على النبات؛ سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر؛ فالإنسان يعيش على النبات وما يخرجه من ثمار، أو على لحوم الأنعام والطيور التي تتغذى على النبات؛ فالنبات أساس الغذاء للإنسان والحيوان[٢].

وقد ذكر الله سبحانه العباد بأنه هو من يخرج الزرع من الأرض الميتة، فتكون المراعي الخضراء والكلأ تتغذى الدواب والبهائم، وتأكل الوحوش والضواري، ويرعى العباد أنعامهم، ويتنعمون بما لذ وطاب من أصناف الفاكهة والثمار، قال عز وجل ممتنًا على عباده: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

إنه الله الكريم الرحمن الذي أخرج الحب والزرع والجنات، ورزق العباد من ثمار النخل والأعناب، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

لقد دعا الله عز وجل عباده للتفكر فيما أخرج لهم من الزروع والثمار، وفيما رزقهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٠٧.

(٢) انظر: النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، جواهر محمد باسلوم ص١٥٤.

ربهم من أصناف الطعام وألوان الغذاء؛ ليعلموا عظمة الخالق المنعم الرزاق ذي القوة المتين، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وعلى العباد أن يعلموا أن من أنعم عليهم بكل تلك النعم، وتفضل عليهم بأنواع الفضائل والنعم، قادر سبحانه على منعها عنهم، وحرمانهم منها؛ فلو شاء سبحانه ما أنزل على العباد الغيث، ولو شاء سبحانه لأذهب الماء غورًا في الأرض، ولو شاء سبحانه لما أنبت نباتًا ولا أخرج حبًا، ولا خلق ثمرًا، ومن غيره سبحانه ينزل المطر إن منعه عن العباد؟! ومن غيره يرزق العباد إن حبس عنهم الرزق؟!

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨-٢٠].

إنه يجب على العباد أن يقابلوا نعمة الله عز وجل عليهم بإنبات النبات والشجر والثمر بالشكر الجميل، وبالثناء الحسن لمن أنعم عليهم وتفضل؛ فما أعظم نعم الخالق على خلقه، وما أشد تقصير العباد في شكر ربهم عز وجل على آلائه ونعمه، يقول ابن القيم: «فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء، ويكرر ذكرها؛ لعله يوقفه على المراد منها؛ ما هو؟ ولأي شيءٍ خلق؟ ولماذا هيئ، وأي أمر طلب منه على هذه النعم؟ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة؛ لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله، وحمدًا وشكرًا وطاعةً، وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه»[(١)].

رابعًا: النبات والسجود:

النبات خلق من خلق الله عز وجل، وكل الخلائق تسجد لخالقها وتسبح بحمده، ولا يستنكف مخلوق من مخلوقات الله عز وجل عن الانقياد لأمره، والخضوع لسلطانه؛ فالكل يخر لعظمة الجبار سبحانه، والكل طوع أمره، وما ينبغي لمخلوق أن يعصي ربه.

ولقد أخبر الله عز وجل عن سجود المخلوقات جميعًا له سبحانه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٨.

﴿الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل مخلوق؛ ولهذا يسجد له سبحانه ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة، الكل يسجد لربه سجود الذل والقهر والخضوع؛ فكل أحد من مخلوقاته سبحانه خاضعٌ لربوبيته، ذليلٌ لعزته، مقهورٌ تحت سلطانه عز وجل.

ولكل مخلوقٍ سجودٌ جعله الله عز وجل خاصًا به، كما أنه سبحانه جعل لكل مخلوقٍ من مخلوقاته تسبيحًا خاصًا، وصلاةً خاصةً.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

فقد علم كل مصلٍ وكل مسبحٍ من مخلوقات الله عز وجل ما كلفه الله سبحانه به من صلاةٍ وتسبيحٍ[١]، والناس لا يعلمون حقيقة سجود الخلائق وتسبيحها لله عز وجل، ولا يفقهون كيفيته.

قال الله عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل أن من الخلائق من تسجد لربها طوعًا، ومنها من يسجد له سبحانه كرها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وفي معنى سجود الساجدين لله عز وجل كرهًا أقوالًا ذكرها المفسرون؛ أشهرها: أنه سجود ظل الكافر، أو أنه سجود الكاره بتذلله لله عز وجل، وانقياده لما يريده سبحانه منه؛ من عافيةٍ ومرضٍ، وغنى وفقر، وغير ذلك من أقدار الله عز وجل[٢].

ولعل الراجح -والله أعلم- أن من يسجد لله كرهًا هو الكافر فقط؛ إذ جميع الخلائق تسجد لربها وتطيعه طوعًا لا كرهًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والمخلوق الوحيد الذي يتصور أنه

---

(١) والآية تحتمل وجهًا آخر، وهو: أن الله عز وجل قد علم صلاة كل مصلٍ، وعلم تسبيح كل مسبح، وهو سبحانه عليم بما يفعلون.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨٧.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣١٨، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٠٦.

يسجد كرهًا هو الكافر من الإنس والجن، وكيفية سجوده كرهًا إما بسجود ظله -كما ذكر بعض المفسرين-، وإما أن يكون بتذلله لله عز وجل، وانقياده لما يريده سبحانه منه؛ من عافيةٍ ومرضٍ، وغنى وفقر، وغير ذلك من أقدار الله عز وجل.

وإذا كانت الخلائق كلها تسجد لله عز وجل فإن النبات من جملة ما خلق الله سبحانه، وهي تسجد ككل المخلوقات لله سبحانه، تسجد سجودًا جعله الله عز وجل لها، لا نعلمه، ولا نفقهه، وقد صرح الله عز وجل بسجود الشجر مع سجود غيرها من المخلوقات؛ كالشمس والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها من مخلوقات، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

والمقصود بالرؤية في الآية: العلم، أي: ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض؛ إذ إنما عرف ذلك وعلم بخبر الله عز وجل لا أنه يرى بالعين الباصرة[1].

وقد ورد أيضًا الإخبار الصريح عن سجود النبات لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

فقد رجح أكثر المفسرين أن المقصود بالنجم هنا: ما نجم (أي: خرج) من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق مثل: البقل ونحوه، فهو كل نبات لا ساق له، وأما الشجر فهو النبات الذي له ساق[2].

ولا شك أن سجود النبات ليس كسجود الإنسان بوضع الرأس على التراب؛ بل هو سجود يتضمن معنى التسليم و الخضوع لله المتعال، ويتضمن سجودًا حقيقيًا لله عز وجل لا نعرفه نحن البشر، ولا نفقهه؛ ولكننا نؤمن به، ونصدق خبر ربنا تعالى عنه.

وقد ظن بعض الناس أن تسبيح الخلائق لله عز وجل، وسجودها له سبحانه هو دلالتها على خالقها، وذلك بما فيها من آيات وعبر، وهذا كلام مردود غير مقبول؛ فسجود المخلوقات لربها سجود حقيقي، طاعة لبارئها تعالى؛ ولكن نحن البشر لا نعلم كيفيته، ولا نفقه حقيقته.

وقد رد ابن القيم على من قال مثل هذا الكلام بقوله: «ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا.. وفي

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢١٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١١، زاد المسير، الجوزي ٨/ ١٠٧.

أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاةً وتأويبًا وهبوطًا من خشيته؟ كما ذكر تعالى ذلك في كتابه؛ فتارةً يخبر عنها بالتسبيح، وتارةً بالسجود، وتارةً بالصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية: قد علم الله دلالته عليه؟ وسمى تلك الدلالة صلاةً وتسبيحًا؟ وفرق بينهما، وعطف إحداهما على الآخر، وتارةً يخبر عنها بالتأويب، وتارةً يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت؛ كالعشي والإشراق؛ أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟ وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه، والحمد لله»[1].

والخلاصة أن الله عز وجل قد أخبر بأن النباتات والأشجار تسجد لربها عز وجل كغيرها من المخلوقات، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليهم، ولا نفقه كيفية ذلك السجود ولا هيأته، ولا شك بأن سجود النبات له عز وجل آية من آيات الله التي لا تحصى ولا تنتهي، ولا شك بأن علمنا بسجود النبات لله عز وجل يزيد من حبنا للنبات، ويضفي عليها جمالًا فوق جمالها، وبهجة فوق بهجتها؛ فسبحان من خلق النبات، وسبحان من يسجد له النبات وكل المخلوقات.

خامسًا: الدورة النباتية والبعث بعد الموت:

إن من تأمل في آيات القرآن الكريم التي ذكر فيها النبات يجد أن كثيرًا من تلك الآيات قد ساقها الله عز وجل للدلالة على حقيقة البعث بعد الموت، تلك الحقيقة العظيمة التي يؤمن بها المؤمنون، وقد أنكرها الكفار والمشركون، وزعموا أن الله عز وجل لا يعيد الأموات إلى الحياة مرة أخرى، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقد ساق الله عز وجل في كتابه العزيز الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة الدالة على حقيقة البعث بعد الموت.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في إثبات حقيقة البعث؛ فتارة يستدل بالنشأة الأولى للخلق؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

فالذي خلق الخلق أول مرة قادر سبحانه على إعادة الخلق مرة أخرى، ﴿وَهُوَ الَّذِي

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٥.

﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وتارة يستدل القرآن الكريم على حقيقة البعث بخلق ما هو أعظم من بعث الناس، وهو خلق السماوات والأرض، والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فخلقه تعالى للسماوات والأرض من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ «لأن من خلق الأعظم الأكبر لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر»[(١)].

وتارة يستدل القرآن الكريم على حقيقة البعث بإحياء الأرض الميتة؛ فكما أن الله عز وجل يحي الأرض بعد موتها فهو سبحانه قادرٌ على إحياء الناس بعد أن تبلى أجسادهم، وتفنى عظامهم، وقد ذكرت آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل هذه الحقيقة العظيمة؛ من ذلك قوله سبحانه: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

أي: انظروا نظر استبصار واستدلال، واستدلوا بذلك على أن من قدر على إحياء الأرض قادرٌ على إحياء الموتى، وهذا من قبيل الاستدلال بالشاهد على الغائب[(٢)].

ومن آيات الاستدلال على حقيقة البعث بإحياء الأرض الميتة قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فتلك الأرض الخاشعة الميتة، التي لا نبات فيها ولا حياة أحياها الله عز وجل بما أنزل عليها من ماء من السماء، ولا ريب بأن من كانت هذه قدرته فهو قادرٌ على إحياء الناس بعد الموت والفناء، قال الشنقيطي: «وما أشار إليه جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أن إحياء الأرض بعد موتها برهانٌ قاطعٌ على قدرة من فعل ذلك على إحياء الناس بعد موتهم؛ لأن الجميع إحياءٌ بعد موتٍ، وإيجادٌ بعد عدم»[(٣)].

ومن تلك الآيات أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فكما أنه سبحانه أحيا الأرض بعد موتها بالنبات، فكذلك يخرج الموتى من قبورهم،

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٥.

(٣) أضواء البيان ٤/ ٢٧٩.

بعد ما كانوا رفاتًا متمزقين، وهذا استدلال واضحٌ بينٌ لكل ذي عقلٍ؛ فإنه لا فرق بين الأمرين[1].

قال ابن كثير: « أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة؛ ينزل الله تعالى ماءً من السماء؛ فتمطر الأرض أربعين يومًا؛ فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب» [2].

وهناك آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله عز وجل غير ما تلك الآيات السابقة فيها استدلال على قدرة الله عز وجل على بعث الناس بعد موتهم بقدرته سبحانه على إحياء الأرض الموات، والعبرة في ذلك أن العبد عليه أن يتبصر ويتفكر في مخلوقات الله عز وجل من حوله، ويتأمل في آياته سبحانه في خلق النبات والشجر من الأرض الميتة؛ ليعلم علم اليقين أن من قدر على ذلك قادرٌ سبحانه على إحياء الموتى من قبورهم، وما يعجزه ذلك؛ فهو سبحانه على كل شيء قدير.

وبعد هذه الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة، التي لا تخفى إلا على من عمي بصره، ولا ينكرها إلا من عطل فكره، نعلم أنه من أعجب العجب قول منكري البعث سائلين منكرين: أإنا لفي خلق جديد؟! وكأنه لم تكن لهم أعين يبصرون بها قدرة الله عز وجل على الإحياء من حولهم، وكأنه لمن تكن لهم قلوبٌ تعي آيات الله عز وجل من حولهم ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾[الرعد: ٥].

والعجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة، والخطاب في هذه الآية للرسول صلى الله عليه وسلم، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة، وتكذيبهم للبعث مع إقرارهم بابتداء الخلق فإن ذلك حقًا من العجائب؛ فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك فإن قوله غاية العجب، وقيل: معنى الآية: وإن تعجب من تكذيبهم إياك بعدما كانوا حكموا عليك بأنك من الصادقين، فإن تكذيبهم بالبعث والنشور أعجب[3].

قال الزمخشري في معنى الآية: «وإن تعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقولهم عجيبٌ، حقيقٌ بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة، ولم يعي بخلقهن، كانت الإعادة أهون شيءٍ عليه وأيسره؛ فكان إنكارهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٢٥.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩٥، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٥٨.

أعجوبةٌ من الأعاجيب»[1].

وفي ختام هذا المبحث يتبين أن آيات الله عز وجل في النبات -كغيرها من آيات الله في جميع المخلوقات- تدل بوضوح، وتشهد بجلاء على أن لها خالقًا عظيمًا، مدبرًا حكيمًا، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافية، وإن تلك الآيات لا يغفل عنها إلا من صرف بصره، وعطل عقله، وطمس فطرته، وأعرض عن آيات ربه عز وجل وبراهينه متعاليًا مستكبرًا؛ فأعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ والمتدبر في تلك الآيات لا يجد مفرًا من الإقرار الجازم والاعتراف الصريح الحازم بوجود الله عز وجل ووحدانيته، واتصافه بكل صفات الجمال والكمال والجلال، وأنه سبحانه قادر على إحياء الموتى، ومحاسبهم على أعمالهم، تعالى ما أعظم ملكه، وما أعز سلطانه.

النبات ومظاهر النعمة على البشر

إن نعم الله عز وجل على عباده لا تعد ولا تحصى؛ فلقد أسبغ الله سبحانه على عباده نعمه الظاهرة والباطنة، وكلما تأمل العبد وتفكر في نعم المولى سبحانه زاد معرفة بعظمة تلك النعم، وزاد إيمانه بقول ربه جل وعلا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأنى للعباد أن يحصوا تلك النعم، وفي كل قطرة ماء يشربونها نعمة، وفي كل نسمة هواء يستنشقونها نعمة، وفي أنفسهم وما حولهم من الكون نعمٌ ظاهرة وباطنة، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

نعمٌ لا يعدها عادٌ، ولا يطيق إحصاؤها العباد، وقد امتن الرب سبحانه -في كثير من آيات الكتاب العزيز- على عباده بوفير نعمه عليهم، وذكرهم سبحانه بفضله، وحثهم على شكر تلك النعم، والقيام بحقها.

ولا شك أن النبات الذي يخرجه الله عز وجل من الأرض الميتة، ويجعله رزقًا للعباد من النعم العظمى، والعطايا الكبرى من المولى تعالى، فكم فيه من المنافع العظيمة، وكم فيه من الفوائد الجليلة، وكم فيه من الخيرات والبركات التي تعود على الخلق والعباد؛ لذا فقد كثرت في كتاب

(١) الكشاف ٣/ ٣٣٣.

الله عز وجل الآيات التي تذكر العباد بنعمة النبات، وبما جعل الله عز وجل فيه للعباد من نعم ومنافع وخيرات، ومن تلك الآيات قوله تعالى في سياق تعداد نعمه على عباده: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

ولا شك بأن مظاهر نعم الله عز وجل في النبات كثيرة لا تحصى؛ فهي عديدة ومتنوعة، منها ما تم اكتشافه والتعرف عليه، ومنها ما هو غائب عن العباد لم يعرفوه بعد، و لذا لا يمكن أن يستوفى الحديث عن تلك النعم في وريقات قليلة، أو مطالب قصيرة؛ بل الأمر يحتاج إلى بحوث مطولة، ومؤلفات مطنبة، إلا أن الباحثين أشاروا في المطالب الآتية إلى بعض مظاهر النعيم في النبات، وذلك من خلال الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم، وبعض أقوال أهل التفسير.

أولًا: النبات مصدر أساسي لغذاء الإنسان ورزقه:

إن من أعظم النعيم الذي جعله الله عز وجل في النبات أن الله عز وجل جعله المصدر الأساسي لطعام الإنسان وغذائه على هذه الأرض؛ إذا النبات هو الأساس في غذاء الإنسان، ومعظم ما يتغذى عليه البشر إنما هو من النباتات التي ينبتها الله سبحانه لعباده؛ فالحبوب بشتى أنواعها، والبقول بشتى أصنافها، والخضار بجميع أشكاله وألوانه، والفواكه كلها، كل ذلك من النبات، ومعلوم أن تلك الأغذية هي أساس طعام الإنسان، وعليها يعتمد في غذائه.

وكم لفت الخالق سبحانه أنظار عباده إلى نعمة الغذاء في النبات الذي أخرجه لهم، وبين لهم أنه قد جعل لهم في هذا النبات ما يأكلون.

ومن الآيات التي ذكرت ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

إن ذلك لمن آيات الله الباهرات، والتي فيها دلالة واضحة، وبرهانٌ بين ساطع على قدرة الخالق سبحانه، وعلى عظيم عطاياه لعباده؛ فهو سبحانه الذي أخرج الزرع

والحب، وهو سبحانه الذي جعل الجنات وأصناف الفاكهة والثمار، وما ذاك كله إلا من رحمته تعالى بعباده، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم[(١)].

والملاحظ أن القرآن الكريم لم يقتصر على ذكر الفاكهة والثمار على وجه العموم والإجمال؛ بل ذكر أصنافًا وأنواعًا خاصة منها؛ فذكر الزيتون، والرمان، والنخيل، والعنب، والتين.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ولا شك بأن تخصيص بعض النباتات والأشجار والثمار بالذكر دون غيرها فيه تنبيه على فضلها وعظيم نفعها.

لقد أخبر الله سبحانه في كتابه العزيز أنه جعل من النبات جنات النخيل والأعناب، وبساتين الفاكهة والثمار، ومزارع الحبوب والخضار، وفي ذلك كله غذاء وطعام يتغذى عليه الإنسان ويتنعم به، ويطلب رزقه من خلاله.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾

[المؤمنون: ١٨-٢٠].

يخبر سبحانه في هذه الآيات بأنه أنزل الماء من السماء، وأنشأ به جنات النخيل والأعناب، التي يتغذى عليها العباد، ويتفكهون بها، وقد خصت الآية ذكر الأعناب والنخيل دون غيرهما من الثمار لبيان فضل هاتين الشجرتين، قال الشوكاني: «واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرةً، وأطيبها منفعةً وطعمًا ولذةً»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تتغذون، أو المعنى: منها ترزقون، وتحصلون معاشكم، وذلك من خلال الفلاحة والزراعة، والتي هي من أبواب الرزق الوفير الذي جعله الله عز وجل لعباده[(٣)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٣٦٠.

(٢) فتح القدير ٣/ ٦٨٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٢٨.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ إخبار عن شجرة الزيتون المباركة، والتي تنبت في أرض مباركة، وتنبت للعباد الصبغ والدهن، ومعنى ذلك أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها تنبت ثمرة فيها الزيت الذي هو صبغ وطعام وإدام يأتدمون به، ويأكلون منه، ويدهنون ويصطبغون به[(١)].

ومن رحمة الله عز وجل وفضله على عباده أن جعل النباتات مختلفة متنوعة؛ منها الخضار، ومنها الحبوب، ومنها الفاكهة والثمار، منها ما يؤكل مباشرة دون طهي، ومنها ما يحتاج لطهي، منا الحلو، ومنها المالح والحامض، منها الرطب اللين، ومنها الجاف واليابس، منها ما يؤكل كطعام أساسي، ومنها ما يؤكل للتفكه، وإن من النبات أصنافًا لم يتعرف عليها الإنسان بعد، ولم يدرك قدر نفعها وقيمة التغذي عليها؛ فأصناف النبات عظيمة، ومنافعها جليلة، وقد أخبر الله سبحانه بأنه أخرج للعباد نبات كل شيء، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فهذه الآية شملت جميع ما أخرجه الله عز وجل من نباتات متنوعة.

والإنسان يحتاج في غذائه إلى التنوع، ولا يمكن أن يقتصر في غذائه على صنف واحدٍ من الطعام، أو على نوع واحدٍ من النبات أو الثمار؛ بل يحتاج لأنواع الخضار، والفاكهة، والنباتات، فجسم الإنسان يحتاج إلى البروتين اللازم لبناء الأنسجة، وتعويض التالف منها، ويحتاج للكربوهيدرات والدهون اللازمة لتوليد الطاقة الحرارية للحركة والنشاط، ويحتاج للفيتامينات الضرورية لنمو العضلات، وقوة الإبصار، وقوة الغضاريف والأربطة ومرونتها، ويحتاج إلى الأملاح المعدنية، اللازمة لتكوين العظام والأسنان، وكل تلك المغذيات متوفرة في أصناف النباتات، وأنواع الزروع والثمار.

وفضلًا عن ذلك فإن الفواكه والخضروات تمتاز بنكهتها اللطيفة، وألوانها الجذابة، وتحوي الفواكه على نسب متفاوتة من السكر، كما تحوي على نسب عالية من الماء، وتمتاز الفواكه بأنها مصدر مهم للألياف غير القابلة للهضم، والتي تساعد على تنظيم سير الكتلة الغذائية المتبقية بعد الهضم في الأمعاء الغليظة، وطرحها إلى الخارج[(٢)]، فسبحان من جعل في تركيب النبات عناصر تتوافق مع حاجات جسم الإنسان، بنسب معينة، ومقادير محددة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤.

(٢) انظر: تغذية الإنسان، فاروق فاضل ولامعة جمال ص٣٥٦.

وسبحان من جعل في النبات الغذاء الكامل للإنسان [1].

وقد أباح الله عز وجل لعباده أن يأكلوا مما أنبت لهم من النبات، ومما أخرج لهم من الأرض من أصناف الفاكهة والحبوب والثمار؛ بل إنه سبحانه أمرهم بذلك أمر إباحة وتحليل.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم حلالًا طيبًا فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

فهذا أمرٌ من الله عز وجل لعباده بأن يأكلوا من رزقه، وبأن يشكروا نعمه التي أنعم عليهم، قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداءً، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له» [2].

وكما أن النبات غذاء للإنسان فهو أيضًا غذاء للحيوانات والطيور؛ فالحيوان يأكل النبات ويتغذى عليه، وكذلك أمم من الطيور لا يحصيها إلا خالقها لا تتغذى إلا على النبات، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، قال الله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

ولا شك بأن تغذي الحيوانات والأنعام على النبات يعود بالنفع على الإنسان؛ إذ إن الإنسان يتغذى على تلك الأنعام، وينتفع من لبنها، وأصوافها، وأشعارها، وجلودها، ولذا فقد امتن الله سبحانه على عباده بأن جعل لهم من النبات ما يسيمون أنعامهم فيه، ويرعون.

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وبهذا فإن من مظاهر النعم في النبات أن جعله الله عز وجل غذاءً للحيوان والأنعام، ثم يعود نفعها على الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، فلله الحمد والشكر.

وفضلًا على أن النبات مصدر غذاء الإنسان فهو أيضًا مصدر للصحة والدواء والعلاج؛ فكم من دواء جعله الله عز وجل في أصناف النبات، وكم من علاج وشفاء وضعه الله عز وجل في النبات، ولقد اكتشف علماء الطب والتغذية الكثير من الأدوية والعلاجات الموجودة في النبات والثمار، ويكفي الإشارة هنا إلى أن العسل الذي ينتجه النحل إنما أصله من النبات

---

(١) انظر: النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة، جواهر محمد باسلوم ص١٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٦٣.

والثمار؛ حيث إن النحل يتغذى على النبات فقط، كما ألهما ربها عز وجل[1]؛ فلقد أوحى الله سبحانه إلى النحل أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتًا، وأن تأكل من كل الثمرات؛ ليخرج من بطونها ذلك الشراب المبارك، الذي فيه غذاءٌ، وشفاءٌ، ودواءٌ للعالمين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

والنباتات التي تدخل في علاج الإنسان وغذائه كثيرة لا تعد ولا تحصى، وعلى العباد أن يجتهدوا في معرفة الفوائد والمنافع التي أودعها الخالق سبحانه فيما خلق من نبات وزروع وثمار.

ومما لا ينبغي أن يغفل عنه أن النفع المادي للنبات لا يقتصر على كون النبات مصدر للطعام والغذاء والدواء فقط؛ بل يجب أن ينظر إلى النبات على أنه رزق[2] من الله عز وجل لخلقه وعباده، بكل ما تحمله كلمة رزق من دلالات، وقد أخبر الله عز وجل بذلك في غير آية من الكتاب العزيز.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

فلقد وصف الله عز وجل ما يخرجه للعباد من ثمرات بأنه رزق لهم، وفي آيات عدة استعمل القرآن الكريم لفظ الرزق للدلالة على الغيث الذي ينزله الله عز وجل من السماء، وينبت به الزرع والثمار للعباد[3].

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

فقد سمى الله عز وجل ما ينزله من السماء

(١) انظر: الطب النبوي، ابن القيم ص٢٧.
(٢) الرزق كلمة شاملة لعطاء الله عز وجل.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/٣٨٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٩٤.
(٣) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٢٥.

من غيث رزقًا للعباد؛ وذلك لأنه بهذا الغيث تحيى الأرض، وينبت النبات والشجر، وتخرج الحبوب والثمار، ويحصل الرزق للعباد.

ويفهم من هذه الآيات أن النبات هو المصدر الأول لرزق الإنسان على الأرض، وهو مورد النعم المباشرة وغير المباشرة، وهو من أعظم طرق الكسب المشروع، وعلى العباد أن يشكروا من خلق لهم النبات، وجعل فيه الغذاء والدواء، وجعله رزقًا وافرًا للعباد، فسبحان الخالق، وتبارك المنعم[(١)].

ثانيًا: النبات من مصادر الإبهاج والإسعاد:

إن مظاهر النعم التي أودعها الله عز وجل في النبات لا تقتصر على كون النبات مصدر أساسي لرزق الإنسان وغذائه ودوائه؛ بل إن تلك المظاهر أجل من ذلك وأعظم، فهناك وجوه أخرى للنعيم جعلها الخالق المصور سبحانه في النباتات؛ فمن ذلك مظهرها الجميل، وشكلها البهيج، وصورتها البديعة، تنشرح لرؤيتها الصدور، وتدخل على النفس السرور؛ تتمتع بها الأعين، وتسر بها النفوس، وتسعد بها القلوب، تعجب المتأملين، وتسر الناظرين، فيها الخضرة المبهجة، وفيها الأزهار الزاهية، وفيها الثمار اليانعة، ومنها الرياحين الفواحة، والورود الزاهية، ومنها جنات معروشات وغير معروشات، وحدائق ذات بهجة وسرور، وكل هذا من مظاهر النعيم في النبات، فسبحان من خلقها، وتبارك من زينها وصورها.

قال الله عز وجل ممتنًا على عباده، ومذكرًا لهم ببعض مظاهر النعيم فيما خلق لهم من النباتات: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فالمولى سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل الماء للعباد، فأنبت به الحدائق ذات الحسن والبهاء والجمال، والتي تبهج من رآها، وتدخل السرور إلى قلب من شاهدها، وهذا من فضله سبحانه على عباده[(٢)].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز يلفت الخالق سبحانه أنظار عباده إلى ما ينبت لهم من نبات بهيج؛ ليتفكروا في آيات ربهم، وليعلموا عظيم نعمه، وجزيل فضله سبحانه عليهم.

---

(١) انظر: النبات في ضوء القرآن والسنة، جواهر محمد باسلوم ص١٩٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٢١.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧-٨].

والبهيج من النبات هو: الحسن الجميل، وهو الذي يسر به الناظرون، ويسعد به المشاهدون، ووصف النبات بهذا الوصف يفيد تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى، ويفيد أيضًا الامتنان عليهم بذلك؛ ليشكروا النعمة ولا يكفروها[1].

وبهذا فإن ما في النبات من بهجة وحسن يعد من مظاهر النعم التي أودعها الخالق سبحانه في النبات؛ فينعم العباد بالبهاء والجمال، وحسن المنظر، وطيب الرائحة، ويتفكروا في آيات ربهم، ويشكروا نعمه العظيمة عليهم.

ثالثًا: النبات ونعمة الإقامة والسكنى:

لا شك أن من حاجات الإنسان الضرورية في هذه الحياة الدنيا الحاجة إلى السكنى والقرار؛ إذ الإنسان محتاج إلى بيت يؤويه، وإلى مكان آمن مريح يحتمي فيه، ويقي به نفسه الحر والبرد، ويستر فيه عورته، ويضع فيه متاعه، ويتمتع فيه بالاستقرار، ولا يمكن أن تستقيم حياة الإنسان بدون ذلك، وقد ذكر القرآن الكريم هذه النعمة.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

حيث ذكرت هذه الآية أن من نعم الله عز وجل على عباده أن جعل لهم بيوتًا يسكنون فيها، ويحتمون بها، ويحفظون فيها أنفسهم وأهليهم وأمتعتهم، ويقضون حاجاتهم ومنافعهم فيها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل سبحانه لعباده أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا خفيفة، يستخفون حملها في أسفارهم؛ يضربونها في إقامتهم وفي سفرهم وحضرهم، وكل ذلك من نعم الله عز وجل على عباده[2].

وقد قرن الله عز وجل بين نعمة المقام الكريم ونعمة الجنات والعيون والزروع وذلك في قوله عز وجل في سياق الحديث عن إهلاك فرعون وجنده: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وفي موضع آخر قال سبحانه في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٨٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٥.

نفس السياق: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧].

«والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة»[(١)].

وفي هذا دلالة واضحة على أن نعمة السكنى والمقام الكريم نعمة جليلة، قرنت بنعمة الجنات والعيون والزروع والفاكهة، ولا يحصل النعيم بالجنات والعيون إذا فقدت نعمة الإقامة بأمن واستقرار.

وللنبات الذي أنعم به الخالق سبحانه على عباده دور كبير في توفير نعمة الإقامة والسكن للإنسان؛ فلقد علم الله عز وجل الإنسان -من لحظة نزوله على الأرض- كيف يستفيد من الأشجار والنباتات في بناء بيوته، وإقامة مساكنه من جذوع النبات وأغصانها وأوراقها، ولا زال الناس إلى عصرنا هذا يستفيدون مما خلق الله عز وجل لهم من أشجار في بناء بيوتهم، وصنع أمتعتهم وأثاثهم، وحتى تلك البيوت العصرية لا تستغني عن أخشاب الأشجار في صنع أبوابها وأثاثها.

ولا يقتصر نفع النبات والأشجار على الإنسان في توفير نعمة السكن والإقامة في كونها أساسًا لبناء البيوت وأماكن السكنى؛ بل الأمر أعظم من ذلك بكثير، فالنبات كان منذ العصور الأولى لحياة الإنسان على الأرض سببًا لاستقراره وإقامته؛ وذلك أن الإنسان قد علمه الله عز وجل الزراعة، والزراعة تتطلب من الإنسان أن يستقر بجانبها؛ يبذر بذورها، ويرعاها ويعتني بها، ثم يحصد ويجني ثمارها، وبهذا تعلم الإنسان الاستقرار والسكنى في مكان واحد.

والإنسان المعاصر يعتمد كثيرًا في صناعاته على أخشاب النباتات والأشجار، وما أكثر الصناعات القائمة على النبات؛ كصناعة الأوراق، والأثاث، والأدوات، والمعدات، والفحم النباتي، والألياف، والنسيج، وصناعة الزهور والعطور، وكثيرًا من الصناعات المتنوعة، وهذا كله من الفوائد والمنافع التي أودعها الله عز وجل في النبات، ولم يذكر القرآن الكريم هذه الفوائد بالتفصيل؛ وإنما أشار إليها ضمنًا على أنها رزقًا للعباد، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

حتى يستخدم الإنسان عقله وتفكيره في البحث عن تلك المنافع والفوائد. ولا شك أن من الفوائد والنعم التي جعلها الله عز وجل في النبات -مما يتصل بنعمة الإقامة والسكنى- أن فيها نعمة الظل الظليل، والوقاية من حر الشمس؛ يستريح في ظلها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٦٤.

العباد، وينعم تحت أغصانها الناس، وقد ذكر الخالق تعالى عباده بتلك النعم العظيمة.

قال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١].

فالله سبحانه هو الذي جعل لعباده الظل في النبات والشجر وفي كل ما يستظل به؛ يستريحون فيه من حر الشمس، ويكنهم من الأمطار والرياح[(١)].

وهو سبحانه من ألهم عباده إلى الانتفاع بتلك المخلوقات، والتوقي بها من أضرار الحر والبرد؛ فخلق الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن الالتجاء إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال[(٢)].

وبهذا فإن النبات فيه نعمة توفير الإقامة والسكنى للإنسان، وتلك نعمة عظيمة لا يستغني عنها الإنسان، ولا يعيش بدونها، وتلك النعم تستوجب على العباد شكر المنعم سبحانه، والإقرار بمنته وفضله على عباده، ولله الحمد والشكر.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٤٠.

نبات الدنيا والآخرة

إن المتأمل في آيات الكتاب العزيز التي ذكرت النبات يجد أن هذه الآيات قد ذكرت أنواعًا متعددة، وأصنافًا كثيرة من النبات والأشجار، وذكرت بعضًا مما تثمره من الفاكهة والثمار، والملاحظ أن آيات الذكر الحكيم فصلت الحديث عن بعض أصناف النبات، وأجملت الحديث عن بعضها الآخر، وبعض الآيات شملت جميع أصناف النبات، كما في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وفي قوله عز وجل: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد للعالمين، وليس كتابًا متخصصًا بالنباتات وأنواعها وخصائصها وفوائده؛ وما في القرآن الكريم من حديث عن النبات إنما هو في سياق الحديث عن آيات الله عز وجل، وبراهين وجوده، ودلائل عظمته، وبيان فضله ونعمه على عباده، إلا أنه لا يخلوا تخصيص هذه النباتات والثمار بالذكر دون غيرها من فوائد دنيوية تنفع الإنسان في معاشه، وهذا يحتاج إلى مزيد جهد وبحث من العلماء للوقوف

على ما في تلك النباتات والثمار من فوائد.

ويجد المتأمل لكتاب الله عز وجل أن الآيات التي ذكرت النبات منها ما تحدثت عما ينبته الله عز وجل من الأرض من نبات الدنيا، ومنها آيات تحدثت عن بعض ما في الآخرة من نبات وأشجار، وفي النقاط الآتية بيان ذلك.

أولًا: نبات الدنيا:

لقد ذكر القرآن الكريم أنواعًا عديدة من النباتات التي يخرجها الله عز وجل لعباده من الأرض؛ فذكر الحب المتراكب، وذكر أصنافًا من الخضار؛ كالبصل والقثاء والفوم، وذكر أصنافًا من الفاكهة؛ كالعنب والتين، والرمان وغير ذلك، والآيات في ذلك عديدة.

فبعض الآيات ذكرت ما يخرجه الله عز وجل من الأرض من ثمرات للعباد، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فذكر الله عز وجل هنا ما يخرجه لعباده من الثمرات، وذلك في سياق الاستدلال على ربوبيته سبحانه، ووجوب عبادته وحده، وبيان فضله سبحانه ونعمه على عباده؛ فهو سبحانه من جعل الأرض فراشًا والسماء بناءً، وهو سبحانه من ينزل الماء من السماء، ويخرج به من الثمرات رزقًا للعباد، فوجب بذلك على العباد أن يفردوه وحده بالعبادة دون سواه؛ لذا سبقت هذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ولفظ الثمرات في الآية لفظٌ عامٌ يشمل جميع ما يطعمه العباد وينتفعون به من النبات والشجر[1].

قال القرطبي في معنى الآية: «والمعنى في الآية أخرجنا لكم ألوانًا من الثمرات، وأنواعًا من النبات؛ طعامًا لكم، وعلفًا لدوابكم»[2].

والملاحظ هنا أن القرآن الكريم استعمل جمع القلة (الثمرات)، ولم يستعمل جمع الكثرة (الثمر) أو (الثمار)، مع أن ما يخرجه الله عز وجل لعباده من الأرض كثيرٌ جمٌ، وأصنافه كثيرة عظيمة، وكذا أنواعه وأشكاله، وعلل بعض المفسرين ذلك بأنه قصد بالثمرات جماعة الثمرة، كما في قولهم: فلان أدرك ثمرة بستانه، يريدون ثماره كلها، أو أن الجموع يحل بعضها مكان بعض؛ لالتقائها في الجمعية[3].

وذكر بعض المفسرين أن في ذلك

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٨١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٢٩.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢١٦.

تنبيهًا على قلة ثمار الدنيا، وإشعارًا بتعظيم أمر الآخرة وما فيها من ثمارٍ ونعيم، والله أعلم[١].

وفي آية أخرى -وهي من أعظم الآيات التي تحدثت عن النبات- ذكر الله عز وجل ما يخرجه من نبات على وجه الإجمال، ثم فصل ذكر بعض أصنافها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فقوله تعالى في بداية الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يشمل جميع أصناف النبات، ويشمل كل ما أطلق عليه نبات؛ فيشمل ما كان له ساق قوية كالنخل والزيتون والرمان، ويشمل الزرع الذي له ساق لينة كالقصب وأصنافًا من الخضار، ويشمل الشجر المعروش كالعنب، ويشمل ما كان على وجه التربة بلا ساق، وهو النجم، مثل البطيخ واليقطين والقرع؛ فقوله تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يفيد العموم في الخبر، فيشمل النباتات مختلفة الأصناف والأنواع والثمرات والأشكال والخصائص والأطعمة والألوان.

ثم بعد هذا الإجمال أتت الآية بالتفصيل في أنواع بعض النبات؛ فقال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾، والخضر هو أول ما يكون عليه النبات عند خروجه من الأرض؛ حيث يكون طريًا غضًا أخضر اللون، وقد خص بعض المفسرين المراد بالخضر بالزرع والحبوب؛ كالقمح والذرة والشعير وغيرها[٢].

ولعل الأصوب أن لفظ: (خضرًا) يشمل جميع النبات؛ إذ إن لفظ: (خضرًا) نكرة، والنكرة تفيد العموم، والمراد به أول خروج النبات من التربة.

ثم فصلت الآية في ذكر بعض أنواع النبات فقال تعالى: ﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، فذكرت الآية الحب المتراكب؛ كالأرز والقمح والشعير، وذكرت بعض الأشجار التي تقوم على ساقٍ قويةٍ؛ كالنخيل والزيتون والرمان، وذكرت الآية أيضًا من النبات ما كان بحاجة إلى أن يعرش له كالعنب، ووصفت الآية ذلك النبات كله بأنه ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، إشارة إلى أن بعض النبات يشبه بعضه، وبعض الثمر يشبه بعضه في الشكل أو اللون أو المذاق، يقول

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٣١٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٨٨.

محمد رشيد رضا في تفسيره: «وصرحوا بأن المشتبه والمتشابه هنا بمعنى واحد، والحق أن في الصفتين فرقًا؛ فمعنى اشتبها: التبس أحدهما بالآخر من شدة الشبه بينهما، ومعنى تشابها: أشبه أحدهما الآخر ولو في بعض الوجوه والصفات، فهذا أعم مما قبله، ولا شك في أن بعض ما ذكر يتشابه ولا يشتبه، وبعضه يتشابه حتى يشتبه على البستاني الماهر»[(١)].

وفي آية أخرى يخبر الله سبحانه عن بعض أصناف النبات فيقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فذكرت هذه الآية الجنات من النباتات المعروشات، وهي النباتات التي تحتاج لإسنادها على العرش؛ لصيانة ثمرها من الهلاك، وذكرت الجنات من النبات غير المعروش، وهي تشمل جميع النباتات التي تقوم على سيقان قوية، ولا تحتاج لعرش، كالنخيل والزيتون والرمان.

وقد وردت هذه الآية في سياق الحديث عن ضلالات المشركين في التحليل والتحريم بأهوائهم، وجعلهم لشركائهم نصيبًا مما رزقهم الله عز وجل، وتحريم بعض ما أحل الله سبحانه، فناسب أن يذكر الله عز وجل في هذه الآية أنه سبحانه هو الذي خلق تلك الأشجار والثمار، وهو الذي رزق العباد بأصناف الأطعمة، وألوان النعيم، وهو سبحانه من أحل ذلك لعباده، ولا ينبغي أن يحرم أحدٌ شيئًا مما أحله الله عز وجل؛ فالله هو وحده الخالق، وهو سبحانه وحده المحلل والمحرم، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي كتاب الله عز وجل آيات أخرى ذكرت أصنافًا معينة من النبات والثمار كما في قوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وكذا في قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

(١) تفسير المنار ٧/ ٥٣٥.

والملاحظ في هذه الآيات ونظائرها في كتاب الله عز وجل أنها تذكر ما أخرج الله عز وجل لعباده من الأرض من نبات وثمار في سياق تعداد الله عز وجل لنعمه على عباده، وتذكيرهم بفضله عليهم، أو في سياق دعوة العباد للتفكر والنظر في آيات ربهم عز وجل؛ ليصلوا بهذه الآيات الباهرات إلى الإيمان بعظمة الخالق سبحانه، واستحقاقه للعبادة دون سواه، قال الشنقيطي -رحمه الله- في تفسير الآية الأول من هذه الآيات: «بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار، وما تأكله المواشي من المرعى، من أعظم نعمه على بني آدم، ومن أوضح آياته الدالة على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، وأوضح سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة»[1].

وقد ختمت كثير من هذه الآيات بما يحث العباد على التفكر والتعقل والنظر فيما خلق الله عز وجل لهم، وفيما أخرجه لهم من الأرض، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٣٧.

وفي ذلك تحفيز للعباد على التفكر فيما أخرج الله عز وجل لهم من نبات الأرض، للوصول إلى الإيمان بعظمة الخالق، وعظيم منته وفضله على خلقه.

وعند التأمل في الآيات التي تحدثت عن النبات وبعض أصنافها نجد أن هذه الآيات ذكرت بعض النباتات بأسماء ثمارها؛ كالعنب والتين والزيتون والرمان، وذكرت نباتات أخرى بأسماء أشجارها مثل النخيل والزرع، وذكرت بعضها باسم نوعه فقط كالفاكهة والحبوب، وفي ذلك إشارة إلى التفاضل بين النبات، واعتماد الإنسان في غذائه على أنواع أكثر من أنواع أخرى؛ فغذاء الإنسان يعتمد أكثر على الحبوب والزروع، وهي أقوات للإنسان، أما أنواع الفاكهة فهي للتفكه أكثر مما هي قوت، فلا يعتمد عليها الإنسان في قوته.

وقد خص القرآن الكريم بعض أصناف الفاكهة بالذكر دون بقية الأصناف، فخص العنب والتين والزيتون والرمان والنخيل، ولعل الحكمة من ذلك أن هذه الأنواع هي المعروفة والمشهورة أكثر لدى الناس في كل زمان ومكان، ثم إن هذه الأنواع هي التي كانت موجودة في أرض العرب وقت نزول القرآن، ثم إن هذه الأنواع فيها الكثير من الفوائد الغذائية والصحية -منها ما تم اكتشافه ومنها ما يحتاج إلى بحث-،

وهي ثمار تؤكل على مدار السنة؛ طازجة ومجففة.

أما الحبوب والخضار فلم يرد في القرآن الكريم تفصيل أنواعها؛ إلا ما ورد في سياق قصة موسى عليه السلام مع قومه لما طلبوا منه أن يسأل ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

ولعل الحكمة من عدم التفصيل في ذكر أصناف الحبوب والخضار أنهما يعدان قوتًا أساسيًا للإنسان، فالإنسان يتغذى عليها كأقوات وليس للتفكه، وكأن حاجته إليها هي التي تدفعه إلى تناولها، وليس رغبة في التفكه كما الحال في أصناف الفاكهة والله أعلم[(١)].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب ربه أن حديث القرآن عن النبات جاء في سياق أمرين؛ إما للدلالة على عظمة الخالق المصور، أو لبيان فضل الله وكرمه على عباده، وفي كلا الأمرين مصلحة كبرى للعباد؛ إذ بهما يتوصلون إلى الإيمان العميق بعظمة ربهم، واستشعار عظيم نعمه عليهم، فيزيدهم ذلك قربًا إلى ربهم عز وجل، ومزيدًا من شكره على فضله ونعمه.

ثانيًا: نبات الآخرة:

تحدث عن نبات الآخرة وأشجارها، وقد ذكرت آيات كثيرة ما يتعلق ببعض أشجار الجنة.

إنه من خلال استقراء آيات القرآن الكريم التي ذكرت النبات نجد أن جزءًا من هذه الآيات قد تحدث عن نبات الآخرة وأشجارها، وقد ذكرت آيات كثيرة بعض ما في الجنة من أشجار ظليلة مثمرة، وثمار دانية منضودة، وذكرت بعض الآيات شيئًا مما في نار جهنم من شجر الزقوم الذي فيه العذاب والغصة لأهل النار.

وبتأمل الآيات التي تحدثت عن أشجار الجنة نجد أن الله عز وجل قد أخبر عن أوصافها وثمارها بما يشوق المؤمنين لها، ويرغبهم بالعمل الجاد لتحصيلها؛ ومن ذلك أنه سبحانه أخبر عن أشجار الجنة بأنها أشجار كثيفة ملتفة الأغصان، متنوعة الثمار، وإنما سميت الجنة بذلك لكثرة شجرها، وتشابك أغصانها[(٢)].

(١) انظر: النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة، جواهر محمد ص٤٧١.

(٢) قال الراغب: «أصل الجن ستر الشيء عن الحاسة، يقال: جنة الليل، وأجنه ستره.. والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض.. وسميت الجنة إما تشبيها بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، وإما لستره نعمها عنا» المفردات، الراغب الأصفهاني ص٩٨.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١-٥٢].

وقد أخبر الله عز وجل بأن أشجار الجنة شديدة الخضرة، كثيرة الري، فقال سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢-٦٤].

ومعنى مدهامتان: شديدتا الخضرة، فهما خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الري[1]، وإذا كان الشجر والنبات بهذه الصفة فهو في غاية الحسن والجمال.

ولقد أخبر الله عز وجل عن نبات وأشجار الجنة بأنه حدائق وبساتين، تحتوي على جميع الأشجار والفاكهة والثمار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٢].

قال ابن عاشور: «والحدائق: جمع حديقة، وهي الجنة من النخيل، والأشجار ذوات الساق، المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر، والأعناب: جمع عنب وهو اسم يطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرها»[2].

لقد أخبر الله عز وجل عباده بأنه قد أعد للمتقين منهم جنات فيها الظلال والعيون، وفيها أصناف الفاكهة مما يشتهون، وفيها النعيم المقيم.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

ومما أخبر الله عز وجل به أيضًا عن أشجار الجنة أن ظلها ممدودٌ عظيمٌ، لا ينحسر ولا ينقطع، ولا تنسخه الشمس[3]، قال الله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

ومعنى قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾: الذي لا شوك فيه، الوافر الحمل الموقر[4].

ومعنى قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾: الموز الذي نضد بعضه على بعض، وجمع بعضه إلى بعض، وهذا من خصائص ثمار أشجار الجنة كلها منضودة، بعضها فوق بعض، من أسفل الشجرة إلى أعلاها، لا يرى الساق من تراكب الثمر[5] في غاية الحسن والبهاء.

إن الثمار التي تنتجها أشجار الجنة ثمارٌ عظيمة، لا تقطع، ولا تمنع، قال الله عز

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٦٧.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١١٤.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٣٩.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٠٦.

وجل: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣].

فثمار الجنة وفاكهتها دائمة؛ لا تنقطع في حين دون حين، ولا تمنع بالحيطان والنواطير، ولا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد إذا أريدت؛ إنما هي مطلقة لمن أرادها، قريبة لمن اشتهاها[(١)].

قال ابن كثير: «أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفًا؛ بل أكلها دائمٌ مستمرٌ أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بعدٌ»[(٢)].

ولقد ورد في السنة المطهرة أخبار كثيرة في وصف أشجار الجنة وثمارها وسيقانها، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب)[(٣)].

ومن ذلك حديث عتبة بن عبد السلمي أن أعرابيًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم... وفي الحديث: (فقال الأعرابي: يا رسول الله فيها فاكهة؟ قال: (نعم؛ وفيها شجرةٌ تدعى طوبى، هي تطابق الفردوس)، فقال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: (ليس تشبه شيئًا من شجر أرضك؛ ولكن أتيت الشام؟) قال: لا يا رسول الله، قال: (فإنها تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، ثم ينتشر أعلاها)، قال: فما عظم أهلها؟ قال: (لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك لما قطعتها حتى تنكسر ترقوتها هرمًا)، قال: فيها عنب؟ قال: (نعم)، قال: فما عظم العنقود منها؟ قال: (مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يقع ولا ينثني ولا يفتر)، قال: فما عظم الحبة منه؟ قال: (هل ذبح أبوك تيسًا من غنمه عظيمًا فسلخ إهابه فأعطاه أمك فقال ادبغي هذا ثم افري لنا منه ذنوبا يروي ماشيتنا؟) قال: نعم، قال: فإن تلك الحبة تشبعني وأهل بيتي، فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: (وعامة عشيرتك)[(٤)].

وفي السنة أخبار كثيرة عن أشجار الجنة لا مجال لحصرها هنا.

وفي القرآن الكريم ذكر شجرة من أشجار الجنة، وهي شجرة طوبى، ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد: ٢٩].

---

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٣٧٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة شجر الجنة، رقم ٢٥٢٥، ٤/ ٢٩٢.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٧٣٢، ٣/ ٢٦٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٦٧٩، ٤/ ١٨٣.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٧٢٩، ٣/ ٢٦٣.

فقد ذكر المفسرون أن من معاني طوبى أنها شجرة في الجنة[1].

قال ابن عطية: «وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾)»[2].

ومن أشجار الجنة أيضًا سدرة المنتهى، والتي ورد ذكرها في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

وهي شجرة عظيمة، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض أخبارها في حديث الإسراء فقال: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى؛ وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال)[3].

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون وإنما سميت سدرة المنتهى: لأنه إليها منتهى ما يصعد به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها وإليها ينتهي علم جميع الملائكة»[4].

وكما أن القرآن الكريم ذكر بعض أشجار الجنة وثمارها، فقد ذكر أيضًا بعض أشجار النار، وهي شجرة الزقوم، والتي جعلها الله عز وجل لونًا من ألوان العذاب لأهل النار.

وقد أخبر الله عز وجل عن بعض أوصافها، فقال سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

إنها لشجرة شنيعة المنظر، فظيعة المظهر، مرة المذاق، وهي شجرة خلقها الله في نار جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي المهل، وهو النحاس

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٤-٤٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٢.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، ٤/ ٢١٧٥، رقم ٢٨٢٦، بلفظ: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات، رقم ٣٢٩، ١/ ٩٩.

(٤) زاد المسير ٨/ ٦٩.

المذاب[1].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شدة مرارة تلك الشجرة فقال: (ولو أن قطرةً من الزقوم قطرت؛ لأمرت على أهل الأرض عيشهم؛ فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم؟!)[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٣٥، ١/ ٣٠٠.

وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٦٧٨٢، ١٤/ ٦٣٣.

النباتات والأمثال

لقد استعمل القرآن الكريم أساليب عدة للتأثير على النفس البشرية؛ من أجل هدايتها وتزكيتها، ومن أعظم هذه الأساليب أسلوب ضرب المثل، وهذا الأسلوب كثيرٌ في القرآن الكريم، استعمله القرآن للكشف عن الحقائق، وإبراز المعاني في ثوب جميل، يجذب الأذهان، ويؤثر في السامع، فيحضه على الخير، وينفره من الإثم والشر، ويدفعه إلى فعل الفضائل.

وللمثل مدلولات كثيرة في اللغة العربية، وقد وضع العلماء له تعريفات عديدة؛ كتعريف الراغب إذ يقول: «والمثل عبارة عن قول في شيءٍ يشبه قولًا في شيءٍ آخر، بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: الصيف ضيعت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال»[3].

وقال ابن القيم: «وقع في القرآن أمثالٌ، وإن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها شبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر»[4].

ويمكن تعريف المثل بأنه: أسلوب من

(٣) المفردات ص٤٦٢.

(٤) الأمثال في القرآن ص٩.



أساليب الخطاب، يقوم على إبراز المعنى المعقول في صورةٍ حسيةٍ تزيده وضوحًا وجمالًا.

وإذا ما تأمل المرء ما في القرآن الكريم من أمثال وجد أن النبات له نصيبٌ كبيرٌ من ضرب المثل به، فكثيرة هي الأمثال القرآنية التي يكون فيها الممثل به هو النبات أو الشجر؛ كضرب مثل كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، وضرب مثل مضاعفة أجر الإنفاق في سبيل الله عز وجل بالسنبلة التي أنبتت سبع سنابل، وضرب مثل الحياة الدنيا بالزرع الهائج الذي سرعان ما يصير حطامًا، وغير ذلك من الأمثال التي كان فيها النبات هو المضروب به.

وفي النقاط الآتية بيان بعض الأمثال القرآنية التي كان النبات فيها هو الممثل به.

أولًا: كلمة التوحيد:

إن كلمة التوحيد هي أصل الإيمان، وبها يخرج العبد من الكفر إلى الإيمان، ولأجلها أرسل الله عز وجل الرسل والأنبياء، وهي مفتاح الجنة، والمنجية من النار، ولقد ضرب الله عز وجل مثلًا عظيمًا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ وذلك لبيان أهميتها وفضلها وشرفها، ولبيان منافعها على الموحدين، ضرب سبحانه لها مثلًا بالشجرة الطيبة المباركة، التي جمعت أوصاف الحسن والكمال، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

لقد أخبر الله سبحانه أن مثل كلمة التوحيد كمثل تلك الشجرة الطيبة؛ في كمال صفاتها، وعظيم نفعها، وقد ذكر سبحانه لتلك الشجرة المضروب بها المثل صفات أربع، هن أعظم صفات يجتمعن في شجرة من الشجر:

فالصفة الأولى: كونها طيبة؛ طيبة المنظر والصورة، وطيبة الرائحة، وطيبة الثمرة، وطيبة المنفعة.

والصفة الثانية: أصلها ثابتٌ راسخٌ باقٍ، آمنٌ من الانقلاع والزوال.

والصفة الثالثة: أن فرعها في السماء، وهذا من كمال حالها؛ إذ إن ارتفاع الأغصان وقوتها يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وكلما كانت الفروع متصاعدةً مرتفعةً كانت بعيدة عن عفن الأرض، فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: أنها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فثمرها حاضرٌ دائمٌ في كل الأوقات، ليست كغيرها من الأشجار التي يكون ثمرها حاضرًا في بعض الأوقات،

مقطوعًا في بعضها الآخر[١].

هذه الشجرة الطيبة العظيمة هي التي ضرب الله عز وجل بها المثل لكلمة التوحيد، ووجه الشبه بين كلمة التوحيد وتلك الشجرة الطيبة إن كلمة التوحيد كلمة طيبة، أصلها ثابت في قلب المؤمن، لا تتزعزع، ولا يشوبها شكٌّ ولا ريب، فهي كالشجرة ذات الأصول القوية الثابتة في الأرض، لا تزعزعها الرياح أو السيول، ثم كلمة التوحيد لها فروعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، تصعد إلى الله عز وجل في السماء دائمًا، كفروع الشجرة العظيمة الممتدة في السماء، وكلمة التوحيد تثمر دائمًا وبدون انقطاع الطيبات من الأقوال والأعمال الصالحات، كثمار الشجرة الطيبة التي لا تنقطع[٢].

قال ابن القيم: «شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة؛ الظاهرة والباطنة؛ فكل عمل صالح مرضي لله عز وجل فهو ثمرة هذا الكلمة»[٣].

فهذه كلمة التوحيد والإيمان؛ من آمن بها كانت له كالشجرة الطيبة المثمرة، ومن حرم منها حرم الخير كله، وهذا المثل القرآني العظيم يبين أعظم بيان عظمة تلك الكلمة، ويصورها بأحسن صورة، وأجمل هيئة؛ ليقرب المعنى إلى الأذهان، وليغرس في القلوب الإيمان.

ثانيًا: الإنفاق في سبيل الله:

إن النفس البشرية مفطورةٌ على حب المال، وحب كنزه والاحتفاظ به؛ فهو عزيز عليها، لا تستطيع أن تتخلى عنه أو تنفقه بسهولة، لذا فقد جعل الله عز وجل إنفاق المال في سبيله من أعظم الطاعات، ومن أجل القربات، ينال به العبد ثواب الله عز وجل ورضوانه، ولبيان فضل إنفاق المال في سبيل الله عز وجل ولتوضيح عظم ربح المنفقين عند ربهم عز وجل، ضرب الله سبحانه لعباده مثلًا عظيمًا للمنفقين في سبيله، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والمقصود بالإنفاق في سبيل الله عز وجل في الآية -حسب أقوال المفسرين-؛

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٣.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٥.

(٣) الأمثال في القرآن ص٣٥.

إما مطلق الإنفاق في وجوه البر والخيرات؛ واجبًا كان أو نفلًا [1]، وإما المراد الإنفاق في الجهاد في سبيل الله عز وجل [2].

والأظهر -والله أعلم- أن الإنفاق في سبيل الله عز وجل في الآية يعم جميع الإنفاق في وجوه البر، وأن أعظم هذه الوجوه هو إنفاق المال في الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ لإعلاء كلمة الله سبحانه.

وهذا المثل الذي ضربه الله سبحانه للمنفقين في سبيله مثلٌ عظيم، يرغب العباد في الإنفاق، ويحثهم على البذل والعطاء؛ فلقد شبه الله سبحانه حال المنفق في سبيله بحال الزارع الحاذق الذي زرع في الأرض الخصبة العامرة حبةً جيدةً طيبةً؛ فأنبتت الحبة سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، فشبه سبحانه المتصدق بالزارع، وشبه الصدقة بالبذر الذي يبذره الزارع في الأرض، وشبه الأجر العظيم للإنفاق بالمحصول المضاعف الذي نتج عن تلك البذور التي زرعت، فالله عز وجل يعطي المنفق بكل صدقة له سبعمائة حسنة، ثم يضاعف سبحانه الأجر والعطاء لمن يشاء [3].

ولا شك بأن في هذا المثل ترغيب عظيم للمؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، ولا تكاد هذه الآية المباركة التي اشتملت على هذا المثل تقرع قلوب المؤمنين إلا وتشتاق أنفسهم للإنفاق والعطاء، رغبة في الثواب العظيم، والأجر الوفير من أكرم الأكرمين.

قال ابن القيم: «شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله -سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل برٍ- بمن بذر بذرًا؛ فأنبتت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبلةٍ على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، ونفع نفقته، وقدرها، ووقوعها موقعها» [4].

ثالثًا: أعمال الكافر كالحرث الذي دمرته الريح:

إن من مات على الكفر لا يقبل الله عز وجل منه عملًا صالحًا؛ إذ الإيمان والإخلاص لله عز وجل شرط قبول الأعمال عند الله سبحانه، ومهما عمل الكافر من عملٍ فلا يقبل منه، ولا يثاب يوم القيامة عليه؛ لأنه ما عمل ذلك ابتغاء وجه الله سبحانه، ولم يكن يرجو لقاء ربه عز وجل.

ولقد ضرب الله عز وجل مثلًا عظيمًا لأعمال الكفار في عدم نفعها لأصحابها؛ إذ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٧.
(٢) انظر: زاد المسير ١/ ٣١٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٠٣، تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٠.
(٤) الأمثال في القرآن ص٥٠.

ضرب سبحانه لها مثلًا بالسراب، الذي يراه الظمآن المقطوع في أرض الفلاة الخالية فيظنه ماءً، فيسعد به، ويسرع إليه، حتى إذا جاءه صعق بحقيقة الأمر، إذا علم أن ما كان يرجوه ما هو إلا سراب لا حقيقة له ولا وجود.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

فكما أن السراب لا ينفع من أتاه وسعى إليه، فكذلك أعمال الكافر لا تنفع صاحبها، والكافر يحسب أن عمله سينفعه، ولكنه إذا أتاه الموت واحتاج إلى عمله، لم يجد عمله أغنى عنه شيئًا، ولا نفعه[(١)].

إن حاجة الظمآن إلى الماء شديدة، ورغبته فيه عظيمة، يتمنى أن يفقد كل ما له من الدنيا مقابل أن يظفر بشربة ماء، فإذا رأى السراب وظنه ماءً أخذته الفرحة، وغمره السرور، فأسرع لينال بغيته، فإذا به يصدم بما يراه، ويشعر بالخيبة والحسرة والألم عند اكتشافه حقيقة السراب، وهكذا الكافر يجد من الحسرة والخيبة والندامة ما لا يعلمه إلا الله حينما لا ينفعه عمله، ولا يغني عنه ما كسبه، قال الله سبحانه: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقد اشتملت الآية الثانية على مثل آخر لأعمال الكافرين؛ حيث شبه الله عز وجل أعمالهم بالظلمات الشديدة القاتمة، التي تكون في أعماق بحرٍ عميق، يغشاه موج، ومن فوق الموج موج، ومن فوق ذلك سحاب، ظلمات فوق ظلمات، وهذا مثل حال الكافرين الذين هم في ظلمات الجهل، وظلمات الاتباع للباطل، والجري وراء المضلين، من غير علمٍ أو تعقلٍ، فقلوبهم في ظلمات متراكبة، لا تعرف حقًّا، ولا تنكر باطلًا[(٢)].

يقول ابن القيم في ذلك: «ذكر الله سبحانه للكافرين مثلين؛ مثلًا بالسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان:

أحدهما: من يظن أنه على شيءٍ؛ فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل، وأهل البدع والأهواء، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٥٦.

وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب يرى في أعين الناظرين ماءً، ولا حقيقة له...

والنوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عرفوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال؛ فتراكمت عليهم ظلمة الطبع، وظلمة النفوس، وظلمة الجهل، حيث لم يعلموا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى؛ فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج، ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحابٌ مظلمٌ، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان»[1].

ولا شك بأن في هذين المثلين تحذير للكفار من سوء عاقبة أعمالهم، ودعوة لهم للتخلص من ظلماتهم، والاستنارة بنور ربهم عز وجل، فإنه ليس للعبد غنىً عن نور ربه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

رابعًا: مثل الحياة الدنيا وزهرتها:

كثيرًا ما يغتر الناس بالحياة الدنيا وزينتها، ويشعرون بالاطمئنان لها، والسكون إليها، ويتناسون أن وراءهم دار الآخرة والخلود، والتي فيها النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، ولأن الحياة الدنيا غرارة، يغتر بها العباد، تعددت أساليب القرآن الكريم في التحذير منها ومن الركون إليها، والاطمئنان لها، وذلك من خلال بيان حقيقتها، وكشف أمرها، وبيان زيف مظاهرها، وسرعة انقضائها، وقلة نعيمها.

ومن أعظم أساليب القرآن المجيد في بيان حقيقة الحياة الدنيا، وتحذير العباد من الاغترار بها أسلوب ضرب المثل لها؛ فلقد ضرب الله عز وجل للناس مثل الحياة الدنيا بأمر حسي يشاهدونه من حولهم، ويعلمون حقيقته بكل حواسهم، ضرب سبحانه مثل الحياة الدنيا بالنبات الذي يخرج عند نزول الماء من السماء، يخرج أخضرًا يانعًا، يسر من رآه، يبهج من نظر إليه، ثم ما يلبث إلا ويصير مصفرًا يابسًا، لا حياة فيه ولا خضرة، ثم يصير حطامًا تبعثره الرياح، وكذلك الحياة الدنيا في سرعة فنائها، واغترار الناس بزينتها.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:

(١) الأمثال في القرآن ص ١٥-١٧.

٢٤].

إن أوجه التشابه كثيرة بين حال الحياة الدنيا وحال النبات؛ فالإنسان يخرج إلى الدنيا وينمو فيها كما ينمو النبات، ثم يمر الإنسان في دنياه بمراحل وأطوار كما في النبات من أطوار، والإنسان يعجب بالدنيا وزهرتها وبهجتها كما يعجب الزراع بالزرع إذا هاج وازدهر، ومتاع الدنيا فيه غرور للإنسان؛ يفرح به ثم يأتيه الموت فجأة فتنتهي حياته، وكذلك النبات والزرع عندما يراه الإنسان مزدهرًا يغتر به، ويظن أنه دائم، ثم يفاجأ بهلاكه بغتةً؛ فإذا هو مستأصل لا شيء فيه، وتصبح الأرض ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾، أي: لم تكن مخضرةً عامرةً؛ فكما يهلك الله عز وجل هذا الزرع بغتةً، فكذلك ذهاب الدنيا وفنائها[1].

قال ابن القيم: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر؛ فتروقه بزينتها، وتعجبه؛ فيميل إليها، ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالكٌ لها، قادرٌ عليها، سلبها بغتةً، أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها؛ فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها؛ فتعشب، ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر؛ فيغتر به، ويظن أنه قادرٌ عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله؛ فتدرك نباتها الآفة بغتةً، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[2].

وفي آية أخرى ضرب الله عز وجل ذلك المثل للحياة الدنيا في سرعة انقضائها، وقرب زوالها، بسرعة انقضاء النبات، قال الله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

إن في هذا المثل الذي ضربه الله عز وجل للحياة الدنيا لبيان حقارتها وسرعة انقضائها، ليعرفها العباد حق المعرفة، وتحذيرهم من الركون إليها، وحثهم للاستعداد للدار الآخرة، التي تكون فيها الحياة الحقيقية الأبدية ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وأن من تعلق بالدنيا وركن إليها مصيره إلى الندم والحسرة كمن ركن إلى الزرع الأخضر فصار حطامًا يابسًا[3].

«فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترن أهل

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/٣٢٨.

(٢) الأمثال في القرآن ص١٢.

(٣) انظر: تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٨.

الدنيا بدنياهم، فإنما مثلها مثل هذا النبات الذي حسن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا ريث أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابسًا تذروه الرياح، فاسدًا، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير»[(١)].

لمسات اعجازية في النبات

لقد اعتنى العلماء بدراسة النبات عناية فائقة، وأصبح للنبات علمًا مستقلًا عن باقي العلوم؛ يدرس في المعاهد والجامعات، وتعطى فيه أعلى الدرجات العلمية، وتؤلف فيه الكتب والموسوعات، وتنفق الأموال الطائلة في إجراء البحوث والدراسات عليه، ولا زال العلماء يكتشفون من عجائبه وأسراره، وكلما تبحروا في دراسته أكثر، كلما عرفوا عنه المزيد.

ولقد وقف علماء النبات على حقائق في النبات قد سبق القرآن الكريم الإشارة إليها، وقد درج العلماء المعاصرون على تسمية ذلك بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي ذلك دلالة واضحة لكل ذي لبٍ أن القرآن الكريم كلام العليم الخبير سبحانه، وما هو من عند بشر؛ بل أنزله اللطيف الخبير، وفي المطالب الآتية إشارة إلى بعض اللمسات الإعجازية المتعلقة بالنبات في كتاب الله عز وجل.

أولًا: الخضر والحب المتراكب:

إن الآيات التي أشارت إلى حقائق علمية عظيمة تتعلق بالنبات كثيرة في كتاب الله عز وجل، وقد وقف العلماء على بعضها، وكلما تقدم العلم زادت اكتشافات العلماء لتلك الحقائق، ومن الآيات التي أشارة

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٠.

إلى حقائق علمية كبرى تخص النبات قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقد بسط العلماء المختصون تفصيل وجوه الإعجاز العلمي في هذه الآية، نقف على بعضها فيما يأتي:

أخبر الله سبحانه أنه ينزل الماء من السماء فيخرج به نبات كل شيء، ثم يخرج من النبات الخضر، أي: نباتًا أخضرًا غضًا ناضرًا طريًا [(١)]، ولقد اكتشف العلماء المعاصرون أن سبب الخضرة في النبات هي المادة الخضراء (اليخضور)، واكتشفوا أن هذه المادة الخضراء في النبات هي أكبر مصنع للطاقة على وجه الأرض؛ إذ بهذه المادة العظيمة، التي أودعها الله عز وجل في النبات يقوم النبات بامتصاص ضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون من الجو، مع الماء الممتص من التربة، ثم يحول ذلك إلى مادة الجلوكوز أو السكر الأحادي، ثم تتحد وحدات الجلوكوز لتكون سلسلة طويلة من السكريات والتي نسميها بالنشا، والذي يخزن في النبات ويستعمله الإنسان والحيوان كمصدر أساسي للغذاء وللطاقة.

ثم أخبر سبحانه أنه يخرج من الخضر الحب المتراكب، فقال سبحانه: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، وقوله ﴿مِنْهُ﴾ إذا عادت على النبات فهو الذي يصنع الحب -بإذن الله تعالى-، وإذا عادت على الخضر فهو الوسيلة الحيوية الرئيسية التي هيأها الله تعالى لصنع الغذاء، وإنتاج الحب المتراكب، وإذا عادت على بعض النباتات فهذا حقٌّ لأن بعض النباتات تخرج الحب المتراكب؛ مثل القمح والشعير، وبعضها لا يخرج الحب المتراكب بل يخرج ثمارًا وبذور غير متراكبة.

وهذه العمليات الحيوية العظيمة القدر والقيمة تتم بإذن الله تعالى في النبات الذي خلقه الله عز وجل، ولو اجتمع العلماء وأصحاب البحوث العلمية، ومختبرات الفضاء والذرة وأردوا صنع حبة قمح واحدة، وأقاموا لذلك مصنعًا بمساحة قارة لعجزوا عن صنع هذه الحبة من مكوناتها الأولية، فسبحان الخالق ما أعظمه [(٢)].

والعجيب أنه لولا وجود الخضر لما نبت البنات، ولولا الخضر ما تكونت أي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤٦، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ١٩٢.

(٢) انظر: مقال للدكتور نظمي خليل أبو العطا بعنوان: «فأخرجنا منه خضرًا»، في موقعه على الانترنت.

مادة غذائية على الأرض، ولولا الخضر ما كان على الأرض نارًا، ولا خشبًا، ولا فحمًا، ولا بترولًا، ولا كهرباء، ولا حياة، فالشمس هي أصل الطاقة على الأرض، واليخضور (الخضر) هو المثبت الأصلي للطاقة الشمسية، من يوم أن خلق الله تعالى النبات الأخضر، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه، وسبحان من فطر كل شيء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ثانيًا: السياج من النخل وأثره على ما بداخل الجنات:

لقد تحدث القرآن الكريم عن جنتين أعطاهما الله عز وجل لعبد من عباده، اختبارًا له وابتلاءً، وأخبرنا سبحانه عن قصة ذلك الرجل مع صاحبه، فقال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣].

ولا يعنينا في هذا المقام ما ورد في القصتين من أحداث؛ وإنما الشاهد من الآيتين هنا أنهم أشارتا إلى حقيقة هامة في علم الزراعة، وخاصة في زراعة الأعناب.

لقد أخبرت الآيتين عن بستانين من الأعناب يتصفان بأعلى صفات الجودة والحسن والجمال؛ إذ أشجار الأعناب محفوفة ومحاطة بأشجار النخيل، وبين أشجار الأعناب زرع من أنواع النباتات غير الطويلة، وتجري الأنهار بالماء العذب الوفير بين الأشجار، وهذا في غاية الحسن والبهاء، وأخبر سبحانه بأن كلا البستانين أثمر على أحسن ما يكون الثمر وأكثره[(١)].

والإعجاز العلمي النباتي في الآيتين أنهما وصفتا أحسن الأجواء، وأفضل الظروف لزراعة بساتين الأعناب، إذ من المعروف أن أكثر العوامل البيئية تأثيرًا على زراعة الفاكهة عمومًا والعنب خصوصًا هي التربة التي ينمو فيها النبات، ويعيش ويستمد منها كافة احتياجاته الغذائية، وكذلك المناخ بعناصره المختلفة؛ من حرارة ورطوبة ورياح وضوء، والتي تؤثر تأثيرًا مباشرًا على نمو النبات، وأن هذه العوامل تتداخل فيما بينها، وإن ارتباطها بشكل جيد يزيد من إنتاجية وجودة العنب، كما وأن التقلبات الجوية والسنوية تؤثر على نضج العناقيد، وبطريقة غير مباشرة، على تطور وانتشار الأمراض والآفات.

وقد أثبتت التجارب والأبحاث أن تعرض سطح التربة الزراعية للحرارة والرطوبة يؤثر على خواصها الطبيعية والكيميائية، كما يعرضها للتعرية، وقد وجد أنه من الأفضل زراعة محاصيل تغطية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٩.

تحمي التربة، وجذور العنب من الجفاف والتعرض المباشر للضوء والحرارة، كما أن زراعة مصدات للرياح من شأنه حماية التربة والنباتات من العواصف الصحراوية الشديدة، وتمنع تساقط الأزهار والعقد، وتثبيت التربة وتحفظها من عوامل التعرية، وبشرط توفير الإضاءة اللازمة للنبات؛ لحاجته إليها؛ لأن التظليل يضرها كثيرًا؛ حيث لا يتحمل العنب سوى ظله فقط، وخير وسيلة لذلك زراعة أشجار النخيل حول بساتين الأعناب كما وصف الله عز وجل.

وأوصت هذه الأبحاث بضرورة زراعة محاصيل تغطية شتوية حينما تتساقط أوراق العنب لتزيد من خصوبة التربة وتساعد على دوران العناصر بها ونشاط الكائنات الدقيقة النافعة ومكافحة الآفات(١).

وكل هذه المواصفات قد اشتمل عليها قول الله عز وجل: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ فسبحان من أنزل الكتاب، وجعل فيه الآيات والعبر.

ثالثًا: النار من الشجر الأخضر:

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن من دلائل قدرته سبحانه أنه يجعل لهم من الشجر الأخضر الرطب نارًا يستدفئون بها، ويطهون عليها، وينتفعون بها في منافع شتى، قال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

والمعنى الظاهر للآية: أن الله عز وجل قادرٌ على إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب، مع أن الخضرة والرطوبة ضد النار المحرقة، وهذا من آيات الله سبحانه؛ فهو سبحانه الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صارت خضرًا نضرًا ذا ثمرٍ وينعٍ، ثم أعادها سبحانه إلى أن صارت حطبًا يابسًا، توقد به النار، فكذلك هو سبحانه فعالٌ لما يشاء، قادرٌ على ما يريد، لا يمنعه شيء(٢).

إلا أنه في هذا العصر اكتشف العلماء أن مما يقوم به الشجر الأخضر من وظائف إنما هي في غاية الدقة والتعقيد، وفي منتهى الإبداع، ولا تستطيع جميع مصانع البشر حتى تقليدها إلى يومنا هذا؛ فإن عملية التركيب الضوئي التي تتم في الورقة الخضراء عملية في غاية الأهمية للنبات والإنسان والحيوان؛ فمن خلال هذه العملية يصنع النبات مادة الجلوكوز أو السكر

(١) انظر: الإعجاز العلمي في تصميم مزارع الأعناب، محمد طاهر موسى، وهو من أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، دولة الإمارات، دبي ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٣٨٥.

الأحادي، ومن ثم النشا، والذي يخزن في النبات ويستعمله الإنسان والحيوان كمصدر أساسي للطاقة.

والنبات الأخضر هو الذي يمتص كميات ثاني أكسيد الكربون الزائدة في الجو، والتي لو زادت عن حدها لأدى ذلك إلى اختلال عظيم على الأرض؛ لكن الورقة الخضراء بأمر الله تنقذنا من هذه المادة الضارة لا بل تحولها إلى مادة هي مصدر طاقة أساسي لمعظم الكائنات الحية ألا وهو الجلوكوز الناتج من المعادلة

والأروع من هذا والأبدع هو الناتج الثاني وهو الأكسجين؛ فلا نار يمكن أن توقد من دون أوكسجين وكم من الكم الهائل من النيران توقد يوميا على هذه الأرض للطهي وفي الصناعات، وكلها لن توقد من دون أوكسجين فمن يعوض كل هذه الكميات المستهلكة من الأوكسجين؟ إنه الشجر الأخضر.

والأكسجين ضروري لكل خلية في كل كائن حي؛ وذلك لأنه بالأكسجين يتم تحويل الغذاء إلى طاقة لازمة لقيام كل خلية بنشاطها الحيوي، وأداء دورها الوظيفي.

وبهذا نرى بديع صنع الله سبحانه، وعظيم خلقه، ونعلم أن النار التي يجعلها الله سبحانه من الشجر الأخضر ليست فقط النار التي توقد من الخشب؛ بل هي أعم من ذلك وأعمق.

وهنا يسأل العاقل نفسه: هل كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من يعلم أن اللون الأخضر في النبات هو سبب وجود النار والطاقة على سطح الكرة الأرضية؟

موضوعات ذات صلة

الآيات الكونية، البعث، الرياح، السحاب، السماء، الشجر، الماء



عناصر الموضوع

مفهوم النبوة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأصل في كلمة النبوة أنها مأخوذة من مادة (نبأ)، والنون والباء والهمزة قياسه الإتيان من مكان إلى مكان، يقال للذي ينبأ من أرض إلى أرض نابئ؛ لأنه يأتي من مكان إلى مكان، والفعل نبأته، وأنبأته، واستنبأته، والنبي: الذي يأتي بالأنباء عن الله عز وجل [1]، فأخباره هي ما أمره الله أن يخبرنا بها؛ فهي تأتينا من فوق العرش. والجمع: الأنبياء، والنبيون.

وقيل: إنها مشتقة من النبوة والنباوة، وهي الارتفاع، أي: إنه أشرف على سائر الخلق، وأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته [2]، والنبيء: الطريق الواضح [3].

وقيل: من النبأ: الخبر، والمنبئ: المخبر، ومنه قراءة نافع: (النبيئين) و(الأنبئاء) و(النبيئون) [4]، ومفردها النبيء على وزن فعيل بمعنى فاعل للمبالغة؛ لأنه أنبأ عن الله تعالى، أي: أخبر، ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه، والاسم منها النبوءة، التي هي الإخبار عن الله جل جلاله [5].

وهذه المعاني الثلاثة تجتمع في النبي، يقول الإمام الخطابي رحمه الله: «وإنما سمي الأنبياء؛ لأنهم قد ارتفعت منزلتهم، واستعلت درجتهم على سائر الخلق، والنبي: الطريق، وسمي رسل الله أنبياء لأنهم الطرق إلى الله» [6].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

النبي في الاصطلاح: «من أوحي إليه وحيًا خاصًّا من الله بتكليم الله جل جلاله له، أو بتوسط ملك، أو بإلهام في قلبه، أو بالرؤيا الصالحة، وقد ختمت النبوة، وانقطع الوحي بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم» [7].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٢.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٨٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٦٣.
(٣) انظر: لسان العرب ١/ ١٦٤.
(٤) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص٨٥٣، معاني القراءات، الأزهري ١/ ١٥٣.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٣، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٣، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٣٤٥.
(٦) غريب الحديث، الخطابي ٣/ ١٩٣.
(٧) معجم لغة الفقهاء ص ٤٧٤.

النبوة في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (نبأ) في القرآن الكريم (١٦٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٥	﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]
الأسماء	٧٥	﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]

وجاءت النبوة في القرآن بمعنى: السفارة بين الله والخلق؛ لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم، وهي إما من الفعل (نبا)، وهو: ما ارتفع من الأرض؛ لأن النبوة شرف على سائر الخلق، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى مفعول. أو من الفعل (نبأ) و (نبّأ) و (أنبأ) بالهمز، من الإخبار،؛لأنه مُنبَأٌ ومُخبَرٌ من الله، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى مفعول أيضًا، أو لأنه منبئٌ ومخبر عن الله، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى فاعل[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٨٥-٦٨٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٠٣-١٣٠٦.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ١٣٤-١٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٤-١٥، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧٨٨-٧٨٩، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوحي:

الوحي لغة:

إلقاء علم من طرف لآخر في خفاء[(١)].

الوحي اصطلاحًا:

المعنى المبثوث إلى من أريد به في خفاء، لتنفيذه بحسب ما يقتضيه المعنى.

الفرق بين النبوة والوحي:

النبوة هي درجة يكرم الله بها من شاء من عباده، ولا تكون إلا بالوحي بمعناه الأخص، وهي أن يرسل الله للنبي بالرسول الملكي، وهو جبريل عليه السلام، وقد ختمت النبوة بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إلا ما يكون من مبعث عيسى عليه السلام في آخر الزمان، أما الوحي فقد بقيت صورة من صوره وهي الرؤيا الصالحة.

٢ الرسالة:

الرسالة لغة:

العبارات المؤلفة، والمعاني المدونة، المبعوثة من شخص لآخر بواسطة ناقل[(٢)].

الرسالة اصطلاحًا:

هي الشريعة التي يبعث الله بها من شاء من عباده إلى قومه أو الناس كافة، وهي متضمنة لأحكام يكلف الله بها عباده، وأخبار وجب عليهم تصديقها.

الفرق بين النبوة والرسالة:

النبوة هي وحي من الله تبارك وتعالى لعبد من عباده في أمة كان الله قد بعث فيها رسولًا بشريعة، ويبعث هذا النبي لتجديد هذه الشريعة، أما الرسالة فهي وحي من الله جل جلاله لعبد من عباده بشرع جديد، يتضمن أحكامًا مغايرة لمن سبقه من الرسل، وهذه الأحكام في باب الأوامر والنواهي، وليس في باب العقائد والأخبار، وبذلك تكون الرسالة رتبة أعلى من النبوة؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٩٣.
(٢) الكليات، الكفوي ص٤٧٦.



٣ الصديقية:

الصديقية لغة:

التصديق بكل أمر أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه، لا يتخالج قلب الصديق شكٌّ في شيء منه.

الصديقية اصطلاحًا:

وصف يطلق على من يأتي بعد الأنبياء في قوة الإيمان، وحسن الطاعة[١].

الفرق بين النبوة والصديقية:

النبوة هي أعلى درجات الكمال البشري، ويأتي بعدها في الرتبة درجة الصديقية؛ وهي درجة من أعلى درجات الولاية، وأدنى درجات النبوة[٢]، ولا واسطة بينها وبين النبوة، فمن جاوزها وقع في النبوة بفضل الله تعالى في الزمان الأول، وذلك أن الصديق يؤمن بما جاء به الرسول دون أن يطلب على ذلك برهان؛ بل يقبله بما أكرمه الله به من صحيح الفطرة وسلامتها من الانحراف، فيصدقه ويناصره، فيكون الواسطة في الأخبار بين الله وبين النبي الوحي، بينما الصديق واسطته في ذلك النبي، ويطلق على الصديق أيضًا الحواري.

٤ الولاية:

الولاية لغة:

النصرة والمحبة[٣].

الولاية اصطلاحًا:

درجة وكرامة من الله جل جلاله ينالها العبد بسبب إيمانه بالله، وتقربه له، وطاعته إياه.

الفرق بين النبوة والولاية:

الولاية صفة عامة لكل من آمن بالله وأطاعه واتقاه، وهي درجات أعلاها النبوة، ويأتي بعد النبوة في الرتبة الصديقية كما سبق بيانه، ولكن بينها جميعًا عموم وخصوص، وعلى ذلك تكون كالإسلام مع الإيمان؛ إذا اجتمعت اختلفت، وإذا افترقت اتفقت، وتكون الولاية بذلك رتبة ثالثة بعد الصديقية[٤].

(١) انظر: الكليات ص٥٥٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص٤٩٦.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٥٧.

وجوب الإيمان بالأنبياء

الإيمان بالأنبياء أصل عظيم من أصول الإسلام، ولا يصح للعبد إيمان ولا تتحقق له نجاة حتى يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعًا، ولا يفرق بين أحد منهم في أصل الإيمان بأنهم جميعًا من عند الله، وأنهم سفراء الله إلى خلقه، وحملة رسالاته إليهم، وأنهم جاؤوا بالهدى والحق المبين الذي من حاد عنه فقد ضل، ومن التزم به هدي إلى صراط مستقيم، وأنهم قد بلغوا هذا الحق إلى الناس على الوجه الأكمل كما أمرهم الله.

والواجب على العبد المسلم أن يؤمن بالأنبياء والمرسلين جملة وتفصيلًا، فيؤمن إجمالًا بكل نبي أو رسول من عند الله جل جلاله، وإن كان لا يعرف أسماء بعضهم أو صفاتهم، أو ما كان بينهم وبين أقوامهم.

ويؤمن تفصيلًا بمن سمى الله في كتابه منهم، على النحو الذي أخبر الله به عنهم.

أولًا: الأنبياء الذين ذكروا بأسمائهم:

والأنبياء الذين سمى الله لنا أسماءهم في كتابه خمسة وعشرون نبيًّا، وهم:

إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيي، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط، وآدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ذكر من هؤلاء الأنبياء ثمانية عشر نبيًّا في موضع واحد، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

وذكر السبعة الباقين وهم آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد عليهم صلوات الله أجمعين في مواضع متفرقة من كتابه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦١].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهؤلاء الأنبياء والمرسلون المذكورون بأسمائهم في كتاب الله «علينا أن نؤمن بهم تفصيلًا كما أخبرنا الله عنهم.

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالًا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم، دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه؛ قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]»[(١)].

ثانيًا: من اختلف في نبوتهم:

الأنبياء السالف ذكرهم أثبت الله عز وجل لهم النبوة في كتابه، وهناك من اختلف العلماء في نبوتهم، هل هم من الأنبياء أم من الصالحين؟ ومنهم:

١. الخضر.

اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي، أم ولي، أم ملك؟

قال القرطبي رحمه الله: «الخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح غير نبي. وقيل: كان ملكًا أمر الله موسى أن يأخذ عنه»[(٢)].

ومَرَدُّ اختلاف العلماء إلى دلالات الآيات المذكورة في حديث موسى مع الخضر في سورة الكهف، كقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وكقوله تعالى في شأنه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وقوله تعالى حكاية عن الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢].

والراجح قول الجمهور: أنه كان نبيًّا، والدليل عليه ما يلي:

أولًا: أن الآيات في سورة الكهف تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي من الله.

ثانيًا: أن موسى عليه السلام تبعه ليتعلم منه، والإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس ولا يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي.

ثالثًا: يفهم من قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحي[(٣)].

٢. ذو القرنين.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس ١/ ٦٣-٦٤ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٢٢.

اختلف العلماء في ذي القرنين: منهم من قال: كان عبدًا صالحًا. ومنهم من قال: كان نبيًا. ومنهم من قال: كان ملكًا من الملائكة.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

«يستدل بهذا من يزعم أنه كان نبيًا، فإن الله خاطبه بالوحي، ومن قال: إنه لم يكن نبيًا أوله بالإلهام، ويحتمل أن يكون الخطاب على لسان نبي غيره»[١].

وفي هذه الآية اختلف العلماء: هل هذا الخطاب كان خطابًا من الله له أم كان بواسطة نبي معه؟

فمن قال: كان خطابًا من الله له أثبت له النبوة، ومن قال: كان بواسطة نبي معه نفى عنه النبوة.

٣. تبع.

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤].

فهل كان نبيًا مرسلًا إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله؟ الله أعلم بذلك[٢].

٤. الأسباط.

فالأسباط: جمع سبط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف. وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم، وقيل غير ذلك.

قال ابن حجر: «اختلف في نبوتهم، فقيل: كانوا أنبياء. وقيل: لم يكن فيهم نبي، وإنما المراد بالأسباط قبائل من بني إسرائيل، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير»[٣].

وممن صرح بنفي نبوتهم القاضي عياض حيث قال: «وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم، فيلزم الكلام على أفعالهم، وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء قال المفسرون: يريد من نُبِّىءَ من أبناء الأسباط»[٤].

وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ثالثًا: عدد الأنبياء والمرسلين وحكم

(١) فتح البيان، القنوجي ٨/ ١٠٩.

(٢) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٢١-٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤١٩.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٣٧٣.

من فرق بينهم:

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعذب أمة إلا بعد إرسال الرسول لها مبلغًا ومنذرًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذا يدلنا على كثرة الأنبياء والمرسلين إلى الأمم، فكل أمة لها رسول من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

والله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾

[النساء: ١٦٣-١٦٤].

١. عدد الأنبياء.

«عدد الأنبياء لا يحصى؛ إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرين ألفًا، أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلًا، وهم خمسة وعشرون، وهم من الرسل، وهم كالآتي:

آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيي، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، اليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد -صلوات الله عليهم أجمعين-»[1].

فهؤلاء هم المذكورون في القرآن الكريم بأسمائهم.

وهناك أنبياء ومرسلون لا نعرف أسماءهم، ولم يقص الله علينا من أخبارهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

فليس في القرآن حصر لعدد الأنبياء والمرسلين، لكن الواضح من القرآن أنهم كانوا أعدادًا كبيرة، يدلنا على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

حيث تبين هاتان الآيتان أن كل الأمم وكل القرى التي أخذها الله تعالى كان لها منذرون من قبل الله جل جلاله، وهذا إن دل فإنما يدل على أن عدد الأنبياء والمرسلين كان غفيرًا.

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ١/ ١٣-١٤.

ويؤيد هذا بعض الآثار التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ففي المعجم الكبير أن أبا ذر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قلت: يا نبي الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: (مائة ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائةٍ وخمسة عشر جمًّا غفيرًا)[1].

وأيًا ما كان الأمر فإننا نقول: إن الواجب على المسلم -كما مر معنا- أن يؤمن إجمالًا بكل الأنبياء والمرسلين دون أن يفرق بين أحد منهم، وأن يؤمن تفصيلًا بمن ذكر الله منهم، ونص عليهم بأسمائهم في كتابه الكريم.

٢. حكم من فرق بينهم.

دين الله واحد وإن اختلفت أحكام الشرائع، وأنبياء الله إخوة، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحدٌ)[2].

فالواجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء؛ لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، ولا نفرق بين أحد منهم، فلا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فهذه الآيات تدلنا على أن «من كفر بنبي واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم، ولم ينفعه إيمانه به»[3].

«وأن الكفر برسل الله هو كفر بالله»[4].

وما ذلك إلا لأن الإيمان بالله «يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم»[5].

وقد أكد الله كفرهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١].

فتعريف جزأي الجملة، والإتيان بضمير الفصل يفيد «قصر صفة الكفر عليهم»[6].

وهذا يظهر شدة كفرهم؛ لئلا «يتوهم أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٨/ ٢١٧. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٥٩٩، رقم ٥٧٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٣.

(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ٣٤٨.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٩٥٧.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٤٢.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١١.

مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر»[١].

ومما يؤكد كفر من فرق بين الرسل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

فهاهنا تبين الآية أن المؤمنين ديدنهم هو عدم التفريق بين الرسل أبدًا، وبالتالي فهي تقطع بأن «من آمن برسول من رسل الله ولم يؤمن بجميع الرسل فليس من المؤمنين، ومن تمسَّكَ بكتاب وكفر بما سواه من كتب الله فهو من الكافرين»[٢].

وكذا جاء نفس الأمر في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وهكذا يظهر لنا أن من فرق بين رسل الله عز وجل فآمن ببعضهم، وكفر بالبعض الآخر فهو كافر قطعًا «وهذا لا يمنع المفاضلة بينهم؛ إذ المقصود عدم التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعضهم»[٣]. أو إذا كان ذلك على سبيل العصبية والاستنقاص.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢١٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ١٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٣٩ بتصرف.

رابعًا: التفاضل بين الأنبياء:

لله تعالى أن يصطفي من يشاء من عباده، والرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام هم ممن اصطفاهم الله لحمل الرسالة، وإبلاغ الهداية إلى الناس، فجعلهم سفراءه إلى خلقه بالرحمة والهدى، وهؤلاء الرسل -على علو مقامهم وشريف منزلتهم- درجات عند الله في الفضل، بعضهم أفضل من بعض.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وكذا قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ففي هذه الآية يخبر المولى جل جلاله أنه «فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة، والنفع العام»[٤].

خامسًا: أولو العزم من الرسل هم أفضل الرسل:

إذا كان الرب جل وعلا فضل بعض

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٩.

الرسل على بعض، فإن أفضل الرسل هم أولو العزم.

قال تعالى لنبيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فـ«أولو العزم من المرسلين سادات الخلق أولو العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم»[(١)].

وقد اختلف العلماء في تعداد أولي العزم على أقوال «وأشهرها، أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع، فقال جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [الأحزاب: ٧].

وتخصيص الخمسة المذكورين في الآية مع اندراجهم مع النبيين «للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، وأساطين أولي العزم من الرسل»[(٣)].

أسباب التفضيل:

أسباب التفضيل بين الرسل وأسرار تفاوت الرتب بينهم لا يعلمها إلا الله عز وجل «غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر، ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدى البشر، وفي عموم ذلك الهدى ودوامه»[(٤)].

كذلك يتعلق التفضيل «بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما مَنَّ به عليهم من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية»[(٥)].

وقد ذكر الله في كتابه مزايا كثيرة لبعض الأنبياء فيها إظهار لمزيد فضلهم، وعظيم شرفهم، وفيما يلي عرض لهذه المزايا:

١ . آدم عليه السلام.

هو أبو البشرية، وقد ذكر القرآن له عددًا من الخصائص:

❁ أن الله خلقه بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه.

وهذه من الفضائل العظيمة التي خصَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٠٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٩٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٠.

بها سيدنا آدم عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وهنا يخبر المولى جل جلاله عن خلقه المباشر لسيدنا آدم عليه السلام، وهذه خصيصة عظيمة لآدم حيث خلقه الله بيديه مباشرة، فلم يكن له أب ولا أم، وفي هذا «إيماء إلى شرف آدم عليه السلام، وعظم مكانته»[(١)].

❁ تعليم الله له.

وهذه من الخصائص العالية القدر التي ذكرت لآدم عليه السلام، فهي تدل على عظيم رعاية الرب له، وشريف عنايته به.

قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

ففي هذه الآيات يظهر المولى جل وعلا فضل آدم عليه السلام من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له، فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية، ثم إن العلم الذي يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ، فيقع صاحبه في الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح، بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله، فإنه علم مطابق للواقع قطعًا، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح[(٢)].

❁ سجود الملائكة له.

وهذا من المواقف العظيمة التي ذكرها القرآن في غير ما موضع والتي تشي بعظيم فضل آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي حديث الشفاعة الطويل: (**فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك**)[(٣)].

فأَمْرُ الملائكة بالسجود لآدم -لاشك- يدل على مدى رفعة هذا النبي وعلو مقامه، وفي هذا «كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام»[(٤)].

---

(١) تفسير المراغي ١٤/ ٢١.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٤، رقم ٣٣٤٠.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٨٩.

٢. **نوح عليه السلام.**

هو من الرسل الكرام، بل هو من أولي العزم الذين فضلهم الله على بقية الأنبياء والرسل، وقد ورد ذكره في القرآن كثيرًا، ومن المزايا التي ذكرها القرآن له أنه:

أول الرسل إلى أهل الأرض.

وهذا من المزايا الرفيعة التي اختص بها سيدنا نوح.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فإنه بدأ بذكر نوح عليه السلام «لأن نوحًا أول رسول أرسله الله إلى الناس»[١].

وفي حديث الشفاعة يأتي بعض الخلق (فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض)[٢].

فالرسل موكب كريم شريف القدر عالي المقام، وأن يكون نوح عليه السلام هو مفتتح هذا الركب الميمون، فهذا تشريف كبير له.

٣. **إبراهيم عليه السلام.**

إبراهيم عليه السلام من الأنبياء الكبار أصحاب الفضل العظيم، والمقام الرفيع، وقد حفل القرآن بكثير من مزاياه وخصائصه، وفيما يلي عرض لأبرزها:

النبي الإمام.

وهذه مرتبة رفيعة، ومزية جليلة اختص بها سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهاهنا يخبر الرب الجليل أنه ابتلى نبيه إبراهيم «ببعض الأوامر والنواهي، فأداها خير الأداء، وأتى بها على وجه الكمال»[٣].

فجعله الله إمامًا للناس «يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعًا، وتكون له فيهم قيادة»[٤].

وبذلك يحصل له الثناء الدائم، والتعظيم المستمر، والأجر الذي لا ينقطع.

النبي الخليل.

وهذه من الدرجات الرفيعة، ومن المزايا الجليلة التي ذكرها القرآن لإبراهيم.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٥١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٥، رقم ٣٣٤٠.
(٣) تفسير المراغي ١/ ٢٠٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١١٢.

فالخلة «تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما»[1].

ولشريف هذا المنصب فإنه لم يختص به إلا إبراهيم ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما-، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا)[2].

ومنزلة الخلة هذه تُظْهِرُ -ولا شك- ما لإبراهيم عند الله من مكانة، فهي «منزلة عليا من منازل القرب من الله، لا تكاد تدانيها منزلة»[3].

❁ جعل النبوة والكتاب في ذريته.

النبوة شرف ما بعده شرف، فالأنبياء والرسل هم منارات الهدى للبشر، وأدلاء الناس على طريق خالقهم، فأن يكونوا في ذرية إبراهيم فـ«هذه خلعة سنية عظيمة»[4]. تدل على علو قدره.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فهذه الآية تبين كيف أن شرف النبوة قد انحصر في سلالة إبراهيم عليه السلام «فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم»[5]. وأن تكون مواد الهداية والخير «والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، فهذا من أعظم المناقب والمفاخر التي أكرم الله بها هذا النبي عليه الصلاة والسلام»[6].

٤. موسى عليه السلام.

هو من الأنبياء الذين توسع القرآن في ذكر خبرهم، وما كان من شأنهم مع أقوامهم، ومن مزاياه التي أشار إليها القرآن:

❁ تكليم الله له.

وهذه من المزايا العظيمة التي أكرم الله بها موسى عليه السلام، وقد ذكرها القرآن في أكثر من موضع.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

فتكليم الله لموسى «تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم»[7].

وهذه خصيصة انفرد بها موسى عليه

(١) الداء والدواء، ابن القيم ص١٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ١/ ٣٧٧، رقم ٥٣٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٩١٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٠.
(٦) المصدر السابق بتصرف.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٣.

السلام دون غيره من الأنبياء والرسل وهي -حتمًا- تدل على مدى عظمة هذا النبي، وعلو قدره عند ربه؛ إذ «وقف في أكرم موقف يلقاه إنسان»[1].

٥. عيسى عليه السلام.

احتفى القرآن بذكر عيسى عليه السلام، وعدد له الكثير من المزايا والخصائص، وفيما يلي عرض لها:

❁ رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

الأنبياء جميعًا -عدا آدم عليه السلام- لهم آباء وأمهات، ولكن سيدنا عيسى اختص بميلاد عجيب، حيث إن ميلاده جعله الله آية، فقد ولد بغير أب.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فقد سمي بكلمة الله «لأنه كان بالكلمة من الله؛ لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته، وعجائب مخلوقاته»[2]. وهذه مزية عظيمة لعيسى عليه السلام.

ومن الآيات التي ذكرت هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وهاهنا يؤكد القرآن على كون عيسى خلق خلقًا مغايرًا لما تجري عليه الأسباب؛ فقد كان بكلمة الله التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

أي: «أوصلها إليها، وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة»[3].

❁ الكلام في المهد.

وهذه من الخصائص التي أكرم الله بها نبيه عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

أي: إن عيسى عليه السلام سيدعو إلى عبادة الله وحده «في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه بذلك»[4].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى...)[5]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٩٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣١.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٤٧٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

الحديث.

وخص تكليمه في حال كونه في المهد وحال كونه كهلًا مع أنه يتكلم فيما بينهما «لأن لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إياه، فأما تكليمه الناس في المهد؛ فلأنه خارق عادة إرهاصًا لنبوءته، وأما تكليمهم كهلًا فمراد به دعوته الناس إلى الشريعة»[1].

❁ رفعه إلى السماء ونزوله في آخر الزمان.

وهذه من المزايا التي تفرد بها هذا النبي الكريم، قال جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن عيسى عليه السلام رفع بجسده وروحه.

قال ابن تيمية: «عيسى عليه السلام حي، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفسي بيده، ليوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عادلًا، وإمامًا مقسطًا، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ)[2].

وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال[3]. ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].

فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء.

وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ

الأنبياء، باب قوله: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، ٤/ ١٦٥، رقم ٣٤٣٦.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، ٣/ ٨٢، رقم ٢٢٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم، ١/ ١٣٥، رقم ١٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الدجال وصفته، ٤/ ٢٢٥٠، رقم ٢٩٣٧.

﴿إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

فقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه، كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات[(١)].

٦. محمد صلى الله عليه وسلم.

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له الكثير من الفضائل والمزايا التي ذكرها الله في كتابه، وفيما يلي عرض لها:

❁ خاتم النبيين.

وهذه من الفضائل العظيمة التي كانت من نصيب محمد صلى الله عليه وسلم، فالنبوة سلسلة رفيعة القدر، فأن يكون هو خاتمها وحلقتها الأخيرة فهذا يدل على عظيم قدره.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فكونه النبي الخاتم يدل على أنه صلى الله عليه وسلم «وارث النبيين جميعًا، والمهيمن برسالته على رسالات الرسل كلهم، فلا رسول بعده إلى يوم الدين؛ لقد ختمت به رسالات السماء، وأضيفت شعاعاتها كلها إلى شمس شريعته، فأصبحت تلك الشعاعات مضمونًا من مضامينها، وقبسًا من أقباسها، فلا هدى بعد هذا إلا من هداها، ولا نورًا إلا من نورها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]»[(٢)(٣)].

❁ أرسل للناس عامة.

وهذه من المناقب العظيمة التي أكرم الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فرسالته هي «الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية، محدودة بفترة من الزمان»[(٤)].

وكان النبي في السابق يرسل لقومه خاصة، ولكنه صلى الله عليه وسلم بعث للناس عامة، قال صلى الله عليه وسلم: **(وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامةً)**[(٥)].

فهو المبعوث للثقلين للإنس والجن،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٧٢٦.

(٣) لا يقدح في كون النبي خاتم النبيين نزول عيسى بعده، لأن معنى ختمه للنبوة أن لا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن نبىء قبله، وحين ينزل إنما ينزل عاملًا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، مصليًا إلى قبلته، كأنه بعض أمته. انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٦ بتصرف.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، ١/ ٧٤، رقم ٣٣٥ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.

قال عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أي: إن النبي بعث «إلى كافة الإنس وكافة الجن»[(١)].

وأن يكون النبي رسولًا للعالمين، فهذا يدل على علو مقامه عند ربه «وهو مقام لا يطاول، ومنزلة لا تنال، قد انفرد بها صلى الله عليه وسلم من بين رسل الله وأنبيائه جميعًا، فهو رسول الإنسانية كلها، والشمس التي تملأ آفاقها، وتدخل كل مكان فيها»[(٢)].

❁ صاحب المقام المحمود.

وهذا مقام عظيم أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام العرب تفيد التوقع، أما في كلام الله فإنها تفيد الوجوب والقطع، قال الإمام الرازي: «اتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من الله واجبة؛ لأن لفظة (عسى) تفيد الإطماع، ومن أطمع إنسانًا في شيء ثم حرمه كان عارًا، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدًا في شيء، ثم لا يعطيه ذلك»[(٣)].

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٦٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨١٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٨٧ بحذف يسير.

فالله عز وجل يقول لنبيه: داوم على ما أمرت به من العبادة: «لنقيمك يوم القيامة مقامًا يحسدك فيه الخلائق كلهم»[(٤)].

قال ابن جرير: «أكثر أهل العلم على أن المقام المحمود هو ذلك المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم»[(٥)]. وهذا مقام عظيم يوم القيامة يشي بعظم شأن النبي صلى الله عليه وسلم عند خالقه.

❁ قسم الله به.

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ففي هذه الآية «شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أقسم بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه»[(٦)].

وقسم الله بحياة نبيه يدل على «تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض»[(٧)].

❁ لم يخاطبه الرب باسمه المجرد.

خاطب الله أنبياءه بأسمائهم المجردة، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٦ بتصرف.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٦٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٤٢.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

ولكن لم يناد الله عز وجل نبيه باسمه المجرد أبدًا، وما ناداه إلا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ﴾ [الطلاق: ١].

فكون النبي لا يخاطب باسمه المجرد، فهذا -لا شك- يشير «إلى المحبة والقرب من ربه، الذي يخلع عليه ما يخلع من أوصاف التكريم، ويناديه بها، حتى لكأنها علم عليه وحده»[(١)].

- الثناء عليه بجميع خلقه.

إن الله عز وجل أثنى على أنبيائه كثيرًا، ولكنه كان يمدحهم ومدحهم ببعض أخلاقهم، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٥٧].

ووصف موسى عليه السلام بأنه ﴿كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

وأثنى على إسماعيل بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

ولكنه لمَّا أثنى على محمد صلى الله عليه وسلم أثنى عليه بجميع خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وتأمل كيف أنه عبر بـ(على) التي هي «للاستعلاء المجازي، المراد به التمكن»[(٢)].

وهذا يشعر بمدى تمكن النبي ورسوخه في كل خلق كريم، «وحسب رسول الله شرفًا وعزًّا بهذا الوصف الكريم من الله تعالى حسبه بهذا، حيث توجه ربه عز وجل بتاج الكمال كله؛ إذ ليس بعد حسن الخلق حلية تتحلى بها النفوس، أو تاج تتوج به الرؤوس»[(٣)].

- صلاة الله وملائكته عليه.

وهذه وحدها مزية عظيمة جليلة، تدل على قدر النبي عليه الصلاة السلام عند خالقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وصلاة الله على النبي تعني «ذكره بالثناء في الملأ الأعلى، وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله تعالى»[(٤)].

وهذه الآية «شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم حياته وموته، وذكر منزلته

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ١٠٠٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١٠٨١-١٠٨٢.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٩.

منه»[1]. فيا لها من منزلة كريمة.

* اختصاصه بمعجزة القرآن.

الأنبياء السابقون آتاهم الله عز وجل عددًا من المعجزات، ولكنها كانت مخصوصة بزمنهم، وموقوتة بحياتهم، ولكن المولى تبارك وتعالى اختص حبيبه ومصطفاه بمعجزته الكبرى، والتي ستبقى خالدة على امتداد الزمان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وهنا يمتن الحق سبحانه على رسوله «بأنه يكفيه أن أنزل عليه القرآن الكتاب المعجزة، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، فالقرآن يضم كمالات الحق التي لا تنتهي»[2].

إن معجزة القرآن معجزة لها خصوصيتها وتفردها عن كل ما تقدمها من معجزات، فهي معجزة «مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل»[3]. فأن يختص بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهذه -لا شك- مزية عظيمة.

النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[البقرة: ٢٥٣].

وهذه الآية تقطع بوجود التفاضل بين الأنبياء والرسل، ولكن هناك أحاديث ثابتة تنهى عن التفضيل، ومن ذلك قوله: (لا تخيروني على موسى)[4]، و(لا تفضلوا بين أنبياء الله)[5] أي: لا تقولوا: فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان؛ ولكن هذه الأحاديث لا تعارض بينها وبين الآية.

قال الإمام القرطبي: يمكن الجمع بين الآية والأحاديث من وجوه:

* أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل.
* أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع.
* أو أن المراد النهي عن الخوض في ذلك؛ لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال، والجدال قد يؤدي إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٣٢.
(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ٧٧٦١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، ٣/ ١٢٠، رقم ٢٤١١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، ٤/ ١٥٩، رقم ٣٤١٤.

وقد يؤدي إلى قلة احترامهم، والعصبية المقيتة لبعضهم.

ثم قال: وأحسن من هذا القول من قال: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة، لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها؛ ولذلك فهم رسل وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله، فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطي من الوسائل؛ وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير نسخ[(١)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/٢٦١-٢٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٦٧١، فتح الباري، ابن حجر ٦/٤٤٦.

شروط النبوة

لمرتبة النبوة شروط نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: الصدق:

لما كانت النبوة هي أداء رسالة، وتبليغ شريعة، وتوجيه للناس نحو الخير، كان من أهم شروط هذه الوظيفة العظيمة الصدق؛ لأن النبي مبلغ عن الله، أمين على وحيه، والكذب في حقه عظيم؛ لأنه كذبٌ على الله، وافتراء عليه، وتضليل للناس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

ثم إن النبي قدوة للناس، وأنموذج حي لتعاليم الله في الأرض؛ لذا اشترط فيه أن يكون صادقًا فيما يقوله أو يبلغه حتى يهتدي الناس به.

لذا كان الصدق من أخص صفات الأنبياء، ومن أهم الشروط التي جعلها الله فيمن اصطفاه لهذا المقام الكريم، ومن جعل القرآن نصب عينيه بانت له أمارات صدقهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

فهذا موسى عليه السلام يبين التزامه بالصدق خلقًا ومقامًا وحالًا لا يتجاوزه، فيقول: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

أي: «جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق، وحريٌّ بي أن ألتزمه»[1].

والمعنى: «أن الرسول لا يقول إلا الحق، فصار نظم الكلام كأنه قال: أنا رسول الله، ورسول الله لا يقول إلا الحق»[2].

فرسول الله خليق بألا يقول على الله إلا الحق والصدق.

وأثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤].

ففي هذه الآية «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعد ربه أو عبدًا من عباده وعدًا وفَّى به»[3].

وبالصدق الكثير وصف الله نبيه إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

«كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب»[4].

وصدِّيقٌ لفظ فيه «مبالغة في كونه صادقًا، وهو الذي يكون عادته الصدق؛ لأن هذا البناء ينبئ عن ذلك، يقال: رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال»[5]. فالصديق: كثير الصدق.

وبذات الوصف ذكر الله نبيه إدريس أيضًا، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦].

وجاء في آخر سورة المائدة قول عيسى عليه السلام لربه: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهو واضح جدًّا في التزام عيسى عليه السلام بما أمره الله به فقط، لم يزد عليه شيئًا، ولم ينقص منه شيئًا، وإنما هو الصدق في التبليغ، والامتثال في الأداء.

وكذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب -قبل إسلامه- عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فرد عليه: ما جربنا عليه كذبًا قط[6]. وهذه وهذا النص يظهر أنها صفة أصيلة في الرسل حتى قبل مبعثهم.

ولقد بين سبحانه وعيد من كذب على الله من أنبيائه أو تَقَوَّلَ عليه ما لم يأمر به،

(١) التفسير الميسر ص١٦٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٢٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢١١.
(٤) المصدر السابق ١٨/ ٢٠٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٢.
(٦) انظر: تفصيل القصة في صحيح البخاري في بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ١/ ٨، رقم ٧، وصحيح مسلم، كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، رقم ١٧٧٣.

فقال في وعيد شديد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

والتَّقَوُّلُ: «أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئًا لم يقله»[(١)].

و ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: «بالقوة والقدرة، أي: لأخذناه بالقوة»[(٢)].

والوتين: «نياط القلب، وهو حبل الوريد: إذا قطع مات صاحبه»[(٣)].

والمعنى: «ولو ادعى علينا شيئًا لم نقله لقتلناه صبرًا[(٤)]، كما يفعل الملوك بمن يكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده، وتضرب رقبته»[(٥)].

وما دامت هذه العقوبة لم تقع بأحد منهم، فهذا يبين أنهم كانوا صادقين فيما بلغوه عن الله تعالى، وأن أحدًا منهم لم يفتر على الله كذبًا.

ثانيًا: الأمانة:

وهذه صفة قرينة لصفة الصدق التي سبقت، فلا يكون الكاذب أمينًا، كما أن الخائن يستحيل أن يكون صادقًا؛ لذا يلزم أن يكون الصادق أمينًا والأمين صادقًا، ومن ثم كانت هذه من الصفات الواجب توافرها في الأنبياء.

وأن يكون النبي أمينًا، فهذا يعني أنه «يبلغ أوامر ربه ونواهيه إلى العباد دون زيادة أو نقص، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]»[(٦)].

والأنبياء جميعًا مؤتمنون على الوحي، يبلغون أوامر الله كما أنزلها إليهم، ولا يمكن لهم أن تجري عليهم الخيانة أبدًا «فهل يليق بنبي أن يكتم أمانته، فلا ينصح الأمة، ولا يبلغ رسالة الله»[(٧)].

وهذا تجده واضحًا فيما جاء على لسان أغلب الرسل في القرآن الكريم، فكل واحد منهم قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

فها هو نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٧-١٠٨].

وتأمل كيف أنه استخدم حرف التوكيد ﴿إِنِّي﴾ مع أن أحدًا لم ينكر عليه أمانته «لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٧٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٠٧.
(٤) يقال للرجل يقدم فتضرب عنقه: قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت.
انظر: تهذيب اللغة ١٢/ ١٢١.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٠٧.

(٦) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٤٤-٤٥.
(٧) المصدر السابق.



بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة»[1]؛ لأنها دليل الصدق، فالأمانة «تقتضي ألا يكذب على الله، فيدعي عليه الرسالة وهو لم يرسله، وتقتضي الأمانة فيما يخبرهم، ومع الأمانة الرعاية والمحبة والإخلاص لهم، والبر بهم»[2].

وها هو صالح عليه السلام يقول لقومه أيضًا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٣-١٤٤].

وكذا قالها لوط وهود وشعيب وغيرهم.

وأن تكون هذه مقالة الأنبياء لأقوامهم، فهذا يبين أن الله «لا يبعث الرسول إلا إذا كان معروفًا بالأمانة، وحسن الخلق قبل الرسالة»[3] إذ لو كان الرسول خائنًا «لغير في الشرائع الإلهية، ولأفسد في الأحكام التي يتلقاها عن الله تعالى، فيضيع بذلك الغرض من رسالته، وهو الصلاح والعمل بأوامر الله -تعالى وحده-، والله تعالى لا يحب المفسدين، ولا يؤيد الخائنين، فكيف يؤيد من خانه وينصره ويظهره؟! فلا بد إذًا أن رسل الله تعالى قد كانوا جميعًا أمناء في تبليغ ما حملوا، ومن كمال صفة الأنبياء تبليغهم كل ما أرسلهم الله تعالى به، وأداء رسالتهم ووظيفتهم المتمثلة في ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

نماذج عملية من أمانة النبي صلى الله عليه وسلم:

من صور الأمانة النبوية ما جاء ذكره في القرآن من عتابه تعالى لنبيه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية)[4].

ولكتم أيضًا عتاب الله له في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١-٢].

فعدم كتمانه لشيء يدل على شدة أمانته.

وهكذا يظهر لنا كيف أن الأمانة من الشروط التي يجب توافرها في الرسل والأنبياء «لتظل النفس مطمئنة إلى سلامة الوحي، وإلى كل ما جاء به النبي إنما هو أنه من عند الله، وصدق الله إذ يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٥٨.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٣٧٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٦٠، رقم ١٧٧.

﴿عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤](١).

ثالثًا: التبليغ عدم الكتمان:

وهذه صفة عظيمة من صفات الرسل الكرام ويقصد بها «أن يبلغ الرسل أحكام الله، ويبلغوا الوحي الذي نزل عليهم من السماء، فلا يكتموا شيئًا مما أوحاه الله إليهم، حتى ولو كان في تبليغه للناس إيذاء عظيم لهم، أو شر مستطير يلحقهم من الأشرار والفجار»(٢).

وقد أخبرنا تعالى أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

فها هنا نلحظ كيف أن نوحًا عليه السلام بعد أن نفى عن نفسه الضلالة «وصف نفسه بأربع صفات كريمة»(٣)، كانت الثانية بعد إخباره أنه رسول هي أنه مبلغ لرسالات ربه عز وجل.

وقد وردت هذه الصفة في أكثر من حوار للرسل مع أقوامهم.

فنبي الله صالح عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكذا شعيب عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ومما يظهر شدة وضوح هذه الصفة عند الرسل هو ما نلحظه من بدء بعض السور بـ(قل) كسورة الجن والكافرون والفلق والناس، فهي «أمر موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه لأمته»(٤)، فأن يقول ذلك دونما زيادة أو نقص مما يدل على شدة الحرص على البلاغ وعدم الكتمان.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

لقد كان بوسع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: «أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس» دون اللفظة التي خوطب بها، ولكن تبليغه العبارات كما هي يظهر شدة الحرص على البلاغ.

---

(١) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٢٩٨.
(٤) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٤٥.

عن زر بن حبيشٍ قال: (سألت أبي بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (قيل لي فقلت) فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) »[1].

وقد مر بنا قول عائشة رضي الله عنها: (لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧])[2].

ومما يظهر أيضًا شدة الحرص على البلاغ، أن النبي برغم ما كان يخشى في بدايات الدعوة من المواجهات الشديدة مع أهل قريش إلا أنه ما أن أنزل الله عليه قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. حتى (صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهرٍ، يا بني عديٍ -لبطون قريشٍ- حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٌ شديدٌ) فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١-٢][3].

وهكذا يظهر لنا أن التبليغ وعدم الكتمان من صفات الرسل.

رابعًا: العصمة:

ومن الشروط التي ذكرها الله للأنبياء العصمة؛ ولهذه العصمة في حياة الأنبياء وجوه كثيرة، منها ما يلي:

١. العصمة في التبليغ.

الشرع والعقل يلزمان بعصمة الأنبياء في التبليغ؛ لأن القول بعدم عصمة الأنبياء يفضي إلى القدح في تبليغهم الرسالة، حيث يمكن نسبة الكذب أو الخطأ أو الزيادة أو النقص في التشريع، وهذا غير ممكن في حقهم؛ لأن الله قد عصمهم من ذلك.

فهم معصومون في تحمل الوحي، وفيما يخبرون عن الله تعالى، فقد اتفقت الأمة أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة[4]، فلا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (الله الصمد)، ٦/ ١٨١، رقم ٤٩٧٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٦٠، رقم ١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ٦/ ١١١، رقم ٤٧٧٠.

(٤) نقل الإجماع على العصمة في هذا أكثر من واحد.

ينسون شيئًا مما أوحاه الله إليهم إلا شيئًا قد نسخ، وقد تكفل الله لرسوله بأن يقرئه فلا ينسى شيئًا مما أوحاه الله إليه، إلا شيئًا أراد الله أن ينسيه إياه.

قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

وتكفل بأن يجمعه له في صدره فقال: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٨].

وهم أيضًا معصومون في التبليغ، فالرسل لا يكتمون شيئًا مما أوحاه الله إليهم؛ وذلك لأن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير فإن عقاب الله يحل بهذا الكاتم المغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

ومما يدل على العصمة في التبليغ، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

ومن عصمته عصمتهم في هذا الشأن فعصمته عصمتهم من الكذب مطلقًا في أي حال من الأحوال سواء في تبليغ الرسالة، أو في غيره من أخباره وأخبارهم وأحواله وأحوالهم الدنيوية قبل البعثة وبعدها.

ويدل على هذا مبادرة الصحابة إلى تصديق الرسول في جميع أقواله، والثقة بجميع أخباره دون تردد أو توقف، بل قد أقرت قريش بصدقه عندما دعاهم في الصفا، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. **خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: (يا صباحاه). فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟) قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)**[(١)].

وقد قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:

انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩١، لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٣٠٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره)، ٦/ ١٧٩، رقم ٤٩٧١، ومسلم في صحيحه، الإيمان، باب في قوله: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ١/ ١٩٣، رقم ٢٠٨.

٣٣][١].

وكذلك حين سأل الأخنس بن شريق أبا جهل: «يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ »[٢].

ومما يدل على ذلك قول أبي سفيان لهرقل عندما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان مما سأل عنه: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، فقال هرقل: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[٣]. وقوله لخديجة بعد أن لقيه جبريل في حراء: (قد خشيت على نفسي). فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق في الحديث)[٤].

ويكفيه في هذا الباب شهادة الله له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فإنه متصف بكل خلق فاضل من الصدق والأمانة وصلة الرحم والجود وغيرها، فقد جمع الله له خصائل الخير كلها، فلم يدع إلا بالصادق الأمين.

قال القاضي عياض: «وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره، وما يفعله أو فعله، فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه، من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضا أو غضب، وأنه معصوم منه صلى الله عليه وسلم »[٥].

وهذا الحكم فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية، لا سيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه؛ لئلا يأخذ العدو حذره، وكممازحته ومداعبته لبعض أصحابه؛ لكي يطيب قلوبهم، ويدخل المحبة والمسرة إلى نفوسهم.

ومن هذا قوله لأحد أصحابه: (إني حاملك على ولد الناقة). فقال: يا رسول

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، ٥/ ٢٦١، رقم ٣٠٦٤.
وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ص٣٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي، ١/ ٨، رقم ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل، ٩/ ٢٣٥، رقم ٣٣٢٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ١٦٣، رقم ٤٨٣٠.

(٥) الشفا ٢/ ١٨٧.

الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهل تلد الإبل إلا النوق؟)[1].

أما النسيان في غير البلاغ وفي غير أمور التشريع فهي من الأغراض البشرية الجبلية التي تجوز على الأنبياء ولا تنافي العصمة في التحمل والتبليغ، ومن ذلك:

- نسيان آدم وجحوده، كما قال عليه الصلاة والسلام: **(لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)**[2].

وكما وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حديث ذي اليدين الذي رواه البخاري ومسلم حيث سلم النبي صلى الله عليه وسلم من ركعتين في صلاة الظهر[3].

وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بطروء النسيان عليه كعادة البشر، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)**[4]، قال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات.

أما حديث: **(إني لا أنسى، ولكن أُنَسَّى لأسن)**[5] فلا يعارض به الحديث السابق؛

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، ٤/ ٣٥٧، رقم ١٩٩١.
قال الترمذي: حديث صحيح غريب.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم ٤٨٨٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٧، رقم ٣٠٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا سلم في ركعتين، ٢/ ٦٨، رقم ١٢٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ١/ ٤٠٤، رقم ٥٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٩، رقم ٤٠١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ١/ ٤٠٤، رقم ٥٧٣.

(٥) موطأ مالك ١/ ٣٠٢.

لأن هذا الحديث كما يقول ابن حجر: «لا أصل له، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد»[(١)].

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن من الأمور الجائزة على الأنبياء السهو والنسيان فيما ليس طريقه البلاغ مطلقًا، وفيما طريقه البلاغ بشرطين:

الأول: أن ذلك يقع منه بعد تبليغه لا قبل التبليغ.

الثاني: أنه لا يستمر على نسيانه، بل يحصل له التذكر إما بنفسه وإما بغيره.

وفائدة جواز السهو والنسيان في حقه صلى الله عليه وسلم بيان الحكم الشرعي فيما وقع فيه النسيان إذا وقع مثله لغيره.

العصمة من تسلط الناس عليهم وتسلط السحرة:

وهذا النوع من العصمة قد وعد الله به أنبياءه ورسله.

٢. العصمة من تسلط الناس.

ونعني بهذا عصمتهم من تسلط الناس عليهم بالقتل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ففي هذه الآية يقول الله لنبيه: «بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك»[(٢)].

يقول أبو بكر الجصاص: «قد دل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان من أخبار الغيوب التي وجد مخبرها على ما أخبر به؛ لأنه لم يصل إليه أحد بقتل ولا قهر ولا أسرٍ مع كثرة أعدائه»[(٣)].

فالمراد إذًا عصمة النبي «من القتل أو الإهلاك»[(٤)]؛ لأن ذلك هو الذي كان يهم النبي صلى الله عليه وسلم، «إذ لو حصل ذلك لتعطل الهدى الذي كان يحبه النبي للناس؛ إذ كان حريصًا على هدايتهم»[(٥)].

وأما ما هو سوى ذلك من الإيذاء والضرر فذلك مما نال الرسول «ليكون ممن أوذي في الله، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى أدموه، وشج وجهه»[(٦)].

ومما يؤيد ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أن امرأةً يهوديةً أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاةٍ مسمومةٍ، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(١) فتح الباري ٤/ ٢٤٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥١.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٦٢.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٢٥.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٦٣.

(٦) المصدر السابق.

فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك، قال: (ما كان الله ليسلطك على ذاك) قالوا -أو قال عليٌّ-: ألا نقتلها؟ قال: (لا) قال: (فما زلت أعرفها في لهوات[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

فهاهنا يظهر كيف أن الله عصم رسوله من تسلط هذه المرأة عليه بالقتل.

وكذلك تظهر عصمة الله لرسوله من القتل فيما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فهذه الآية تشير إلى ما كان من تشاور قريش بمكة في شأن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر، وأن غيرهم قد آمن به، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال: بعضهم بل أخرجوه، وكيف أنهم في النهاية اتفقوا على قتله، ولكن الله نجاه وعصمه من تسلطهم عليه بالقتل[3].

وتظهر عصمة الله لرسله من تسلط الناس عليهم من تتبع ما جاء عن الرسل وأقوامهم في القرآن.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

«فها هنا يخبر الرب الجليل كيف أنه لما تمادت الأمم في الكفر، وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة، والإيقاع بهم أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم، ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم»[4].

وكذلك حدثنا القرآن عن عصمته لنبيه نوح عليه السلام من القتل لما توعده قومه ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٦-١١٩].

والأمر نفسه مع نبي الله صالح عليه السلام حين تآمر عليه تسعة من المفسدين ليقتلوه، فأهلكهم الله وقومهم أجمعين،

(١) اللهاة من كل ذي حلق: اللحمة المشرفة على الحلق، وقيل: هي ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم.
انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ٤٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين ٣/ ١٦٣-٢٦١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السلام، ٤/ ١٧٢١، رقم ٢١٩٠.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٨٠.

(٤) تفسير المراغي ١٣/ ١٣٨.

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٤٨-٥١].

وكذلك نجّى الله عيسى عليه السلام من اليهود، ومنعهم من قتله، ورفعه تعالى إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وهكذا يظهر لنا كيف أن الله يعصم رسله، ويمنعهم من تسلط الناس عليهم[١].

٣. العصمة من تسلط السحرة.

وقبل أن نوضح هذا نحب أن نوضح مذهب أهل السنة في مسألة السحر وحقيقته:

ذهب أهل السنة أن للسحر حقيقة وأثرًا ثابتًا بالكتاب والسنة، قال النووي: «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة»[٢].

وقال القرطبي رحمه الله: «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة»[٣].

وقال أيضًا: «وعندنا أنه حق، وله حقيقة يخلق الله عندها ما يشاء»[٤]. وقال الإمام ابن القيم: «وقد دل قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

وحديث عائشة رضي الله عنها [٥] على تأثير السحر، وأن له حقيقة»[٦].

٤. العصمة من تسلط السحرة عليهم.

وقد عصم الله رسله وأنبياءه من أن تتسلط عليهم السحرة فتتلاعب بهم، فيكون في ذلك ما يكون من إعراض الناس عنهم، وتشككهم في حقيقة وحيهم، وما يبلغونه عن رب العزة.

قال الليث: كتب إلي هشامٌ أنه سمعه ووعاه عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يومٍ دعا ودعا، ثم قال: (أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوبٌ، قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشطٍ ومشاقةٍ، وجف طلعةٍ ذكرٍ، قال فأين

---

(١) لا يعكر على هذا قتل بني إسرائيل لبعض الأنبياء، فالعبرة بالأغلب.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ١٧٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٤.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٦.
(٥) سيأتي ذكر الحديث.
(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٢٧.

هو؟ قال: في بئر ذروان) فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: (نخلها كأنه رؤوس الشياطين). فقلت: استخرجته؟ فقال: (لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا) ثم دفنت البئر)[1].

فها هنا يظهر كيف أن الله عصم نبيه من تسلط السحرة عليه، وكيف أن السحر الذي أصيب به صلى الله عليه وسلم إنما كان متسلطًا على جسده وظواهر جوارحه فقط، لا على عقله وقلبه واعتقاده، فمعاناته من آثاره كمعاناته من آثار أي مرض من الأمراض التي يتعرض لها الجسم البشري لأي سبب كان، وقد سبق أن عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تستلزم سلامته من الأمراض والأعراض البشرية المختلفة.

قال القاضي عياض: «وأما ما ورد من أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا[2].

وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها، ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان»[3].

ووقوع السحر للأنبياء لا يتعارض أبدًا مع حماية الله لهم «فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة لا إله غيره، ولا رب سواه»[4].

وهكذا يظهر لنا عصمة الله لرسله وحمايته لهم من تسلط الناس والسحرة عليهم.

٥. العصمة من الذنوب.

الذنوب منها صغائر وكبائر، وفيما يلي عرض لعصمة الأنبياء في كل منهما:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٤/ ١٢٢، رقم ٣٢٦٨.
(٢) أي: مما يدخل أي داخلة نقص في تبليغ الشريعة.
(٣) الشفا، القاضي عياض ٢/ ٤١٢.
(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٢٦.

أولًا: العصمة من الكبائر:

الرسل معصومون من الكبائر باتفاق[1].

ثانيًا: العصمة من الصغائر:

ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر.

يقول ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»[2].

وللعلماء عدد كبير من الأدلة على ذلك منها ما يلي:

- **معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهي عنها.**

وهذه معصية لآدم عليه السلام صرح بها القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١١٦-١٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ يوضح «تعمد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة»[3].

- **تسرع داود عليه السلام في الحكم.**

أخبر القرآن عن أن داود عليه السلام أتاه خصمان، ولكنه تسرع في الحكم قبل سماع حجة الخصم الآخر، فسارع إلى التوبة والاستغفار ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص ٢٤-٢٥].

- **خروج يونس عليه السلام من قومه بدون إذن ربه.**

وهذا مما حدثنا القرآن عنه، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

أي: أنه ظن «أن الله لن يضيق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة»[4].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٠٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣١٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٢٧.
(٤) التفسير الميسر ص٣٢٩.

وهذا يقتضي أنه «خرج خروجًا غير مأذون له فيه من الله»[1].

وكذلك ذكر القرآن عتاب الرب جل جلاله لمحمد عليه الصلاة السلام في أمور، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ١-٣].

وهكذا يظهر لنا جواز وقوع الصغائر من الأنبياء والرسل، وهذا لا شك لا يزري أبدًا بمناصبهم، ولا يحط من أقدارهم، ولا يقدح في رتبتهم، فهم لا يصرون على معصية، ويبادرون إلى التوبة والاستغفار، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

٦. العصمة من الآفات والأمراض المنفرة.

وهذه من خصائص الرسل الكرام، فإنه لا يمكن أن تصيبهم الأمراض والآفات التي تجعل الناس ينفرون من مجالستهم والاجتماع بهم، فهم وإن كانوا بشرًا «تصيبهم العوارض التي تصيب البشر إلا أن الله عز وجل قد صانهم من العيوب المنفرة، وسلمهم من الأمراض الشائنة التي تجعل النفوس تنفر منهم»[2].

وذلك لأن وظيفة الرسل تقوم على الاختلاط بالناس وملاقاتهم؛ ولذا كانوا على أكمل الصور وأحسنها، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام بقوله: (ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجلٌ ضربٌ رجلٌ[3]، كأنه من رجال شنوءة)[4][5]، وكذلك وصف عيسى عليه السلام بأنه (رجلٌ ربعةٌ[6] أحمر، كأنما خرج من ديماسٍ)[7][8].

وقد جاء وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في كتب السنة والسيرة فلم يرد فيها شيء مما ينفر، فقد كان سوي الخلقة، حسن الصورة، بأكمل ما يكون[9].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٣١.
(٢) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٥٠.

(٣) أي: لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطة، بل بينهما.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢٠٣.
(٤) قبيلةٌ من اليمن.
انظر: لسان العرب ابن منظور ١/ ١٠٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، ٤/ ١٥٢، رقم ٣٣٩٤ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، ١/ ١٥١، رقم ١٦٥.
(٦) بين الطويل والقصير.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/ ١٩٠.
(٧) أي: كأنما خرج من حمام.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، ٤/ ١٥٢، رقم ٣٣٩٤.
(٩) انظر: وصف سيدنا أنس له في البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله

وقد أخبر القرآن أن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

ومن هذا يظهر أن ما يذكر عن الرسل عليهم السلام أو ما ينسب إليهم من عيوب إنما هو كذب مفترى؛ لذلك أنكر الله جل جلاله على الذين آذوا موسى عليه السلام، ونسبوا إليه بعض العيوب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وهذه الأذية المشار إليها «هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حيائه، وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر» أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به»[١] [٢]. وبذلك يظهر كيف أن «الأنبياء في خلقهم وخلقهم على غاية الكمال»[٣].

وكون الأنبياء على غاية الكمال في خلقتهم فهذا لا يمنع أبدًا من أنهم يمرضون ويصحون، ويشعرون بما يشعر به البشر من أوجاع عارضة كالصداع والحمى.

فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك! قال: (إنا كذلك يضعف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر) قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: (الأنبياء) قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: (ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)[٤].

وهكذا يظهر لنا كيف أن الأنبياء مبرؤون ومعصومون من الأمراض المنفرة، وهذا لا يمنع تعرضهم للأمراض و«لكن بمرض غير منفر»[٥].

خامسًا: الذكورة:

الذكورة من شروط الأنبياء والمرسلين، فلا يكون النبي إلا رجلًا، وقد أشار القرآن

عليه وسلم، ٤/ ١٨٧، رقم ٣٥٤٧.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة، ومن تستر فالتستر أفضل، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٣٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٧٥.

(٥) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦١٦.

إلى هذا في غير ما موضع.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

ففي هذه الآية «يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع»[(١)].

وهذا يدل على أن الذكورة شرط للرسالة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ يقتضي «أن ليس في النساء رسلًا، وهذا مجمع عليه»[(٢)].

الحكمة من كون النبوة في الذكور:

أن يكون كون الرسل ذكورًا فهذا لأسباب له حكم كثيرة، منها:

١. الرسالة كثيرة الأعباء والمهمات، وتقتضي مقابلة الناس في مختلف الأوقات، والتنقل في أماكن عدة، ومجادلة أهل العناد والتكذيب، وكذا إعداد الجيوش وقيادة الجند، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء.

٢. المرأة يطرأ عليها ما يقطعها، ويعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وكل هذا لا شك يمنع من القيام بأعباء الرسالة على الوجه الأكمل، والنحو الأمثل.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة بعض النساء ومن هؤلاء أبو الحسن الأشعري، والقرطبي، وابن حزم[(٣)].

وقد رد جماهير العلماء هذه الأدلة بعدد من الوجوه، منها:

- القول بنبوة كل من خاطبته الملائكة غير مسلم، ففي الحديث أن الله أرسل ملكًا لرجل يزور أخًا له في الله في قرية أخرى، فسأله عن سبب زيارته له، فلما أخبره أنه يحبه في الله، أعلمه أن الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه[(٤)]، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة[(٥)].
- الرسول صلى الله عليه وسلم توقف

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٢٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٨.

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٢٦٦، فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٤٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/ ١٧١، رقم ٣٤٦٤.

في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأن الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦][1].

- اصطفاء الله لمريم لا يقطع بنبوتها، فالله قد صرح بأنه اصطفى غير الأنبياء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر: ٣٢] وكذلك اصطفى الله آل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ومن آلهما من ليس بنبي جزمًا.

- الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به لا يلزم منه النبوة؛ لأنه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء وقد ورد في بعض الأحاديث النص على أن خديجة من الكاملات[2] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران)**[3]، فكون السيدة فاطمة كذلك، يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية؛ لأن فاطمة ليست بنبية جزمًا، وقد نص الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتين لكانتا أفضل من فاطمة.

- وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها. قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. فلو كان هنا وصف أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نص قرآني ولا في حديث نبوي صحيح فيه إخبار بنبوة واحدة من النساء[4].

وقد نقل عن جمهور الفقهاء أن مريم

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ٩٢، رقم ١٠٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، ٤/ ١٨٨٦، رقم ٢٤٣٠ ولفظه: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد). قال: أبو كريب، وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ٢٧٩، رقم ١١٧٥٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٧١، رقم ٤١٩٠.

(٤) انظر: الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٨٧.

ليست بنبية، وذكر النووي في (الأذكار)[1] عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبية، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبية ولا في الجن[2].

وهكذا يظهر أن الذكورة شرط لتحمل الرسالة، وأن الرسل ما كانوا إلا ذكورًا.

مهمات النبوة

للنبوة مهمات عظيمة نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعوة إلى التوحيد:

من أعظم مهمات الأنبياء التي كلفهم الله بها الدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

أي: فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة[3].

فهذه الآية دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به جميعًا، فهو مهمة جميع الرسل من نوح عليه السلام إلى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكل واحد من الأنبياء والرسل عليهم السلام جاء يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فهذه هي الغاية التي بعث الأنبياء والرسل من أجلها، والشرائع كلها تدعو إلى هذه الغاية العظيمة، وهي أعظم غاية من أجلها خلق الخلق، وأوجدت الكائنات؛

---

(١) الأذكار، النووي ص ١١٩.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٥٢١.

وقام عليها أمر السموات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، وبعث لأجلها رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جدًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

يقول سيد رحمه الله: «والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة، فتعريف الألوهية الحقة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده، هذا هو الموضوع الرئيس للقرآن كله، وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها، وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق -عند التأمل العميق- كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن، تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعًا، وأن ينزل بها كتبه جميعًا»[(١)].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٥٣.

ثانيًا: البشارة والنذارة:

من أشرف المهمات التي كلف بها الرسل هي البشارة والنذارة، وكثيرًا ما نلحظ في الآيات أن الله يجمع بين مهمة النذارة والبشارة، فيقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي هذا إشارة إلى أن الجمع بينهما هو خير أنواع الحث والحض؛ وما ذلك إلا لأن «النفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها، ودفع الشر عنها، فإذا بصر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة؛ فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما تبين لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال؛ فإن النفوس تهرب من هذه الأعمال»[(٢)].

فالرسل إذًا مبشرون برحمة الله، وبما أعده الله لأهل الإيمان من السعادة في الدنيا، وعند الموت، وفي القبر وفي أرض الحشر، وفي دار السعداء في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٤٨ بتصرف.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال أيضًا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[الأنعام: ٤٨].

ففي هذه الآيات يظهر لنا كيف أن «المقصود من بعثة الأنبياء أن يبشروا الخلق على اشتغالهم بعبودية الله»[(١)] يبشروا «من أطاع الله بثمرات الطاعات من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة»[(٢)].

والبشارة هي «الإخبار بما يسر قبل أن يقع»[(٣)]. ولما كان الأنبياء والرسل يأتون بما يخالف الأهواء وتأباه النفوس فلا غرو كان حاجتهم شديدة للبشارة، وما ذلك إلا لأنها تهيج السامع بما تحويه من ترغيب، فيبادر إلى التنفيذ والامتثال بكل عزمه وطاقته.

وتأمل كيف أن الإنسان شديد الحرص على المال ولنفسه تعلق كبير به، ولكنه حينما تأتيه بشارة كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

حينما يسمع مثل هذه البشارة العظيمة والتي تعده بمضاعفة الأجر وزيادته، فلاشك أن أصابعه ستنبسط للعطاء، وسيقبل عليه بنفس منشرحة[(٤)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: ١١]. (قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: (نعم يا أبا الدحداح). قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل. وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، فقال صلى الله عليه وسلم: (كم من عذقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح). وفي لفظ: (رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة)[(٥)].

وهكذا تفعل البشارة في القلوب؛ ولذا كان النبي دومًا يوصي أصحابه بالتبشير؛ لأنه أعون على جذب القلوب فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٥.
(٣) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٦٢٧.
(٤) انظر: بدائع التفسير ٣/ ١٢٨ فقد ذكر في الآية مرغبات عظيمة.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠.

الله عليه وسلم إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره، قال: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا)[1].

والذي يتأمل في دعوات الرسل لأقوامهم يدرك حضور البشارة دومًا في ثنايا كلامهم.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

والنبي صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية حيث بايع الأنصار على حرب الأحمر والأسود، نلحظ كيف أنه لما اشترط عليهم أن يمنعوه ويقاتلوا دونه، بشرهم بأن الجنة هي جزاء الوفاء[2].

وهكذا يظهر لنا كيف أن التبشير مهمة أصيلة من مهام الرسل.

وكذلك النذارة فهي من أعظم مهمات الأنبياء التي كلفهم الله بها، أن يقوموا بإنذار الناس ما أعده الله من العذاب لمن خالف أمره وعصاه.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

والإنذار: «هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف، وكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا»[3].

والنذارة من أعظم وظائف الأنبياء، وهي من مظاهر رحمة الله بخلقه؛ إذ جعل أنبيائه منذرين عقوبته لمن عصاه؛ حتى يتلافى الإنسان أسباب الهلاك والخسارة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال تعالى عن نبيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ونلحظ في هذه الآية أنه قال: ﴿تَبَارَكَ﴾ و«هو من البركة»[4].

ثم بين في ختام الآية أن عبده محمدًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ٣/ ١٣٥٨، رقم ١٧٣٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٣/ ٢٢، رقم ١٤٦٥٣.

وانظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٥٤.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣ بتصرف.

(٤) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٦٢.

صلى الله عليه وسلم نذير، والإنذار -كما سبق- فيه تخويف، فكيف يجتمعان؟!

هذا ما أجاب عنه الرازي رحمه الله بقوله: «أن الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر؛ لما أن ذاك يؤدي في المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا هاهنا كلما كان الإنذار كثيرًا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر»[(١)].

فالمقصود أن هذا الإنذار المكلف به الرسل إنما هو من رحمة الله بخلقه وعنايته بهم.

ولما كان الرسل يأتون الناس بأوامر ونواهي تكبح جماح النفس، وتروضها كان لابد لهم في ذلك من البشارة -كما مر- ولكن أيضًا يحتاجون كذلك وبشدة إلى النذارة، فبعض الناس يكفيه التبشير، وبعضهم لا يستجيب إلا بالتخويف والترهيب، من أجل ذلك كانت النذارة من صلب مهمات الرسل، حتى نجد القرآن قصر في بعض آياته مهمتهم عليه.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال الله لنبيه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال نوح عليه السلام: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

فاقتصر سبحانه على الإنذار «لأن أبرز جانب في حياة الرسل هو الجانب الإنذاري، حيث كانت حياتهم جهادًا متصلًا لأهل الكفر والضلال»[(٢)].

والمقصود أن البشارة والنذارة من أعظم مهمات الأنبياء، وأبرز جوانب حياتهم.

ثالثًا: الحكم بما أنزل الله:

الحكم بما أنزل الله ليس بالأمر الهين فهو من المقاصد العظيمة، والغايات الكبيرة التي تحتاج في سبيلها بذل الغالي والثمين والنفس والنفيس؛ وذلك لأنها تلقى معارضة شديدة من «الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث؛ ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خالصة، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله، وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٢٩.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨٧٧ بتصرف.

الاستغلال والظلم والسحت؛ ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة، وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال؛ ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها، وسيأخذهم بالعقوبة عليها، وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتيك وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض»[(١)] فهي إذًا مهمة لا يقوى عليها إلا النفوس الكبيرة، والقلوب العظيمة؛ ولذا جعلها الله من مهمات رسله وأنبيائه الكرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ففي هذه الآية يخبرنا المولى جل جلاله كيف أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور، وكيف أنه قد «حكم بها النبيون -الذين انقادوا لحكم الله، وأقروا به- بين اليهود، ولم يخرجوا عن حكمها ولم يحرفوها»[(٢)].

وهذا يبين شدة التزام الرسل والأنبياء، وفرط عنايتهم بهذا الأمر.

وقال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وفي هذه الآية يظهر كيف أن الله جعل داود عليه السلام خليفة، وعرفه أن مهمته هي الحكم بما أنزل الله ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: «فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك»[(٣)] وتفريع أمره بالحكم بين الناس بالحق على جعله خليفة «للدلالة على أن ذلك واجبه»[(٤)]. وهذا يوضح أن قضية الحكم بما أنزل الله من المهمات التي حملها الله لرسله.

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر النبي صلوات الله وسلامه عليه بالحكم بما أنزل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

أي: فاحكم يا محمد «بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم»[(٥)] ومهمة الرسول في الحكم بما أنزل الحكم بما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٩٧.
(٢) التفسير الميسر ص١١٥.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٤٣.
(٥) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣١٩.

أنزل الله ليست لبعض الناس دون بعض، وإنما هي لعموم الناس، وتأمل كيف أنه قدم ﴿بَيْنَهُم﴾ [المائدة: ٤٨].

للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم[١].

ومما يدل على شدة خطورة هذه المهمة إظهار لفظ الجلالة ﴿بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾[المائدة: ٤٨].

فهذا الإظهار «لتربية المهابة»[٢] و كذا تحذير النبي من اتباع أهواء من يتحاكمون إليه، وفي هذا لاشك دلالة على أهمية هذه المهمة، وأنها لا تقبل التفريط فيها بحال.

وبعد هذه الآية مباشرة جاء التأكيد على النبي في وجوب التزامه في أحكامه بما أنزل الله مرة أخرى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة: ٤٩].

وذلك لتأكيد هذا الأمر «لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته صلى الله عليه وسلم»[٣].

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعضٍ: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه. فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]. إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]»[٤].

يريد بذلك بيان أن الحكمة في إنزال هذه الآية «إقرار النبي على ما فعل، والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله، وعدم الانخداع لليهود»[٥].

وهناك نماذج عملية كثيرة ذكرها القرآن لحكم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل الله تعالى، منها الآتي:

روى الإمام مسلم عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: (مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهوديٍ محممًا مجلودًا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: **(هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على**

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٣٢٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٥.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٣.
(٥) تفسير المراغي ٦/ ١٣٢.

شيءٍ نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]. يقول: ائتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلها[1].

وروى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: (في -والله- وفي أوس بن صامتٍ أنزل الله جل جلاله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل علي يومًا فراجعته بشيءٍ فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل علي، فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يا خويلة ابن عمك شيخٌ كبيرٌ فاتقي الله فيه). قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: (يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك) ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤]. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مريه فليعتق رقبةً). قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: (فليصم شهرين متتابعين). قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخٌ كبيرٌ ما به من صيامٍ، قال: (فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمرٍ). قالت: فقلت:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، ٣/ ١٣٢٧، ١٧٠٠.

والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإنا سنعينه بعرقٍ من تمرٍ). قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرقٍ آخر، قال: (قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا). قالت: ففعلت)[1].

وبذلك يظهر كيف أن الحكم بما أنزل الله من مهمات الرسل العظيمة التي قام بها الرسل والتزموها، نسأل الله أن يوفقنا لحسن التزام أحكامه.

رابعًا: الشهادة على الأمة:

من مهمات الأنبياء الجليلة والخطيرة في آنٍ الشهادة على أممهم؛ وذلك يوم القيامة، يوم يجمع الله الأولين والآخرين في موقف عظيم مهيب، فيشهد الأنبياء والمرسلون بأنهم بلغوا أممهم رسالات الله، ويشهدوا بما كان من أممهم من إيمان وكفر، وتصديق وتكذيب.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

«وشاهد كل أمة نبيها، يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها»[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].

قال القرطبي: «هم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة، ودعوهم إلى الإيمان»[3].

فإذا شهد الأنبياء بما بلغوا به أقوامهم، وبما كان من أقوامهم من تصديق وتكذيب؛ سقطت كل حجة للمكذبين، وبطل كل عذر، وفضحوا على رؤوس الأشهاد؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

فقوله: «﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ لأن اعتذارهم بعدما علم يقينًا بطلان ما هم عليه اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وإن طلبوا أيضًا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه»[4].

ويقول صاحب الظلال رحمه الله: «الذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يطلب منهم أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٣٠٠، رقم ٢٧٣١٩.
وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٧٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٦٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٦ بتصرف يسير.

يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب»[1].

ولأجل هذا المعنى بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **(قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم). فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية:** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. **قال: (حسبك الآن) فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان**[2].

فالنبي -لما أودع الله في قلبه من الرحمة- يبكي؛ لأنه يعلم أن بشهادته وشهادة إخوانه من الأنبياء يهلك كل من كذب وكفر.

فكل نبي من الأنبياء شهيد على أمته، يشهد بين يدي ربه يوم القيامة بأنه بلغ قومه، وأدى رسالة ربه، فلا يجد المكذبون يومئذٍ مفرًا ولا مهربًا.

ومن خصائص الأمة المحمدية أن الله جعلها ونبيها صلى الله عليه وسلم شهداء على الناس يوم القيامة، وشهداء للرسل صلوات الله عليهم وتسليماته.

وبشهادتهم يضيق على المكذبين كل سبيل للإنكار، ويزدادون إحراجًا وتبكيتًا.

وقد جاء هذا في بعض آيات القرآن الحكيم، وفي بعض الآثار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣].

«فمعنى ذلك: وكذلك جعلناكم أمة وسطًا عدولًا؛ لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به، وبما جاءكم به من عندي»[3].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فيدعى وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون:**

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٨٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، ٦/ ١٩٦، رقم ٥٠٥٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٥-١٤٦.

نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: يقول: عدلًا ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣])[1].

«فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة صلى الله عليه وسلم»[2].

«فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها، فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكيًا لها فهو أكمل الخلق نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]»[3].

وجاء في أكثر من آية -كما مر معنا- أن الأنبياء يشهدون يوم القيامة على أممهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[النحل: ٨٤].

وكقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[النحل: ٨٩].

ولكن هناك آية قد توهم خلاف هذا، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩].

ففي قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩].

ما يوهم التعارض بين هذه الآية وما ذكر قبلها من الآيات الدالة على إثبات الشهادة لهم.

وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن هذا الاستشكال بأجوبة كثيرة، فقالوا:

أولًا: لم يكن ذلك من الرسل إنكارًا أن يكونوا عالمين بما عملت أممهم، ولكنهم ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم، ثم أجابوا بعد أن ثابت إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم، وهذا القول حكاه الطبري عن السدي والحسن ومجاهد[4].

ثانيًا: «قيل: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ١١٢، رقم ١١٥٥٨.
وأصله في صحيحه، البخاري، كتاب تفسير القرآن، في باب قوله تعالى: (ويكون الرسول عليكم شهيدًا)، ٦/ ٢١، ٤٤٨٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٢/ ١١٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠.

(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٠.

وإحاطته بما منوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارًا للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم؛ وذلك أعظم على الكفرة، وأفت في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله، وتشكي أنبيائه عليهم»[1].

ثالثًا: قيل: معنى قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ويشبه هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يرد علي أقوام الحوض فيختلجون، فأقول: أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[2][3].

رابعًا: قيل: معنى الآية: لا علم لنا إلا علمًا أنت أعلم به منا. وهو محكي عن ابن عباس[4].

وقال الطبري معلقًا: «وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي؛ لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى، ورد الأمر إليه، إذ قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ علم عندهم في جوابه إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه، وما ينقصهم ما كان بعدهم من أمتهم، والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال»[5].

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، ٤/ ١٧٩٤، رقم ٢٢٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٦١ بتصرف.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٧ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٢.
(٥) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١١.

سنة الله في النبوة

لله تعالى سنن في اصطفاء من يصلح لمقام النبوة نتناولها فيما يلي:

أولًا: أن يكونوا من البشر:

مما اقتضته سنة الله تعالى في أنبيائه المبعوثين إلى خلقه أن يكونوا بشرًا، قال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

فكل الظروف التي تحيط بنا تحيط بالرسل، وكل الضغوط يتحملونها، والبيئات يعيشونها، والملابسات يمرون بها، فلذلك حينما يتصرون على أنفسهم يكون الأنبياء حجة علينا، ولا يقنع الإنسان أن يكون النبي ملكًا، فلا بد من أن يكون من بني البشر، يشتهي كما نشتهي، ويحب كما نحب، ويغضب كما نغضب، ولكنه انتصر على نفسه وسار على منهج الله، ودعا إلى الله. فالأنبياء ما هم إلا خلق من خلق الله، اصطفاهم الله لرسالاته، وأيدهم بوحيه، ورفعهم على خلقه بهذا الاصطفاء، لكنهم بشر يأكلون ويشربون وينكحون، ويصيبهم ما يصيب البشر من الأمراض، ويجري عليهم من أمر الموت ما يجري على البشر جميعًا.

ولما كان الأنبياء بشرًا كسائر البشر نجد أنهم كانت تعتريهم أمور من مقتضيات البشرية التي كتبها الله على بني البشر، ومن هذه الأمور:

١ . **أنهم يجوعون ويأكلون.**

فالبشر جميعًا يجوعون ويأكلون فطرةً، وقد أخبر الله تعالى في أكثر من آية أن الأنبياء كانوا كذلك، يجوعون فيأكلون.

قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑦ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٨].

وقال: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ

﴿بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

٢. يتزوجون.

قال تعالى مبينًا أن الزواج سنة الأنبياء والمرسلين من قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

يقول الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أمم قد خلت من قبل أمتك، فجعلناهم بشرًا مثلك، لهم أزواج ينكحون، وذرية أنسلوهم، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعل الرسول إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم»[1].

وقال تعالى عن زكريا: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عن أيوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

وقال الرجل الصالح لموسى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

وقال الله أيضًا عن موسى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال عن نبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فهذه الآيات جميعًا تبين أن الأنبياء كانوا يتزوجون وينكحون النساء كسائر البشر.

٣. يقومون بأعمال بشرية.

الأنبياء بشر، كانوا يعملون كسائر البشر، ويزاولون ما كان البشر يزاولونه من أعمال.

فموسى عليه السلام يستأجره الرجل الصالح ليعمل معه فيما عنده من أعمال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٦-٢٧].

وداود يصنع دروعًا لتحمي المحاربين في ساحات المعارك من وقع الأسلحة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ونوح يصنع الفلك بنفسه، قال تعالى عنه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وبينت السنة أن ما من أحد من الأنبياء إلا ورعى الغنم، قال النبي صلى الله عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٧٥-٤٧٦.

وسلم: (ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم) فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[1].

وهكذا كان الأنبياء يقومون بأعمال بشرية كسائر البشر.

٤ . يتعرضون للبلاء.

فإن الأنبياء كسائر الخلق يتعرضون للبلاء، وينالهم الأذى أحيانًا، بل إن أكثر الناس بلاء هم الأنبياء، قال صلى الله عليه وسلم: (إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[2].

وذكر القرآن الكثير من بلاءات الرسل، فيوسف عليه السلام سجن، قال تعالى عنه: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

ويعقوب عليه السلام ذهب بصره، قال تعالى عنه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

وبيع ولده يوسف بعد خطفه.

وإبراهيم عليه السلام ألقي في النار المؤججة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

ويونس عليه السلام التقمه الحوت، فلبث في بطنه ما شاء الله له، قال تعالى عنه: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٢].

وأيوب عليه السلام ابتلي بالمرض.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

ومحمد عليه السلام أخرج من أحب البلاد إليه، قال تعالى عن نبيه محمد: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠].

إلى غير هذا مما هو معروف ومشهور في القرآن والسنة.

٥ . يموتون.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال مخاطبًا نبيه أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ٣/ ٨٨، رقم ٢٢٦٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ١٠، رقم ٢٧٠٧٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٢٢٦، رقم ١٤٥.

وقد مات كل الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته غير أن أجسادهم لا تبلى كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)].

الحكمة من جعل الرسل من البشر:

ولقد اعترض أعداء الرسل وخصومهم على كون الرسل بشرًا، وكان هذا من أعظم ما صد الناس عن الإيمان واتباع هدى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

بل إنهم جعلوا من بشرية الرسل سببًا لتقبيح السير وراءهم أو اتباع هديهم ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولًا من الملائكة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

لكن حكمة الله شاءت أن يكون أنبياؤه بشرًا، وليسوا ملائكة، وجعل لهذه الحكمة العديد من الفوائد لمن تأمل نصوص الكتاب العزيز، ومن هذه الفوائد ما يلي:

١. **يسهل اتباعهم والأخذ عنهم.**

فمن لطف الله ورحمته بعباده أن جعل الأنبياء المبعوثين إليهم رسلًا؛ لأنه لو جعل الأنبياء ملائكة مثلًا لما تيسر للبشر أن يأخذوا عنهم العلم والإيمان، ولما تمكنوا من فهمهم ومواجهتهم لاختلاف الجنس.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ [الإسراء: ٩٥]: «يقول تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥].

أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: من جنسهم،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦/ ٨٤، رقم ١٦١٦٢، ولفظه: (إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم).
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٠، رقم ٢٢١٢.

ولما كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة»[1].

«فمن رحمة الله عز وجل بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم؛ ليدعو بعضهم بعضًا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]»[2].

٢. قدرة البشر على القيادة والتوجيه.

فمن حكم جعل الأنبياء بشرًا وليس ملائكة أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الأصلح ليكونوا قدوة وأسوة.

يقول سيد قطب رحمه الله في هذا: «وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحس بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم؛ لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق.

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة؛ لأنه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويدًا رويدًا، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونها سطرًا سطرًا، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها؛ لأنها ممثلة في إنسان»[3].

٣. صعوبة رؤية الملائكة.

لقد مر بنا كيف أن الكفار اقترحوا أن يكون الرسل إليهم ملائكة؛ وذلك لأنهم لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك.

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بسهل أبدًا، فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم[4]،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢١ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٤١-٢٤٢.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ١/ ٧، رقم ٤، ولفظه: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء،

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعاني من اتصال الوحي به شدة[1]، ولذلك قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

«ذلك أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم»[2].

٤. أقوى في إقامة الحجة.

إذ لو قدر أن كان الأنبياء ملائكة لأمكن للناس أن يحتجوا بعدم قدرتهم على اتباعهم، وتقليدهم لاختلاف جنسهم عن جنس الملائكة، ولقالوا هذا ملك له قدرات وطاقات تختلف عن طاقاتنا وقدراتنا، فالله عز وجل لو جعل أنبياءه ملائكة لسقطت الحجة، فلحكمة أرادها الله جعل أنبياءه ورسله من بني البشر، ولولا أن النبي بشرٌ يعاني ما يعانيه البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ولما كان حجة أمامنا، لو أن النبي ملك لا يشتهي، لا يتألم، لا يخاف، كيف يكون قدوة لنا؟ فلا بد من أن يكون هذا الرسول أو ذاك النبي من بني البشر، يعاني ما يعانيه البشر.

٥. أبلغ في التحدي.

من حكمة جعل الله أنبياءه بشرًا أن يكون ذلك أكثر تحديًا للناس، فمن المعروف أن الأنبياء يأتون أقوامهم بآيات ومعجزات، وأنباء من الغيب يطلعهم الله عليها أحيانًا، فلو قدر أن كان الأنبياء ملائكة لكان ذلك أقل تحديًا للناس، لكن كونهم بشرًا لهم قدرات البشر وإمكاناتهم، ثم يأتون بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فهذا دليل، ولاشك على أنهم رسل الله الموحى إليهم من قبله.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]: «فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه»[3].

هذا على أنه يجدر بنا أن نبين ختامًا أن الأنبياء مع طبيعتهم البشرية الخالصة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ١/ ٦، رقم ٢، ولفظه: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول).

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٧٢.

فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: (قم فأنذر)).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠٥.

إلا أنهم «يعدون إعدادًا خاصًا لتحمل النبوة والرسالة، ويصنعون صنعًا فريدًا ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

واعتبر في هذا بحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]»[١].

ثانيًا: أن يكونوا بلسان قومهم:

جرت سنة الله تعالى في خلقه ألا يبعث نبيًا ولا رسولًا إلا بلسان قومه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤].

بلسان قومه: أي: بلغتهم[٢].

وهذا من تمام منة الله وفضله على عباده «أنه ما أرسل رسولًا ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ممن اختصه برحمته»[٣].

فمن لوازم سنة الله في الأنبياء والمرسلين أن يكونوا بلسان قومهم؛ لأن المقصود من إرسالهم هداية الناس وإرشادهم إلى الحق والخير، وهذا لا يتأتى لهم على الوجه الأكمل والنحو الأفضل إلا إذا كانوا موافقين لأقوامهم في لغتهم.

«وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم؛ ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة»[٤].

وهذا من تمام رحمة الله بخلقه -كما بينا- وهو كذلك من تمام الرسالة، وكمال حجة الله على خلقه، ومن تأمل كتاب الله يجد أن الأنبياء والمرسلين كثيرًا ما وصفوا أو وصفت معجزاتهم أو كتبهم بالبيان والوضوح والظهور، قال تعالى في حق الكتاب: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾

(١) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٧٠ بتصرف يسير.
(٢) زاد المسير ٢/ ٥٠٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٧.

[المائدة: ١٥].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقال عن نبيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال في عصا موسى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧].

فقد جعل الله تعالى كتابه مبينًا، وآياته مبينة، ووصف نبيه بأنه مبين، ولاشك أن من أهم أدوات البيان اللغة، فهي أهم أدوات التواصل بين البشر؛ ولذا اقتضت سنة الله في رسله وأنبيائه أن يكونوا بلسان قومهم؛ ليكونوا في أعلى درجات البيان.

فـ«كل رسول لله جل ثناؤه أرسله إلى قوم فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه، وكل كتاب أنزله على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه»[1].

وإرسال الرسل بلسان أقوامهم «أبلغ في الحجة وأقطع للعذر، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة: لا نفهم عنهم؛ إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١].

هذا وهو يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف ذلك؟!»[2].

يقول ابن القيم: فـ«لم يرسل الله رسولًا إلا بلسان قومه ليبين لهم، فتقوم عليهم الحجة بما فهموه من خطابه لهم»[3].

كما أن إرسالهم بلسان قومهم أدعى للفهم وأعون عليه؛ لذا ما أرسل رسول «إلى أمة من الأمم إلا بلغة قومه الذين أرسل إليهم، ليفهمهم ما أرسل به بسهولة ويسر»[4].

استشكال ودفعه:

من المعلوم أن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بعث إلى الخلق عامة، لكن رسالته جاءت بلسان قومه الذين بعث فيهم وهم العرب، فكان القرآن بلسان عربي مبين، وهنا قد يظن البعض أن لغير العرب حجة أو عذرًا في ترك الاهتداء بالقرآن لأنهم لا يفهمونه؟

وقد أجاب على هذه الشبهة القاسمي رحمه الله فقال: «لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١١.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٣٧٩.
(٣) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٧٤٣.
(٤) تفسير المراغي ١٣/ ١٢٦.

عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكد القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب؛ ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلًا بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التي هو منها - يتلوه عليهم معجزًا- لكان ذلك أمرًا قريبًا من الإلجاء»[1][2].

ثالثًا: تزويدهم بالآيات:

لما كان الأنبياء سفراء الله إلى خلقه يدعون الناس إلى الإيمان بهم وتصديقهم فيما يخبرونهم عنه، ويسألونهم طاعتهم فيما يأمرون به وفيما ينهون عنه؛ ولما كان الأنبياء يأتون أقوامهم بما يخالف عادتهم، كان لزامًا أن يقيموا الأدلة والبراهين على صدق نبوتهم وبعثتهم من قبل الله تعالى؛ حتى يقطعوا عن الناس الشك والريب في أمرهم، وحتى تكون هذه الأدلة والبراهين دليلًا واضحًا على صدق نبوتهم، وأيضًا خطًا فاصلًا بين النبي حقًا ومن يدعي النبوة.

لهذه الأسباب وغيرها كان تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات الواضحات التي تثبت لدى كل منصف صدقهم في دعوتهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: «بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه»[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: «بالواضحات من الحجج على صدقهم، وأنهم لله رسل»[4].

فالله تعالى قد جعل «دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة»[5] وما ذلك إلا لأنه أبلغ في إقامة الحجة على الناس بأن هؤلاء الأنبياء هم

(١) الإلجاء: الإكراه والاضطرار، وقيل: إن الاضطرار أخص من الإلجاء، لاشتراط زوال الاختيار في الأول دون الثاني.
انظر: معجم لغة الفقهاء ص ٨٦، الفروق اللغوية ص ٦٧.

(٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) المصدر السابق ٩/ ١٥٣.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١١٣.

(٥) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/ ١٢٩.

رسل الله إلى خلقه وأنهم صادقون فيما يبلغون عنه، وفيما يظهرونه من أمر الوحي.

والآية في اللغة هي: «العلامة، والجميع: الآي»[1]. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال الزجاج: «معناه: نريهم الأعلام التي تدل على التوحيد في الآفاق»[2].

وقد عرفت الآية في الاصطلاح بأنها: «أعلام ودلائل يؤيد بها الله -تبارك اسمه- عباده الأنبياء عليهم السلام؛ ليدل بها على صدقهم، ولا يمكن لأحد من المكلفين أن يعارضها معارضة حقيقية، أو أن يأتي بمثلها عن طريق التعلم والتدرب للوصول إلى ذلك؛ إذ هي أمور خارقة تفوق قدرة المكلفين»[3].

وكثيرًا ما كان يطلق بعض العلماء على الآية لفظ المعجزة فيستعملهما بمعنى واحد، أو يعبر عن آيات الأنبياء بالمعجزات، غير أن هذه الكلمة -المعجزة- لم يرد ذكرها لا في الكتاب ولا في السنة. يقول ابن تيمية عليه رحمة الله: «ليس في الكتاب والسنة لفظ المعجزة، وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، وإنما فيه آيات وبراهين»[4].

١. آية كل رسول.

جعل الله تعالى لكل نبي من أنبيائه ما يدل على صدقه، ويرغم الناس على الاستسلام له ولما جاء به، وقد سمى الله ما آتاه أنبياءه مما يدل على صدقهم: آية، وفي بعض المواطن: بينة، وفي البعض الآخر: برهان.

فمما جاء بلفظ الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

أي: «دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها»[5].

وأما ما جاء بلفظ البينة فكثير، منه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ «يريد بالمعجزات، وهي بينة في أنفسها»[6].

ومما ورد بلفظ البرهان قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ٤٤١.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٥٩٤.
(٣) النبوة والأنبياء بين حقائق الدين وشبهات العلمانيين، محمد حبنكة ص ١٢٤.
(٤) النبوات، ابن تيمية ١/ ٢١٥ باختصار.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٠.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٨.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

ونلاحظ أن الله عز وجل أحيانًا يعين لنا آية النبي، وأحيانًا لا يعينها لنا.

وما عينه الله من ذلك فكثير مشهور كمعجزة نبي الله إبراهيم، ومعجزة نبيه صالح، ومعجزة نبيه موسى، ومعجزة نبيه عيسى، ومعجزة نبيه محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

فهؤلاء الأنبياء قد ذكر الله لنا بعض الآيات التي أجراها على أيديهم ونص لنا عليها.

ومن الأنبياء من لم يعين الله لنا آيته أو معجزته، كنبي الله هود، فإن الله ذكر أن له بينة، لكنه لم يذكر ماذا كانت؟ ولا كيف كانت؟ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥٠-٥١].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

حتمًا أظهر الله لهود آية دالة على صدقه كحال غيره من الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

ففي هذه الآية ذكر الله قوم عاد -الذين هم قوم هود عليه السلام من جملة الأقوام الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فهذا يعني أن هودًا أتى قومه ببينة أو معجزة، لكن الله لم ينص عليها ولم يعينها.

وكذا الحال في شعيب عليه السلام وقومه منصوص عليهم في الآية السابقة أيضًا، وهم أصحاب مدين، لكن الله أيضًا لم يعين لنا البينة التي أتى بها قومه.

وقد قال الله عنه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولأنه لابد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات

نبينا صلى الله عليه وسلم فيه»[1].

والمقصود أن من الأنبياء من عين الله لنا آيته التي جاء بها قومه، ونص عليها في القرآن، ومنهم لم يعين الله لنا آيته.

٢. أنواع الآيات.

«إذا استقرأنا الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لرسله وأنبيائه نجدها تندرج تحت ثلاثة أمور: العلم والقدرة والغنى.

فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية كإخبار عيسى قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، وإخبار رسولنا صلى الله عليه وسلم بأخبار الأمم السابقة، وإخباره بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل كل ذلك من باب العلم.

وتحويل العصا أفعى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وشق القمر وما أشبه هذا من باب القدرة.

وعصمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من الناس، وحمايته له ممن أراد به سوءًا، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك على حيويته ونشاطه من باب الغنى.

وهذه الأمور الثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلا لله تعالى، ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من دعوى هذه الأمور ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام: ٥٠]»[2].

وقد كان من سنة الله في رسله عادة أن يظهر على أيديهم آيات من جنس ما برع فيه أقوامهم؛ ليكون أقوى في التحدي، وأظهر في الحجة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**)[3].

يقول ابن حجر رحمه الله معلقًا: «كانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيًا عند فرعون، فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه؛ ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١.

مثله، فلم يقدروا على ذلك»[1].

٣. نماذج من آيات الأنبياء.

في القرآن كثير من الآيات التي تبين تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات والمعجزات، وفيما يلي عرض لبعضها:

١. آية إبراهيم عليه السلام.

أيد إبراهيم عليه السلام ببعض الآيات التي بينت صدق نبوته وصحة بعثته من قبل الله، وكان من أعظم آياته صلى الله عليه وسلم ما كان من إنجاء الله له من النار التي ألقاه قومه فيها؛ وذلك بعد أن حطم إبراهيم أصنامهم إلا كبيرًا لهم، فعزم قومه على إحراقه في النار العظيمة فنجاه الله منها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٢. آية صالح عليه السلام.

لما دعا صالح عليه السلام ثمود إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما عداه كذبه قومه وقالوا له: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

فلما طلبوا منه آية تثبت صحة دعواه آتاه الله الناقة آية مبصرة بينة، شاهدة بصدق نبوته.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وذكر بعض المفسرين أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم، فلما جاءهم صالح عليه السلام يعظهم طلبوا منه آية على صدق نبوته، فدعا صالح ربه فأخرج لهم الناقة من الصخرة[2].

٣. آية موسى عليه السلام.

تعددت الآيات التي أرسل الله بها موسى إلى بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه الآيات التسع هي:

العصا: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢٠].

تلألؤ يده إذا أدخلها في جيبه ثم نزعها: وذلك قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

إصابة بني إسرائيل بما يلي: السنين

(١) فتح الباري ابن حجر ٩/ ٦-٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٨٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٩.

ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وقد ورد ذكر هذه الآيات في آيتين من سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

على أن أعظم الآيات التي آتاها الله موسى عليه السلام هي آية العصا التي انقلبت حية فآمن على إثرها السحرة.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣ - ٤٨].

وقد كانت هذه الآية على مرأى ومسمع من بني إسرائيل وفي مقام التحدي لفرعون وملئه، فأظهر الله بها موسى عليهم، وخر السحرة ساجدين.

٤. آية عيسى عليه السلام.

ورد في القرآن العديد من الآيات التي أيد الله بها نبيه عيسى عليه السلام على قومه؛ لتبرهن على صدق نبوته وصحة بعثته، ومن هذا ما يلي:

- يخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيجعله طيرًا بإذن الله.
- يبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله.
- يحيي الموتى بإذن الله.

وهذه الآيات كلها يجمعها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

- إنزال المائدة من السماء.

وذلك حين طلب منه بنو إسرائيل ذلك؛ إذ قالوا: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٣].

فدعا عيسى عليه السلام ربه فأجابه ربه، وأنزل عليهم مائدة من السماء ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٤ - ١١٥].

٥. آية نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تعددت آيات نبوته بقدر قدره الكريم وقيمة الرسالة المبعوث بها.

• القرآن أعظم الآيات.

القرآن الكريم كتاب عظيم أوحي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الكتاب العظيم يحمل بين دفتيه عددًا كبيرًا من التشريعات التي تكفل للإنسانية حياة طيبة رضية إن التزمها الناس وعملوا بها، وقد جعل الله تعالى هذا الكتاب وحيًا على الناس الإيمان به والعمل بما فيه، وفي الوقت نفسه جعله آية عظيمة، فلا يحتاج إلى آية من خارجه، فهو في نفسه آية، ولما طلب الكفار آية على صدق ما جاء به النبي بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[العنكبوت: ٥٠].

كان الجواب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

«وفي هذا الرد إنكار عليهم أن يطلبوا آيات مع هذه الآيات التي تتلى عليهم، إنها آيات لا تغرب شمسها، ولا يخبو ضوؤها أبد الدهر»[١].

«وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية؛ وذلك لأن القائل إذا قال: أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير، فكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها»[٢].

فالقرآن أعظم الآيات وأظهر المعجزات لا يحتاج إلى آية، وإنما هو الآية التي عجز الفصحاء والبلغاء من أساطين البلاغة والبيان عن معارضته أو مشابهته حين تحداهم الله بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولما عجزوا عن هذا كان عجزهم دليلًا على صدقه، وبرهانًا على حقيقة نبوته.

و«شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد صلى الله عليه وسلم نمطًا مخالفًا لمعجزات الرسل، وكان الله قادرًا على أن ينزل معجزة حسية تذهل من يراها: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٤٥٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٥.

﴿ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَـٰقُهُمۡ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

فلو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالًا ولا انصرافًا عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَـٰقُهُمۡ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ ملوية محنية، حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون، ولكنه تعالى شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة، معجزًا في كل ناحية، معجزًا في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، معجزًا في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، معجزًا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة»[1].

أيضًا «فإن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه:

أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت، فإن قلب العصا ثعبانًا مثلًا، وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب، وأما القرآن فهو باقٍ لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد»[2].

❁ الإسراء والمعراج.

من الآيات الشاهدة على صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الوارد ذكرها في القرآن آية الإسراء والمعراج، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَـٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وفي هذه الرحلة أسرى الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به منه إلى السموات العلا، حيث رأى من آيات ربه الكبرى وإلى ذلك الإشارة في الآيات: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى

(١) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ١٣٢-١٣٣ باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٥ بتصرف يسير.

﴿السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١١-١٨].

وأخبار الرحلة مشهورة في كتب الأحاديث.

- انشقاق القمر.

مما أظهره الله تعالى من الآيات العظيمة التي تبين صدق نبيه في دعواه آية «انشقاق القمر» وإليه الإشارة بقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

وفي هذه الآية شق الله تعالى لنبيه القمر شقين حتى رأى بعض الصحابة جبل حراء بينهما، (فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آيةً، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراءً بينهما)[(١)].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اشهدوا)[(٢)].

وهكذا يتضح لنا كيف أن الله جل جلاله يؤيد رسله بالآيات الكثيرة التي تدلل على نبوتهم وصدقهم فيما يدعون الناس إليه.

موضوعات ذات صلة:

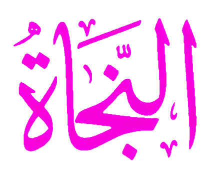
آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، بيت النبوة، الرؤيا، عيسى عليه السلام، محمد صلى الله عليه وسلم، موسى عليه السلام، الوحي، الوراثة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، ٥/ ٤٩، رقم ٣٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر، ٤/ ٢٠٦، رقم ٣٦٣٦.





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والثلاثون

مفهوم النجاة

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في كتاب العين: «نجا فلان من الشر ينجو نجاة، ونجا ينجو، في السرعة، نجاء فهو ناج وناقة ناجية: سريعة... والنجاة: النجوة من الأرض، أي:الارتفاع، لا يعلوه ماء»[1]، وزاد ابن دريد: «نجوت العود أنجو نجوًا، إذا اقتضبته من الشجرة... وقال بعض المفسرين[2] في قوله عز وجل: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾[يونس:٩٢].

أي: نلقيك على نجوة... ونجوت الجلد عن الناقة، إذا قشطته»[3]، وهو ما ذهب إليه ابن فارس في تفسير (نجو) بالكشط والكشف، قال: «ونجا الإنسان ينجو نجاة، ونجاء في السرعة وهو معنى الذهاب والانكشاف من المكان. وناقة ناجية ونجاة: سريعة. ومن الباب وهو محمول على ما ذكرناه من النجاء: النجاة والنجوة من الأرض، وهي التي لا يعلوها سيل»[4].

وجاء في الفرق بين المعنيين اللغويين للفعلين الرباعيين (أنجى) و(نجى): «معنى أنجاه: أخلصه قبل وقوعه في المهلكة؛ ونجاه: أخلصه بعد الوقوع»[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها ابن الجوزي بأنها: «تخليص الواقع في الشيء»[6]، ويؤكد ذلك في مصنف آخر بقوله: «يقال: نجيت فلانًا أنجيه: إذا خلصته من شر وقع فيه»[7] وهو تعريف واسع وشامل لمعنى النجاة إذ لم يحدد ذلك الشيء بعذاب أو مخافة أو هلاك أو مكروه.

يلاحظ أن هناك اتفاقًا بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي في مسألة الخلاص التي يمكننا أن نفسرها بأنها حالة من التغيير تتم من خلال عملية إنقاذ أو انتشال من ظرف أو موقف أو واقع عصيب إلى آخر مطمئن.

(١) العين، الفراهيدي ٦/ ١٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥١، الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٢٦٥.
(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٤٩٧.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٢٠١.
(٦) زاد المسير ٥/ ١٧٩.
(٧) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٨٢.



النجاة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نجو) في القرآن الكريم (٨٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (٦٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤٥	﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]
الفعل المضارع	١١	﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس:١٠٣]
فعل الأمر (دعائي)	٦	﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء:١٦٩]
اسم فاعل	٣	﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣]
المصدر	١	﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ [غافر:٤١]

وجاءت النجاة في الاستعمال القرآني بمعناها في اللغة وهو: الخلاص والسلامة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٠٧-١٣٠٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٣٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإفلات:

الإفلات لغة:

هو «التخلص من الشيء فجأة، من غير تمكث»[(١)].

الإفلات اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، جاء في معجم لغة الفقهاء أن الإفلات هو «النجاة والتخلص»[(٢)].

الصلة بين الإفلات والنجاة:

الجامع بينه وبين النجاة هو الخلاص غير أنهما يفترقان في أن النجاة لا تقتضي الفجأة في التخلص.

٢ الإنقاذ:

الإنقاذ لغة:

قيل في النقذ: هو «التخليص والتنجية، كالإنقاذ والتنقيذ والاستنقاذ والتنقذ وفي الصحاح: أنقذه من فلان واستنقذه منه وتنقذه بمعنى أي: نجاه وخلصه... والنقذ السلامة والنجاة»[(٣)]. قال ابن منظور: «نقذ نقذًا نجا»[(٤)].

الإنقاذ اصطلاحًا:

«التخليص من ورطة»[(٥)].

الصلة بين الإنقاذ والنجاة:

فكل من الإنقاذ والنجاة يؤدي معنى الخلاص من مأزق، غير أنهما يفترقان في أن الإنقاذ لا يكون إلا بفعل الآخر، في حين تكون النجاة بفعل الشخص نفسه أو الآخر.

٣ الخلاص والتخلص:

الخلاص لغة:

(١) لسان العرب، ٥/ ٣٤٥٤.
(٢) معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي ص٨١.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٤٩٠.
(٤) لسان العرب ٦/ ٤٥١٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٣.



قال الزبيدي: «وخلص الله (فلانًا: نجاه) بعد أن كان نشب»[١].

الخلاص اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الخلاص والنجاة:

غير أن الفرق بين التخلص والنجاة هو: «أن التخلص يكون من تعقيد وإن لم يكن أذى، والنجاة لا تكون إلا من أذى، ولا يقال لمن لا خوف عليه نجا، لأنه لا يكون ناجيا إلا مما يخاف»[٢].

٤ السلامة:

السلامة لغة:

«السلام والسلامة البراءة... وسلم من الأمر سلامة: نجا»[٣] قال ابن الجوزي: «النجاة والخلاص والسلامة متقارب»[٤].

السلامة اصطلاحًا:

هي «التعري من الآفات الظاهرة والباطنة»[٥].

الصلة بين السلامة والنجاة:

أن النجاة مأخوذة من النجوة كما تقدم وهي الارتفاع عن الهلاك، أما السلامة مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقيصة، وقيل: إن السلام «اسم مصدر من سلم يسلم تسليما كالكلام والطلاق، وهو بمعنى النجاة والتخلص مما لا يرغب فيه»[٦].

(١) تاج العروس ١٧/ ٥٦٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٥٣٢.
(٣) لسان العرب ٣/ ٢٠٧٧.
(٤) نزهة الأعين النواظر ص ٥٨٢.
(٥) المفردات ص ٢٣٩.
(٦) السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية، خالد الشراري، مجلة البحوث الإسلامية: ع ٨٩، ١٤٣٤هـ ص٣١٤.

٥ الفوز:

الفوز لغةً:

الفاء والواو والزاي كلمتان متضادتان، فالأولى: النجاة، والأخرى: الهلكة.

فمن الأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر: إذا ذهب به وخلص، ويقال هذا لمن ظفر بخير وذهب به، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل، إذا مات وهلك[(١)].

الفوز اصطلاحًا:

«الظفر بالخير مع حصول السلامة»[(٢)].

الصلة بين الفوز والنجاة:

يفترق الفوز عن النجاة في أنه يقتضي السلامة مع النجاة، جاء في «الفرق بين النجاة والفوز: أن النجاة هي الخلاص من المكروه، والفوز هو الخلاص من المكروه مع الوصول إلى المحبوب، ولهذا سمى الله تعالى المؤمنين فائزين لنجاتهم من النار ونيلهم الجنة»[(٣)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٩.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٤٧.

(٣) الفروق اللغوية ص ٥٣٢.



أسباب النجاة

خلق الله تعالى الإنسان وأمره بالالتزام بطاعته والمواظبة على عبادته وترك ما يوجب غضبه وسخطه والاستعداد للتعاطي مع أحكامه والرضا بما قسم الله له من ابتلاء في سرائه وضرائه، فالله مبتليه على أية حال ليمحص عزمه وإيمانه، فإذا وافق أن يكون قلبه منقادًا لحكم الله وعامرًا بحبه، صبر على ابتلائه وفاز بمنجاته وإن وافق أن يكون قلبه ضالًا جاهلًا بمعرفة الله تعالى واتباع سبيله، فلن يجد من دون الله وليًا ولا نصيرًا. ويقينًا أن للنجاة أسبابها وسبلها التي تضمن لكل من ينهجها بإخلاص التوفيق للوصول إليها ويمكننا تحديد تلك الأسباب في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان:

الإيمان مبدأ شامل تنضوي تحته جملة من العقائد منها الإقرار والاعتراف بأسماء الله وصفاته الكاملة العليا، وما له على مخلوقاته من الحقوق: كالتأليه والعبادة في الظاهر والباطن، إلى جانب الاعتراف بملائكته وكتبه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وما جاء به كتابه الكريم من أخبار الأمم السابقة وقصصها، وأنباء ما يستقبل من الزمان، وما ساقه من وعد ووعيد بثواب يوم الآخر وعقابه[1].

والمتتبع لآيات الذكر الحكيم يجد صورة متكاملة لمفهوم الإيمان وأصوله وسبله، فلا تكاد سورة تخلو في ألفاظها أو مضمونها من التذكير بعقيدة الإيمان وما يتوجب على العبد التحلي به من استعدادات نفسية وصفات أخلاقية وممارسات فعلية لاكتساب صفة المؤمن.

وكثيرًا ما يسوق لنا القرآن الكريم قصصًا ومواقف عقائدية رافقت مسيرة أنبياء الله ومن آمن بهم وبرسالاتهم السماوية، ليعتبر بها أولو الألباب الذين ينشدون السبيل إلى الله ابتغاءً لمرضاته وسعيًا إلى النجاة من غضبه.

فالنجاة بالإيمان درس بليغ تزخر به آيات الكتاب المبين صراحة وضمنًا، وتدعونا إلى التفكر في أسباب بلوغ درجاته وكيفية الوصول إلى المستوى العقائدي المقبول الذي يحقق لنا مرضاة الله عز وجل التي هي الأساس في تقرير سعادة العبد أو شقائه، فشتان بين من حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ومن حقت عليهم كلمة الله بأنهم لا يؤمنون، فأنى لهم النجاة من عذاب الله ؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

(١) انظر: المصدر السابق.

فليس هناك من يجير العبد من غضب الله إلا إيمانه، إذ لا أهمية لمال أو بنين في اتقائه، ولا ينفع العبد شيء مثل إيمانه في السعة من حياته وليس بنافعه أن يؤمن عند نزول العذاب أو حضره الموت، وقد أكد القرآن ذلك في أكثر من مناسبة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فالإيمان لا يكون منجيًا إلا إذا صحت شروطه واعتنقته النفس بصدق وأقر بذلك القلب، أما من استحوذ عليه الشيطان فأعرض عن الإيمان فلا منجاة له حين يداهمه عذاب الله وأجله، وهذا ما وعد الله به موسى وهارون (عليهما السلام) حين دعواه وطلبا منه أن لا يجعل للإيمان سبيلًا إلى قلب فرعون وجنوده حتى يدركهم العذاب، إذ قالا: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

فاستجاب الله لهما دعوتهما بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨].

فكان وعد الله حقًا حين أغرق فرعون وجنوده فأراد فرعون أن يخلص نفسه فادعى الإيمان قائلًا: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

غير أنه إيمان فارغ من محتواه وخال من التسليم والانقياد إلى الله، أو هو إيمان صوري أراد فرعون من خلاله أن يتشبه -بمكر- بالمؤمنين من بني إسرائيل بهدف النجاة، فمكر له الله وحقق له نجاة تليق بمستوى إيمانه الزائف.

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

ولم يكن هذا الحكم الإلهي مقتصرًا على الأفراد من دون الجماعات، بل أكدت الآيات القرآنية الكريمة في أكثر من موضع أن الإيمان هو السبيل الأمثل لبلوغ النجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

فاستثنى قوم يونس كونهم تداركوا أنفسهم بالإيمان والتوبة الحقة فكان ذلك سببًا في نجاتهم من عذاب الخزي[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٨٤.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس:١٠٣].

نص على أنه لا ينال الخلاص من غضب الله إلا رسله والذين آمنوا وأقروا بالوحدانية لله والتصديق لهم. وليس هذا الحكم بموقوف على من سبقوا إلى الإيمان في الأمم السابقة.

بل يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي أنه حق على الله أن ينجي المؤمنين بك من هذه الأمة، قال الشوكاني: «التعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلًا لأمرها، كذلك حقًا علينا أي: حق ذلك علينا حقًا أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقًا ننج المؤمنين من عذابنا للكفار»[١].

بهذا نصل إلى أن الأساس في بلوغ رحمة الله والنجاة من ابتلائه وغضبه هو اتباع سبيله والإيمان بربوبيته والتصديق برسالاته، ولن ينفع نفسًا إيمانها وقد داهمها قدر الله وقارب أجلها، إذ لا منجاة لها وقد فرطت من قبل باتباع سبيل الهدى والإيمان، فحري بأمتنا الإسلامية أن تنتهج سبل الإيمان وتعمل على تنشئة الأجيال وتغذيتهم بالإيمان الصحيح الذي يديم صلتهم بالله تعالى وأن لا يلبسوا إيمانهم بظلم.

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٧.

ثانيًا: التقوى:

المتقي: «من يقي نفسه عن تعاطي ما يعاقب عليه من فعل أو ترك»[٢].

أما مرتبة التقوى فتأتي ثالثة بعد الإسلام والإيمان، فبعد أن يكون العبد قد أسلم وجهه لله ووقر الإيمان في قلبه تأتي مرحلة التفكر في الوقاية من الأمور التي تنأى به عن الخالق عز وجل أو تتجاوز به حدوده وهي مرحلة اجتناب الشبهات والعمل على تهذيب النفس وتزكيتها بالعمل الصالح، فالتقوى كما الإيمان لها أسبابها وشروطها وطرائقها، لذا نجدها تسير جنبًا إلى جنب مع الإيمان في كثير من الآيات.

وقد وردت النجاة بتقوى المؤمنين صريحة في موضعين من القرآن الكريم تحدثا عن هلاك أقوام عاد وثمود بعذاب الله ونجاة المؤمنين منهما مع النبيين هود وصالح عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۞ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥١-٥٣].

وقال في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٤٧.

﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت:١٧-١٨].

فأما الموضع الأول فجاء ضمن سياق الحديث عن قوم صالح عليه السلام الذين لم يكتفوا بإعراضهم عن الإيمان وصدهم عن سبيل الله، بل ذهبت بهم شقوتهم إلى عقر ناقة الله والسعي إلى قتل النبي صالح عليه السلام، فمكروا ومكر الله، فأذاقهم العذاب، وكان جزاء الذين آمنوا بالله وبرسالة نبيهم واتبعوا سبيله ووقوا أنفسهم من التعدي على حدود الله، أن الله (أنجاهم) من ذلك الهلاك السريع.

وأما الموضع الآخر فقد جاء ضمن سياق متصل بدأ بقوم هود عليه السلام الذين استكبروا، ثم انتهى بقوم صالح عليه السلام الذين يسر لهم الهدى، وأتاح لهم الأسباب للإيمان، ومكنهم منه، وقدرهم عليه.

قال تعالى: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ «أي: بينا لهم سبيل النجاة ودللناهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدق رسله، قال الفراء: معنى الآية: دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل»[1]، غير أنهم ضلوا فاستحبوا العمى على الهدى فاستحقوا العذاب فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بظلمهم إلا فئة منهم اهتدوا وآمنوا واتقوا فأنعم الله عليهم بالنجاة من العذاب، فحين جمع السياق القرآني بين هلاك عاد وثمود قال: (نجينا) ولم يقل: (أنجينا).

ويعود سبب اختلاف صيغة فعلي النجاة بمجيئه في الموضع الأول بالفعل الماضي المهموز (أنجى) وفي الموضع الآخر بالفعل الماضي المضعف (نجى) إلى اختلاف السياقين في الموضعين اللذين وردت فيهما (النجاة) فالسياق في الأولى خاص بثمود، والنجاة تتطلب السرعة[2].

فهناك من خطط وتقاسم وبيت لقتل صالح عليه السلام وأهله والإفلات من جزاء القتل، ومكر لتنفيذ المخطط، فجاء مكر الله أسرع فعجل لهم بهلاكهم وسارع بإنجاء من آمن واتقى من المكر ومن الدمار الذي حل بالقرية وبيوتها.

أما السياق الآخر فلا يتطلب السرعة؛ لأن الحديث يتضمن هلاك أمتي عاد وثمود ونجاة من آمن واتقى منهما ثم يجمعهما في مصير واحد على اختلاف البعد الزمني بينهما.

قال ابن عاشور: «إن المعنى إنجاء الذين

(١) فتح القدير ٤/ ٥١١.

(٢) انظر: برنامج لمسات بيانية، الحلقة ٢٢٧، د.فاضل السامرائي.

آمنوا من قوم عاد وقوم ثمود، فمضمون هذه الجملة فيه معنى استثناء من عموم أمتي عاد وثمود فيكون لها حكم الاستثناء الوارد بعد جمل متعاقبة أنه يعود إلى جميعها»[(١)].

لذا اقتضى السياق أن يأتي بصيغة الفعل المضعف (نجى) ليدلل به على حصول النجاة المتكررة مع وقوع العذاب مرة بعد أخرى للقريتين، وليشير به إلى أن حكم الله ثابت على مر الأزمان، وأن النجاة في كل مرة ستكون من نصيب الذين آمنوا وكانوا يتقون.

من جانب آخر لم يخل التعبير القرآني من الدقة في الجمع بين الفعلين الماضي (آمنوا) والمضارع (يتقون) للدلالة على أسبقية الإيمان ومضي حالته بالقياس إلى حالة التقوى التي تمثل المنهج التطبيقي لذلك الإيمان، وربما كان في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يعملون الخير ويبتعدون عن الفساد من قبل أن يؤمنوا بدعوة صالح عليه السلام، أي: (وكانوا يتقون من قبل إيمانهم).

وعلى هذا يكون قوله: «يتقون»؛ «أي: كان سنتهم اتقاء الله والنظر فيما ينجي من غضبه وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال: والمتقين»[(٢)].

ولا تخلوا الآيتان من تبشير من يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن هناك إمكانية لتحقيق النجاة من عذاب الله وذلك باتباع سبيل التقوى من سخطه وغضبه، ففي الآيتين «طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله ينجيهم مما توعد به المشركين كما نجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من ثمود، وهم صالح ومن آمن معه»[(٣)].

وتجدر الإشارة إلى أن النجاة بالتقوى لم ترد صريحة في القرآن الكريم فحسب، بل وردت ضمنًا أيضًا، من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وبعد هذا نصل إلى حقيقة مفادها أن تقوى الله ومخافته ترفع من مكانة العبد كلما زادت نسبتها وواجب على الصلحاء من أبناء الأمة أن يوضحوا هذه الحقيقة لمن يغفل عنها، فليس في مخافة الله منقصة بل إن تقواه هي الضمانة الأكيدة للعيش في فسحة من نعمته ورضاه والنجاة من سخطه وغضبه سواء في الحياة أو ما بعد الممات، ويمكن للنفس أن تبلغ مستوى تقوى الله من خلال ترجمة إيمانها إلى أفعال وممارسات واقعية سعيًا لتحقيق الجزاء الأوفى في الآخرة وضمان النجاة من كربات يوم

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٦٣.
وانظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٩.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٦٤.
(٣) المصدر السابق ١٩/ ٢٨٧.

الحساب، فبلوغ العبد مرحلة التقوى أمر ضروري للنجاة مما أعده الله للكافرين من حساب، وللفوز بما بشر به المتقون من أجر عظيم.

ثالثًا: النهي عن الفساد:

قد اقترن ذكر الفساد بذكر الأرض في القرآن الكريم، فمذ خلق الله تعالى الأرض وقضى أن يجعل فيها خليفة وقف الملائكة مخاطبين ربهم عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠].

فأنى للإنسان -الذي خلق هلوعًا ظلومًا لنفسه جهولًا بالذي فيه الحظ له[1]- النهوض بأمانة أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها ؟ وأنى له الإصلاح في الأرض وإعمارها واستغلال خيراتها في منفعة نفسه والآخرين ؟.

غير أن الله تعالى غالب على أمره وأعلم بقدرة الإنسان وإمكاناته حين وضعه أمام اختبار حياتي متواصل ليثبت لملائكته أن بإمكانه أن يكون جديرًا بحمل الأمانة وأن تصدق عليه صفة الخلافة، إذا ما ألزم نفسه السير على نهج من استخلفه في الأرض، ويقينًا أن النهج الإلهي واضح وصريح في القرآن الكريم وبالأخص في ما يتعلق بالفساد الذي ورد بصيغ مختلفة في تسعة وأربعين موضعًا من آياته تناولت مبدأ واحدًا هو أن الله تعالى لا يحب الفساد ولا المفسدين، وقد جاءت معظم أحكامه فيها لتشير صراحة وضمنا إلى هذا المبدأ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

لقد جاءت الرسالات السماوية كلها لتبصر العباد بسبل الإصلاح ولتنهاهم عن الفساد بمختلف أشكاله؛ ليكونوا ربانيين يأمرون بما أمر به الله وينهون عما نهى عنه، وليبلغوا رضاه ويضمنوا لأنفسهم النجاة من حسابه وعقابه، وقد حض الله تعالى على ذلك صراحة في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:١١٦].

ففي الآية دعوة واضحة للتفكر في أحوال من سبق من الأمم الغابرة التي باءت بغضب من الله ونقمة فأهلكها بعذابه إلا قليلًا من أهلها الذين لم يكتفوا بالإصلاح بل كانوا يدعون إليه من خلال نهيهم الناس عن الفساد في الأرض، تلك القلة القليلة آلت أن لا تقرب الظلم أو الترف ولا ترتكب جرمًا، ففازت بمنجاة الله حين نزل بأقوامهم العذاب، قال الطبري: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ أي:

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٢/ ٦٦.

«ذو بقية من الفهم والعقل، ... ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم وأهل الكفر بالله عن كفرهم به في أرضه... إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله من عذابه، حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابه، وهم أتباع الأنبياء والرسل»[1].

ثم تعود الآية في نهايتها لتؤكد للناس مبدأ وقاعدة إلهية لا تقبل التغيير هي (أن نجاتهم في الإصلاح والنهي عن الفساد)، وأن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بشرك أو بكفر ما داموا مصلحين «فيما بينهم في تعاطي الحقوق أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد»[2].

ولم يكن مبدأ الإصلاح ليتحقق من خلال النهي عن الفساد فحسب، بل بالنهي عن السوء أيضًا الذي لا يختلف جزاؤه عن جزاء النهي عن الفساد بشيء فكلاهما يورث النجاة.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٥].

فأهل هذه القرية كانوا قد نهوا من قبل عن الصيد في يوم السبت، فابتلاهم الله بأن كانت حيتان البحر تأتي في ذلك اليوم ظاهرة على الماء كثيرة، ولا تأتي كذلك في ما عاده من الأيام، فلم يمتثلوا أمر الله بترك العمل في يوم السبت بل كانوا يسدون عليها في السبت ويصيدونها في الأحد، وكانت القرية منقسمة على ثلاث أمم: أمة دائبة على القيام بالنصح والموعظة والنهي عن إتيان المنكر، وأمة أخرى قامت بذلك من قبل ثم استيأست من اتعاظ المعتدين وأيقنت أن قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأمة كانت سادرة في غلوائها لا ترعوي عن ضلالتها ولا ترقب الله في أعمالها.

ويتضح من ذلك «أن صلحاء القوم كانوا فريقين. فريق أيس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الوعيد بالقوم. لتوغلهم في المعاصي. وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار»[3].

فواصل العمل على بذل النصيحة معذرة إلى الله الذي يأمر بالنهي عن السوء ما دام

(١) جامع البيان ١٢/ ١٨٠-١٨١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١١٤.
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٥٢.

العبد قادرًا على إتيانه وأملًا منهم في إصلاح القوم ليتقوا الله في أفعالهم. في مقابل الفريقين كان فريق من المفسدين تمادى في إعراضه عن النصح حتى نسوا ما ذكروا به فحقت عليهم كلمة العذاب، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنجى الآخرين بنهيهم عن السوء.

لقد جعل الله تعالى من الإصلاح مضمارًا يتنافس فيه الخلق في تحقيق المنافع الفردية والاجتماعية التي توجب عليهم رحمة الله ورضاه بما يقدمونه لأنفسهم ومجتمعاتهم من خير يسعون به إلى منع انتشار الفساد ووأد فتنته مبتغين من وراء ذلك الفوز بمنجاته من بلاء الدنيا وأهوال عذاب الآخرة. وخير ما يمكن السعي إليه من صلاح هو تعزيز المناهج التعليمية بقيم التسامح وإحياء السلام، والعمل على نشر مبادئ الإسلام بصورته الحقيقية التي تدعو إلى محاربة الفساد في الأرض والسعي لترسيخ قواعد العدل والصلاح.

رابعًا: الجهاد في سبيل الله:

لم يقف القرآن عند حد معين في تجسيد صورة النجاة من غضب الله وسخطه، بل توغل كثيرًا في استعراض قيم المنظومة الإيمانية ومقوماتها التي تبلغ بالعبد الدرجات العلا وتضمن له الفوز بالنجاة، وإذا كانت الآيات السابقة أظهرت لنا دعوة الله تعالى إلى النجاة بالإيمان عن طريق (الترهيب)، فإن هناك آيات أخرى عرضت إلى الدعوة نفسها عن طريق (الترغيب والتحبيب)، إذ قيل: إنه لما شرع الله الجهاد على المؤمنين كرهوه، فحين «قال نفر من الأنصار في مجلس لهم وفيهم عبد الله بن رواحة: لو نعلم أي العمل أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت»[1] نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

«فمكثوا زمانا يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين»[2] فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١].

فالله جلت قدرته يطرح فكرة التجارة بمفهوم مغاير لما هو متعارف عند الناس، إذ تقوم التجارة عنده على أساس من التعاقد بينه وبين العبد، ويكون رأس المال فيها عقائديًا مشروطًا بتحقق الإيمان والسعي إلى الجهاد في سبيل الله، وهي إلى جانب ذلك تختلف عن تجارة الناس في ما بينهم في أنها لا تفضي إلا إلى الربح، وأن ربحها ليس أقل من النجاة من عذاب الله، الفوز بجناته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٧٧.

﴿...الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

وبالعودة إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نلاحظ أن التجارة جاءت بصيغة النكرة التي توافقت مع سياق حال النص وما يحمله من دلالة على ذلك السبيل المبهم والمفهوم المطلق لمعنى الاتجار، ما وفر مناخًا من التشويق والتفخيم والتعظيم ولاسيما حين انتقل النص مباشرة إلى بيان ما تحققه تلك التجارة من مكسب عظيم وهو النجاة من العذاب الأليم، ثم لا تلبث دلالة النص أن تقيد ذلك المطلق وتحدده بهدف بيان السبيل المفضية إلى ممارسة تلك التجارة فتحصر الأمر بمحددين اثنين هما الإيمان والجهاد، فكأن «التجارة لم يدر ما هي، فبينت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى. فكأنه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم»[(١)]، وينجيكم من عذاب أليم ؟.

فذلكم الله رب السموات والأرض الذي لا ينأى ولا يستنكف عن الدنو من عباده، يدعوهم إليه برسالاته ويعرض عليهم تجارة لن تبور وربحًا ونجاة من الموت الذي يفرون منه، فبذل النفس والجهاد بها في سبيل الله نهج لا ينفك عنه الخير، فأوله خلود في الحياة الدنيا وآخره نجاة وعتق من النار، وجائزته عفو وفوز بفرحة لقاء الله، ورزق دائم، وحياة أبدية.

خامسًا: الدعاء والتسبيح:

لقد شرع الله تعالى الدعاء وجعله من أعظم الأسباب لاتقاء عذابه، ودلل في أكثر من آية على أنه السبيل إلى النجاة من البلاء، قال في ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[الأعراف:٩٤].

فلطالما غفل الناس عن ذكر الله في سرائهم، فكان الله يبتليهم بالحروب والفتن والجدب والقحط وغيرها لعلهم ينقلبون إليه فيدعونه ويرغبون في عبادته وخلاصه.

غير أن كثيرًا منهم نسوا الله في الرخاء والشدة فلم يتخذوا من الدعاء مجنة يدرؤون بها عن أنفسهم سخطه وعقوبته، فحقت عليهم كلمة العذاب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٤٣].

والقرآن الكريم حافل بموارد الدعاء سواء في اللفظ أو في المعنى.

---

(١) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس:٨٣-٨٦].

يلاحظ أن قوم موسى عليه السلام كان يتملكهم الخوف من فرعون وجنوده حين آمنوا، غير أن موسى عليه السلام أخبرهم أن التصديق بالله وحده لا يكفي ما لم يقترن بتفويض الأمر إليه فذلك من كمال الإيمان ففعلوا ووكلوا أمرهم إلى الله، وتوجهوا إليه بالدعاء وكان دعاؤهم مبنيًا على أمرين:

أحدهما: قولهم: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «أي: لا تنصرهم علينا، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو لا تمتحنا بأن تعذبنا على أيديهم. وقال مجاهد: المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول أعداؤنا: لو كانوا على حق لم نسلط عليهم، فيفتنوا. وقال أبو مجلز وأبو الضحا: يعني: لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانًا»[(١)].

والآخر: قولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: خلصنا «من فرعون وقومه لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة»[(٢)].

قال الشوكاني: «ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا ونجنا برحمتك من القوم الكافرين وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم»[(٣)].

وتزخر آيات الله سبحانه بمواقف أخرى مختلفة تضمنت الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل بالخلاص والنجاة من أعدائه.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التحريم:١١].

فهذه صورة من صور العبودية الصادقة التي كانت تتصف بها امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحدته، وصدقت بموسى عليه السلام وهي تحت عدو من أعداء الله كافر، فلم يضرها كفر زوجها[(٤)]، إذ كانت مؤمنة بالله مخلصة له النية فاختارت جوار ربها وقربه على أن تكون أنيسة فرعون وآثرت أن يكون لها بيتًا عند ربها في جنانه على قصور فرعون وما ملكت يمينه، فعزفت عن ذلك كله وتعلقت بما عند الله كرامة وزلفى

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فتح القدير ٢/ ٤٦٦.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٨/ ٢١٨.

متوجهة إليه بصفاء نيتها تدعوه مخلصة بأن يبني لها بيتا بميزتين هما: أن يكون البيت (عند الله) وأن يكون (في الجنة) أي: أنها اختارت لنفسها مكانًا لا يصل إليه إلا الصديقون والشهداء الذين أخبر عنهم الله عز وجل بأنهم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩][1].

ثم أردفت دعاءها برغبتها بالتبرؤ من فرعون والخلاص منه ومن عمله ومن مجتمعه الظالم، فطلبت أولًا النجاة منه «أي: من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر»[2].

ثم من عمله، ثم انتهت إلى طلب النجاة من القوم الظالمين يعني: أهل دينه المشركين، قال الكلبي: هم أهل مصر، وقال مقاتل: هم القبط[3].

ولا يختلف أمر النجاة بالدعاء عنه بالتسبيح، فالتسبيح هو«تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى... وجعل التسبيح عامًا في العبادات قولًا كان أو فعلًا أو نية»[4].

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

فقد اقترن ذكر الله بفعل القيام والقعود والتفكر في خلقه واقترن ذلك كله بنية تنزيه الله وتسبيحه طمعًا في نيل رضاه ورغبة في النجاة من عذاب النار.

والتسبيح لون من ألوان العبادة وهو كفيل بعقد الصلة بين العبد وربه، وتبرز أهميته في أنه يحول بين المرء ومعاصيه وغروره، ويدرأ عنه العذاب والمهالك والنقم، وقد أكد القرآن الكريم ذلك في مناسبتين: ساق في الأولى منهما مثالًا على تاركي التسبيح، وذلك في سياق قصة أصحاب الجنة الذين ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:١٧-٢٨].

فقد وجدوا الله تعالى أسبق إليها منهم، إذ طاف عليها بطائف من عنده فأهلكها بظلمهم فأصبحت سوداء كالليل، فلما رأوها على هذه الحال أدركوا أنهم محرومون من رزقها بما فرطوا في جنب الله، فقام أوسطهم يذكرهم بما كان يأمرهم به من طاعة الله وتسبيحه وهم لا يسمعون،

(١) انظر: فتح القدير ٥/ ٢٥٦.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٥٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المفردات ٢٩٢.

فلو أنهم أجابوه لأنجاهم الله بتسبيحهم من شرور أنفسهم ومن سوء نواياهم ولأبدل سعيهم هذا بخير منه.

وساق في المناسبة الأخرى مثالًا على من تمسك بالتسبيح، وذلك في سياق قصة نبي الله يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨].

فحين مضى يونس عليه السلام على وجهه مغاضبًا لربه ظانًا أنه في مأمن من بلائه والتضييق عليه حتى أتى البحر أبى الله أن يدعه إلى الشيطان، فأخذه فقذفه في بطن الحوت، فمكث في بطنها زمنًا، ثم راجع نفسه فتاب إلى ربه وناداه في الظلمات (أن لا إله إلا أنت سبحانك) معترفًا بذنبه، إني كنت من الظالمين في معصيتي إياك قال الواسطي في معناه: نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا، قيل: فسمعت الملائكة تسبيحه فشفعوا له عند الله فاستجاب له دعاءه فاستخرجه من بطن الحوت برحمته، فجعله من الصالحين[(١)].

الملاحظ أن هذه القصة بنيت أساسًا على مبدأ التسبيح وفلسفته وأهميته ودوره الأساس في نجاة المؤمن يدلنا على ذلك قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

فقد ابتلي يونس عليه السلام بما ابتلي به ليتفكر في قدرة الله وعظمته فيقر له بالطاعة والعبودية والتنزيه، فكان تسبيحه هو المستدعي لنجاته، وكان من صدق إنابته وضيق حاله أنه خص نفسه بنداء تفرد فيه عن غيره من أنبياء الله ورسله فلم يصدر نداءه بكلمة (رب) ولم يدع فيه لنفسه بل ابتدأ النداء بالتسبيح والاعتراف بالظلم. قيل: إن «في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه، وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم»[(٢)].

يتبين من ذلك أن للدعاء والتسبيح شأنًا عظيمًا عند الله تعالى، فبهما يعترف الإنسان بضعفه وحاجته ونقصه بإزاء كمال الله تعالى وعظمته، وبهما تتجدد الصلة بالخالق وتنفتح أسارير النفس وتستمد العون والقوة منه إذ تستشعر قربه منها. لقد كان الدعاء والتسبيح وسيلة الأنبياء إلى النجاة من كربهم وغمهم وعظيم بلائهم فواجب أن

(١) انظر: جامع البيان ١٧/ ١٠٠-١٠٧، زاد المسير ٥/ ٢٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٣، الدر المنثور ٤/ ٣٣٤، فتح القدير ٣/ ٤٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٣.

نتعلم كيف ننقي أنفسنا من مساوئها، كي نجد الله تعالى بصيرًا بنا، يغيثنا وينجدنا وينجينا وأهلنا وأمتنا من نوائب الدهر وكيد الكائدين.

المنجى منه في الدنيا والآخرة

أولًا: المنجى منه في الدنيا:

الدنيا دار غرور لا ينبغي لعاقل أن يأمن مكرها، أو يخال أنه في مأمن من نوائبها وسطوة أقدارها، فمعلوم أنها كثيرًا ما تتزين للناس وتغريهم بملذاتها، فيسارع المغترون بها إلى الالتحاق بركبها واتباع سبيلها متناسين عرضها وزيف متاعها، وهي تستخف بلهاثهم إذ يعدون وراءها وقد بدا لهم منها ما يشتهون، وما ذاك إلا لغفلة أبصارهم وبصائرهم وصدهم عن أحكام دينهم الذي سوغ لهم تعدي حدود الله تعالى ونسيان لقائه وبينا هم على حالهم تلك إذ تحمل عليهم وتداهمهم بهمها وبغمها وتؤذنهم بحربها وكربها، فإذا بهم يضجون وقد ضلوا سواء السبيل وراحوا ينشدون النجاة مما أصابهم، وأنى لهم.

وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:٥١].

لذا لم تكن دعوة الله تعالى عباده إلى الإيمان به وتصديق رسالاته واتباع دينه الحق إلا من أجل أن يقيهم فتنة الحياة الدنيا وينجيهم من مكرها الذي لا يورثهم

إلا الشقاء والهموم، فمن أخلص لله الدين فقد ضمن النجاة من مكر الدنيا وآفاتها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

وحسب عباد الله المؤمنين أن يكون الله تعالى مدافعًا عنهم ينجيهم بصدق إيمانهم من كل ما أهمهم من نوائب الدنيا وفتنها.

نقف في هذا المبحث لدراسة بعض آيات الكتاب التي تكشف عن الآثار المادية والمعنوية التي أصابت بعض العباد وتصيبهم من جراء غفلتهم أو ظلمهم أو كفرهم وصدهم عن سبيل الله، ثم نسلط الضوء على الأسباب المنجية والسبل المفضية إلى الفوز برحمة الله التي يصيب بها من يشاء من عباده المؤمنين فينجيهم من تلك الآثار.

١ . الغم.

قد ذكرنا في ما مضى من القول قصة نبي الله يونس عليه السلام وكيف توسل إلى الله سبحانه بالتسبيح، فاستجاب الله تعالى من فوره لتسبيحه وصدق إنابته فنجاه إلى البر قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾[الأنبياء:٨٨].

فدلت الفاء على سرعة الاستجابة ودل الفعل (نجى) على تكرار فعل النجاة، وقد اختلف في المنجى منه؛ أي الغم فقيل: الظلمات[١] وقيل: بطن الحوت[٢] وقيل: من كليهما[٣] غير أن الثعالبي انفرد بتفسيره بأنه «ما كان ناله حين التقمه الحوت»[٤].

غير أننا نرى أن الغم الذي كان يهيمن على نبي الله يونس عليه السلام لم يكن بفعل الظلمات أو وجوده في جوف الحوت بل بفعل ما كان يمتلئ به صدره من إحساس بثقل ما يحمله من ظلم نفسه، وشعوره بالندم وظنه بأن لا سبيل لعفو الله عنه، واعتقاده بأنه فقد نعمة اصطفائه بالنبوة، كل ذلك مجتمعًا كان يبعث في نفس يونس عليه السلام الغيظ، حتى ضاق ذرعًا بحزنه فتوجه مكظومًا إلى ربه بالنداء لا بالدعاء، لأنه يريد النجاة من غضب الله لا من الضرر المادي الذي لحق به في الظلمات أو في بطن الحوت بدليل اعترافه بالظلم: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٨].

فحين استجاب الله لندائه أجاب بما هو أكرم وأجل، إذ جعل نجاته في ثلاث مراحل: أولاها: أنه أنجاه من الظلمات حين نبذه إلى العراء، وثانيها: أنه أنجاه من السقم حين أنبت عليه شجرة من يقطين، وثالثها: أنه أنجاه من غضبه وما ابتلي به حين أسبغ

(١) انظر: زاد المسير ٥/ ٢٦٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠٢.

(٤) الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٩٩.

عليه نعمته من جديد فأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، فهذه الأمور الثلاثة مجتمعة كانت تؤلف حالة الغم التي رافقت يونس عليه السلام ، وكانت وراء مجيء اللفظة بصيغة نجيناه دون أنجيناه.

وترد النجاة من الغم في موضع آخر من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام : ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠].

فالمقصود بالنفس التي قتلها ذلك الرجل القبطي الذي وكزه فقضى عليه، وكان قتله له خطأ في ما تذكر الروايات[١].

وتكاد تتفق التفاسير على تأويل معنى قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ قال مجاهد: «من غم قتل النفس»[٢].

وقال ابن الجوزي: «كان مغمومًا مخافة أن يقتل به فنجاه الله بأن هرب إلى مدين»[٣].

وقال القرطبي: «أي: آمناك من الخوف والقتل والحبس»[٤].

فيما ذهب الشوكاني إلى أن معناه: نجيناك من «الغم الحاصل معك من قتله خوفًا من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعًا»[٥].

غير أننا نرى أن نجاة موسى عليه السلام من الغم هي غير نجاته من الخوف والقتل التي سنأتي على ذكرها، فحين وكز ذلك القبطي، فوجع به وقد فاضت روحه بين يديه، فأدرك أن ما أقدم عليه كان من عمل الشيطان وأنه اتبع عدو الله حين أضله من حيث لا يقصد: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[القصص:١٥].

فأحس بالندامة على فعلته وتملكه شعور بأنه ظلم نفسه وأنه كان ظهيرًا للمجرمين وأنه فقد نعمة الله عليه بذلك القتل وأنه معاقب عليه من الله لا محالة، فتوجه إلى ربه بالاعتراف بخطئه والدعاء بالمغفرة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[القصص:١٦].

فاستجاب الله له دعاءه من فوره فغفر له ورفع عنه الغم فحين ذكر الله سبحانه لموسى عليه السلام مننه عليه كان من جملتها قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾[طه:٤٠].

أي: من شعورك بالحزن والندامة وظلم النفس ومخافة عقوبة الله إذ غفرنا لك.

٢. الكرب.

الأصل في الكرب «الشدة والقوة.. ومن الباب الكرب وهو الغم الشديد»[٦]، وهو كذلك عند الراغب الأصفهاني[٧].

(١) انظر: جامع البيان ١٦/ ٢٠٥، فتح القدير ٣/ ٣٦٥.
(٢) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٦.
(٣) زاد المسير ٥/ ١٩٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٩٨.
(٥) فتح القدير ٣/ ٣٦٥.
(٦) مقاييس اللغة ٥/ ١٦٤.
(٧) المفردات ص٥٥٣.

أما ابن حجر فيعرف الكرب بأنه: «ما يدهم المرء مما يأخذ بنفسه فيغمه ويحزنه»[1].

وقد وردت النجاة من الكرب في القرآن الكريم في أربعة مواضع، ثلاثة منها اختصت بأنبياء الله وجاء (الكرب) فيها بصيغة التعريف، وقد لازم الكرب صفة واحدة هي كونه عظيمًا، وجاء في الموضع الرابع في سياق عام بصيغة التنكير من غير تخصيص.

وقد ارتبطت مواقف النجاة من (الكرب) في القرآن الكريم بمواقف الخوف والشدة التي تعصف بالنفوس وتحملها على الاغتمام، فنوح عليه السلام كان يتملكه الخوف على قومه من عذاب الله، قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

وقد لبث فيهم «ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل على خلافه»[2] ويمعنون في السخرية منه وتكذيبه واتهامه بالجنون.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

فنادى نوح عليه السلام ربه بندائه الأول الذي جاء بسبب شعوره بالبؤس مما يفعله قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨].

فاستجاب الله تعالى لندائه إذ طلب (الفتح والنجاة) فأجابه أولًا بالفتح وذلك بقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١١-١٣].

ثم أجابه ثانية بالنجاة مما كان يخيم عليه وأهله من حزن وكرب عظيم ومن الأذى والمكروه الذي كان يصيبهم من الكافرين والعذاب الذي أحل بالمكذبين من طوفان وغرق[3]، وذلك بقوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:٧٦].

حتى إذا جرت بهم الفلك في البحر تملكه وأهله الحزن والغم ثانية من أمر ابنه الذي لم يركب معهم وآوى إلى جبل يعصمه، وحال بينه وبين أبيه وأهله الموج، فجاء النداء الثاني: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ١٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤.
(٣) ينظر جامع البيان ١٧/ ٦٦، ٢٣/ ٧٩.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٦].

فرفع الله بجوابه هذا الغم والحزن الشديد عن نوح عليه السلام وأهله وخلصهم مما كان يعتصر قلوبهم من هم وكرب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الصافات:٧٥-٧٦].

يلاحظ أن هناك اختلافًا واضحًا في صورتي النجاة الآنفتين من جهتين: أن النجاة في الأولى جاءت في شكل استجابة لنداء نوح عليه السلام وطلبه النجاة، فقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾، وأنها جاءت متصلة بـ(الفتح) فقال «فنجيناه» بالفاء على الترتيب.

في حين جاءت النجاة في الثانية في شكل جواب على سؤال نوح عليه السلام في شأن ابنه وليست استجابة، فقال تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ فجاءت النجاة من الله متصلة بالنجاة الأولى فقال: «ونجيناه» بالواو، أي: مرة أخرى.

وقد وقع الخلط عند كثير من المفسرين بين نداءات نوح عليه السلام ودعائه ففسروا هذي بتلك، والفرق واضح بينهما في سياقات كل منهما وفي طبيعة الاستجابة الإلهية إلى كل منهما.

وترد النجاة من الكرب في موضع آخر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الصافات:١١٤-١١٥].

قيل في معنى ﴿ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: من الغرق[(١)].

وقال ابن كثير: أي «من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء»[(٢)].

غير أن المتتبع لقصة موسى عليه السلام يجد أن النجاة هنا توحي بالخلاص من مواقف شديدة وعصيبة، فحين أمر الله تعالى موسى وهارون(عليهما السلام) فقال: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾[طه:٤٣-٤٥].

فقد كان الخوف يخيم عليهما وبالأخص موسى عليه السلام الذي تعددت أسباب الخوف عنده ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾[الشعراء:١٢-١٤].

(١) انظر: جامع البيان ٢٣/ ١٠٧، زاد المسير ٦/ ٣٠٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١.

ثم إذا انتهيا إلى فرعون وحدثاه بما أمرهما الله به أمعن فرعون في جدال موسى عليه السلام والسخرية منه وتهديده ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

فأنجاه الله من هذا الموقف بما أظهره لفرعون من معجزات، غير أن الموقف أفضى إلى اتساع رقعة التحدي فجمع السحرة فلما ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٣].

فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه:٦٧].

فأنجاه الله ثانية من الخوف ومن هول ذلك الموقف، ثم توعد فرعون قوم موسى عليه السلام ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٠].

فبلغ ذلك الوعيد بني إسرائيل ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

وكانوا في شدتهم تلك يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء بالنجاة: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:٨٥-٨٦].

فاستجاب الله لهم وخلصهم من خوفهم وشدتهم وأنقذهم من فرعون وجنوده، فلما أراد الله تعالى أن يذكر منته على موسى وهارون جمع كل مواقف النجاة الآنفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات:١١٤-١١٥].

أي: أنجيناهما وقومهما المرة تلو الأخرى من لحظات الخوف والرعب التي كانت ترافقهم في تلك المواقف الشديدة.

ولم تكن النجاة من الكرب مختصة بالمواقف التي يواجهها الأنبياء ومن آمن معهم بالله، بل لقد جاء في كتاب الله تعالى ما يثبت أنها رحمة الله التي لا تستثني أحدًا من الناس يخلصهم بها من خوفهم وما يعتصر قلوبهم من حزن وغم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤].

قيل: إن الله سبحانه خاطب بهذه الآية أهل الشرك[1] يسائلهم عن من يكون وراء نجاتهم إذ يدعونه في شدائدهم التي تصيبهم أو حين يحاطون بظلمات البر والبحر والليل والغيم فيخطئون الطريق ويخافون الهلاك[2]، ويعدونه بأن يشكروا نعمته إن

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٢٩٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨.

نجاهم من تلك الشدائد، ثم يجيبهم بأنه هو من ينجيهم من تلك الشدائد، ويذكرهم بأن نعمته عليهم بالنجاة لا تقف عند حدود المواقف العصيبة التي يدعونه بها، بل هي أوسع من ذلك بكثير.

حاصل ذلك أنه ما من كرب نمر به إلا وكان الله تعالى وراء خلاصنا ونجاتنا وفك أسرنا من ضيقه وشدته سواء دعوناه للنجاة منه أم لم ندعه، وعدناه بالشكر أم لم نعده، شكرناه بعد نجاتنا أم لم نشكره، فالله تعالى رحيم بالعباد، ذو مغفرة للناس على ظلمهم، فحري بنا أن ننقاد إليه في شدتنا ورخائنا.

٣. الفقر.

الفقر مشكلة إنسانية فردية كانت أم مجتمعية لها تبعاتها وتأثيراتها النفسية التي يمكن من خلالها أن يتولد الضعف في العقيدة والشك والارتياب في عدالة التوزيع الإلهي للرزق، ما قد يؤدي إلى الانحراف العقائدي[١]، أو الانجراف مع التيارات الفكرية الخطيرة التي تحيد بالمرء عن عقيدته من جراء ما يعانيه من ضنك الفقر ومرارته، وتدفع به إلى الكفر أحيانًا. ويقينًا أن للفقر تأثيرات عدة في تقويض شخصية الفرد وتشتيت أفكاره وتقييد إبداعه، فضلًا عن تأثيره البالغ في هشاشة العلاقات الأسرية وتفتيتها، فالفقر سبب رئيس في نشوء كثير من الخلافات الأسرية والمشاكل المؤدية إلى التفكك والتشرد وأحيانا إلى بيع الأبناء أو قتلهم.

ولم يغفل كتاب الله تعالى عن هذه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة التي تسهم إلى حد كبير في تهديد الأفراد والمجتمعات وتقوض أمنها واستقرارها، فسعى في كثير من آياته إلى وضع حلول وسبل كفيلة بالنجاة من هيمنة الفقر وسطوته، ليؤكد بذلك أن الفقر ليس قدرًا محتومًا على الناس، وليس أمرًا مقسومًا «لا راد له ولا حيلة في دفعه، وأن غنى الغني بمشيئة الله وفقر الفقير بمشيئة الله، ومشيئته تعني رضاه، فليرضى كل واحد بوضعه لا يطلب له تبديلًا أو تغييرًا»[٢].

بل لقد وضع الله تعالى حلولًا ناجعة لكل مشكلة تهدد صلاح الإنسان وصلاح مجتمعه، فمن أراد الخلاص من الفقر سلك طريق الله الموصلة إلى النجاة منه، ومن رغب عن ذلك الطريق فقد رضي بالخضوع والاستسلام إلى هيمنة الفقر وتبعاته.

والجدير بالذكر أن لفظة النجاة لم ترد صريحة بأية صيغة من صيغها في الآيات التي تحدثت عن سبل الخلاص من الفقر، بل يمكننا أن نفهم من سياقات تلك الآيات

(١) انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام يوسف القرضاوي ص ١٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٩.

ما ترمي إليه من غرض يقصد به موضوعه النجاة.

وأولى تلك السبل هي تقوى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

فقد جعل التقوى شرطًا في تحقيق النجاة من الشدائد والفقر، والتقوى -كما مر بنا سابقًا- تتحقق بأمور عدة كالتورع عن المحارم واحترام حدود الله وشرائعه وعدم تجاوزها وكثرة الذكر والاستغفار أما المراد بالمخرج في الآية الكريمة: فالنجاة من كل كرب سواء في الدنيا أو الآخرة، وأما الرزق: فالخلاص من ضائقة الفقر وضنكه، فقد قيل: إن الآية «نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر العدو ابنًا له فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفاقة، فقال اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل الرجل ذلك، فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة»[1].

فالملاحظ أن أول ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشجعي تقوى الله، ثم الصبر على البلاء، وقرن ذلك كله بالانقطاع إلى الله بالذكر والدعاء المستمر.

والسبيل الأخرى هي السعي إلى العمل وطلبه والهجرة إليه إن اقتضى الأمر قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

فالله تعالى وإن جعل الأرض ذلولًا لعباده إلا أن ذلك التذليل لا يمثل إلا جزءًا من مهمة تحصيل الرزق التي لا تتم إلا بتحقق الجزء الآخر وهو السعي والكد والعمل الدؤوب الذي أمر الله تعالى به، فالسعي هو الذي يفضي بنا إلى أن ننعم بخيرات الله ونأكل من رزقه، وعلى النقيض منه يكون القعود والاتكال الذي لا يفضي إلا إلى الفقر والذلة والمسكنة.

فإذا ضاقت سبل العيش في البلاد وشحت فرص العمل فلا سبيل للعبد إلى النجاة من الفقر غير الهجرة إلى مكان آخر طلبًا للرزق قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ [النساء:١٠٠].

وقال أيضًا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

فهذه النصوص وغيرها تقدم دروسًا بليغة للعباد في تحدي صعوبة الظروف وقساوتها، وإيجاد الحلول البديلة لمواجهة خطر الفقر، وتدعونا إلى عدم الاستسلام إلى تلك الظروف أو انتظار الفرج من غير سعي، فالسعي يمثل خطوة أساسية في

(١) زاد المسير ٨/ ٤٠.

طريق الخلاص من آفة الفقر.

والسبيل الثالثة للنجاة من الفقر هي الإنفاق وتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، فقد أمر الله تعالى عباده بالإنفاق في كثير من آياته من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

ثم جعل لتلك النفقات أبوابًا كالزكاة والصدقات وغيرها، وشرع لها أحكامها، وحدد المكلفين بها والقائمين عليها وميز مستحقيها من الفقراء من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وغيرهم، وبين للناس أهمية الإنفاق في بناء المجتمعات وصلاح أمورها، وما ينتظر المنفقين من أجر عظيم في الدنيا والآخرة، وما يجازى به من تخلف عن أداء واجبه الشرعي من الإنفاق.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

والإنفاق بالنسبة إلى المؤمن يمثل سلاحًا ذا حدين، ففي الوقت الذي يسهم فيه بنجاة المجتمع وخلاص أفراده من الفقر، يعمل على وقاية النفس ونجاتها من كرب الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

في مقابل ذلك نرى من ينأون بأنفسهم عن مجتمعهم لا يهمهم شيء من إصلاح شأنه، ولا يفكرون في إنقاذ أفراده ونجاتهم من الفقر، وبسبب ضعف إيمانهم نجدهم لا يتصدقون ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

وبعد ذلك كله يحسبون أنهم بمفازة من عذاب الله، إن هم إلا يظنون قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤].

فالإنفاق في سبيل الله فريضة على المسلمين؛ لبناء مجتمع قائم على إشاعة المحبة والإخاء والمساواة والعمل على القضاء على الطبقية باتباع المنهج الإسلامي الداعي إلى تحقيق التكافل ووحدة الصف في مكافحة آفة الفقر.

٤ . الظالم.

يزخر كتاب الله تعالى بمشاهد مختلفة تصور لنا مواقف الظلم في مختلف مراتبه وأحواله منذ بدء الخليقة وتعرض لنا أحداثًا وقصصًا شهدت صراعات مستمرة جسدت أدوار الظلم التي خاضها الإنسان بغروره وكبره ودور عدالة السماء في إيقاف تجاوزاته والحد من ظلمه ليعتبر بها المعتبرون.

في الوقت نفسه تطرح آيات الكتاب المبين حلولًا وسبلًا شتى لاجتناب الوقوع في الظلم بإتيانه أو الإعانة عليه أو السكوت عنه، أما وسائل النجاة من الظالمين فيمكن تلخيصها في ثلاثة أمور:

الأول: عدم الركون إلى من يظلم أو مجالستهم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود:١١٣].

فالنهي هنا يتناول كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الانحطاط «في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم»[(١)]. من جانب آخر نهانا الله تعالى بما نهى عنه نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم عن القعود مع الذين يخوضون في آياته ووجوب الإعراض عنهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام/ ٦٨].

فالإعراض عن مجالس الظالمين هو إجراء وقائي يمثل وسيلة من وسائل النجاة من مظاهرتهم والاتصاف بصفتهم ورفضًا قاطعًا لما يصدر عنهم من ظلم، أما المكوث بينهم فلن يؤدي إلا إلى التفاعل مع ذلك الخوض واستطابته بمرور الزمن والانحدار بالنفس إلى القناعة بما يصدر عن أصحابه من ظلم.

الثاني: اجتناب إعانة الظالمين على ظلمهم: فالظالم لا يقوى إلا بأعوانه الذين يتنافسون في التودد إليه من خلال ما يزينونه له من الحق في تبرير ظلمه وجبروته، فمثل هؤلاء الأعوان لا يقلون شأنًا عند الله من الظالم نفسه لأن «الظالم والمعين على الظلم والمحب له سواء»[(٢)].

ولا أدل على ذلك من قصة فرعون والملأ من حوله الذين كانوا يحرضونه على موسى وقومه، الذين يذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف:١٢٧].

فلما شاء الله أن ينزل عقابه بفرعون لم يخصه وحده به، بل بمن ناصره وأعانه على ظلمه قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٤٠].

لذا لا يتصور الخلاص من الظلم وفتنته ما لم يسع المرء إلى النجاة بنفسه من

(١) الكشاف ٣/ ٢٤١.

(٢) تهذيب الكمال، المزي ٢٩/ ٢٩١، والقول للإمام ميمون بن مهران.



مناصرته أو إتيانه.

الثالث: الدعاء إلى الله: وقد سبقت منا الإشارة إلى فضل الدعاء في النجاة عمومًا، ونقف هاهنا لنسلط الضوء على أهمية الدعاء في الخلاص من الظالمين وظلمهم، إذ لا شك أن الله سبحانه كرم بني آدم وخلقهم أحرارًا يحيون في ملكوته ويبتغون من فضله، وزرع فيهم بذرة الرفض لمظاهر الظلم، وقد لا يكون الرفض وحده كافيًا للنجاة من الظلم، فيحتاج إلى تدخل إرادة الله ونصره ولا يتم ذلك إلا بإخلاص النية والتوجه إليه بالدعاء إلى النجاة من الظالمين.

ويمكننا بالعودة إلى قصتي نبيي الله نوح وموسى(عليهما السلام) أن نرصد أهمية (دعائهما) في نجاتهما من القوم الظالمين بعد أن استعرضنا في ما مضى من الكلام أهمية (ندائهما) في النجاة من الكرب العظيم. فقد شكا نبي الله نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١].

ثم دعا ربه بدعاءين رغبة في الخلاص من ظلمهم كان أحدهما حين أحاط به قومه ليقتلوه إذ طلب النصرة لنفسه مستغيثًا ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[القمر:١٠].

فاستجاب له ربه، فأنجاه والنفر الذين آمنوا معه من القوم الكافرين قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[الأعراف:٧٢].

فقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ دال على أن الله تعالى هدى نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معه إلى سرعة النجاة من العذاب استجابة لدعائه، ثم إذا استأصل شوكة الذين كذبوه فلم يصلوا إليه قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[المؤمنون:٢٨].

ثم إذا غمرهم الطوفان دعا نوح عليه السلام ربه بدعائه الآخر ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح:٢٦].

فاستجاب له ربه فأغرقهم ونجاه ومن معه (منهم ومن الطوفان).

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾

[يونس:٧٣].

فدل بقوله: (نجيناه) على حصول النجاة أكثر من مرة ومن أكثر من شيء، ودل بالاسم الموصول (من) على الشمول، فالنجاة هنا لم تختص بنوح عليه السلام والذين معه من المؤمنين، بل به وبجميع من معه في السفينة من بشر ودابة.

فهذه المشاهد القرآنية البليغة تدعونا إلى التفكر في أهمية الدعاء في الانتصار من

الظالمين والنجاة منهم ومن ظلمهم وتؤكد لنا بالدليل القاطع أن الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

أما نبي الله موسى عليه السلام فقد قيل إنه لما عرف ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما عليه قوم فرعون من عبادته وعبادة الأصنام، وفشا ذلك منه فأخافوه وخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا خائفًا مستخفيًا[1].

فدخلها يومًا على حين غفلة من أهلها وجرى ما جرى من أمر الإسرائيلي الذي استغاثه على القبطي الذي قتله، فأصبح في المدينة خائفًا يترقب، فجاءه رجل من شيعته، قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

يلاحظ أن نبي الله موسى عليه السلام استعان بالدعاء للنجاة من قوم فرعون بعد أن تملكه الخوف من بطشهم به، وإنما وصفهم بالظالمين في ما يبدو لأحد أمرين: إما أنهم ظالمون لأنهم لم يهتدوا إلى الحق لما دعاهم إليه بادئ الأمر أو لأنهم أرادوا أن يقتلوه ظلمًا بفعلة لم يتعمد إتيانها، فلما كان قصاصهم غير مكافئ لفعلته وصفهم بالظالمين وفي ذلك يقول الرازي في قوله: ﴿نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبًا وإلا لكان هو الظالم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصًا»[2].

فلما بلغ أرض مدين ولقي النبي شعيب عليه السلام وقص عليه القصص، جاءه جواب الله على لسانه حين قال له: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وإنما كانت نجاة موسى عليه السلام بصدق دعائه وعظيم ثقته بالله.

الصدق إذن منجاة العباد، فمهما بلغت مستويات الظلم والتنكيل، تبقى إرادة الإنسان الصادقة أقوى في مواجهتها إذا استندت إلى قوة الله وعقدت الصلة بين القوتين بحبل من الإيمان والتقوى، فقوى الظلم التي تهدد العباد وتستبيح البلاد لم تسطع على مر العصور والأزمان أن تحافظ على أمنها ولم تتمكن من الاستمرار في نهجها الظالم، إذ لا زالت هنالك في كل مكان وزمان قوى إيمانية رافضة للاستبداد ترخص الأنفس في سبيل إعلاء كلمة الحق والدفاع عن كرامة الإسلام والمسلمين أينما خيم الظلم على الأمة.

٥. الضلال.

وقد ورد الضلال بصيغه المختلفة في القرآن الكريم بمعان عدة منها الغواية

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٢٣٧.

والاستنزال عن الشيء والخسران والشقاء والهلاك والإبطال والخطأ والنسيان والجهل فضلًا عن المعنى الرئيس الذي يدل عليه أي: نقيض الهدى[1]. ويفهم من ذلك أن الإنسان كلما نهج سبيل الحق والعدل والصواب كان على هدى، وكلما وقع في الخطأ عمدًا أو سهوًا أو جهلًا كان على ضلال، ولكن لكل ضلال رتبته ونسبته كما يصف لنا القرآن ذلك فالضلال بذاته منه المبين والبعيد والكبير، ويقينًا أن لكل واحد منها درجاته ونسبه، أما النجاة منه فتتحقق بأمور عدة يمكن إجمالها بما يأتي:

أولًا: الإيمان المطلق بوحدانية الله تعالى والتسليم له بالعبودية: فالشرك بالله لا يؤدي إلا إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦].

ثانيًا: إخلاص الدين والموالاة لله: فقد أمر الله الناس بعبادته وحده، فهو الخالق القاهر فوق عباده.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[الزمر:٣].

فهذا الجهل بمعرفة سبيل الله هو ما دفع نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى إنكار إقدام أبيه آزر وقومه على تأليههم الأصنام، كونه باطلًا بينًا واضح البطلان لكل ذي لب قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٧٤].

ثالثًا: اجتناب الكفر بكل أشكاله وعناوينه: لأن الكفر يمثل صورة من صور حجب الحقيقة وسترها وتختلف مراتبه باختلاف مستويات المعرفة بتلك الحقيقة والاعتراف بها، ويشترط بمعرفة الله سبحانه الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا تقود المعرفة من دون إيمان إلا إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

رابعًا: إلزام النفس بعدم العصيان: فمعلوم لنا أن معنى العصيان هو خلاف الطاعة، والعبد ملزم بحكم الشارع المقدس بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦].

خامسًا: الوقاية من الظلم والإجرام: فمن سعى بنفسه إلى اتباع هذه السبل فقد انتهى

---

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ص ٢٩٢-٢٩٣.
وانظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ٤٠٧-٤٠٩.

بها إلى الضلال، ومن وقاها منه فقد أدرك النجاة.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧].

سادسًا: الثقة بالله والاعتقاد بوجود رحمته وقربها: فمن أسلم نفسه إلى يأسه وضيق أفقه الفكري فقد أدخل نفسه في نفق الضلال ومتاهته.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

سابعًا: دوام الذكر: فقد أوصى الله عباده بإعمار القلوب بذكره.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

فالاطمئنان يجعلها رقيقة رطبة مهتدية بنور ربها، وعلى النقيض من ذلك تكون القلوب القاسية قلقة ومتخبطة.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

ثامنًا: عدم الانقياد وراء الأهواء: لأن الأهواء تميل بالنفس إلى شهواتها وإلى الاعتقاد بما يخالف الحق ما يوهم المرء فيشط به عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

تاسعًا: رفض طاعة المضل: فمن صدق عليه الضلال وجب ترك طاعته.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧].

فطاعة الله وحده هي الهدى.

لقد جاء كتاب الله تعالى لإرشاد الناس إلى طريق الهدى وإيقاظهم من غفلتهم وإنقاذهم من ضلالتهم التي كانوا عليها قبل مجيء الإسلام، غير أن قوى الضلالة والذين في قلوبهم زيغ لا يزالون يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وشق الصفوف، وبدل أن يكون القرآن الكريم مصدر وحدتنا أصبحنا نجد الأصوات تتعالى من كل ناحية لتضل الناس وتحرضهم على الفتن والفرقة والاحتراب وتقول برأيها في آيات الله تعالى وتتخذ منها وسيلة لإقناع الناس بسلامة نهجها، وما ذاك من الكتاب في شيء وقد قال تعالى في محكمه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

فديننا يأمرنا بالهدى، وبالهدى وحده نبلغ النجاة، وننقذ أمتنا الإسلامية من المخاطر التي تحيط بها من كل جانب ونسهم في خلاصها من الأفكار الظلامية التي تنخر في جسدها وتغرر بالبسطاء من أبنائها لتضلهم عن سواء السبيل.

٦. المخاطر.

كثيرة هي المخاطر التي يتعرض لها الناس في مسيرة حياتهم سواء ما تهدد استقرارهم العقائدي أو الوجودي ولله تعالى حكمة بالغة في إحاطتهم بتلك المخاطر ليبلوهم أيهم يثوب إليه داعيًا ومنيبًا، ثم إذا كشف عنهم البلاء ونجاهم، ينظر من منهم سيعترف بفضله ويشكر آلاءه ومن سيجعل له شركاء في حكمه ؟.

فمن الناس من لا يعتبر بتلك الشدائد والمخاطر التي تصيبهم باستمرار، فما إن يخرجوا من شدتهم وينجوا من مخاطرها حتى يعودوا إلى شركهم أو كفرهم أو فسادهم في الأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

يلاحظ أن الإنسان في مثل هذه الحالة «لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعًا إلى الله تعالى، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة»[1].

ويعود كتاب الله العزيز ليسوق لنا هذا المثال في مناسبات أخرى ليدلل به على أنه ما من خطر يتهدد الإنسان في حياته إلا وكان الله وحده هو المنجي منه، ولكن الإنسان تجده بعد نجاته مرة يعرض عن ذكر الله أو أنه يقتصد في الذكر، جهلًا منه بأن المخاطر تلك تصيبه في ظرف دون آخر، وما علم أنه معرض لها في كل زمان ومكان ولا فرق في أن يكون في البحر أو في البر ليتهدده خطرها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۞ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾[الإسراء:٦٧-٦٨].

فحري بالإنسان أن يخلص النية ويواصل الذكر ويشكر آلاء الله في الشدة والرخاء، ويجعل نعمة الله عليه بالنجاة من المخاطر سببًا في التعلق به أكثر، فلا تكون الحاجة إلى الله محصورة في لحظات نزول الشدائد ثم إذا انفرج الهم جعل له شركاء في قدرته قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٧٠.

﴿يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥].

قيل: «إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه»[(١)].

ومنهم المقتصدون في كفرهم أو إخلاصهم كما يقول تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[لقمان:٣٢].

فقد بقي لمشهد الموج العظيم أثر في نفوسهم «فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص»[(٢)]، فإلى هؤلاء وغيرهم يوجه الله تعالى سؤاله منكرًا عليهم جحودهم قائلًا: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

[الأنعام:٦٣-٦٤].

فقد جمع الله سبحانه المخاطر كلها في قوله ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليشير بذلك إلى كل ما من شأنه أن يبعث الخوف في النفوس من أهوالهما، وهذه المخاوف هي التي تعود بالإنسان إلى فطرته السليمة فيتشبث بخالقه تلقائيًا، غير أنه وبعد الفوز بالنجاة والسلامة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية. ومن يتدبر الآية الكريمة يجد أن لفظها يدل على أن الإنسان عمومًا يأتي بأمور أربعة عند نزول المخاطر هي: الدعاء والتضرع والإخلاص بالقلب والتزام الاشتغال بالشكر[(٣)].

فهذه العوامل المنجية يجب أن لا تنتهي بعد تحقق النجاة إلى تقديم الشرك عليها.

٧. العذاب الدنيوي.

يعرض لنا القرآن الكريم صور العذاب الدنيوي في نمطين: أحدهما عذاب صادر من الله تعالى والآخر عذاب صادر من الإنسان، فأما النمط الأول فغالبًا ما يقع بسبب ما يقدم عليه الناس من ارتكاب المعاصي وإتيان الظلم، وعلى الرغم من ذلك لا نجد الله تعالى يعاجلهم بالعذاب بل ينزل عليهم كتبه ويبعث فيهم رسله مبشرين ومنذرين رغبة منه في فوزهم بثوابه وخلاصهم من عذابه.

وتعرض لنا آيات الله البينات كثيرًا من المشاهد الممتزجة بألوان العذاب الذي حذر الله تعالى منه أو توعد به أهل القرى والظالمين من أعدائه والمتجاوزين على حدوده، وحري بنا أن نتعرف من خلالها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٦٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٣.

على السبل الناجعة المفضية إلى النجاة منه، فمن بين تلك السبل:

أولًا: تطهير النفس من الشرك: قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

فمن جعل لله شركاء فقد ظلم نفسه وساقها إلى عذابه.

ثانيًا: الإيمان بالله وشكر نعمته: قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾[النساء:١٤٧].

وقال تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[هود:٥٨].

فالاعتراف بربوبية الله تعالى توجب الرحمة والنجاة من عذابه.

ثالثًا: دوام الذكر: كتسبيحه أو الاستغفار قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

رابعًا: اجتناب الكفر: لأن الكفر يفتح الأبواب لكثير من المعاصي، لذا لا يكتفي الله سبحانه بعذاب الكافرين في الدنيا بل يذيقهم عذاب الآخرة حيث لا ناصر ينجيهم منه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[آل عمران:٥٦].

خامسًا: الابتعاد عن الاستنكاف والاستكبار: فالعزة والكبرياء لله وحده.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٧٣].

سادسًا: الحذر من النفاق: فمن بين أكثر الصفات ذمًا عند الله صفة النفاق، وقد قرن الله تعالى المنافقين بالمشركين في أكثر من آية وساوى بينهم في الوعيد بعذابه.

قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب/ ٧٣].

سابعًا: وقاية النفس من الصد عن سبيل الله: فمن يصد عباد الله عن عبادته لن يحول بينه وبين عذابه شيء قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾[الأنفال:٣٤].

ثامنًا: الانقياد إلى أوامر الله تعالى ورسله: فكتاب الله تعالى مليء بشاهد العذاب التي نزلت بالأمم الغابرة جزاء عصيانها وعدم امتثالها لأوامره.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾[الطلاق:٨].

تاسعًا: الحذر من إتيان المكر السيء: فقد أعد الله تعالى للماكرين عذابًا مفاجئًا غير محدد بشكل ولا مكان أو زمان.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النحل:٤٥].

عاشرًا: النأي بالنفس عن الظلم: فالسعي إلى تجاوز حدود الله ومخالفة ما شرعه من العدل يوجب العذاب الذي لا منجاة منه.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[الأعراف:١٦٥].

وأما النمط الآخر من العذاب فهو الصادر عن الإنسان في حق الإنسان، ويكون على قسمين:

عذاب بهدف إقامة حدود الله: وهو ما يتم تنفيذه بالزناة مثلًا.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٢].

وتكون النجاة من هذا العذاب بصون النفس عن ارتكاب الكبائر.

وعذاب بهدف التجبر والهيمنة: وهو ما يصدر عن الطغاة والجبابرة بحق المستضعفين من الناس، ولا منجاة منه إلا بالإيمان بالله تعالى والتوكل عليه والدعاء إليه بالخلاص، ولا أدل على هذا القسم من العذاب من قصة فرعون واضطهاده لبني إسرائيل وإنزال أنواع العذاب فيهم، فلم يكن الله لينجيهم من ظلمه وجبروته إلا بعد أن آمنوا لموسى وهارون(عليهما السلام).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[البقرة:٤٩].

أما وجوه العذاب فقد حدها بعض علماء التفسير في عشرة وجوه هي: الحد في الزنا، المسخ، هلاك المال الغرق، القذف والخسف، الجوع، القتل، الضرب المؤلم، نتف الريش، تعب الخدمة[(١)].

يتبين لنا من خلال ما تقدم أن نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى توجب علينا شكرها، فما من منعم سواه إن أمسك علينا نعمه.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:٥٣].

فبالشكر تدوم النعم ويدرأ العذاب، فالله تعالى ما كان ليجتبي نبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم ويهديه لولا أنه كان شاكرًا لأنعمه، أما من يكفر بها فليس له من الله من عاصم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة:٢١١].

فواجب إذن على كل مسلم ومسلمة أن يتذكر نعمة الله عليه، ولا يجحدها كما جحد بها بنو إسرائيل ويستحضر موارد النجاة التي

(١) انظر: إصلاح الوجوه والنظائر ص ٣١٩.

أنقذه منها، فيخشاه ويتقيه حق تقاته.

ثانيًا: المنجى منه في الآخرة:

الموت أول مراحل الآخرة والقبر أول منازلها، والموت هو المخلوق الذي قهر الله به عباده، والحقيقة الثابتة التي يقر بها الخلق جميعًا سواء من آمن منهم بالله واليوم الآخر أم غير المؤمنين، فهو أمر محسوس ومدرك لا يحتاج الاعتقاد بحقيقته إلى إثبات أو برهان يؤكد وجوده، وليس أمره بمقتصر على فئة من الخلق دون أخرى بل هو قضاء إلهي عادل يتساوى فيه الخلق جميعًا.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

فالإنسان إذا مات انقطع عمله وقامت قيامته وبدأت مسيرة حسابه ليوفى أجره بما عمل، فإما إلى سعادة أو إلى شقاء وعمله هو رفيقه الذي يسوقه إلى ما يستحقه من مثوى، وهو الشاهد على ما قدمته يداه، فإذا صلح كان طوق النجاة الذي يدرأ عنه العذاب ويزحزحه عن النار ويدخله الجنة، وأما إذا فسد فقد خسر خسرانًا مبينا فالمفسدون لن ينجوا بما فسد من أعمالهم وقد أحبطها الله وأخزاهم بها، بل سيدورون يبحثون عن ما ينجيهم من العذاب فمرة تتعلق آمالهم بالناجين من المؤمنين فيقولون لهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣].

ومرة يتعلقون برغباتهم اليائسة كتمني الافتداء: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج:١١-١٤].

ومرة يبحثون عن شفعاء أو يسألون العودة إلى الحياة ثانية للتزود بالعمل الصالح ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣].

وفي كل الأحوال تبقى هذه الآمال مستحيلة التحقق، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

فالإيمان بالله والعمل الصالح في الحياة الدنيا هما مفتاح النجاة من أهوال الآخرة التي سنقف عندها في هذا المبحث لنفصل القول في أحوالها وسبل النجاة منها كما هي واردة في آيات الذكر الحكيم.

١. عذاب القبر.

كثر الخلاف في مسألة عذاب القبر، ولا زال من الناس من تساورهم الشكوك في حقيقته أو الكيفية التي يكون عليها؛ لأن الله سبحانه قصر العلم بأمور الآخرة على نفسه، وحجبه عن إدراك المكلفين بأمور الدنيا،

وإذ لم يعد أحد من الموت ليخبر الأحياء بما نزل به من العذاب في قبره، فقد ظل هذا الأمر مثار جدل طويل حتى حسم بعضهم أمره بالقول: إن «عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مضل»[(١)].

قيل: «ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أم لم يقبر»[(٢)].

وليس عذاب القبر بمقصور على «الكافرين ولا موقوفًا على المنافقين بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكل على حاله من عمله، وما استوجبه بخطيئته وزلله»[(٣)].

أما الناجون من العذاب فقليل، فإذا تأملنا ظواهر القبور وجدناها ترابًا ولكن في بواطنها الدواهي والحسرات تغلي كما تغلي القدور بما فيها[(٤)].

ويذكر لنا ابن القيم جملة من الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور وقد حصرها في وجهين: «مجمل ومفصل: أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته، وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه»[(٥)].

وأما المفصل فالأخبار والأحاديث كثيرة في شأنه، ومن أسبابه: الزنا والكذب وأكل الربا والنوم عن الصلاة المكتوبة وهجر القرآن والدين وحبس الحيوان وتعذيبه واللواط والنياحة على الميت والغلول في الغنيمة والسرقة والإفطار المتعمد والنميمة والغيبة. وقد ركزت آيات الله البينات على أربعة أسباب موجبة لعذاب القبر إذا اجتنبها العبد فاز بالنجاة في حياته البرزخية، والأسباب هي:

أولًا: الظلم: وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام:٩٣].

وفي موضع آخر يذكر آل فرعون، وهم الذين وصفهم في أكثر من آية بالقوم الظالمين، فيصور ما هم عليه من عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

(١) الروح، ابن قيم الجوزية ص ٨٠.
(٢) المصدر السابق ص ٨١.
(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٤١٣.
(٤) الروح ص ١١٠.
(٥) المصدر السابق ١٠٧-١٠٨.

وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦].

وفي موضع ثالث يشير إليه بأنه عذاب أدنى من عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الطور:٤٧].

فقد «اختلف أهل التأويل في العذاب الذي توعد الله به هؤلاء الظلمة... فقال بعضهم: هو عذاب القبر»[١].

ثانيًا: النفاق: ليس على الإسلام من هو أخطر من المنافقين، لذا أعد الله تعالى لهم عذابين في الدنيا والآخرة مضافًا إليهما عذاب ثالث هو عذاب القبر المشار إليه في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١].

ثالثًا: الفسق: وجعل من ذلك ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم في شأن عذابهم الأدنى من قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[السجدة:٢٠-٢١].

رابعًا: الإعراض عن ذكر الله تعالى: وقد جعل المفسرون من ذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه:١٢٤].

فعن أبي سعيد الخدري: «قال في قول الله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: عذاب القبر»[٢].

وتتحقق نجاة الإنسان من عذاب القبر باجتناب ما تم عرضه من الأسباب التي تقتضي عذاب القبر[٣] وبمواصلة الذكر والاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، وبالمفصل يكون الخلاص من عذاب القبر بالالتزام بالآتي:

أولًا: التوحيد: فمن عرف الله حق معرفته في حياته، فسيثبته الله على ذلك النهج في آخرته، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧].

قيل: إنها «نزلت في عذاب القبر، يقال: من ربك ؟ فيقول: ربي الله وديني دين محمد»[٤].

ثانيًا: الاستقامة على طاعة الله عز وجل: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠].

(١) جامع البيان ٢٧/ ٤٩.

(٢) المصدر السابق ١٦/ ٢٨٢.

(٣) انظر: الروح، ابن القيم ص ١١١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٦٢.

ثالثًا: الشهادة في سبيل الله: فللشهيد منزلة عظمى عند الله تعالى، وقد كتب له الخلود واستمرار الحياة ولم يعده في الأموات.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٥٤].

فسبحان الذي ميز بينها وبين أرواح الموتى، فحري بأبدانهم إذن أن تتمايز هي أيضًا في قبورها، فيسأل من مات حتف أنفه ويعذب بذنوبه، أما من «أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر؟»[(١)].

٢. الفزع الأكبر.

قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء:١٠٣].

وقد اختلف أهل التأويل فيه «فقال بعضهم: ذلك النار إذا أطبقت على أهلها... قال ابن جريج، قوله: لا يحزنهم الفزع الأكبر: قال: حين تطبق جهنم، وقال: حين ذبح الموت. وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة... وقال آخرون: بل ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر وأمن منه، فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده»[(٢)].

وإلى هذا الأخير ذهب ابن الجوزي بقوله: «...وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾»[(٣)].

واستدل عليه أيضًا[(٤)] بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[النمل/ ٨٧].

وقد جمع الثعالبي كل الآراء المتقدمة بقوله: «الفزع الأكبر عام في كل هول يكون يوم القيامة فكان يوم القيامة بجملته هو الفزع الأكبر»[(٥)]، أي: البعث والحساب والعقاب[(٦)].

---

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٤٢٤.

(٢) جامع البيان ١٧/ ١٣٠-١٣١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠٨، الدر المنثور ٤/ ٣٣٩.

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٧٢.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٥/ ٢٤٧.

(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٠٣.

(٦) انظر: فتح القدير ٣/ ٤٢٩.

قيل: إن «أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم»[1].

وتذكر لنا السنة النبوية جملة من الأسباب والوسائل المنجية من تلك الأهوال وما ينشأ عنها من فزع عظيم وجاء في الأثر في فضل البكاء من خشية الله أن نبي الله موسى عليه السلام سأل ربه: «قال إلهي فما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه ؟ قال جزاؤه أن أحرم وجهه على النار وأن أؤمنه يوم الفزع الأكبر»[2].

وبالجملة فإن أي عمل يقوم به الإنسان بنية الإحسان، يكون له جنة من فزع القيامة، ويقيه جانبًا من أهوالها ومشاهدها المذهلة، وقد وعد الله سبحانه عباده المحسنين بالنجاة من ذلك الفزع والأمن منه بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

٣. الحساب.

قد ذكر أهل التفسير أن الحساب في القرآن الكريم يرد على وجوه خمسة هي: العدد والكثير والمحاسبة والتقتير والجزاء[3].

وما يهمنا من هذه الوجوه في هذا المبحث هو الجزاء الذي يشير إليه الثعلبي بقوله: «الحساب تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك»[4]، فالحساب إذن «علة للوصول إلى الجزاء»[5].

ويروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من نوقش يوم الحساب عذب، قالت: قلت أليس يقول الله تعالى:** ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٨]. **قال: ذلك العرض)**[6].

وتختلف كيفيات الحساب وأحواله، فمنه العسير ومنه اليسير ومنه العدل والجهد ومنه التكريم ومنه التوبيخ والتبكيت ومنه الفضل والصفح والعفو والغفران[7].

ويمكن الاهتداء إلى سبل النجاة من الحساب باتباع ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والتزام الآتي:

أولًا: التوحيد ونبذ الشرك: قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧].

---

(١) جامع البيان ١٦/ ٧٤.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٠٨.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٥١٣. وانظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٥٠.
(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٧١.
(٥) فتح القدير ٤/ ٤٣٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، ٤/ ١٩٨، رقم ٦٥٣٦.
(٧) انظر: لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٧٢.

ثانيًا: اجتناب الكفر: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

ثالثًا: طاعة الله واتباع سنته: قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد:١٨].

رابعًا: مواصلة الأرحام: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١].

قال القرطبي في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: «قيل: في قطع الأرحام»[1].

خامسًا: اتباع سبيل الله وعدم الانقياد إلى الهوى: قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

سادسًا: الصبر: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

سابعًا: العمل الصالح: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

٤ . الصراط.

الصراط: «جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار وخلق من حين خلقت جهنم»[2].

وجاء فيه أنه (يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم فمن مر على الصراط دخل الجنة)[3].

ومن صفاته أنه أدق من الشعر وأحد من السيف' مدحضة، مزلة؛ أي: زلق لا تثبت عليه الأقدام ولا تستقر إلا ما شاء الله، وله جنبتان وحافتان، ويموج بالسائرين عليه إلا من ثبته الله تعالى.

يروى أن هذا الصراط يضرب بين ظهري جهنم بعد أن ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣١٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة)، ٤/ ٣٩٢، رقم ٧٤٣٩.

يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: (فأكون أنا وأمتي أول من يجيز)[1].

وربما كان «المرور على الصراط من أخطر كرب يوم القيامة إن لم يكن هو أخطرها، ففيه من الأهوال والفزع والخوف والرعب ما لا تتحمله عقول الخلق ولا نفوسهم»[2]، يدل على ذلك أربعة أمور هي: أنه لا يذكر الإنسان عنده إلا نفسه، وأن الملائكة تشفق من هوله على الرغم من أنهم غير محاسبين، وأنه واحد من ثلاثة مواطن يقف عندها النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة وأنه لا يتكلم عنده يومئذ إلا الرسل[3].

أما أحوال الناس على الصراط، فالله سبحانه يبعثهم في ظلمة شديدة إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها فيجمع الله تعالى الناس فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ليستجيزوا الصراط.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾[الحديد:١٢].

أما المنافقون فلا يسعفهم نورهم عند الصراط، إذ يسلبه الله منهم، فينادون على المؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[الحديد:١٣].

في هذا الموضع يفترق المؤمنون الناجون من الصراط عن المنافقين المعذبين، وتتوقف نجاة المؤمنين على مقدار ما تبلغ بهم أعمالهم من الصراط المستقيم الذي لا يمكن بلوغه إلا بتوافر أسباب عدة يمكن التماسها في القرآن الكريم منها:

أولًا: الإيمان بالله تعالى والاعتصام به واجتناب الكفر: قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:١٠١].

ثانيًا: الإيمان بالآخرة: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[المؤمنون:٧٤].

ثالثًا: عبادة الله وحده: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[آل عمران:٥١].

رابعًا: الدعاء بالهداية: قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٧].

والهداية مرة تكون برحمة مباشرة من الله تعالى، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

ومرة تكون بوساطة كتابه: قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤيا، رقم ٢٩٩.
(٢) كيف تنجو من كرب الصراط، محمد النعيم ص٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿الْحَمِيدِ﴾[سبأ:٦].

ومرة بوساطة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

خامسًا: اتباع مرضاة الله: قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٦].

سادسًا: التصديق بآيات الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام:٣٩].

سابعًا: الأمر بالعدل: قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٦].

ثامنًا: شكر النعم: قال تعالى في نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١].

تاسعًا: اجتناب الشرك بالله والظلم: قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٢-٢٣].

عاشرًا: الاقتداء بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم: فقد خصه الله تعالى بالقول: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[يس:٣-٤].

٥. النار.

النار هي دار الكافرين أعدها الله لهم جزاء بما خالفوا عن أمره.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١].

فالنار «خلق من خلق الله تعالى خلقها وجعلها عذابًا للمجرمين الذين خرجوا على دينه وتمردوا على رسله، فهي عذاب حسي، تختلف في قوة عذابها الحراري والزمهريري. فلكل من يدخلها مكان يتلاءم مع جرمه، وعذاب على قدر ذلك، لأن الجزاء من جنس العمل»[1].

وقد نقلت لنا آيات القرآن الكريم صورًا مختلفة لعواقب أهلها وسوء أحوالهم وهم يصطرخون فيها، ويقابل ذكر النار ذكر الجنة وهي دار النعيم «فكل واحدة من الجنة والنار حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكل ما هو كذلك فالإيمان به واجب واعتقاد وجوده حق لازب، والمراد من الجنة دار الثواب ومن النار دار العقاب»[2].

وتستدعي النجاة من النار التأمل في فلسفة

(١) يوم القيامة ومشاهده في الكتاب والسنة، دوخي الحارثي، ص ٣١١.
(٢) المصدر السابق ص٢١٩.

وجودها وهول أحوالها والأسباب الموجبة لورودها أو المعاقبة بها فمن المتعارف أن الله سبحانه خلق الخلق «ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه... ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر تعالى في كتابه ذكر النار وما أعده فيها لأعدائه من العذاب والنكال، وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال... ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه، والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبه ويرضاه، واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه»[1].

وفي الوقت الذي حدد الله تعالى فيه لعباده سبل نجاتهم من النار فقد بين لهم في مقابل ذلك ما ينتظرهم من نعيم جناته الذي أعده للناجين منهم والفائزين بمرضاته، فالمنجي من النار هو الله تعالى وحده، وذلك بقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[آل عمران:١٠٣].

أما الأنبياء عليهم السلام والصالحون فهم يدعون إلى النجاة قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[غافر: ٤١].

وأما من حقت عليه كلمة العذاب فلا منجاة له من النار.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩].

ولن تشفع للكافر منزلته مهما عظمت.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠].

ولن ينجيه ماله ولا ولده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١١٦].

في مقابل ذلك تحفل آيات الله البينات بمواقف ومشاهد وإشارات تجسد دعوة الله عز وجل عباده إلى الخلاص من عذاب السعير والفوز بالجنة.

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥].

وقد ذكر القرآن الكريم جملة من الوسائل الكفيلة بنجاة الإنسان من النار منها:

أولًا: نبذ الشرك والكفر بالله تعالى: قال تعالى في شأن المشركين: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ابن رجب الحنبلي ص ٧- ٨.

فلا ناصر ينجيه من ذلك المأوى، وقال في شأن الكافرين: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾[الأنفال:١٤].

ثانيًا: الإيمان بالله ووقاية النفس: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[التحريم:٦].

فلم يكتف بالإيمان بل دعا إلى العمل على وقاية النفس والأهل من النار.

ثالثًا: تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢].

وتجدر الإشارة إلى أن المفسرين مختلفون في معنى الورود فمنهم من ذهب إلى أن الخلق جميعًا من بني آدم يمرون على النار، ومنهم من ذهب إلى أنهم يدخلونها، ومنهم من قال: يطلعون عليها[١]، قال الطبري: «ثم يصدر عنها المؤمنون فينجيهم الله ويهوي فيها الكفار»[٢].

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الزمر:٦١].

رابعًا: عبادة الله وحده: قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[العنكبوت:٢٥].

فهؤلاء الأنداد والأوثان لن يحولوا بينهم وبين النار ولن يخلصوهم من عذابها ما عكفوا عليها ساجدين.

خامسًا: التصديق بآيات الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩].

فإنكار الآيات والصد عنها يقطع السبيل إلى النجاة من النار يوم القيامة.

سادسًا: الدعاء إلى الله: قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

وقد مضى الحديث عن فضل الدعاء في بلوغ رضا الله تعالى والظفر بنصره ونجاته

سابعًا: الثبات على الدين: قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

ثامنًا: ذكر الله والتفكر في خلقه: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

(١) انظر: التذكرة بأحوال الموتى والأمم الغابرة، ص ٧٦٠.
(٢) جامع البيان ١٦/ ١٤١.

تاسعًا: طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتزام حدوده: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[الجن:٢٣].

عاشرًا: النأي بالنفس عن حمل الظلم: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[الكهف:٢٩].

حادي عشر: الاحتراز من الجرم والفسق والإسراف: قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

وقال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[غافر:٤٣].

ثاني عشر: الابتعاد عن النفاق: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

ثالث عشر: عدم التفكير في معاداة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:٦٣].

وبالجملة فإن جميع الأعمال الصالحة التي يقدمها المرء بين يدي ربه سواء ما ينفع بها نفسه أو مجتمعه يمكن أن تحول بينه وبين النار إذا ما كان الله تعالى قد رضي بها وادخرها له ليقيه بشفاعتها من السعير.

نماذج من الناجين في القرآن الكريم

لم تكن مهمة أنبياء الله ورسله عليهم السلام باليسيرة في الدعوة إلى الله عز وجل وإخراج الناس من ظلمات معتقداتهم وضلالة أفكارهم، وقد توارثوها عن آبائهم وعهدوا بها إلى أجيالهم، حتى استقر عليها منهاج حياتهم واطمأنت بها نفوسهم التي لم يخطر ببالها أن تتأمل في حقيقتها، أو تطمح إلى تغييرها؛ لأنها جاءت موافقة لرغبات مجتمعاتهم أو طبقاتهم الحاكمة أو المتحكمة على مدى العصور.

فكانت دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام تحدث صدمة وزعزعة واضطرابًا في نفوس الأفراد أو الجماعات الذين يتلقونها؛ لأنها تخاطب عقولهم التي غيبت عن التفكر في حقيقة الوجود وصانعه، وتبصرهم بزيف معتقداتهم التي لا أساس لها من الصحة، غير أن النظام الفكري والعقائدي غالبًا ما يكون مبنيًا على أسس ومفاهيم ضيقة، ولا يمكن أن يستوعب ذلك الفضاء الرحب من الهدى، ولا طاقة له بالتخلص من ذلك الموروث المقدس المهيمن على وعيه الذاتي والاجتماعي، فينشأ الصراع الفكري بين الإرادات المختلفة وسرعان ما تندحر وتنحسر المناهج الضالة وتضعف دفاعاتها أمام حقيقة الرسالات السماوية وقوة حجتها

وعظيم برهانها وتحديات معاجزها، فيهرع إلى اعتناقها من شرح الله صدره للهدى، وينقم منها المعاندون الذين استحوذ عليهم الشيطان، لتتسع دائرة الصراع ويتجه باتجاه المواجهة المادية بعد أن هزمت الأفكار الضالة والمعتقدات الزائفة وتكشف بطلانها وأصبحت الرسالة السماوية تسفه الآراء وتهدد النفوذ وتقوض السلطان، فتتحد القوى الضالة والمضللة وتجتمع لمحاربة النبيين ووأد دعواتهم وطمس معالمها ومحو آثارها.

وفي خضم هذه المواجهات المستمرة يبتلي الله ما في صدور المؤمنين ليمحص قلوبهم، ويمهل الكافرين حتى تحق عليهم كلمة العذاب، ثم يهلكهم بذنوبهم وينجي رسله والذين آمنوا معهم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

وتحمل لنا آيات الله البينات صورًا ومشاهد عدة لعباد الله تعالى الذين من عليهم بالنجاة من مواقف مختلفة.

وفيما يأتي نسلط الضوء على مواقف الناجين من الأفراد، ومواقف الناجين من الجماعات.

أولًا: الناجون من الأفراد:

١. النبيون.

أولًا: نجاة نبي الله إبراهيم عليه السلام:

لقد بعث الله نبيه إبراهيم عليه السلام في قومه، وكانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وكان أول دعوته لأبيه آزر فلما استيأس من أن يستجيب لدعوته اعتزله وتوجه إلى قومه يدعوهم ويحاججهم فلم يؤثر فيهم نصحه فأقسم على أن يكيد أصنامهم، فلما خرجوا لأداء مراسم عيدهم لم يخرج معهم، وانطلق مسرعًا إلى آلهتهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

ولما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم، جيء بإبراهيم عليه السلام، وقد دار بينه وبينهم ما دار من جدال ألزمهم فيه الحجة، فعدلوا عن الجدال والمناظرة إذ لم يبق لهم سبيل إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، وكان عليهم الإسراع في وأد الفتنة، غير أنهم اختلفوا بين مطالب بقتله وراغب بتعذيبه وهلاكه بالنار كما يخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[العنكبوت:٢٤].

ثم اختاروا الأخير، ربما ليشهد هلاكه الناس ويعتبروا به فلا يتجرأ أحد منهم على المساس بالأصنام ثانية. فحبس إبراهيم

عليه السلام وشرعوا يجمعون حطبًا من أماكن عدة، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط، فانتشرت حرارتها في الفضاء بحيث لم يكن يحلق طائر في تلك الأجواء إلا سقط محترقًا، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أؤمر فأرسل المطر[(١)].

ولكن الله سبحانه خص نجاة إبراهيم عليه السلام بنفسه فقال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

فكانت النجاة بأمره هو وبقوله هو لذا لم يتحدث النص القرآني عن الذات المقدسة (بالمضمر) بل جاء باسمه الأعظم (صريحًا) في قوله: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾[العنكبوت:٢٤].

ولما كان أمره سبحانه أسرع في الوصول إلى النار من وصول إبراهيم عليه السلام إليها جيء بالفعل (أنجى) الذي يدل على حدوث الفعل لمرة واحدة وبسرعة أكبر مما لو استعمل الفعل (نجى).

نستشف من هذه المواقف أن الله سبحانه قريب من عباده لا يبطئ في مساعدتهم وإنقاذهم من محنهم حين يجد فيهم ثباتًا وعزمًا وإيمانًا راسخًا، وأن على العبد أن يجعل كل ثقته بالله تعالى وبقدرته على أن يغير نواميس الكون لقاء خلاصه من شدته، وأن التوكل على الله وتسبيحه هو السبيل الأمثل لتحقيق النجاة من الشدائد.

ثانيًا: نجاة نبي الله يوسف عليه السلام:

وردت قصة نبي الله يوسف عليه السلام في القرآن الكريم كاملة في سورة واحدة من سوره المباركة لتعرض لنا صورة عن مسيرة حياته الحافلة بالشقاء والتعذيب، واللحظات الحياتية الحرجة التي لم يكن أحد ليستطيع إنقاذه منها لولا تدخل العناية الإلهية التي كانت سببًا رئيسًا في نجاته سبع مرات من مواقف مختلفة:

الموقف الأول: إجماع إخوته على إلقائه في قعر الجب، فلما ألقوه فيه أوحى الله تعالى إليه أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا، وكانت نجاته من البئر بمعجزة، إذ جاءت سيارة «يسيرون من

(١) انظر: انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧١، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٦١ .

الشام فأخطؤوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبًا من الجب، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران، إنما هو للرعاة والمجتاز، وكان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف»[1].

فأرسلوا واردهم فلما أدلى بدلوه في الجب تعلق فيه يوسف، فاستخرج من البئر ونجا من غياهبه بتوفيق من الله تعالى.

الموقف الثاني: مراودة امرأة العزيز له عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، فأعدت واستعدت وهيأت وتهيأت، فصرفها الله عنه وأنجاه برؤية برهانه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

واختلف في ذلك البرهان فقيل في تفسيره ستة أقوال[2] حاصل فكرتها جميعًا أن نجاته عليه السلام كانت بمعجزة إلهية خصه بها.

الموقف الثالث: مصادفة العزيز لدى الباب، حيث كادت امرأته بيوسف عليه السلام لتبرئ عرضها وتنزه ساحتها ولتنكل به جراء عدم امتثاله لإرادتها، فتبادلا التهمة عند سيدها: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف:٢٥-٢٦].

في هذه الأثناء تتدخل العناية الإلهية مرة أخرى لتخلص يوسف عليه السلام من مأزقه هذا بشهادة شاهد من أهلها قال ابن عباس كان صغيرًا في المهد[3] فهداهم إلى تحكيم العقل والمنطق في التحقق من مسألة قد قميصه، فأنجاه الله بأن تيقن العزيز أن امرأته هي التي راودت يوسف عليه السلام بعد أن رأى أن قميصه قد من دبر.

الموقف الرابع: حين شاع خبر امرأة العزيز وافتضح أمرها فكثر اللغط والطعن بعفتها فأرسلت إلى نسوة المدينة وأعتدت لهن متكأ وأخرجته عليهن، فأعظمنه وأجللنه، ثم مدحته بالعصمة وتوعدته بالسجن إن لم يطع أمرها، فأخذن يحرضنه على السمع والطاعة لسيدته[4].

فخشي يوسف عليه السلام من أن تضعف نفسه أمام ما يتعرض له من تحريضهن فدعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

فكان له ما أراد إذ كتب الله له النجاة بدعائه الصادق قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٥٢.
وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣٢.
(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ١٥٩.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٢٠.
(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣٢.

المواقف الخامس والسادس والسابع:

أودع يوسف عليه السلام السجن وأنزل به العذاب وضيق عليه، وكان من شدة ما نزل به من الأمر أنه أوصى من نجا من صاحبي السجن أن يذكر أمره عند ربه ويخبره أنه سجن بغير جرم، فأنساه الشيطان، فمكث في سجنه بين ثلاث إلى تسع سنين حتى كان ما كان من أمر رؤيا الملك التي فسرها فكان ذلك التفسير سببًا في نجاته من السجن وشدته من التهمة التي سجن حين برئ بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

من الرق إلى السيادة حين أمر الملك فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف: ٥٦].

ثالثًا: نجاة نبي الله عيسى عليه السلام :

بعث عيسى عليه السلام في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسله الله تعالى بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وعلى الرغم من أنه أقام عليهم الحجج، إلا أن أكثرهم استمسك بالضلالة والكفر، فانتدب الله تعالى من بينهم طائفة صالحة ينصرونه ويعينونه.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[الصف:١٤].

فلما أعلن عن دعوته ورسالته مكروا به ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان اسمه داود بن يورا، فقالوا: إن هناك رجلًا يضل الناس ويصدهم عن طاعتك، ويفسد رعاياك، ويفرق بين الأب وابنه، فأمر بقتله وصلبه، فحصروه في دار ببيت المقدس، فلما حان وقت دخولهم ألقى الله شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة من ذلك البيت إلى السماء، فلما دخلوا البيت وجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه، فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه[1].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[آل عمران:٥٥].

ولا يهمنا هنا أن نبحث في كيفية التوفي والرفع بقدر ما يهمنا أن نصل إلى أن الله تعالى تدارك نبيه عيسى عليه السلام ونجاه بقدرته وحده، حيث ألقى شبهه على شخص آخر، فلم يصل إليه شرهم، بل كان عاقبة أمرهم أن الله تعالى مكر بهم وتركهم في

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٠٨، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٣٦٧.

ضلالهم يعمهون ظانين أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٥٧-١٥٨].

٢. غير النبيين.

أولًا: نجاة مؤمن آل فرعون:

قيل: هو ابن عم فرعون كان يكتم إيمانه بالله من قومه خوفًا منهم على نفسه، ولكنه حين هم فرعون بقتل موسى عليه السلام وقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر:٢٦].

خاف، فتلطف في رد فرعون بكلمة حق جمع فيها الترغيب والترهيب وألقاها على مسامع ذلك السلطان الجائر، قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨].

ثم توجه إلى قومه مخاطبًا ومحذرًا أن يسلبوا ملكهم ويذلوا بتعرضهم لدين موسى عليه السلام ودعوته، مذكرًا بأحوال الأمم السالفة وما حل بأقوام نوح وعاد وثمود ومن بعدهم من هلاك بسبب عنادهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الحق، وما ناله أولياء الله الذين صدقوا الرسل من رحمة ونجاة بسبب إخلاصهم الدين، فبالغ فرعون في الدفاع عن ألوهيته المزعومة وسخر من دعوة موسى عليه السلام وسعى إلى تكذيبه ليصد الناس عن الافتتان بدينه، ثم عاد مؤمن آل فرعون متوجهًا بالخطاب إلى قومه مطالبًا إياهم باتباع ما نهجه هو من سبيل الهدى مبينًا لهم فضل الدار الآخرة على الدنيا ومتاعها الذي يتمسكون به، ومبشرًا من يعمل صالحًا منهم بالجنة[1].

غير أن خطابه ودعوته الإيمانية هذه جوبهت بمحاولات قومه صده عن سبيل الهدى والعودة به إلى اتباع ربهم الأعلى والتسليم له بالربوبية، حرصًا على حياته من جهة، وذودًا عن سلطان فرعون الذي يخافون بطشه ويطمعون في جائزته من جهة أخرى، فكان مؤمن آل فرعون يشتد بأسه ويتصلب موقفه كلما احتدم الجدال ليعود فيخاطب عقولهم ويعقد مقارنة بين دعوته لهم التي يريد بها إخراجهم من الظلمات إلى النور، ودعوتهم له التي لن تودي به إلا إلى النار فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٣٠٢-٣٠٥، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٢٣.

﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[غافر:٤١-٤٣].

فلما استيأسوا منه خافوا أن يتشجع العامة من الناس على أن يحذوا حذوه، فيرتدوا عن عبادة فرعون ويلتحقوا بدعوة موسى عليه السلام ، فمكروا به للخلاص منه، وكان مكر الله بهم أكبر ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٥].

وبنجاته من آل فرعون التحق بنبي الله موسى عليه السلام ليكون سببًا في خروجه من مصر ونجاته من القوم الظالمين، إذ أخبره بما يدبر له آل فرعون ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠].

وبهذا يقدم لنا مؤمن آل فرعون صورة عظيمة للموقف الإيماني الراسخ المتسلح بالعقيدة الصادقة التي منحته القوة في مواجهة فرعون وملأه والتصريح بالدعوة إلى الله الواحد الأحد، فوهب الله له الخلاص وكتب له الخلود لشجاعة موقفه وصدق إيمانه.

ثانيًا: نجاة صاحب نبي الله يوسف عليه السلام :

وهو أحد الفتيين اللذين دخلا معه السجن، وكان الملك قد غضب منهما، لأنهما أغريا بتسميمه، فأمر بحبسهما، وكان يوسف عليه السلام معروفًا بإحسانه وتقواه، فقصده الفتيان ليعبر لهما رؤياهما، إذ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف:٣٦].

فعبرها لهما بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾[يوسف:٤١].

وتفسير ذلك أنه قال للساقي: إنك ترد على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك، وقال للخباز: وأما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك[1]. وما هي إلا أيام حتى تحقق تعبير الرؤيتين، فصلب الخباز حتى هلك، ونجا الساقي بعفو الملك، وكما كانت نجاة مؤمن آل فرعون سببًا في خلاص موسى عليه السلام ، كانت نجاة الساقي سببًا في خلاص يوسف عليه السلام ولو بعد حين، فقد طلب من ذلك الناجي أن يذكره عند ربه بعد خروجه من السجن فأنساه الشيطان ذكر ربه، حتى كانت رؤيا الملك التي ذكرته بعهده ليوسف عليه السلام فكان ما كان من أمر تأويله لرؤيا الملك التي كتب الله بها له النجاة من السجن، ولمصر النجاة من الهلاك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٣.

ثانيًا: الناجون من الجماعات:

أولًا: نجاة نبي الله هود عليه السلام والذين آمنوا معه:

كان من قبيلة يقال لهم: عاد، كانوا عربًا يسكنون الأحقاف، وهم عاد الأولى الذين كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وأصنامهم ثلاثة صدا وصمودا وهرا، فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام ، قيل: إنه أول من تكلم بالعربية، وثاني الأنبياء - بعد نوح عليه السلام - الذين جابهوا فكرة الوثنية ودعوا إلى عبادة الله الواحد الأحد، فدعا قومه إلى تقوى الله تعالى وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٥].

فكذبوه وخالفوه وتنقصوه وحاجوه أنك ما جئتنا بمعجزة تشهد لك بصدق دعوتك، وما نحن بتاركي عبادة أصنامنا، إن نظن إلا أصابك بعض آلهتنا بغضب فاعتراك جنون، فما كان منه إلا أن تبرأ من إشراكهم مفوضًا أمره إلى الله، أما قومه فقد ترقوا في عداوتهم له من رفضهم لنصائحه ودعواته واتهامهم له في عقله إلى تحديه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف:٧٠].

واستبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا وقالوا ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ﴾؛ أي: بعيد بعيد هذا الوعد ﴿إِنۡ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[المؤمنون:٣٧].

ثم عارضوا عبادة الله تعالى بعبادة أصنامهم التي نحتوها وسموها من تلقاء أنفسهم فتوعدهم بالعذاب بقوله: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١].

فاستجار بربه منهم واستعان به عليهم ودعاه إلى أن ينصره وينجيه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤٠].

يذكر أن عادًا كانوا ممحلين مستتين، وبسبب رفضهم دعوة هود عليه السلام أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك فطلبوا الفرج والسقيا ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[الأحقاف:٢٤].

فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متواصلة، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٖ

﴿غَلِيظٍ﴾[هود:٥٨].

قيل: اعتزل هود عليه السلام في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة[1].

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٧٢].

فكانت نجاة هود عليه السلام ومن معه برحمة من الله تعالى خصهم بها.

ثانيًا: نجاة نبي الله صالح عليه السلام والذين آمنوا معه:

هو من قبيلة يقال: لها ثمود أو عاد الثانية، كانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر، وكانوا يعبدون الأصنام كأسلافهم من قوم عاد الأولى، فبعث الله فيهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام التي يعبدونها، قال لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:٧٤].

فآمنت طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود:٦٢].

لأنهم يرون أنه أصبح مسحورًا لا يدري ما يقول، ثم طالبوه بأن يأتيهم بآية على صدقه فقالوا له هلا أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقة ذكروا أوصافًا لها كثيرة، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني ورسالتي؟ قالوا: نعم. فأخذ مواثيقهم على ذلك ثم قام فصلى لله تعالى ما قدر له ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله تعالى تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه الذي طلبوه، قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ودليلًا قاطعًا، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم، فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يومًا بعد يوم، فلما طالت عليهم الحال هذه اجتمع ملؤهم واتفق تسعة رهط من المفسدين منهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٣٨-١٤٩، قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢٠.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

فأوعدهم بالعذاب، قال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥].

فلم يصدقوه في وعيده هذا، بل هموا بقتله وأرادوا فيما زعموا أن يلحقوه بالناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[النمل:٤٩].

فأرسل الله تعالى على أولئك الرهط حجارة رضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم، وبينا بقية القوم ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب ولا يدرون ما سيفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم جاءتهم مع شروق اليوم الرابع صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وخشعت الأصوات، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها[١]، إلا صالح عليه السلام ومن آمن معه قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[هود:٦٦].

قال الطبري قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: «بنعمة وفضل من الله» ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يقول: ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذلة ذلك العذاب»[٢].

ثالثًا: نجاة نبي الله لوط عليه السلام وأهله:

هو ابن أخي نبي الله إبراهيم عليه السلام وكان لوط قد نزح عن محلة بأمر عمه وإذنه، فنزل بمدينة سدوم ولها أهل من أفجر الناس وأردأهم سريرة وسيرة، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويأتون في ناديهم المنكر، ثم إنهم ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، فدعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا في طغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فلم يستجيبوا له ولم يؤمن به رجل واحد منهم، وهموا بإخراجه من بين ظهرانيهم واستضعفوه وما كان حاصل جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل:٥٦].

فجعلوا غاية المدح ذمًا يقتضي الإخراج، فطلبوا من لوط عليه السلام وقوع ما حذرهم به من العذاب الأليم، فدعا عليهم سائلًا ربه أن ينصره على القوم المفسدين قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٥٠-١٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٠٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٨٤.

﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:١٦٩-١٧٠].

إذ أرسل الله تعالى رسله فمروا بإبراهيم عليه السلام وبشروه بالغلام العليم وأخبروه أنهم مرسلون إلى قوم لوط عليه السلام فجادلهم في أمر عذابهم، فقالوا له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[هود:٧٥].

فقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[العنكبوت:٣٢].

وانطلق الملائكة إلى أرض سدوم في صورة شبان حسان اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط عليه السلام وإقامة الحجة عليهم، فاستضافوه فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا وسيء بهم وضاق ذرعًا بهم واشتد عليه بلاء يومه، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلًا، فجاء بضيوفه فلم يعلم بهم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجالًا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه. حاول أن يرشدهم إلى عدم تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، فأبوا إلا أن يمضوا إلى ما يبتغون فقال لهم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:٨٠].

قالت الملائكة: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

ثم بثوا في نفسه الطمأنينة ووعدوه بالنجاة قائلين: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٣].

وأخبروه بأن يسري هو وأهله من آخر الليل قال تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤].

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني: عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فيحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[(١)]. فلما خرج لوط عليه السلام وخلصوا من بلادهم مع شروق الشمس ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢].

وهكذا كتب الله تعالى لنبيه لوط عليه السلام وأهله الخلاص وطهرهم منهم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[النمل:٥٧].

فأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين وخصهم في القرآن

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٠٣-٢١٠.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٦٢.

الكريم بتكرار ذكر نجاتهم سبع مرات ليؤكد خلاصهم من تلك القرية وفواحشها وما ترتب عليها من عقوبة وهلاك خارق ليس له نظير منذ بدء الخليقة.

رابعًا: نجاة نبي الله شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه:

أرسل شعيب بن ميكيل في قبيلة مدين التي استوطنت مدينة مدين وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط عليه السلام ، كان أهلها قومًا عربًا سكنوا بعد قوم لوط عليه السلام بمدة قريبة. وعن وهب ابن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام ، وكان بعض السلف يسمي شعيبًا خطيب الأنبياء يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة، وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيها، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن إتيان كل ما هو قبيح من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الأعراف:٨٥].

أي: دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلًا وان كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالًا ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

فأمرهم بالعدل ونهاهم عن التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وتوعدهم بالعذاب على خلاف ذلك فما كان جوابهم إلا أنهم استهزؤوا بصلاته فرد عنادهم ذاك بالدعوة إلى الإصلاح مرة وبالترهيب مرة أخرى والتذكير بمصير أسلافهم من الأقوام التي هلكت بصدها عن سبيل الله، فتجاهلوا دعوته واستضعفوه ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود:٩١].

وهذا من بليغ كفرهم أنهم لا يخافون الله بقدر ما يخافون قبيلته، فتوعدهم بعذاب الله وتوعدوه بأن يخرجوه والذين

آمنوا معه أو يعودون في ملتهم، فأجابهم شعيب عليه السلام بلسان حاله ومن آمن به: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

يذكر لهم فضل الله عليه في الإيمان والنجاة من فسادهم ونهجهم الظالم، والنجاة هنا كانت من الله لأنه هو من يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

فاستجاب له ربه وأنزل فيهم ألوان العذاب فقال تعالى في عذاب الرجفة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالًا شديدًا أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها، وقال في عذاب الصيحة: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

وقال في عذاب يوم الظلة: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩].

ردًا على طلبهم أن يسقط شعيب عليهم كسفًا من السماء. فقد أصابهم حر شديد فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بها فلما تكاملوا أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٩٤].

والنجاة هنا كانت بفعل رحمة الله تعالى التي حلت بهم في مقابل نقمته على القوم الظالمين.

وهكذا كانت سير الصالحين من عباد الله من أنبيائه ومن آمن معهم من أهلهم وأقوامهم الذين آلوا على أنفسهم أن لا يغادروا طاعة الله ولا يركنوا إلى الذين كفروا وصدوا عن سبيله مهما أوذوا في جنب الله ومهما استضعفتهم قوى الظلم والضلالة، فما كان الله تعالى ليضيع إيمانهم وهم يرجون رحمته ويرقبون نصره، بل خصهم بعنايته فكف أيديهم عنهم ووقاهم برحمته عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ذلك بأنهم آمنوا بربهم وصدقوه عهدهم واتقوه حق تقاته فلم يهنوا ولم يرتابوا فاستحقوا النجاة في الدنيا والآخرة.

لقد ساقت لنا آيات الله البينات تلك المواقف الخالدة في تاريخ البشرية لنتعرف على منهاج الصالحين الذين اختاروا طريق الله تعالى واستمسكوا بهديه فلم يرعبهم

ظلم العباد ولم تضلهم فتنة الظالمين، ولتقتدي سيرنا بسيرهم فينقطع رجاؤنا إلى الله وحده فنصدقه العهد ونرخص له الأرواح والمهج في سبيل إعلاء كلمته ونصرة دينه، فلعلنا نبلغ رضاه ونفوز برحمته التي نجى بها عباده الصالحين.

موضوعات ذات صلة:

الحذر، الخسران، العذاب، الفلاح، الهداية، النار، النصر





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والثلاثون

مفهوم النجوم

أولًا: المعنى اللغوي:

النون والجيم والميم أصل صحيح يدل على طلوع وظهور، ونجم السن والقرن: طلعا، والنجم: اسم يقع على الثريا، وكل منزل من منازل القمر سمي نجمًا، وكل كوكب من أعلام الكواكب يسمى نجمًا، والنجوم تجمع الكواكب كلها.

وأنجمت السماء: بدت نجومها، والنجم من النبات: ما لم يكن له ساق، من نجم إذا طلع[(١)].

نجم الشيء ينجم بالضم نجومًا: ظهر وطلع، وفلانٌ منجم الباطل والضلالة -بالفتح- أي: معدنه[(٢)].

أصل النجم: الكوكب الطالع، وجمعه: نجومٌ، ونجم: نجومًا ونجمًا، فصار النجم مرة اسما كالقلوب والجيوب، ومرة مصدرًا كالطلوع والغروب، واشتقوا منه فقالوا نجمت الدين بالتثقيل إذا جعلته نجومًا[(٣)] والنجمة: هي أخص من النجم، وكأنها واحدته، كنبتةٍ ونبت.

ونجمة الصبح: فرسٌ نجيبٌ، والنجم: نزول القرآن نجمًا نجمًا[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وبالنظر في الكتب والمراجع التي هي مظنة التعريف الاصطلاحي، والتي منها كتاب (الكليات) للكفوي، وكتاب (التعريفات) للجرجاني، وكتاب (المفردات في غريب القرآن) للأصفهاني، وغيرها، فلم نجد فيها تعريفًا اصطلاحيًا للنجوم، وعليه فإنه من خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة النجوم نورد ما يأتي:

النجم عرفًا: أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة، ومنها الشمس[(٥)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٦، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٨٥٧، الكليات، الكفوي ١/ ٨٨٧، العين، الفراهيدي ٦/ ١٥٤.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٣٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهانى ١/ ٧٩١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٩٤.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٤٨٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٦٨.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي، وحامد قنيبي ١/ ٤٧٥، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٣٤٨.

النجوم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نجم) في القرآن الكريم (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٤	﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ [النجم:١-٢]
الجمع	٩	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧]

وجاءت النجوم في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الكواكب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ [الطارق: ١ - ٣]. يعني: الكواكب.

الثاني: النبات: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥﴾ [الرحمن: ٦]. يعني بالنجم: كل شجرٍ مما لا ساق له من النبات، والشجر: ما له ساق.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٦٨٨-٦٨٩.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٨٠-٥٨١، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٤٤-٤٤٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكوكب:

الكوكب لغةً:

من كب: الكاف والباء أصل صحيح يدل على جمع وتجمع، لا يشذ منه شيء، والكوكب يسمى كوكبًا من هذا القياس[(١)].

والكوكب: واحد الكواكب، فالكوكب والكوكبة: النجم، وكوكب: اسم موضع[(٢)].

الكواكب اصطلاحًا:

«الكواكب: أجسام بسيطة مركوزة في الأفلاك، كالفص في الخاتم، مضيئة بذواتها، إلا القمر»[(٣)] أو: «جرم سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بضوئها وأشهر الكواكب مرتبة على حسب قربها من الشمس عطارد الزهرة الأرض المريخ المشتري زحل يورانس نبتون بلوتون»[(٤)].

الصلة بين الكوكب والنجم:

إن الكوكب اسم للكبير من النجوم، وكوكب كل شيء معظمه، والنجم عام في صغيرها وكبيرها، ويجوز أن يقال: الكواكب هي الثوابت، ومنه يقال: فيه كوكب من ذهب أو فضة؛ لأنه ثابت لا يزول، والنجم الذي يطلع منها ويغرب[(٥)].

وقيل: النجم فيه مراعاة لمعنى من معاني النجوم والكواكب وهو الظهور والطلوع، أما الكوكب ففيه مراعاة لمعنى الإضاءة والبياض والعظمة[(٦)].

٢ الشمس:

الشمس لغةً:

الشين والميم والسين أصل يدل على تلون وقلة استقرار، فالشمس معروفة، وسميت

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٢٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٦٦.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٦٧٠، شمس العلوم، نشوان الحميري ٩/ ٥٨٧٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٢١، مختار الصحاح، الرازي ص٢٧١.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص ١٨٨.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩٣.
(٥) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ٤٥٩.
(٦) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٠.



بذلك؛ لأنها غير مستقرة، ويقال: شمس يومنا وأشمس، إذا اشتدت شمسه[١].

الشمس اصطلاحًا:

الشمس: هو كوكب مضيء نهاري[٢]، يشع لنا حرارة وضياء.

الصلة بين الشمس والنجم:

الشمس: مضيئة في النهار، بينما النجم مضيء في الليل.

٣ القمر:

القمر لغةً:

القاف والميم والراء أصل صحيح يدل على بياض في شيء، ثم يفرع منه. من ذلك: القمر الذي في السماء، وضوؤه القمراء، وسمي قمرًا: لبياضه[٣].

القمر اصطلاحًا:

هو كوكب في السماء معتم.

وقيل: جرم سماوي صغير معتم يدور حول كوكب أكبر منه ويكون تابعا له[٤].

الصلة بين القمر والنجم:

القمر جسم معتم يستمد ضوءه من الشمس، بينما النجم مضيء.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢١٢، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٥١١.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٢٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥.
(٤)- انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٥٨.

النجوم مسخرة بأمر الله

أولًا: صور من تسخير النجوم:

النجوم من المخلوقات التي لها جرم كبير، وسرعة عالية، وقد أشار القرآن إليها في غير ما موضع؛ لأنها من الآيات العجيبات، والدلائل الواضحات على قدرة الباري وعظمته وقهره، وقد تحدث القرآن عن كونها مسخرة بأمر الله وخاضعة لمولاها في موضعين من كتابه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الأعراف: ٥٤].

وهذه الآية جاءت في سياق التدليل على ربوبية الله وألوهيته، وأنه لا معبود سواه فهي سياحة «في ملكوت الله، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية، وبعد تصوير طرفي الرحلة، وبعد الحديث عن اتباع الشيطان، والاستكبار عن اتباع رسل الله، وبعد عرض التصورات الجاهلية، والتقاليد التي يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع؛ ليرد البشر إلى ربهم الذي خلق هذا الوجود وسخره، والذي يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره، والذي له الخلق والأمر وحده»[1].

وجاء ذكر النجوم في الآية وكونها مسخرة بأمر خالقها كأحد الشواهد على ربوبية الله وألوهيته واستحقاقه العبادة «والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل، ويستعمل مجازًا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام تصريفًا يصيره من خصائصه وشؤونه»[2].

فالإشارة بأن النجوم مسخرة إذًا فيه ما يدل على ضخامة شأنها، وأنه ما كان لأحد أن يستطيع تسييرها في نظام منضبط محدد إلا الله، فهي آية عظيمة على ربوبية الله وألوهيته؛ وما ذلك إلا لأنها أجرام تسبح في الفضاء بسرعات عالية، كما أن لها كتلًا ضخمة قد يعجز الإنسان عن تصورها، فالشمس وهي «نجمٌ متوسط الحجم إذا قيست بالنجوم الأخرى، تكبر الأرض بمليونٍ وثلاثمائة ألف مرةٍ حجمًا، وتبعد عنها مائةً وستةً وخمسين مليون كيلو متر وسطيًا، ويقطع ضوء الشمس هذه المسافة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٩٥ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨-١٦٩ بتصرف.

في ثماني دقائق.

وأما عن حرارتها فهي تصل إلى عشرين مليون درجة في مركزها، فلو ألقيت الأرض في جوف الشمس لتبخرت في وقتٍ قصيرٍ، ويزيد طول ألسنة اللهب المنطلقة من سطحها من نصف مليون كيلو مترٍ إلى مليون كيلو متر، وتنتج الشمس من الطاقة في كل ثانيةٍ ما يعادل إحراق ألفي مليار طنٍ من الفحم الحجري»[١].

فهذه الشمس بكتلتها الكبيرة تدور حول نفسها كل خمسة وعشرين يومًا دورة، وتجري بسرعة مائتي كيلو متر في الثانية الواحدة.

وإذا كان هذا شأن الشمس وهي نجم متوسط «فهنالك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدودًا ملايين الملايين من النجوم، منها الكثير أكبر من الشمس، وأشد حرارة وضوءًا، فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس، والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس، ونوره ثمانية آلاف ضعف، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة»[٢].

إن هذا يكشف لنا عن مدى عظم النجوم، وعظم شأن تسخيرها، فهي برغم هذه السرعات العالية «تتبع نظامًا دقيقًا لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالي، وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون، وتدور في أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة»[٣]. فسبحان من هي مسخرة بأمره!

والآية الثانية التي ذكرت تسخير النجوم بأمره تعالى هي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل:١٢].

وهذه الآية أتت في سياق الاستدلال على وجود الباري، واستعراض عظمته، وإظهار قدرته، وما تفيض به على العالم من نعم فهو استدلال «بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه، وإدماج بين الاستدلال والامتنان»[٤].

وفي هذه الآيات عدة أوجه للقراءات فقد «قرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾ وقرأ ابن عامر: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ بالرفع على الابتداء، ورفع: ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ على أنه خبر عنها، ونكتة اختلاف الإعراب

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لمحمد راتب النابلسي ٢/ ٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٤٧-٣٤٤٨.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين ص ١٤٧.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١١٦.

الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين.

وقرأ حفص برفع: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ و ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾، ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح، والآخر خفي لقلة من يرقب حركات النجوم»[١].

فرفع النجوم إذًا يدل على أن «للنجوم شأنًا كشأن الشمس والقمر، وأنها مسخرة كالشمس والقمر، وإن كان الإنسان في غفلة عنها»[٢].

ولذلك أتت الخاتمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ «لتلفت العقل إلى هذه الظاهرة، ظاهرة النجوم وحركاتها في السماء، وتسخيرها في مداراتها، وأن أصحاب العقول وحدهم هم الذين يرون هذه الظاهرة، ويتعرفون إلى آثار رحمة الله وقدرته، وأنه إذا التفت العقل إلى هذه النجوم التفاتًا جادًا متفحصًا وجد عالمًا رحيبًا لا حدود له، وأكوانًا عجيبة تذهل لجلالها العقول، وتخشع لروعتها القلوب؛ إذ ليست هذه النجوم التي تبدو وكأنها حبات من اللؤلؤ المنثور في السماء إلا أجرامًا أكبر من الشمس، وأن أصغر نجم فيها يعدل جرم الشمس آلاف المرات، وأن صغر حجمها، وقلة ضوئها بالنسبة للشمس

(١) المصدر السابق ١٤/ ١١٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٢٧٥ بتصرف يسير.

إنما مرجعهما إلى بعدها البعيد عنا، حتى ليبلغ مدى هذا البعد مئات الألوف، وألوف الألوف من السنين الضوئية»[٣].

١ . النجوم ساجدة.

وهذا من صور تسخير النجوم التي أشار إليها القرآن.

يقول تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وهذه الآية أتت في سياق ذكر اختلاف أهل الديانات وافتراقهم لتقرر بأنه «ما كان ينبغي لأهل الأديان المختلفة أن يختلفوا؛ لأن جميع العوالم خاضعة لسلطان الله وقدرته، وساجدة لعظمته طوعًا أو كرهًا»[٤].

وخصت الآية ذكر ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾؛ «لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة»[٥].

واختلف العلماء في المراد بالسجود على ضربين:

أحدهما: من يعقل، فسجوده عبادة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ١٧٦ بتصرف يسير.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٣.

الثاني: من لا يعقل، واختلفوا فيه على رأيين:

- أن سجوده هو بيان أثر الصنعة فيه، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق.
- أن سجوده حقيقة[1].

وعلى كلا القولين وسواء كان السجود حقيقة أو مجازًا فإنه لا شك دال على الخضوع والتسخير.

وهناك موضع ذكر فيه سجود النجم، وهو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦].

وفي المراد بالنجم هنا قولان:

أحدهما: أنه كل نبتٍ ليس له ساق، وهو مذهب ابن عباس والسدي ومقاتل واللغويين.

والثاني: أنه نجم السماء[2].

وكثير من المفسرين رجح الرأي الأول؛ ولذا أحجمت عن الكلام فيه[3].

وهكذا يظهر لنا كيف أن النجوم بأحجامها الضخمة وسرعاتها المذهلة مسخرة لربها، وخاضعة لخالقها، تنقاد لأمره، وتخضع لسلطانه ومشيئته، فسبحان من ألزمها مدارها، وقهرها في فلكها، وسيرها في نظام لا تشذ عنه ولا تحيد.

٢. النجوم علامات وإرشاد.

لخلق النجوم الكثير من المنافع التي أشار إليها القرآن، ومنها أنها علامات وإرشاد للناس في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وفي هذه الآية يذكرنا تعالى «ببعض فضله في تسخير هذه النيرات»[4]: وذلك بجعله لنا النجوم أدلة «ليهتدي بها مسافرونا في البر والبحر حتى لا يضلوا طريقهم فيهلكوا»[5].

قال قتادة: «إن الله تبارك وتعالى إنما خلق النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدي بها، وجعلها رجومًا للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به»[6][7].

«وفي إضافة الظلمات إلى البر والبحر

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٦٣-٥٦٤.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٧٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٧٧.

(٤) تفسير المنار ٧/ ٥٣٠.
(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٩٦.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٨٥.
(٧) قال القاسمي: مراده اعتقاد مناف للعقد الصحيح، لا اعتقاد حكم وأسرار غير الثلاث فيها، إذ فوائد المكونات غير محصور. وذكر حكمة في مكون لا ينفي ما عداها. محاسن التأويل ٤/ ٤٤٢.

إشارة إلى أن الظلام هو الذي يلبسهما، ويستولي عليهما، فكأن السائر في الليل يقطع قطعًا من الظلام، سواء أكان في البر أو البحر»[1].

فأن تكون النجوم دليلًا للمرء في وسط هذه الظلمات فهذه لا شك منفعة كبيرة.

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

ففي هذه الآية يؤكد تعالى على كون النجوم تهدي «من ضلال الطريق في البر والبحر»[2].

وهذه «هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر؛ ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ تقديمًا يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾»[3].

والاهتداء بالنجوم ليس مقصورًا على مكان دون مكان، ولا زمان دون زمان، وإنما «تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة»[4].

لماذا النجوم علامات وإرشاد؟

قد يقول قائل: لماذا النجوم علامات وإرشاد دون القمر أو غيره مع أن القمر أكثر ضياء وأقرب مسافة؟ ولكن من تأمل تخصيصه عز وجل النجوم بهذه الهداية دون القمر ظهرت له حكم بديعة، فالقمر سريع الحركة والتنقل في الليلة الواحدة، وخلال ليالي الشهر والعام بخلاف النجوم التي تبدو أكثر ثباتًا في السماء مما يجعل معرفة منازلها أيسر، والقمر يغيب من السماء ويفقد ضياؤه في عدد من ليالي الشهر بخلاف النجم الذي لا يذهب نوره إلا ضوء النهار ونور الشمس، والقمر ينكسف وأما النجم فلا ينكسف؛ بل إن لذكر النجم دون غيره من الوسائل والأدوات التي استخدمها الناس منذ القدم حكمة بالغة؛ إذ النجم متاح لكل إنسان في كل مكان وفي كل ساعة من ساعات الليل ولا يملك حجبه أحد، وتعلم الاهتداء به ميسر، بينما تلك الوسائل غير متاحة لكثيرين، وقد يصعب استخدامها على كثيرين.

وهكذا يظهر لنا كيف أن النجوم جعلها الله علامات وإرشاد للناس تهديهم في ظلمات البر والبحر حتى لا يضلوا طريقهم ويهلكوا.

ثانيًا: النجوم زينة:

«مشهد النجوم في السماء جميل -ما في هذا شك-، جميل جمالًا يأخذ بالقلوب،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٢٤٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٦١.
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٥٩.

وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب، بل إنه ليختلف من ساعة لساعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية، وكله جمال، وكله يأخذ بالألباب.

فهذه النجمة الفريدة التي توصوص هناك، وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبة والنداء! وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان! وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء، وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان!»[1].

فالنجوم زينة السماء، وقد جاء وصف النجوم بأنها زينة في القرآن لعدة فوائد ومنافع:

١. الاستدلال بها على وحدانية الله.

فإن تزيين السماء بهذه النجوم فيه من بديع التكوين، وجميل التنسيق ما يستدل به على خالقه، ويرغم عقول العباد على التفكر في صانعه وموجده، فهذه النجوم المتناثرة في السماء، المتفرقة في جو الفضاء التي ترنو للناظرين، وتزدان للمعتبرين في حلة بهية، ولوحة نقية، لا بد لها من قائم بأمرها، مدبر لأحوالها وشئونها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦].

أي: «وزينا هذه السماء بالنجوم»[2].

وهذه الزينة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ «إلى حركاتها وأضوائها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته»[3].

فإنه لولا النجوم «لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على باريها»[4].

فتزيين النجوم للسماء آية عظيمة من آيات القدرة الإلهية التي تشهد بوحدانية الله تعالى وعظمته وجلاله، وتلفت الأنظار إلى بديع صنعه في كونه، وعجيب فعله في خلقه.

وبالنظر في السياق الذي وردت فيه الآية يتأكد هذا المعنى، فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر عتو الكافرين واستكبارهم، وعماهم عن آيات الله.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٣٣.

(٢) التفسير الميسر ص٢٦٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٣٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٠.

﴿جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر:١٤-١٦].

فكأنه تعالى «لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته؛ ليستدل بها على وحدانيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾»[1].

وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن في السماء من العجائب ما لا يحتاج إلى صعود وارتقاء، بل يدركها الواقفون على الأرض من أهل الاعتبار، من هذه العجائب تزيين السماء بالكواكب.

وكذا يقال في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

فإنه تعالى لما ذكر وحدانيته على خلقه، وأنه رب السموات والأرض ورب المشارق بقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات:٤-٥].

أردف ذلك بقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

وفي علاقة هذه الآية بما قبلها يقول ابن عاشور رحمه الله: «هذه الجملة تتنزل من جملة ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منزلة الدليل على أنه رب السموات، واقتصر على ربوبية السموات؛ لأن ثبوتها يقتضي ربوبية الأرض بطريق الأولى»[2].

وهكذا يظهر أن جعل النجوم زينة فيه دلالة على خالقها وعلى وحدانيته وعلى جلاله وكماله؛ لأنها تحرك في الإنسان التساؤل: من الذي خلق هذا الخلق البديع المتقن الذي يخلب الأنظار ويجذب القلوب؟ لابد أن وراء الإبداع مبدع، وخلف كل جمال جميل!

٢. لفت الأنظار إلى جمالية هذا الكون.

زينة النجوم جمال، والله جميل يحب الجمال، خلق هذا الكون فأحسن خلقه وأتقنه وجمله.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «القرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله؛ لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه؛ لأنه حينئذٍ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة، في عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية»[3].

من أجل هذا جعل الله في خلقه العديد من مشاهد الجمال والزينة، بل لا تجد خلقًا من خلق الله إلا وفيه جمال، ويدل على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٨٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٣٤ باختصار.

جمال!

ومن هذا الجمال الذي أبدعه الله جل جلاله؛ ليتأمله خلقه ويستروحون في ظلاله النجوم التي جعلها الله زينة للسماء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦].

وأن تكون النجوم زينة للسماء فهذا لا شك يشي «بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون، فليست الضخامة وحدها، وليست الدقة وحدها إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعًا، وينشأ من تناسقها جميعًا.

وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم توصوص بنورها، ثم يبدو كأنما تخبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد، ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم، والكون من حوله مهوم كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد!

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني، وعمق هذا الجمال في تكوينه»[١].

وهذا لا شك يوجه المؤمنين بأن من واجبهم أن «يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال في الظاهر وفي الباطن؛ تأسيًا بسنة الله تعالى في خلق هذا الكون»[٢].

وهكذا يظهر لنا كيف أن كون النجوم زينة يلفت الأنظار بشدة لجمالية هذا الكون.

٣. شهود منة الله على خلقه.

فمن منن الله على عباده ورحمته بهم وفضله عليهم أن جعل لهم المناظر البهية التي تروق لنفوسهم وتملؤها بهجة وسرورًا، يقول ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]: «فيها منة على الناس بأن جعل لهم في السماء زينة الكواكب تروق أنظارهم؛ فإن محاسن المناظر لذة للناظرين»[٣].

فتزيين السماء بالنجوم والكواكب نعمة من الله على خلقه ككثير من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وحق على عباده الذين يستمتعون بالنظر إليها أن يعرفوا فضله فيها، ويشكروه عليها.

ثالثًا: النجوم رجوم للشياطين:

السماء عالم فسيح واسع ممتد، يستعصي على العقل حصره، وتعجز الفهوم عن الإحاطة به، والإلمام بجوانبه، وهو حافل بالأسرار، مليء بالعجائب التي يقف العقل البشري أمامها عاجزًا، لا يبدي جوابًا، ومن هذه العجائب النجوم وقد ذكر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٣٣.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٧-٢٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٨٧.

الله للنجوم في كتابه عددًا من المنافع، ومن هذه المنافع ما ذكره الله عز وجل من أنها رجوم للشياطين ما أن يحاولوا التسمع للملأ الأعلى حتى تنقض عليهم فتحرقهم، وتقضي عليهم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم**)[1].

فأن تكون النجوم رجومًا للشياطين أي: «شهبًا محرقة لمسترقي السمع من الشياطين»[2] فهذا له فوائد عدة، منها:

بيان مدى شدة حفظ السماء، فالسماء منها أتى الوحي، وتنزل الأوامر والمقادير التي تضبط شأن العالم، فأن تكون محفوظة، وعليها حراسة شديدة فهذا من المقاصد العظيمة؛ ولقد ذكر القرآن أن من منافع النجوم أن الله جعلها رجومًا للشياطين الذين يحاولون الوصول إليها، ومعرفة ما يجري فيها؛ ليصلوا به إلى الكهان؛ ليخدعوا الناس به، ويفسدوا عليهم أمر حياتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

وها هنا يخبرنا الرب جل جلاله أن السماء محفوظة من كل شيطان رجيم حتى لا يصل إليها فظاهرها «مجمل بالنجوم النيرات، وباطنها محروس ممنوع من الآفات»[3].

ومع هذا فإن بعض الشياطين في بعض الأوقات يسعى لاستراق السمع ومعرفة ما يدور في الملأ الأعلى، فآنئذٍ يتبعه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: «بين منير يقتله أو يخبله»[4].

قال الإمام البخاري عند تفسيره لهذه الآية: حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كالسلسلة على صفوانٍ -قال عليٌّ: وقال غيره: صفوانٍ ينفذهم ذلك- فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحدٌ فوق آخر -ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/١١١، رقم ٣٢١٠.

(٢) التفسير الميسر ص٥٦٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٠ بتصرف.

(٤) المصدر السابق.



فوق بعضٍ- فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض -وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض- فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبةٍ، فيصدق فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقًا؟ للكلمة التي سمعت من السماء)[1].

ومما يدل على شدة حراسة السماء وقوة حفظها تعبير القرآن بـ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ «فهناك من سرق؛ وهناك من استرق؛ فالذي سرق هو من دخل بيتًا على سبيل المثال، وأخذ يعبئ ما فيه في حقائب، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد».

لكن إن كان هناك أحد في المنزل فاللص يتحرك في استخفاء خوفًا من أن يضبطه من يوجد في المنزل؛ وهكذا يكون معنى ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾: الحصول على السرقة مقرونة بالخوف[2]. فأن تكون النجوم رجومًا للشياطين بهذه القوة التي تجعلهم فقط يسترقون السمع بكل وجل وخوف فهذا يدل على شدة حفظ السماء.

الاستدلال على عظمة الخالق:

تتصب شواهد عدة للتدليل على عظمة الخالق وشدة قدرته وقهره، واتساع سلطانه، ومن الأمور التي ذكرها القرآن في هذا السياق هو كون النجوم رجومًا للشياطين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

فهذه الآية أتت في بدايات سورة الملك التي تعنى بتفصيل مظاهر قدرة الرب الجليل، يقول صاحب الظلال: «ومفتاح السورة كلها ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها هو مطلعها الجامع الموحي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها، فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة، وكان الابتلاء بهما، وكان خلق السموات وتزيينها بالمصابيح، وجعلها رجومًا للشياطين»[3].

وهذه الآية كما -يقول الإمام الرازي- دليل: «على كونه تعالى قادرًا عالمًا؛ وذلك لأن هذه الكواكب -نظرًا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)، ٦/ ٨٠، رقم ٤٧٠١.

(٢) تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٦٦٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٣٠-٣٦٣١.

وسير معين- تدل على أن صانعها قادر -ونظرًا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسببًا لانتفاعهم بها- تدل على أن صانعها عالم»[(١)].

وكذلك من دلائل قدرته عز وجل «أن جعل جزءًا منها رجومًا للشياطين بانفصال بعض الشهب عنها لرمي شياطين الجن الذين كانوا يحاولون التسمع إلى الملأ الأعلى، وهي آيات دالة على عظيم قدرته جل جلاله بصون السماء وما فيها من أخبار»[(٢)].

والرجوم: جمع رجم «وهو اسم لما يرجم به، أي: ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه»[(٣)].

والذي جعل رجومًا للشياطين هو النجوم فـ«ضمير الغائبة في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ المتبادر أنه عائد إلى المصابيح، أي: إن المصابيح رجوم للشياطين»[(٤)].

«والمصابيح هي النجوم العظيمة المضيئة»[(٥)].

وليس كل النجوم رجومًا للشياطين وإنما معنى جعلها رجومًا «جارٍ على طريقة إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه، مثل إسناد الأعمال إلى القبائل لأن العاملين من أفراد القبيلة»[(٦)].

فكون النجوم بكتلها الضخمة وسرعاتها العالية رجومًا للشياطين فهذا لا شك من دلائل قدرة الله وشدة عظمته.

ومن الآيات التي أشارت لهذا قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢].

فهذه الآية تذكر عددًا من مظاهر قدرة الباري جل جلاله؛ ولذا ختمت بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ومن بين تلك الدلائل المذكورة قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي: «من الشياطين الذين يسترقون السمع»[(٧)].

والقرآن عالج الكثير من خرافات الجاهلية، وصور الشرك التي كانت منتشرة بينهم، وكشف زيفها، وفضح باطلها، وكان من بين هذه الأباطيل ما ادعاه أهل الجاهلية من أن الجن يعلمون الغيب، ويتصلون بالملأ الأعلى، وبينهم وبين الله نسبٌ، فرد القرآن على ذلك ببيان أن النجوم رجوم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٨٣.
(٢) التفسير الموضوعي للقرآن، مجموعة مؤلفين ٨/ ٢٧٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: التفسير الميسر ص٥٦٢.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢١.
(٧) التفسير الميسر ص٤٧٨.

للشياطين، وأنها تمنعهم من استراق السمع.

قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٦-١٠].

فهذه الآيات أتت في سورة الصافات التي «تستهدف -كسائر السور المكية- بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله؛ ولكنها -بصفة خاصة- تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى»[١].

فهذه الآيات أتت «بعد ما عالج مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة؛ ليعالج شطرها الثاني وهو الخاص بالشياطين، حيث أنهم كانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسبًا، وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس، وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى»[٢].

فبينت الآيات كيف أن السماء الدنيا مزينة ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

أي: «بزينة هي النجوم»[٣] وكيف أن هذه النجوم تحفظ السماء ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧].

يعني: «المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه»[٤] ولذلك قال بعدها: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ [الصافات:٨].

أي: «لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره»[٥].

وتأمل كيف أنه قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ فهذا الفعل أصله «يتسمعون» وقد ضمن معنى الفعل يصغون أو يدنون؛ ولهذا عدى بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ أي: لا يستطيعون أن يتسمعوا إلى الملأ الأعلى، وهم في إصغاء شديد حالة التسمع[٦].

وهذا يدل على شدة حراسة السماء بالنجوم، فإنهم مع حرصهم على السماع لا يستطيعون؛ ولذا قال الله في خاتمة الآية: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات:٨].

ثم أوضحت الآيات أن بعض الشياطين قد يتلقف شيئًا على وجه الخفية والسرعة ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات:١٠].

«والخطف: ابتدار تناول شيء بسرعة،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٨٠.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٨٣ بتصرف.
(٣) التفسير الميسر ص٤٤٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ٩٦٦.

والخطفة المرة منه»[1].

فيكون جزاؤه الإحراق ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: «تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء»[2].

وهكذا ترد الآيات على المشركين معتقدهم الفاسد «في أن الشياطين يعلمون الغيب، وأنهم يتلقون ذلك باتصالهم بالملأ الأعلى، واستماعهم إلى ما يدور بين الملائكة هناك، مما يتصل بالعالم الأرضي»[3].

وكذلك ترد عليهم خرافة اتخاذهم آلهة، وأن بينهم وبين الله نسبًا فلو «كان شيء من هذا صحيحًا لتغير وجه المعاملة؛ ولما كان مصير الأنسباء والأصهار -بزعمهم- هو المطاردة والرجم والحرق أبدًا!»[4].

وهكذا يظهر كيف أن رجم النجوم للشياطين يكشف عن تهافت مزاعم المشركين وأباطيلهم.

قال تعالى حاكيًا قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨-٩].

وفي هاتين الآيتين يخبر الجن أنهم حاولوا طلب أخبار السماء ولمسها وحقيقة المس: «الجس باليد، واستعير هنا؛ لطلب أخبار السماء؛ لأن الماس للشيء في العادة إنما يفعل ذلك طلبًا لاختباره ومعرفته»[5].

ولكنهم وجدوها ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨].

أي: «ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي يرمى بها من يقترب منها»[6].

ثم كشفوا عن شدة استغرابهم لذلك قائلين: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩].

أي: «مرصدًا له، معدًا لإتلافه وإحراقه»[7].

وهذا لا شك يدل على «لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز؛ ذلك أن الله لما شاء بعث نبيه وإرساله وإنزال القرآن عليه ملئت السماء حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٩٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠١.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ٩٦٦.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٨٤.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٣٥.
(٦) التفسير الميسر ص٥٧٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩١.

ويختلط، ولا يدرى من الصادق[1].

يقول الإمام الرازي: «هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلا أنها زيدت بعد المبعث، وجعلت أكمل وأقوى؛ لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ﴾ [الجن:٨].

وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ﴾ [الجن:٩].

أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، فكثرة الرجم، ومنع الاستراق بالكلية هي التي حملت الجن على الضرب في البلاد، وطلب السبب»[2]. فأن يزداد الرجم للشياطين، وأن تمنع من استراق السمع فهذا لا شك فيه بيان لمدى مكانة القرآن وشرفه ورفعته على سائر الكتب.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٧٠ بتصرف.

أسماء وصفات في عالم النجوم

أولًا: نجوم ذكرت بأسمائها:

ذكر الله تعالى النجوم في كتابه في مواضع متعددة، لكن النجم الوحيد الذي ذكر باسمه هو الشعرى.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم:٤٩].

فهذا هو الموضع الوحيد الذي ذكر فيه النجم بالاسم دون الوصف.

والشعرى: «كوكب وهاج مضيء يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر»[3] وقد يبدو من خلال النظر في الآية وسياقها أنه ذكر باسمه لتقرير التوحيد ونفي العقائد الشركية، فنجم الشعرى كان له مكانته الخاصة عند العرب، فهم كانوا في جاهليتهم يعبدونه من دون الله[4]. وكانوا ينسبون إليه الغنى والفقر، كما أشار إلى هذا الرازي[5].

واختلف فيمن كان يعبده، فقال السدي: كانت تعبده حمير وخزاعة، وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته؛ ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله،

(٣) انظر: تفسير القشيري ٣/ ٤٩١، تفسير المراغي ٢٧/ ٦٧ بتصرف.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٨٣.

وخالف أديانهم[1].

ولذا ذكره القرآن باسمه لـ«تقرير عقيدة التوحيد، ونفي عقيدة الشرك الواهية المتهافتة»[2] وذلك من خلال إعلامهم بأنه ربهم ورب هذا النجم الذي يعبدونه من دون الله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم:٤٩].

وتأمل كيف أنه أتى بضمير الفصل الذي «يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى؛ وذلك كناية عن كونه رب ما يعتقدون أنه من تصرفات الشعرى، أي هو رب تلك الآثار ومقدرها وليست الشعرى ربة تلك الآثار المسندة إليها في مزاعمهم»[3].

وذكر ربوبية الله لنجم الشعرى لا شك يشير لعظم قدرة الله، فنجم الشعرى «أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونوره خمسون ضعف نور الشمس، وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا»[4] فأن يكون مربوبًا لله جل جلاله فهذا لا شك يدل على شدة قدرة الخالق عز وجل، وأن تذكر ربوبية الله لنجم الشعرى العملاق في سورة النجم التي «تتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى»[5].

تلك الرحلة التي قد تستبعدها بعض العقول وتستعظمها، فهذا لا شك له وزنه في بيان عظم قدرة الله في فعل ما يشاء.

ثانيًا: نجوم ذكرت بصفاتها:

وصف الله في كتابه النجوم بعدة أوصاف؛ لهذه الأوصاف دلالات متنوعة، وفيها إشارات، إما لبعض وظائف هذه النجوم أو لتوضيح ماهيتها وشكلها، فتارة يصفها بالثقوب، وتارة يصفها بالخنس والجريان والكنس، وتارة يصفها بالطروق.

وفيما يلي تفصيل هذا:

١. وصفها بالثقوب.

ورد هذا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠].

وهذا ورد في معرض الحديث عن حفظ الله للسماء من تسلط الشيطان، بأن جعل فيها الكواكب التي من وظائفها أنها تتبع من استرق السمع من الشياطين فتحرقه وتهلكه.

وجاء هذا الوصف أيضًا في سورة الطارق حين أقسم الله بالطارق -بعد القسم بالسماء-، ثم وصف هذا الطارق وعرفه بأنه: النجم الثاقب.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:١-٣].

والثاقب يعني: النافذ بضوئه وشعاعه المنير[6].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١١٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤١٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٥٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤١٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٦٧.

و«إنما وصف النجم بكونه ثاقبًا لوجوه:

أحدها: أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه.

وثانيها: أنه يطلع من المشرق نافذًا في الهواء كالشيء الذي يثقب الشيء.

وثالثها: أنه الذي يرى به الشيطان فيثقبه، أي: ينفذ فيه ويحرقه.

ورابعها: النجم الثاقب هو النجم المرتفع على النجوم، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعًا: قد ثقب»[1].

٢. وصفها بالخنس والجريان والكنس.

وقد وردت هذه الأوصاف مجتمعة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦].

وتخنس أي: «ترجع، بينا يرى أحدها في آخر البروج كر راجعًا إلى أوله»[2].

والجوار: «جمع جارية: وهي التي تجري، أي: تسير سيرًا حثيثًا»[3].

وتكنس: «أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها»[4]. وقيل: «أي: تكنس بالنهار فلا ترى»[5].

وفي وصف النجوم بهذه الأوصاف إشارة إلى الأسرار العظيمة التي جعلها الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٧ بتصرف.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩١.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٣٤٩.

في أحوالها العجيبة، فسيرها وظهورها ثم اختفاؤها وغيابها لهو دليل على وجود مدبر قادر، يرعى أحوالها، ويقوم على أمرها.

والتعبير عن النجوم بهذه الأوصاف «يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء، وهي تجري وتختبئ في كناسها، وترجع من ناحية أخرى، فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب، وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها، في اختفائها وفي ظهورها، في تواريها وفي سفورها، في جريها وفي عودتها، يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه»[6].

وما هذا العجب في أحوالها إلا مرتع خصب للتأمل والتفكر والاهتداء بها إلى خالقها وموجدها وراعي أمرها، وصدق ربنا حين أخبر عن أن زينة الكواكب آية للمعتبرين والمتفكرين: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

٣. وصفها بالطروق.

وقد جاء هذا الوصف في سورة الطارق؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١].

والطارق فسره الله تعالى بأنه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

والوصف بالثقوب سبق بيانه.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤١.

وأما وصفه بالطارق «فلأنه يبدو بالليل وكل ما أتاك ليلًا سواء كان كوكبًا أو غيره فهو طارق، فلا يكون الطارق نهارًا»[1]. والمراد ها هنا: «الكوكب البادي بالليل، إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود، وقيل: الطارق النجم الذي يقال له: كوكب الصبح»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢].

تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به، فالاستفهام مستعمل في تعظيم أمره[3].

ووصف النجوم بالطروق يلفت الأنظار لعظيم أمرها حقًا؛ إذ النجوم بكتلها الثقيلة وسرعاتها العالية تتحرك في ظلام دامس حالك دون أن تتصادم أو ترتطم ببعضها البعض، وهذا لا شك يدل على عظمة خالقها، وعظيم تقديره وحفظه، وبهذا يظهر التناسب بين القسم بالطارق والمقسم عليه، وهو قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤].

فالذي يهيمن على تلك النجوم العظيمة التي تسبح في الليل بسرعاتها العالية، ويضبط حركتها كذلك لا يخفى عليه العلم والإحاطة بما تضمره النفوس وتخفيه.

ثالثًا: القسم بالنجوم:

المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى أقسم بأشياء عديدة في كتابه، والله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ «لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره»[4]. والنجوم من الأشياء التي أقسم بها القرآن كثيرًا في غير ما موضع؛ وذلك يدل على شدة دلالتها على عظمة خالقها، وقد تنوع الإقسام بالنجوم فتارة يكون بذواتها، وأخرى بأوصافها، وفيما يلي عرض لهذا:

١. القسم بذات النجوم

أقسم الله جل جلاله بذات النجوم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١].

فها هنا يقسم القرآن بالنجم، فالألف واللام للجنس أي: لا يقصد بهذه الكلمة نجمًا معينًا إنما جنس النجوم، تقول مثلًا: التفاح ذو قيمة غذائية عالية، أي: جنس التفاح. والقسم بالنجم هنا له فائدة جليلة وهي إظهار مدى شدة قدرة الله.

يقول الطاهر ابن عاشور: «والقسم بالنجم لما في خلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٤٠.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٥٢.

(٤) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٩٧.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام:٧٦]»[1].

٢. القسم بوصف أحوال النجوم.

إذا كان الله تعالى أقسم بذات النجوم صراحة فإنه أقسم كذلك ببعض أحوال النجوم وأوصافها، ومن هذه الأوصاف ما يلي:

١. هوي النجوم.

وهذه من أوصاف النجوم التي أقسم الله تعالى بها.

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١].

فها هنا يقسم الباري جل جلاله بالنجم عند هويه، أي: «سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار»[2] ولهذا القسم دلالات عدة، منها:

الأول: التأكيد على تسخير الله: يقول الطاهر ابن عاشور عن سر تقييد القسم بحالة هوي النجم: «تقييد القسم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه تسخير لقدرة الله تعالى»[3].

فالنجم بعدما كان في قمة الارتفاع وذروته يأفل ويغيب، وفي هذا ما يدل على أن خلف هذه الموجودات إله قوي قادر لا يغيب مسخر وقاهر لها تظهر متى شاء؛ وكذلك تأفل متى أراد.

وهكذا يظهر لنا أن القسم بالنجوم حال هويها من مقاصده الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى في خلقه، وعلى عظيم قدرته في تسخير خلقه.

الثاني: التأكيد على صحة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم:

ويظهر ذلك من معرفة المقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

فكأن الله أقسم بالنجم حال هويه؛ للتأكيد على «صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الإلهي»[4] وذلك لأن الله تعالى «لما جعل النجوم زينة للسماء كذلك جعل الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم»[5].

ولا غرو فإن «ظهور النبي صلى الله عليه وسلم -في مكة- كان في ظلمة ليل بهيم، أطبق على العالم بأسره، فكان ظهور دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بالنجم الذي يرى منه المدلجون في الليل هاديًا، إذا هم رفعوا رؤوسهم إلى السماء، ومدوا أبصارهم إليه»[6].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٩٠ بتصرف.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٨ بتصرف.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب

وهكذا يظهر لنا أن من دلالات القسم بالنجم حال هويه التأكيد على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤكد هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧].

فها هنا يقسم تعالى بمواقع النجوم، أي: «مساقطها في مغاربها»[(١)].

والمقسم عليه «هو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم»[(٢)].

٢. الخنوس والكنس.

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦].

وفي القسم بخنس النجوم وكنسها دلالات عدة منها:

الأول: التأكيد على قدرة الله تعالى وربوبيته.

أقسم الله جل جلاله بخنس النجوم وكنسها «لينوه بشأنها من جهة ما في حركاتها من الدلائل على قدرة مصرفها ومقدرها، وإرشاد تلك الحركات إلى ما في كونها من بديع الصنع، وإحكام النظام»[(٣)].

فالنجوم «تزيد على عدة بلايين نجم، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدًا، إن لم يكن مستحيلًا»[(٤)]. فأن تكون النجوم بهذا الضبط وذاك النظام فهذا لا شك من أعظم دلائل قدرة الباري جل جلاله.

الثاني: من دلائل البعث والنشور.

ذكرت السورة في بدايتها انهدام الكون وخرابه، وعودة جميع الخلق إلى الرب تعالى للحساب والثواب والعقاب، وهذا يشير للبعث والنشور، فجاء القسم بخنس النجوم وكنسها؛ ليدل «على قدرة الله تعالى على بعث الموتى من القبور، وعلى إعادة هذه العظام البالية، وإلباسها لباس الحياة من جديد»[(٥)]؛ إذ تنقل النجوم الهائلة ذات الأحجام الكبيرة من حال إلى حال، ومن

١٤/ ٥٨٦.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل ص ٣٣.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٧٣٤.

وجود وظهور إلى عدم وخفاء من أعظم براهين القدرة، فالذي يفعل هذا بالنجوم فيخفيها بعد ظهور ويظهرها بعد خفاء لا يعجزه فعل هذا بالإنسان الضعيف.

رابعًا: النجوم وقيام الساعة:

أخبر الله تعالى عن النجوم -كما سبق معنا- أنها زينة، وجعل زينتها آية من آيات قدرته، ودلائل عظمته، ثم أخبرنا تعالى -أيضًا- أن هذه النجوم يأتي عليها وقت فينمحي ضوؤها، ويذهب نورها، وينقلب حالها، فتتبدد وتتفرق وتضطرب، فتصير مدعاة للخوف والرعب بعدما كانت في الدنيا مدعاة للفرح والسرور والابتهاج.

وهذا الانقلاب في أحوال النجوم جعله الله علامة من علامات يوم القيامة التي تكشف عن مشاهد الرعب والفزع في هذا اليوم العظيم، والتي تبين اختلال النظام الكوني كله آنئذٍ.

وقد جاء هذا المعنى في ثلاث آيات من كتاب الله:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات:٨].

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات:٧].

لينبه أن طمس النجوم من علامات هذا اليوم الذي يلاقون فيه ما يوعدون.

«وطمست أي: ذهب ضوؤها ومحي نورها كطمس الكتاب، يقال: طمس الشيء إذا درس»[١]. فيكون أول أحوال النجوم المؤذنة بقيام الساعة أن يطمس نورها وينمحي.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢].

وفي معنى الانكدار قولان للعلماء:

أحدهما: السقوط والتناثر.

وثانيهما: التغير.

يقول الطبري رحمه الله: «قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢].

يقول: وإذا النجوم تناثرت من السماء فتساقطت، وأصل الانكدار: الانصباب، وقال آخرون: انكدرت: تغيرت»[٢].

«وهذان القولان ليس بينهما تضاد، بل الثاني من لوازم الأول، والمعنى أنها إذا تساقطت كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢].

فإنها تتغير ويذهب ضوؤها»[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢].

والانتثار أيضًا من الأحوال التي تحدث للنجوم يوم القيامة، ومعناه: سقوطها من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٥٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٣٩.
(٣) تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص ٦٤.

مواضعها متفرقة[1]. وأصل النثر: «رميك الشيء متفرقًا»[2]. يقال: «انتثر: تفرق»[3].

وليس بينهما تعارض فالتناثر توضيح لهيئة أو صفة تساقطها أو من لوازمه؛ إذ يلزم من تساقطها تناثرها وتفرقها.

وبعد هذا العرض لمعاني الطمس والانكدار والانتثار نقول:

قد تكون هذه مراحل مختلفة متلاحقة تمر بها النجوم يوم القيامة، تبدأ بطمس نورها، ثم تناثرها متفرقة، وسقوطها على الأرض، يقول الزمخشري: «ويجوز أن يمحق نورها، ثم تنتثر ممحوقة النور»[4].

ويكون الانكدار بيانًا للحال العامة للنجوم يومئذٍ، وهي تغير أحوالها من طمس نورها، وذهاب ضوئها، وتساقطها من جو السماء متناثرة.

وهكذا يظهر لنا كيف أن القرآن ذكر من أحوال النجوم ما هو علامات ودلائل على قيام الساعة، ونسأل الله النجاة من أهوال هذا اليوم.

موضوعات ذات صلة.

الآيات الكونية، الأرض، الجبال، السماء، الشمس، القمر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٧٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٤٦، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢١٩.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ١٣٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٠٠.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٧٨.



عناصر الموضوع

مفهوم النجوى

أولًا: المعنى اللغوي:

النجوى: اسم مصدر مأخوذ من مادة (ن ج و) قال ابن فارس: «النون والجيم والحرف المعتل أصلان، يدل أحدهما على كشط وكشف، والآخر على ستر وإخفاء»[1].

والنجوى: السر بين اثنين، يقال: (ناجيته)، و(تناجوا) و(انتجوا)، وهو(نجي) فلان والجمع (أنجيةٌ)[2].

والنجي: هو المناجي المخاطب للإنسان والمحدث له دون من سواه، ومنه موسى نجي الله[3].

وقد يطلق اسم (النجوى) ويراد به فعل المتناجي، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء:٤٧].

فجعلهم هم (النجوى)، وإنما (النجوى) فعلهم، كما تقول: قوم رضا، وإنما الرضا فعلهم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني في تفسيره: «والنجوى تقال للحديث الذي تفرد به اثنان فصاعدًا أو للقوم المتناجين»[4].

وباعتبار أن النجوى قد تكون في خير، وقد تكون في مقابل ذلك في شر، كما قررته آية النساء عند قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء:١١٤].

فإن التعريف الاصطلاحي لكلمة النجوى هو: المسارة بين اثنين فأكثر في خير أو في شر[5].

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٩٧.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٨، تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٣٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٦١٦. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، رقم ٤٨٣.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٤٨، التفسير الوسيط ٢/ ١١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٢.

(٥) انظر تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٥.

النجوى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نجو) في القرآن الكريم (٨٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢]
الفعل المضارع	٢	﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨]
فعل الأمر	١	﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة:٩]
المصدر	١١	﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه:٦٢]
اسم	١	﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]

وجاءت النجوى في القرآن بمعناها في اللغة، وهو: السر بين اثنين[٢]. وناجيته أي: ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٠٨-١٣٠٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٩.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخلوة:

الخلوة لغة:

«(الخلو):الانفراد، (خلا) به أي: انفرد»[١]، قال صاحب التهذيب: «ويقول الرجل للرجل: اخل معي حتى أكلمك، و(اخلني) حتى أكلمك أي: كن معي خاليًا»[٢].

و(خلا) الشيء من باب سما، و(خلوت) به (خلوةً) و (خلاءً) و (خلا) إليه اجتمع معه في (خلوةٍ)، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤][٣].

قال الزمخشري: «وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه»[٤].

و(خلا) الرجل بصاحبه وإليه ومعه، عن أبي إسحاق (خلوًا وخلاءً وخلوةً) الأخيرة عن اللحياني: اجتمع معه في (خلوة)[٥].

الخلوة اصطلاحًا:

المعنى الذي دل عليه لفظ خلا في بعض معانيه اللغوية، والسياق القرآني الذي جاء فيه، يدلان على أن خلوة أولئك المختلين كانت من أجل الإسرار بكلام لا يحبون أن يطلع عليه أحد من المؤمنين،[٦] فهي كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [طه:٦٢].

الصلة بين الخلوة والنجوى:

اتحدت كلمة خلا مع كلمة النجوى في بعض معانيها في اللغة، واتحدا أكثر حسب السياق القرآني الذي جاءت فيه هذه الكلمة بصيغتيها (خلو) و(خلا).

٢ السر:

السر لغة هو:

ما يكتم في النفس من الحديث، وهو خلاف الإعلان، والجمع الأسرار، يقال: سررته: كتمته[٧].

(١) البحر المحيط ص١٠٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ٢٣٢.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٠، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٩٨.
(٤) الكشاف ١/ ٦٥.
(٥) لسان العرب ١٤/ ٢٣٨.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري ٧/ ١٥١-١٥٢.
(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦٣، المصباح المنير

السر اصطلاحًا هو:

اسم لما يكتم ويخفى في القلوب من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها[(١)].

الصلة بين والسر والنجوى:

النجوى فيها إسرار، فهي صورة من صور السر، فالصلة بينهما صلة عموم وخصوص.

٣ الإخفاء:

الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد[(٢)].

والإخفاء اصطلاحًا هو:

الستر ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها[(٣)].

الصلة بين الإخفاء والنجوى:

الإخفاء أعم، يشمل الحديث وغيره، تقول: أخفيت الدرهم في الثوب. ولا تقول: كتمت ذلك، والنجوى تقال للحديث الذي تفرد به اثنان فصاعدًا أو للقوم المتناجين.

٤ الجهر:

الجهر لغة:

جهرت الشيء إذا كشفته، وجهرته واجتهرته أي: رأيته بلا حجاب بيني وبينه، والجهر العلانية وفي الحديث (وكان عمر رجلًا مجهرًا)[(٤)] أي: صاحب جهرٍ ورفع لصوته، والجهر

في غريب الشرح الكبير للفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

(١) انظر: المفردات ص ٤٠٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، رقم ٤٦٦٢، وأحمد في مسنده، رقم ١٨٩٢٦، ٤/ ٣٢٢.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

هو ما ظهر وهو رفع الصوت يقال: جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها[1].

الجهر اصطلاحًا:

هو «رفع الصوت بحيث يسمع نفسه ومن جاوره»[2].

الصلة بين الجهر والنجوى:

أن الجهر خلاف النجوى، وهو إظهار المعنى للنفس ورفع الصوت به.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٤٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٧١.
(٢) معجم لغة الفقهاء،قلعجي ص١٦٨.



احاطة علم الله بالنجوى

أولًا: علم الله بأحوال المتناجين:

لا يخفى على القارئ للآيات المتعلقة بالنجوى ـ والتي عرضت في المبحث أعلاه ـ أن كلا من الأخبار والأحكام التي جاء لفظ النجوى في سياقها هي تعبير واضح عن علم الله الواسع.

فكل خبر أخبرنا الله تعالى من خلاله عن المتناجين ونجواهم، مع حرصهم الشديد على توخي السر والستر والكتمان؛ ليدل دلالة قاطعة أن من أخبر عن كل تلك الأحداث بتفاصيلها ليعلم كل شيء.

كما أن الحكم لا يمكن أن يكون له واقع إلا إذا علم بأصل القضية، وجوهر المسألة التي سيصدر من أجلها ذلكم الحكم، فكان العلم بكل ذلك شرط لصدور الأحكام المناسبة، والله تعالى قد شرع تلك ما يتعلق بالنجوى من أحكام وهو يعلم أحوال أصحابها، وملابساتهم، ومن ثم فإن كل الأحكام التي تضمنتها آيات النجوى أيضا تدل على واسع علم الله عز وجل.

وقد قرر الله تعالى أنه يعلم بكل المتناجين، وبكل ما يتناجون به فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة:٧].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من شيء، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره، يقول جل ثناؤه: فكيف يخفى عليَّ من كانت هذه صفته؟! أعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم، ثم وصف جل ثناؤه قربه من عباده وسماعه نجواهم، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم، فيتحدثونه سرًا بينهم، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ من خلقه ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يسمع سرهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول: ولا يكون من نجوى خمسة إلا هو سادسهم كذلك ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يقول: ولا أقل من ثلاثة ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من خمسة، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ يقول: في أي موضع ومكان كانوا. وعني بقوله: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بمعنى: أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه»(١).

وهذا ما أجمع عليه السلف من أئمة السنة، قال ابن كثير: «ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء»[1].

وهذه الآية قد جاءت في سياق آية ابتدأها الله تعالى بالعلم واختتمها بالعلم.

قال القرطبي: «﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم ويسمع نجواهم، يدل عليه افتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم»[2].

ليستدل بذلك كله على علمه تعالى بأي متناج وبأي نجوى، مهما أسرها أصحابها، ومهما أخفوها عن غيرهم، ومهما قل عددهم أو كثر، فهو معهم يعلم سرهم ونجواهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة:٧٨].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهرًا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الذي يسرونه في أنفسهم، من الكفر به وبرسوله ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ يقول: ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله، وذكرهم بغير ما ينبغي أن يذكروا به، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلها بهم، وسطوته أن يوقعها بهم، على كفرهم بالله وبرسوله، وعيبهم للإسلام وأهله، فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يقول: ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسهم، مما أكنته نفوسهم، فلم يظهر على جوارحهم الظاهرة، فينهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويزجرهم عن إضمار غير ما يبدونه، وإظهار خلاف ما يعتقدونه»[3].

بل إن الله سبحانه يعلم أكبر من ذلك، وعلى علم بما يخفى عن غيره، فهو تعالى يعلم ما في السماوات وكل ما في الأرض بأدق تفاصيله قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا الله يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٨١.

الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها»[(١)].

ولعل الكفار الذين لا يؤمنون بالله عز وجل ولا بأسمائه ولا بصفاته قد ظنوا أن الله تعالى لا يعلم سرهم ونجواهم، فهم يخفون أسرارهم عن غيرهم من البشر، ويعتقدون أن لا أحد غيرهم يعلم بأمرهم وسرهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨].

فأبطل الله تعالى تصورهم وبين سوء ظنهم وقبح اعتقادهم فقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

قال ابن جرير: «﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ يقول: أم يظن هؤلاء المشركون بالله أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم، وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا.

وقوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم، وأخفوه عن الناس من سر كلامهم، وحفظتنا لديهم، يعني: عندهم يكتبون ما نطقوا به من منطق، وتكلموا به من كلامهم»[(٢)].

وجلى الله هذا العلم ـ علمه الواسع ـ حينما فضح من عادوا إلى التناجي بعد أن نهوا عنه وهم اليهود والمنافقون، وبين أنواع تناجيهم، فوبخهم على تعمد ذلك، وذمهم لرجوعهم إليه، مما يوضح شدة تمردهم وطغيانهم، وإلحاحهم على التناجي، رغم أن الله قد بين لهم أنه يعلم سرهم ونجواهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة:٨].

ثانيًا: علم الله بمقاصد الشيطان من النجوى:

لم يترك الله تعالى أمر النجوى يمر دون أن يذكر ما للشيطان من يد في واقع المتناجين، وما له من تأثير على مشاعر المؤمنين، موضحًا مقصده من أز المنافقين والكفار إلى التناجي، وإن كان المؤمنون وغيرهم لا يعلمون أن الشيطان بوسوسته كان وراء فعل الكافر، وأيضا كان وراء ما حدث للمؤمن من تأثر بفعل نجواهم، وهذا ما بينه الله عز وجل حينما قال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة:١٠].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٣.
(٢) المصدر السابق ٢١/ ٦٤٧.

قال ابن كثير: «أي: إنما النجوى -وهي المسارة- حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه»[1].

ولا شك أن النجوى التي يكون الشيطان سببا فيها، هي ما تكون بالإثم والعدوان، لا التي فيها البر والإحسان، فلا تعم جميع أنواع النجوى، كما قال الفخر الرازي: «الألف واللام في لفظ النجوى لا يمكن أن يكون للاستغراق؛ لأن في النجوى ما يكون من الله ولله، بل المراد منه المعهود السابق وهو النجوى بالإثم والعدوان، والمعنى أن الشيطان يحملهم على أن يقدموا على تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين»[2].

وليس ما يشعر به المؤمن من الحزن قاصر على نجوى المنافقين واليهود، بل إن ما يلقيه الشيطان من الحزن في قلب المؤمن، هو ناتج عن كل نجوى حصلت في حضرة من انعزل الناس دونه يتناجون، بغض النظر عن دين من يتناجى، سواء كان كافرًا أو مؤمنًا؛ لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تناجي اثنين دون الثالث فما رواه عبد الله بن مسعود حينما قال: (**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه**)[3].

فالشيطان بوساوسه حاضر في كل نجوى، إذا كان سيحقق من خلالها ما به يدخل الحزن على المؤمن، فهو بتزيينه لأمر النجوى، وحمل الناس على فعلها يسهل وقوعها، فيجني ثمرة الإيقاع بالمؤمن في الغيظ والحزن؛ مما ينتج عنه التباغض والتنافر، وإن كان مقصد الشيطان من النجوى قد يتعدى ذلك الحزن إلى أغراض أخرى، ليست مقصورة على محاولة إيقاع الحزن في قلوب المؤمنين، يقول ابن عاشور: «لأن الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه؛ ليحزن الذين آمنوا بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلة ليست قيدًا في الحصر فإن للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية»[4].

لذلك فإن إخبار الله تعالى بأحوال المتناجين، وبيانه لمقصد الشيطان من تناجي المتناجين، وما وقع في قلب المؤمنين من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٩٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم ٦٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم ٢١٨٤.
(٤) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٤.

الحزن؛ ليعد دليلًا واضحًا على سعة علمه، وإحاطته بكل شيء ولو كان في كوامن القلوب.

ثالثًا: علم الله بما يشعر به المؤمنون عند تناجي المتناجين:

لقد أخبر الله عز وجل عن تسبب الشيطان في حصول النجوى بتزيين شأنها، وتهوين أمرها، ولم يكتف بذلك إنما تعداه بذكره تعالى لما تحدثه تلك النجوى في قلوب المؤمنين.

فشعور المؤمن بالحزن من تناجي المتناجين قد علمه الله، وإن حاول المؤمن إخفاءه، ولم يستطع أحد إدراكه والتحقق من وقوعه؛ لأنه يتعلق بالشعور الذي مكمنه في القلب، لكن الله علمه فبينه ووضحه وجلاه، وأعطى الاطمئنان لمن وقع في قلبه.

قال تعالى:﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قال الشوكاني في تفسيره: «إنما النجوى -يعني: بالإثم والعدوان ومعصية الرسول -من الشيطان لا من غيره، أي: من تزيينه وتسويله؛ ليحزن الذين آمنوا أي: لأجل أن يوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها في مكيدة يكادون بها، وليس بضارهم شيئا أو: وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئًا من الضرر إلا بإذن الله أي: بمشيئته، وعلى الله فليتوكل المؤمنون أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضونه في جميع شؤونهم، ويستعيذون بالله من الشيطان، ولا يبالون بما يزينه من النجوى»[1].

فالله عز وجل برحمته بالمؤمنين وحبه لهم لم يشأ أن يقع ذلك كله بهم إلا اختبارًا وابتلاءًا لهم؛ حتى يصدقوا في توكلهم على الله، وفي ذلك يقول القرطبي:«﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانًا ولو شاء لصرفه عنه»[2].

فازداد المؤمن يقينًا ألا أحد يمكن أن يضرهم إلا بقدر الله ومشيئته، وليس ما يوسوس لهم به الشيطان وما يقذفه في قلوبهم من الحزن، قال السعدي: «يقول تعالى:﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على

(١) فتح القدير ٥/ ٢٢٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه»[1].

فرفع الله بهذه الآية ما كان يقع في قلوب المؤمنين من الحزن، وبين لهم أن هذا من تزيين الشيطان ومكره السيئ بالكفار، فطمأنهم أن ضرر الشيطان غير لاحق بهم، ومكر الكفار لن يطولهم، وأمرهم بالتوكل عليه والاستعاذة به.

قال ابن عطية: «ثم أخبر تعالى أن الشيطان أو التناجي الذي هو منه ليس بضار أحدًا إلا أن يكون ضر بإذن الله، أي: بأمره وقدره. ثم أمر بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى، وهذا كله يقوي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع منه للمؤمنين خوف»[2].

وهكذا أسدلت هذه الآيات الستارة على ما كان يعانيه المؤمنون من الأحزان؛ بسبب ما كان يقذفه الشيطان في قلوبهم، نتيجة سعيه الحثيث بوساوسه المتواصلة أن يقع التناجي من أعداء هذا الدين ويكثر، ففضح الله أمر إبليس وبين مقصده وغايته، وحدد أعوانه، كما أنه جل وعلا وصف العلاج الناجع للقضاء على ظاهرة تناجي الكفار لإضعاف المسلمين، بإرشادهم إلى وجوب التوكل عليه سبحانه؛ لأنه هو العاصم من كل القواصم، وتنبيههم إلى أن الضرر لن يلحق بهم إلا بمشيئة الله وإذنه، فكبت بهذا البيان الواضح الكفار، وأكد ضعف كيد الشيطان، وطمأن المؤمنين لأنهم أولياء الرحمان.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٦.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٨.

أنواع النجوى

الكثير من النجوى كما بين ذلك الله تعالى في كتابه لا تكون إلا مذمومة، ولا تكون إلا في الشر وسوء الصنيع، لكنه تعالى استثنى من ذلك الكثير نجوى أخرى محمودة، رغب فيها الله عز وجل وأرشد إليها، وجعل الأجر الكبير في ابتغائها.

ففي سورة النساء قوله سبحانه: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[النساء:١١٤].

بين الله تعالى أن الكثير من النجوى لا تكون إلا في الشر، ومن ثم فإن كثيرًا من المتناجين يتناجون فيما بينهم بما فيه شر أو ما لا فائدة منه؛ لأن نفي الخير عن نجواهم لا يعني فقط أن تناجيهم لا يكون إلا شرًا، بل يشمل أيضًا ما لا نفع فيه ولا ضرر منه على غيرهم، وإن كان يلحق ضررًا بهم هم أنفسهم من جهة تضييعهم لأوقاتهم وأعمارهم فيما لا نفع فيه.

وقريبًا من هذا المعنى يقول السعدي في تفسيره: «أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه»[١].

فنفي الخيرية عن كثير من تناجي المتناجين يشمل ما فيه تدبير للشر، وكل ما لا منفعة شرعية ترجى منه، وإن لم يكن فيه ضرر يمكن أن يمس الغير، فإن فيه تفويتًا للخير، وهذا ضرر في حد ذاته يكون على العبد لا له.

قال ابن عاشور: «ومعنى لا خير أنه أشر، بناء على المتعارف في نفي الشيء أن يراد به إثبات نقيضه؛ لعدم الاعتداد بالواسطة، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢].

ولأن مقام التشريع إنما هو بيان الخير والشر.

وقد نفى الخير عن كثير من نجواهم أو متناجيهم، فعلم من مفهوم الصفة أن قليلًا من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تناج فيما فيه نفع»[٢].

فعلم من هذا أن النجوى على نوعين: محمودة ومذمومة.

أولًا: النجوى المحمودة:

بين الله تعالى من خلال آيات سورة النساء وسورة المجادلة - التي لها علاقة بموضوعنا - أن النجوى لا تكون محمودة إلا إذا كانت في خمسة أمور:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
(٢) التحرير والتنوير ٥/ ١٩٩.

١. أن تكون في الأمر بالصدقة.
٢. أن تكون في معروف.
٣. أن تكون للإصلاح بين الناس.
٤. أن تكون بالبر.
٥. أن تكون بالتقوى.

قال الرازي عند تفسيره لآية النساء: «لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا ما كان من أعمال الخير»[١].

فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية[٢].

وبتفصيل أكثر قال ابن العربي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

هذه الآية آية بكر لم يبلغني عن أحد فيها ذكر، والذي عندي فيها أن الله تعالى أمر عباده بأمرين عظيمين: أحدهما: الإخلاص، وهو أن يستوي ظاهر المرء وباطنه. والثاني: النصيحة لكتاب الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم. فالنجوى خلاف هذين الأصلين، وبعد هذا فلم يكن بد للخلق من أمر يختصون به في أنفسهم، ويخص به بعضهم بعضًا، فرخص في ذلك بصفة الأمر بالمعروف، والحث على الصدقة، والسعي في إصلاح ذات البين»[٣].

والمقصود من الأمر في الآية هو الحث.

قال البغوي في تفسيره ومعنى الآية: «لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم إلا من أمر بصدقة أي: حث عليها»[٤].

أما المراد بالصدقة فقد تنوعت تفاسير المفسرين بين مضيق وموسع.

قال الشوكاني في تفسيره: « قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ الظاهر أنها صدقة التطوع، وقيل: إنها صدقة الفرض»[٥].

وجزم أبو حيان حينما قال: «والصدقة تشمل الفرض والتطوع»[٦].

وذهب السعدي إلى أن المراد بالصدقة أوسع من قصرها على مجرد الفرض أو التطوع، حيث جعلها شاملة لكل ما يسمى صدقة في عرف الشرع، فقال رحمه الله: «ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة،**

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٧.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٢١٨.
(٣) أحكام القرآن ١/ ٦٢٦ـ٦٢٧.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠٠.
(٥) فتح القدير ١/ ٥٩٤.
(٦) البحر المحيط ٤/ ٦٥.



ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة)[١].

وبين القاسمي في تفسيره السر في إباحة التناجي بالأمر بالصدقة فقال: «﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر، بخفية عن الحاضرين، بصدقة ليعطيها سرًا، يستر به عار المتصدق عليه»[٢].

وبالنسبة للمعروف فقد عرفه البغوي بقوله: «أو معروف أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها»[٣].

وصحح القرطبي قول البغوي فقال في تفسيره: «والمعروف لفظ يعم أعمال البر كلها. وقال مقاتل: المعروف هنا الفرض، والأول أصح. وقال صلى الله عليه وسلم: (كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق)»[٤].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٦.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٢٧.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٣.
والحديث أخرجه أحمد في مسنده، مسند جابر، رقم ١٤٧٠٩، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في طلاقة الوجه، رقم ١٩٧٠.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم ١٢٨.

ووسع العيني في عمدة القاري في تعريف المعروف فقال: «قوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله عز وجل، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات، وهو من الصفات الغالبة، أي: أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه»[٥].

واشترط الماوردي ـ كما نقل عنه القرطبي في تفسيره ـ لفعل المعروف لمن يريد الامتثال لأمر الله شروطًا فقال: «فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه، وليعلم أنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة فاتت فأعقبت ندمًا، ومعولٍ على مكنةٍ زالت فأورثت خجلًا، كما قال الشاعر[٦]:

ما زلت أسمع كم من واثق خجلٍ
حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ثم قال القرطبي: «ومن شرط المعروف ترك الامتنان به، وترك الإعجاب بفعله، لما فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر»[٧].

ونبه السعدي إلى أن الأمر بالمعروف إذا أطلق دخل فيه النهي عن المنكر فقال:

(٥) عمدة القاري ١٣/ ٢٦٥.
(٦) انظر: نهاية الأرب ٣/ ١٠٧، التمثيل والمحاضرة ص٢٨.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٣.

«وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي»[1].

كما أوضح القاسمي في تفسيره العلة من الأمر بستر الأمر بالمعروف فقال: «وسر التناجي فيه أن لا يأنف المأمور عن قبوله لو جهر به»[2].

أما الأمر بالإصلاح بين الناس فيعني به: الإصلاح بين المتخاصمين؛ ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع، على ما أذن الله فيه وأمر به[3].

وهذا الإصلاح عام في الدماء والأعراض والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه[4].

حتى في الأديان كما قال السعدي في تفسيره واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:٩].

ثم بين رحمه الله فضل من يمشي في الإصلاح بين الناس فقال: «قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله» كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء[5].

وحاول صاحب أضواء البيان أن يبين المراد بالناس في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فقال: «لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا؟

ولكنه أشار في مواضع أخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا المسلمون خاصة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٢٧.
(٣) المصدر السابق.
وانظر: الموسوعة الكويتية ٥/ ٦٢.
(٤) فتح القدير ١/ ٥٩٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.

بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]»[١].

وأما الثواب على تلك الخصال المستثناة من النجوى المنهي عنها، فخص بمن فعله تقربًا إلى الله.

يقول ابن رجب: «وأما الثواب عليه من الله، فخصه بمن فعله ابتغاء مرضاة الله، وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة والإصلاح بين الناس وغيرها خيرًا، وإن لم يبتغ به وجه الله؛ لما يترتب على ذلك من النفع المتعدي، فيحصل به للناس إحسان وخير، وأما بالنسبة إلى الأمر فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيرًا له، وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له، ولا ثواب له عليه، وهذا بخلاف من صام وصلى وذكر الله، يقصد بذلك عرض الدنيا، فإنه لا خير له فيه بالكلية؛ لأنه لا نفع في ذلك لصاحبه لما يترتب عليه من الإثم فيه، ولا لغيره لأنه لا يتعدى نفعه إلى أحد، اللهم إلا أن يحصل لأحد به اقتداء في ذلك»[٢].

وقال ابن عبد البر في التمهيد: «فإصلاحه فيما بينه وبين الناس أفضل إذا فعل ذلك لله، وكراهة أذى المسلمين، وهو أولى به من أن يتعرض لعداوة صاحبه وبغضته، فإن البغضة حالقة الدين»[٣].

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم؛ وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين؛ وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل[٤].

وأما الحكمة من وصف الأجر بالعظم فقال البيضاوي: «تنبيهًا على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا»[٥].

وخص الله تعالى بالذكر الصدقة والإصلاح من المعروف وإن كان المعروف لفظًا يعم الصدقة والإصلاح؛ اهتمامًا بهما؛ إذ هما عظيما الغناء في مصالح العباد[٦].

وهنا تساؤل طرحه الراغب الأصفهاني جدير بالذكر فقال: «فإن قيل: فهاهنا أفعال أخر تحسن فلم خص هذه الثلاثة؟

قيل: هذه الثلاثة متضمنة للأفعال الحسنة كلها؛ وذلك أنه نبه بالصدقة على الأفعال الواجبة، وخص الصدقة لكونها أكثر نفعًا في إيصال الخير إلى الغير، ونبه بالمعروف على النوافل التي هي الإحسان والتفضل، وبالإصلاح بين الناس على سياستهم، وما يؤدي إلى نظم كلهم وإيقاع الألفة بينهم، ذلك أفضل الأفعال؛ لقول النبي صلى الله

(١) أضواء البيان ١/ ٣٠٦.
(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٦٧.
(٣) التمهيد ١٦/ ٢٥١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩٦.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ١١٢.

عليه وسلم: (**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة، قيل: بلى يا رسول الله، قال: صلاح ذات البين**)[1].

وإن كانت آية النساء هذه قد قيدت جواز النجوى بما يكون من الأمر بالصدقة، أو الأمر بالمعروف، أو الإصلاح بين الناس، إلا أن آية سورة المجادلة أطلقت ذلك، وجعلت النجوى المباح فعلها تشمل جميع أنواع البر، وكل ما فيه تقوى الله تعالى.

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «فأمر الله تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله ولعباده، والتقوى، وهي هنا: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه»[2].

وقد ذهب الماتريدي إلى أن البر والتقوى وإن اختلفا في العبارة فهما في الحقيقة يمثلان شيئًا واحدًا، قال في تفسيره: «وهما أي: البر والتقوى في العبارة مختلفان وفي الحقيقة واحد؛ لأنه إذا اتقى كل شر ومعصية عمل كل خير وبر، وإذا كسب كل خير وبر اتقى كل معصية وشر»[3].

وهذا استنباط جيد، وفهم رائق يدل على وجود علاقة تلازمية بين اللفظين، وإن كان كل لفظ له معنى خاص به وله أعمال تتحقق به.

وجعل الواحدي البر شاملًا لكل طاعة، والتقوى شاملة لترك كل معصية، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المجادلة:٩][4].

أما الرازي فقد جعل البر المأمور به في مقابل ما ذكره الله من العدوان المنهي عنه، والتقوى ما يقي من النار حينما قال: «وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان، وبالتقوى وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي»[5].

وهكذا حددت كل من آية سورة النساء وآية سورة المجادلة أنواعًا من النجوى المحمودة، التي يستطيع من خلالها المتناجي المؤمن أن يتناجى، دون أن يرتكب محذورًا شرعيًا، إن هو تقيد بما شرعه الله تعالى له في هذين الآيتين.

ثانيًا: النجوى المذمومة:

عرفنا مما مضى أن الكثير من النجوى إنها محرمة؛ لما فيها من الشر الذي جبلت الأنفس على إخفائه والخوف من إظهاره، فكانت بذلك مذمومة غير محمودة.

قال الراغب الأصفهاني في تفسيره:

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٥٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٥.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ١٣٨.
(٤) التفسير الوسيط ٤/ ٢٦٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٩٢.

«ولما كان التناجي مكروهًا في الأصل حتى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة:١٠] صار ذلك من الأفعال التي تقبح ما لم يقصد به وجه محمود كالمكر والخديعة، فبين تعالى أن النجوى لا تحسن ما لم تخص بها هذه الوجوه المستثناه»[١].

وهي النجوى المحرمة من سوء أدب المجالسة التي نهى الله عنها وأدب عباده بها[٢].

قال صاحب التحرير والتنوير في معرض تفسيره لآية النجوى من سورة النساء: «وعلى هذا فالمقصود من الآية تربية اجتماعية دعت إليها المناسبة، فإن شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة؛ لأن الصراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا في أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث، فمن يناجي في غير تلك الأحوال رمي بأن شأنه ذميم، وحديثه فيما يستحيي من إظهاره، كما قال صالح بن عبدالقدوس:

السترُ دون الفاحشات ولا
يغشاك دون الخير من ستر

وقد نهى الله المسلمين عن النجوى غير مرة...» إلى أن قال: «فعلمنا من ذلك أنها لا تغلب إلا على أهل الريب والشبهات، بحيث لا تصير دأبا إلا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النجوى..»[٣].

ونحن إذا ما تأملنا آية النساء وجدناها تثبت أصلًا وتستثني فرعًا، فالأصل الذي تثبته هو أن النجوى محرمة مذمومة باعتبار الأكثر الغالب، والفرع الذي تستثنيه ـ الأقل ـ هو النجوى المحمودة المرغوب فيها والتي تكون في مجال الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس والبر والتقوى.

ومن ثم فإن الأفعال المذمومة المتناجى بها في النجوى المحرمة كثيرة لا يمكن حصرها أو إحصاؤها.

والمهم في نظري هو ما احتوت عليه آية المجادلة، بحيث إنها جمعت وحصرت كل خلال الشر في النجوى غير المستثناة في آية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة:٩].

فالإثم والعدوان ومعصية الرسول مما حرم الله التناجي به.

وذكر ابن الجوزي في زاد المسير وجهين في معنى تناجيهم بالإثم والعدوان، أحدهما: «يتناجون بما يسوء المسلمين، فذلك الإثم

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٤٩.
(٢) بيان المعاني، العاني ٦/ ٢٠٦.
(٣) التحرير والتنوير ٥/ ١٩٨.

والعدوان، ويوصي بعضهم بعضًا بمعصية الرسول. والثاني: يتناجون بعد نهي الرسول لهم، ذلك هو الإثم والعدوان ومعصية الرسول»[1].

فالكذب والغيبة والنميمة والبهتان، وغيرها من الذنوب التي يمكن أن يقع التناجي بها تجمعه كلمة الإثم، وكل أنواع الظلم والاعتداء على الغير يدخل في كلمة العدوان، وكل مخالفة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونهيه تحتويها كلمة معصية الرسول، فكانت بذلك هذه الآية جامعة لكل خلال الشر المتناجى به.

وإن كان العديد من المفسرين قد ذهب إلى أن المنافقين هم المرادون بهذه الآية[2]، إلا أن منهم من صرف النهي إلى المؤمنين مثل: الماتريدي في تفسيره حينما قال: «إن أهل التأويل صرفوا الآية إلى المنافقين، وعندنا يحتمل صرف النهي إلى المؤمنين عن التناجي بمثل ما تناج أولئك، أي: لا تتناجوا أنتم يا أهل الإيمان فيهم بالإثم والعدوان كما تناجوا فيكم، يقول: لا تجازوهم بالذي فعلوا هم بكم، ولكن تناجوا فيهم بالبر والتقوى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢].

نهى المؤمنين أن يجازوهم جزاء الاعتداء الذي كان منهم من صدهم عن المسجد الحرام؛ بل أمرهم بالتعاون على البر والتقوى، قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

فعلى ذلك يحتمل هذا، والله أعلم»[3]

كما ذكر رحمه الله معنى آخر محتملًا للآية فقال: «وجائز أن يكون في المؤمنين حقيقة على الابتداء؛ نهيا منه لهم، يقول: إذا تناجيتم فلا تتناجوا فيما يؤثمكم ويحملكم على العدوان: على المجاوزة عن الحد، ومعصية الرسول فيما يأمركم وينهاكم، ﴿وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ يحتمل كل أنواع الخير، وأما التقوى فهو كل ما يقون به أنفسهم عن النار، وقد تقدم ذكره»[4].

وفي الحكمة من ترتيب هذه الأمور التي نهى الله تعالى المؤمنين عنها.

يقول أبو حيان: « ثم نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار، وبدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، إذ هي ظلامات العباد، ثم ترقى إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعن على المنافقين، إذ كان تناجيهم في ذلك»[5].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٤٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٤٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٩١، معاني القرآن، الزجاج ٥/ ١٣٧.

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٥٦٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) البحر المحيط ١٠/ ١٢٦.

ضوابط النجوى

أشار القرآن الكريم إلى أن الكثير من النجوى لا خير فيها ممنوعة غير جائزة، ولجوازها ضوابط لم يغفلها الشرع الحكيم، بل ذكرها وجعلها مستثناة من النجوى الممنوعة.

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

[النساء:١١٤].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

[المجادلة:٩-١٠].

ومن الضوابط التي أشارت إليها الآيات الكريمات:

- أن يعلم المؤمن ويعتقد جازمًا أن الكثير من النجوى ممنوع مرغوب عنه، فلا يلجأ إليها ويعمد إلى فعلها إلا إذا كانت هناك مصلحة شرعية.
- أن تكون النجوى في طاعة الله.
- أن يبتغي المسلم من وراء نجواه مرضاة ربه عز وجل، مبتعدًا بذلك عن الرياء والسمعة.
- أمر الله تعالى للمؤمن ألا يتناجى إلا إذا دعت الضرورة لذلك.
- ألا يتشبه المؤمن باليهود والمنافقين عند تناجيه. قال النسفي في تفسيره: «والظاهر أنه خطاب للمؤمنين ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم فلا تشبهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشر»[1].
- ألا يتناجى المؤمن بما فيه إثم أو عدوان أو معصية الرسول.
- أن يتناجى المؤمن بالبر والتقوى.
- أن يتقي المؤمن ربه عز وجل ولا يفعل باليهود والمنافقين مثل ما فعلوا هم به أو بغيره من المؤمنين.
- أن يتوكل المؤمن على ربه ويكل أمره إليه، ولا يلتفت لما يتناجى به أعداء الإسلام.
- أن يوقن المؤمن أن كل ما يتناجى به المخالفون لأمر الله هو من وساوس الشيطان وتزيينه لهم.
- أن يعلم المؤمن أن مقصد الشيطان من وقوع التناجي بين الكفار هو إلقاء الحزن في قلوب المؤمنين.

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٤٨.

- أن يتيقن المؤمن أن التوكل على الله يبطل مقصد الشيطان ويبطله.
- أن يتذكر المؤمن بأنه سيحشر بعد موته، ويقف أمام الله ليجازيه على إحسانه إحسانًا، إذا ما هو امتثل لأمر الله وتناجى بم هو خير. وأن اليهود والمنافقين المتناجين بالشر سيحشرون أيضا ليجزيهم الله أسوأ ما عملوا.
- أن يعلم المؤمن أن الضر المتوقع حصوله من تناجي أولئك القوم لن يلحقه منه شيء إلا بإذن الله، بقضائه وقدره سبحانه.

أحكام النجوى

إن المتأمل في الآيات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم والمتعلقة بموضوع النجوى، يلاحظ أنها ركزت فقط على جانب الأحكام المتناجى فيها، دون أن تتحدث عن أحكام المتناجين.

وإذا ما بحثنا في السنة فإننا سنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تولى بيان ذلك؛ امتثالا منه عليه الصلاة وأزكى التسليم لأمر الله حين خاطبه ربه قائلًا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

لذلك ومن هذا المنطلق يمكن أن نقسم مبحث أحكام النجوى إلى قسمين: قسم يتعلق بأحكام الأمور المتناجى فيها، وآخر يتعلق بأحكام المتناجين، إلا أن القسم الأول هو من له علاقة بموضوع البحث لصلته الوثيقة بالقرآن؛ لذلك سنقتصر عليه دون الآخر.

والنجوى على نوعين محمودة ومذمومة تبعًا للأمور المتناجى فيها، والمحمود بالنسبة للأحكام الشرعية إما أن يكون واجبًا أو مستحبًا أو مباحًا، والمذموم منها إما أن يكون حرامًا أو مكروهًا؛ لذلك فإن النجوى في الحكم الشرعي الفقهي تعتريها الأحكام الشرعية الخمسة، وهي:

١. النجوى الواجبة.

تكون النجوى واجبة إذا علم أن في إفشاء الأمر المتناجى فيه مضرة تلحق الغير، أو علم أن في إظهارها تفويتًا لمنفعة عامة أو خاصة، وتيقن المتناجون ألا مناص لهم من النجوى لجلب المصالح ودرء المفاسد، أو علم أن أمرًا واجبًا من أمور الشرع لا سبيل إليه إلا بالنجوى؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٢. النجوى المستحبة أو المندوبة.

هي النجوى التي تكون وسيلة لتحقيق أعمال البر والإحسان المتطوع بها لوجه الله، وعلم أن في إظهارها تضييعًا لأعمال الخير، وهروبًا من الرياء والسمعة.

وكل من النجوى الواجبة والمستحبة وحتى المباحة يشترط لجوازها عدم دخول الحزن على الآخرين. قال القرطبي: «وظاهر حديث ابن مسعود (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه) يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به»[(١)].

٣. النجوى المحرمة.

هي النجوى التي تكون سببًا لإلحاق الأذى بالآخرين أو فتحًا لباب الفساد أو إشاعة للفواحش، كالتناجي بالنميمة أو الغيبة، أو الكذب أو البهتان، أو الاستهزاء أو السخرية من الآخرين، أو محاولة المكر والكيد بهم، أوفيها حكاية المعاصي.

قال الصنعاني: «واعلم أن فضول الكلام لا تنحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وآفاته لا تنحصر فعد منها الخوض في الباطل، وهو الحكاية للمعاصي من مخالطة النساء ومجالس الخمر ومواقف الفساد وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومواسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه، فهذا حرام. ومنها الغيبة والنميمة وكفى بها هلاكًا في الدين ومنها المراء، والمجادلة، والمزاح. ومنها الخصومة، والسب، والفحش، وبذاءة اللسان، والاستهزاء بالناس والسخرية، والكذب»[(٢)].

٤. النجوى المكروهة.

هي التي لا منفعة منها ولا ضرر فيها على الغير؛ وإنما تكون سببًا في إهدار الوقت وتضييع الأعمار فيما لا فائدة ترجى منه، كالقيل والقال وكثرة السؤال وغيرها كثير.

٥. النجوى المباحة.

هي ما لم يكن فيها أي شيء مما سبق في الأحكام الأخرى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

(٢) سبل السلام ٢/ ٦٥٤.

آثار النجوى على المجتمع

رأينا آنفا أن الله تعالى نهى عن التناجي؛ لما فيه من إلحاق الضرر بالغير والتسبب في إذايته، وجعل الله النجوى في الكثير منها شرا لا خير فيه؛ لما تحمله في حقيقة أمرها زيادة على ما ذكرنا من إهدار للوقت وتضييع للجهود فيما لا منفعة ترجى منه. إلا أن الله تعالى استثنى من تلك النجوى المنهي عنها نجوى أخرى تماثل في شكلها وتخالف في مضمونها تناجي المخالفين لأمر الله، فكانت بذلك نجوى محمودة، ولها منافع عند الحرص على تطبيقها، ومن ثم سوف يحصل من خلال الائتمار بها آثار محمودة يعود نفعها على الفرد والمجتمع.

أولًا: الآثار المحمودة:

ولنبدأ بآثار النجوى المحمودة على المجتمع ثم نثني بآثارها المذمومة.

لقد حدد الله عز وجل في كتابه العزيز الأمور التي يمكن للمسلم أن يتناجى فيها كما بين النبي صلى الله عليه وسلم كيفية وطريقة التناجي فيها.

قال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[النساء: ١١٤].

فنحن نلاحظ من خلال الاستثناء الموجود في الآية عدة أمور:

أولًا: إن الحث على الصدقة والترغيب فيها سواء كانت بمعناها الخاص أو بمعناها العام، له آثار جليلة: فبها تسد حاجات المجتمع ويتقلص بها عدد الفقراء والمحتاجين، وتنمحي بها مظاهر التسول والتشرد التي إن عمت مجتمعًا حكمت عليه بالتفكك والانحلال، فكان الإنفاق على الغير بطريق النجوى حفاظًا على المروءات وقضاء للحاجات وستر للعورات وسد للثغرات، ورفع للمشقة عن اليتامى والأرامل والمرضى والضعفاء، في صور حضارية تدل على الوحدة، وتزكي أواصر المحبة والأخوة، وتظهر التماسك والتعاطف والتلاحم والتراحم، وتقضي على البطالة والتشرد، وتخفف على الدولة أعباء عظيمة وتقيها أخطارًا جسيمة.

وثانيها: إن الترغيب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له آثار عظيمة: فبهما يصلح المجتمع، ويقوم الاعوجاج، ويسد الخلل، وتحفظ الأعراض، ويشاع الخير ويقضى على الفواحش، وتختفي مظاهر الفسوق والعصيان، وتظهر الفضائل وتقمع الرذائل، وتتحقق الولاية بين المؤمنين، ويقوى الإيمان وتتآلف القلوب، حتى تصبح على قلب رجل واحد، وتتلاشى مظاهر العصبية، وتضمحل أسباب الحمية، وتندثر الأهواء، ويحكم الشرع، ويسود

العدل، وتصفو الخواطر، وتطمئن النفوس وتحيى الضمائر، وتشتد العزائم، وترتفع الهمم، ويصبح المجتمع كله عبارة عن جسد واحد وكيان قائم له رادع ووازع؛ حتى يقوم الاعوجاج ويصلح الخلل بلطف وروية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [التوبة:٧١].

وهذا ما أرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال: (**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**)[١].

أما ثالثها: فهو فعل كل ما من شأنه أن يصلح ذات البين بين المتخاصمين والمتنازعين، ومن آثار ذلك: بقاء الود والمحبة والالتحام قائمًا بين أفراد المجتمع؛ لأن من عادة المنازعات والخصومات إحداث الشقاق والشحناء، وما يتبع ذلك من تفكك بين الأفراد، فكان في التناجي لإصلاح ذات البين بين المسلمين قطع للقيل والقال، وإيقاف لهوى النفوس في استطالتها للفوز بسمعة القوة، ومنع المتخاصمين من التمادي في الخلاف، وتقليل المراجعين للمحاكم؛ فتقل بذلك نفقة الدولة على قضايا المتنازعين، فتنشر المحبة ويرجع الوئام؛ لأنه وكما هو معلوم كلما طالت الخصومة بين المتخاصمين وما تحدثه من جروح نفسية غائرة في الصدور كلما كان تحقيق التآلف بينهم صعبًا إلى حد يمكن ألا يتصالح المتخاصمون، مما يكون سببًا في قطع الأرحام وتفكك الأسر وبروز ظواهر اجتماعية سلبية.

كما يجب ألا ننسى أن فيه أفراد من المجتمع يكون لديهم قوة اجتماعية تفوق بكثير قوة القضاء؛ إذ أنهم حينما يتوسطون في حل المنازعات بين المتخاصمين مع ما لديهم من سمعة ووجاهة ومحبة الناس لهم يفلحون في الغالب في حل المنازعات؛ بل الأهم من ذلك سعيهم الحثيث ألا يبقى هناك أي غل في قلوب المتخاصمين؛ فتندثر العداوات وتختفي وتحل محلها الأخوة بمعناها الشمولي؛ فتقل الجرائم التي تكون نسبة كبيرة منها بسبب انتقام بعض المتنازعين من بعض، فتسود الطمأنينة وتحل السعادة وينتشر الأمن وتتحقق الأخوة ويزداد ترابط المجتمع مما يزيد من هيبة الدولة وقوتها، ويعطي نظرة إيجابية على المجتمع المسلم، مما قد يكون سبيلًا وسببًا لدخول كثير من الناس في دين الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رقم ٧٨.

ثانيًا: الآثار المذمومة:

بسبب إمكانية إلحاق الضرر بالغير الذي هو سعي من الشيطان ليوقعه بين أفراد المجتمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

حرم الله الكثير من النجوى من خلال قوله تعالى: ﴿۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

ومن آثار ذلك وقوع الحزن في قلوب المؤمنين؛ مما يجعل باب سوء الظن بالغير يفتح على مصراعيه؛ لتتوالى بعد ذلك الأمراض الاجتماعية بالظهور: كالحقد والكراهية وانعدام الثقة وشيوع الغيبة والنميمة وغيرها، كل هذا بسبب رؤية فعل من يتناجى دون معرفة حقيقة ما يتناجى به، أما لو أردنا أن نذكر الأمور المتناجى بها وهي التي أطلق عليها الله عز وجل صفة الشر حينما قال: ﴿۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ [النساء: ١١٤] فسيكون الأمر أكثر سوءًا وأشد بلاء.

وما نهي الله عز وجل للمؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول إلا لعلمه جل وعلا بخطر ذلك على الأمة أجمع.

فالتناجي بالإثم يدخل فيه كما رأينا سابقًا كل ذنب جعل موضوعًا للنجوى؛ فيتجرأ الناس بعد اتفاقهم وتدبيرهم على فعل المخالفات وارتكاب المحرمات، مما سيؤدي إلى إشاعة الفواحش وانتشار الرذائل وتساهل الناس في ارتكاب المعاصي.

وما إن يقع ذلك حتى ترى قلة أو انعدام من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيقمع الحق ويتقوى الباطل، ويتصدى أهل الزيغ والأهواء ليلبسوا على الناس أمور دينهم ودنياهم، بدعوتهم إلى التحرر زعموا، وما يريدون من وراء ذلك إلا أن ينفلت الناس من اتخاذ دين الإسلام منهجا لحياتهم.

أما التناجي بالعدوان الذي هو الظلم فسيجعل المجتمع يعيش في الفوضى والخوف؛ فينعدم الأمن وتكثر الجرائم، ويضيع العدل، ويشيع الزور، ويحكم الجور، وتتناول الرشوة، وتنعدم الثقة، ويتهم البريء، ويبرأ المجرم، ويتجرأ على محارم الله، وتغصب الحقوق، ويظهر التزوير، وتضيع الأمانة، ويكثر الفحش في الكلام؛ فيصبح السب والشتم شعارًا يرفع لواؤه عند كل خصومة أو خلاف؛ لأن كل هذه الجرائم الاجتماعية نواتها وأساسها قد وجد حينما تناجى المتناجون بإثم وشر، فهي في بدايتها لا تعدو أن تكون كلامًا في السر بين اثنين أو أكثر، إلا أنها سرعان ما

تصبح تطبيقًا على أرض واقع حياة الناس.

أما التناجي بمعصية الرسول، فهو وإن كان لا يتصور وقوعه من المؤمن؛ لأنه في الأصل هو من أفعال المنافقين، إلا أن ضعف الإيمان قد يدفع كثيرًا من الناس إلى الاتفاق على تعمد مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بشبه متعددة، فينتج عن ذلك ظهور مخالفات شرعية في المجتمع، لم يكن يتصور المسلم أن يراها على أرض واقع المسلمين، كحلق اللحى والتبرج والسفور، والتشبه الواضح بغير المسلمين في مأكلهم ومشربهم ومختلف شؤون حياتهم، وظهور بين الفينة والأخرى من يجتمعون في الساحات العامة؛ ليتعمدوا هتك حرمة شهر الصيام بالأكل في رابعة النهار من غير عذر شرعي، اللهم إلا دعوتهم أنهم أحرار في أن يصوموا أو لا يصوموا زعموا.

إن شيوع تعمد معصية الرسول صلى الله عليه وسلم جعل كل من يستقيم على هدي محمد عليه الصلاة والسلام في هذا الزمان غريبًا بين أهله وذويه، فانقسم المجتمع إلى قسمين: قسم متبع لهدي الحبيب وهم قلة، وقسم آخر يعصي محمدًا صلى الله عليه وسلم وهم الكثرة.

موضوعات ذات صلة

الإصلاح، الحزن، السر، العلاقات الاجتماعية، العلن، الكتمان، المعروف